سامي الساعدي

ليالي أبو غريب

أحد عشر عاماً في زنزانات صدام

الناشر: مؤسسة الشهداء
الطبعة الأولى – 2009

الكتـــاب.....ليـــالي أبـــو غريـــب

المؤلــف.....ســامي الســاعدي

الناشـــر..... مؤسســـة الشـــهداء

الطبعة..... الأولى- 2009

لـيـالـي أبـو غـريـب

أحد عشر عاماً في زنزانات صدام

(وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ)
(سورة البروج:8)

قد يقتلون الأزهار كلها.. لكنهم لن يمنعوا حلول الربيع.
بابلو نيرودا

إن الدرس الوحيد الذي تعلمته الحكومة والشعب من مطالعة التاريخ
هو أنهم لم يتعلموا شيئاً!
هيجل

إهداء

إلى كلَّ من عانق أعواد المشانق..
وإلى كل من تلقى الرصاص بصدره..
أو دُفن حيّاً...
ولم تزل بقايا حلمه الكبير تتراءى لناظريه
من أفقٍ بعيد أنّ الحرية تعم بلاد الرافدين..
إلى شهداء وطني الحبيب...العراق..
وجميع أحراره أهدي هذا الكتاب.

شكر وتقدير

للأخ الأديب الأستاذ جبار عبود مهودر؛ لما نفعني به من توجيهات وتسديدات ، وإثارة ذكريات عالم السدود والقيود . . . كذلك شكري وتقديري للأخ عبد الرحمن الخزعلي؛ لما بذله من جهود مشكورة لتصميم ،و إخراج الكتاب.

كلمة المؤسسة

هذا الكتاب

هذه صفحات جمعتها من أوراقي المتناثرة.. التي بدأت بتدوينها في المنافي.. منذ عام 1993م في مدينة الخفاجية ثم في مدينة قم.

بعد هجرتي من (عراق صدام حسين) وبطشه.. حملتها معي في المنافي مروراً بشمال العراق.. سليمانية.. أربيل.. شقلاوة.. دهوك.. زاخو، ثم قامشلي سورية.. فدمشق وبيروت.. وأخيراً كندا..ثم عدت بها إلى العراق.

حملتها معي وأنا أتسلق الجبال الشاهقة سيراً على الأقدام.. وأقطع الفيافي سالكاً الدروب الوعرة.

عبرت بها بحاراً.. ومحيطات.. وقارات.. فكانت شاهداً على مآسٍ أخر.. ومغامرات ومخاطر حدقت بي.. لعل بعضها لا يقل تعاسةً عن السجن ومصائبه.. حيث وجع الغربة.. والضياع.. والخذلان.. والتآمر.

حاولت طبعها مراراً ولم أفلح.. تارة: امتناع دور النشر التي لم تجرؤ على طبع مذكرات سجين معذب في سجون صدام حسين!

وتارة أخرى: يمنعني ما أخشاه على رهائني في العراق.. بعد أن لاحقني تهديد ووعيد (رجال أمن صدام).. أو خشية أن يتضرر أحد ممَن ورد إسمه فيها.، حتى ختمها صاحب إحدى دور النشر في بيروت ليجيبني على سؤالي: لماذا لا تطبعها؟: إبعد عن الشر وغنِّ له.

۞ ۞

والآن آن أوانها لأذيعها بين الناس.. لتكون شهادة بيضاء على أيام سوداء حلت ببلاد الرافدين.. فأفسدت هواءه.. ولوثت مياهه.. وهدرت ثرواته.. وقتلت رجاله.. ورمّلت نساءه.. ويتمت أطفاله.. وخربت دياره.. وعمّرت قبوره.

۞ ۞

وبينما كنت أدوّن هذه السطور.. هناك سؤال يبرز بإلحاح ويفغر فاه كأنه ثعبان: ما الأسباب التي جعلتني أستيقظ في الهزيع الأخير من الليل على طرقة

الباب الرهيبة؟! ثم تشهر المسدسات بوجهي.. ولم أزل بعد دون العشرين من عمري.هل هي الدكتاتورية؟! وحكم العصابات؟!

أم الطائفية؟! أم تأقلم السلطة؟!

أم أخطاء الحركات الاسلامية؟!

أم المخبرون والإنتهازيون الجبناء؟!

أم الإستعمار وعملاؤه؟!

أم أنها مؤامرة كبرى حلت بأرض الرافدين؟! إشتركت فيها أياد آثمة متعددة تبطش بأبناء الشعب العراقي.. إبتدأت بشرفائه.

وأخيراً.. تُرى هل يأتي يوم يسود في العراق حكم ديمقراطي يأمن فيه أبناؤه من طرقة الفجر الرهيبة؟!

سامي الساعدي

نيسان 2003

۞ ۞

الفصل الأول

فجر الأحد عشر عاماً

في الهزيع الأخير من ليلة الأحد**12** تموز**1981**.. وقد تصرمت عشر ليال من شهر رمضان المبارك لهذا العام،صكت مسامعي طرقة عنيفة للباب أيقظتني من نومي.

رفعت رأسي.. لاح لي أبي في الظلام يتهجد كعادته.. لم يحرك ساكناً.. أمي نائمة. إستويت جالساً وصرت أفرك عينيّ بتثاقل.. وأطرد جيوش النعاس والخدر عني.. فقد ظننت أنني إستيقظت على أثر كابوس ثقيل!

۞ ۞

كنت في التاسعة عشرة من عمري.. والشر يحدّق بي وبعائلتي.. هذه العائلة (خمينية!) تشير إلينا أصابع مرتعشة.. بعضها حاقدة مستنكرة..وبعضها خائفة مشفقة.

هكذا كانوا يصفون كل عائلة كريمة متدينة لم تحنِ هامتها للأوغاد الأذلاء.

الأحداث ساخنة.. قتل علماء الدين..هتك الحرمات.. وإعتقال الإخوة والأقارب والأصدقاء. الحرب قائمة بين إيران والعراق.. لا تُعرف نهايتها.. القتلى يأتون تباعاً.. حتى علّق عمي – رحمه الله–رداً على مَنْ قال: أتوقع أن هذه الحرب تنتهي (واحد / عشرة) ويعني من سنة1980.. وقال آخر أتوقع تنتهي (واحد / واحد) ويعني من عام1981.. فأجابهم ساخطاً قائلا: أتوقع هذه الحرب تظل (واحد / مية).

۞ ۞

رائحة الدم تفوح من شوارع العراق.. الخوف يمشي في كل زقاق وإلى كل بيت. الجميع يلفهم الذعر، والفزع،والقلق.. ثورة تأكل أحشاءهم.. لم يجرؤ أحد منهم أن يبوح بسره إلاّ مَنْ أسلم عنقه لحبل المشنقة أو صدره للرصاص!

وغالباً ما يلجأ الناس إلى شتم السلطة أو إلى تعليقات ساخرة من رجال السلطة.. وكل ذلك يجري همساً وفي الظلام، وتحوير بعض الأغاني؛ التي يهزج بها المدّاحون؛ عرب، وعراقيون، لرأس النظام،الرمز ، والقائد الملهم، والقائد الرمز، وقائد الأمة العربية،وعز العرب،وحارس البوابة الشرقية،سليل الأنبياء والمرسلين، شبل الحسين،حفيد علي بن أبي طالب-كرم الله وجهه- وحفيد حمورابي، ونبو خذنصر،وأبو جعفر المنصور....

لكن أغلب المضطهدين،كانوا يعيشون على أمل كبير وبراق.. يكاد يأخذ الألباب...ويؤكدون ذلك بروايات ، وأحاديث نبوية، وآيات قرآنية أحياناً، وهو (جيش التحرير المنتظر).. وزحف الرايات السود القادمة من خراسان لتحرير العراق.. وإقامة جمهورية إسلامية فيه!

۞ ۞

ما هي إلا لحظات.. وإذا بطرقة عنيفة أُخرى أشدُّ من سابقتها.. إرتجَّ لها الباب صاخباً.. نهضتُ على الفور.. خطوت خطوات متراخية ثقيلة نحو الباب.

فتحت الباب.. وإذا بعصبة من الرجال داهمتني.. تشبث واحد منهم بيدي اليمنى.. وآخر باليسرى.. أحاط بي آخرون بعضهم طوقني بذراعيه.. وبعضهم شهر سلاحه بوجهي.. وهم يحدثون أصواتاً تدل على التأهب لإطلاق النار.. ثم تظافر الجميع عليّ.. منهم من يجرني.. ومنهم من يدفع بي إلى الامام. كل هذا ولم تزل بقايا النوم تثقلني.

حاولت التملص من بين أيديهم.. ولكن دون جدوى!

أصوات كالفحيح تنبعث من أشباح لفها الظلام.. ووقع أقدام تطغى على كلماتهم المتداخلة، الجبانة... تنبعث من حناجر حبسها الخوف!

۞ ۞

كل يريد أن يرضي أسياده وينال (إكراميته)! أو كلمة ثناء تبعث في نفسه الطمأنينة بأنه في خدمة الحزب والثورة.. فالشعب كله متهم بأنه (ضد الحزب والثورة حتى يثبت براءته وأنّى له ذلك)! لذا فهو يحرص على ألا يعرفه أحد من أبناء الشعب.. لأنه يخشى من ذوي المعتقل.. أو من المعتقل نفسه في حال إطلاق سراحه لأخذ الثأر! وهكذا هو يخشى من المجلود ويخطب ودّ الجلاد!

۞ ۞

دفعوا بي إلى الإمام.. لم يسألني أحد عن اسمي أو عن هويتي.. كانوا مذعورين.. فزعين.. خائفين. بيد أن ثمة صوت مثل نباح كلب مذعور.. وكأنه إنطلق من جحر.. فصار يردد بلهوجة: ـ أنت أخو سعد[1]؟! أنت أخو سعد؟!

وما أن أجبته: نعم.. نعم.. أنا أخو سعد.. حتى هرعوا مسرعين بغنيمتهم.. وتطايروا فرحين.. فتحوا باب الدار المفضي إلى الشارع..إذ كانت مداهمتهم للبيت تسلقاً للجدار..

أمسكوا بتلابيبي يدفعون بي من كل جانب.. حافي القدمين.. مرتدياً دشداشة.. لم تزل آثار النوم بادية على مظهري. أتبعهم أبي بصيحات مستنكرة على سوء فعلهم.. صائحاً بأعلى صوته وهو يناديهم بغضب:

ـ شنو شمسوي؟!

وأتبعتني أمي بنداء إستغاثة صائحة: ـ إحضره يا علي.

فشهر أحدهم بندقيته صوبها وهو يردد: ـ إسكتي لا أرميچ.

---

1) هو اسم شقيقي الشهيد رحمه الله...إعتقل في أيلول سنة 1980م ،دون أن تسلم جثته إلى ذويه.

صاروا يجرون.. وهم يحيطون بي من كل جانب.. فأجري بجريهم.. قطعوا بي بضعة أمتار.. فقفز رجل نحونا من مكان مظلم.. كان خاتلاً بجانب حائط قريب يتربص!

بالرغم من ظلمة الليل؛عرفت أنه أحد جيراننا الذين ليس بيننا وبين داره فاصلة سوى خمسة دور، أسود البشرة، سيئ الأخلاق، كان يزج نفسه بما لايعنيه مدّعياً أنه يدير شؤون (المواطنيين!) خصوصاً إذا كان التجمع تكثر فيه النساء.

أوقفوني وأمسكوا بذراعي بقوة.. وضع القيد في معصمي وضغطه بشدة.. وهو يلهث..مثل كلب محمول عليه.

فتشوا مخابئ ثوبي.. وكل شيئ حتى الياقة.. ثم راحوا يجرون.. وأنا بينهم.. حتى بلغوا سيارتهم المنتظرة.. فدفعوا بي داخلها. وظل الزقاق ورائي.. صامتاً كئيباً.. تجثو عليه ظلمة خانقة..تمزقها مصابيح متناثرة.. هنا وهناك.. وصيحات ديكة تنعى الفقيد.

۞ ۞

أخيراً سيارة (لاندكروز) بنية اللون.. ولطالما أثارت في أنفسنا الرعب.. والشفقة على مَن لمحناها جاثية بالقرب من باب داره.. ثم أتبعناها بتساؤلات خشية أن تكون قد إبتلعت من ينكئ الجرح فراقه! فلقد كان هذا النوع من السيارات هو وسيلة رجال الأمن المألوفة آنذاك.. حتى باتت تفزع الناس كرجال الأمن أو أشد فزعاً! وهكذا وجدتني بين عشية وضحاها فريسة في أحشائها. أجلسوني أرضها.. واقتعدوا مقاعدها.. ثم انطلقت لا تلوي على شيئ.

إرتطمت إحدى عجلاتها بحفرة فارتفعت السيارة وهبطت.. وتزحزح الجميع عن أماكنهم. ولما استقروا.. راح أحدهم يسألني أسئلة مقطعة.. والكلمات تخرج من بين شدقيه رخوة.. بليدة.. تافهة.. وعند نهاية كل جملة

مفيدة أو غير مفيدة يصفعني.. وهو يتشدق بكلمات خالية من الروح والجدية. لا يبتغي من ورائها شيئاً إلا أن يظهر أنه سيد الموقف.. والذي لا يسأل عمّا يفعل!... وليهنئ نفسه على هذه الحال التي طالما كان يحلم بها.. أن يكون مرعباً.. مخيفاً.. تنخلع القلوب لرؤيته.

۞ ۞

أوقفوا السيارة.. ثم ترجل الجميع.. وهم يحيطون بي من كل جانب.. ويمسكون بي بقوة. دفعوني أمامهم.. خطونا بضعة أمتار وأنا أتوسطهم.. فهم منتشرون حولي.. عن يميني.. عن شمالي.. من خلفي.. بعضهم يلوذ ببعض.. بعضهم يركلني.. وبعضهم يصفعني.. وبعضهم يتحسس رأسي بمسدسه.. الكل يحرص على أن لا أعرفه.. سوى واحد كان غير مبالٍ.. ويبدو أنه كان قائدهم.

قصدوا بي نحو مستوصف المحلة.. لمحت شابين بزي الجيش الشعبي.. كلاهما يحمل بندقية.. كانا واقفين للحراسة.. يبدو أنهما على أهبة الإستعداد.. ينتظرانني.. تفرست بوجهيهما مستعيناً بضوء المصباح الخافت.. وحالما نظرت اليهما عرفتهما.. فهما أبناء محلتي.. أحدهما كان يوماً ما صديقي.. وكنا ندرس سوية في مزرعة مجاورة لنا.. ألقيت عليهما تحية الإسلام.. فلم ينبس أحدهما ببنت شفة.. سوى من إقتادني.. فقد رد على تحيتي مستهزئاً.

ولما إنتشر الضوء في الساحة كشف لي بعضهم.. يبدو أنه تذكر أمراً مهماً.. فأخرج منديلاً وعصب به عيني.. وألقى بي أرضاً.. تجمهروا حولي واقفين.. يسألونني عن أسماء لأشخاص.. بعضهم عرفته.. وبعضهم لم أعرفه. وكان جوابي على كل سؤال هو كلمة واحدة أقولها بإقتضاب:

(لا أعرفه)، وهم يزدادون حنقاً شيئاً فشيئاً.. فبادرني قائدهم بسؤال وهو يصرّ على أسنانه حاقداً... وكأنه يسحق الحروف سحقاً:

. تعرف (خيون)[2]؟.

أدركت أنه يقصد أخي الذي إعتقل قبل عام وشهرين.. فأجبته سائلاً: ـ أي (خيون)؟ فقال لي بنفاد صبر.. وكأنه يقطع أذناب الحروف بين أسنانه: ـ (خيون حمادي)؟

قلت له: طبعاً أعرفه.. إنه أخي.

فقال لي بتهكم:. هم زين گلت أعرفه!

فأجبته مؤكداً: حقاً تلك الأسماء لا أعرف عنها شيئاً.

۞ ۞

خيم علينا صمت ثقيل بضع لحظات.. مزقه قائدهم بنبرة آمرة قائلاً لهذين الشابين: . إذا هرب إرموه! ثم أردف قائلاً.. وهو يوجه كلامه لي: ـ رايحين انجيب زميلك! كانت كلماته تخرج من شدقيه مفعمة بالحقد، والكراهية، والخيلاء، والتجبر.

(إذا هرب إرموه).. هكذا مرة واحدة وجدتني خطيراً للغاية.. مكبل اليدين.. معصوب العينين.. حافي القدمين.. والبنادق تصوب فوهاتها نحوي. هكذا صرت معتقلاً ومهدور الدم! (إذا هرب إرموه).

۞ ۞

مرت على خاطري صورة راكضة لاهثة لأصدقاء وأقارب سبقوني في هذا الطريق.. بعضهم عاد مثقوب الأذن.. وبعضهم محروق الفخذين.. وبعضهم تناثرت على جسده آثار الكهرباء.. وبعضهم عاد جثة هامدة لا حراك فيها. وأغلبهم لم يعد وانقطعت أخباره.. وطمست آثاره إلا خبراً واحداً: ـ إبنكم انعدم وممنوع البكاء عليه،(ولاتقيمون فاتحة).

---

2) اعتقل رحمه الله في مارس عام 1980 م.. وأُعدم دون أن تسلم جثته لذويه.

حقاً صرت من أولئك الذين يفزع المرء عندما يتصور مصيرهم.

ترى هل أعود؟! وبأية حال سأعود؟!

رحت ألهج بذكر الله تعالى.. وأتلو آية الكرسي بحرارة.. وكثيراً ما رددت قوله تعالى: {**الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ أَلا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**} (الرعد: 28).

إنفضوا من حولي.. فطوقني صمت خانق أثار في نفسي حنيناً جارفاً إلى أمي، وأبي ،وأهلي،وأقاربي... شعرت بتفرق الجميع سوى الحارسين يحومان حولي.. أحدهما لم ينبس ببنت شفة.. كان أحدهما يسحب (أقسام) البندقية فوق رأسي.. والآخر يضرب الأرض برجله بقوة وإستفزاز! ترى ما وقعُ خبر إعتقالي على أصدقائي.. كيف سيتلقون النبأ؟ وبماذا يعلّقون؟ أفكار محمومة تجري في رأسي.

أصدقاء..ومخبرون!

مَن هؤلاء!؟

ولماذا كل هذا الحقد ، والكراهية، ومن الذي أوغر صدورهم بهذا البغض لي ولأمثالي ، وما الذنب الذي إقترفناه بحقهم وبحق غيرهم ؟؟تساءلت طويلاً! بعضهم لاح لي كشبح يتستر في الظلام.. لكنه ظل مبهماً بالنسبة إليّ.. ظننتهم لأول وهلة من مدينة أخرى.. أو على الأقل ليست بيني وبينهم سابق معرفة.. وبعد تعاقب السنين تجلت لي الحقيقة المؤلمة التي تجرعت مرارتها على مضض. وهي أن هؤلاء ليس فيهم غريب.. بل منهم الجار.. ومنهم ذو رحم.. ومنهم مَنْ كانت زيارته لا تنقطع عنّا.

بل وكان من بينهم صديقي (ك...) المخلص الودود! الذي تسلل إليّ حتى مدّ جسور المودة فيما بيننا.. وتمكن من مراقبة البيت ومَنْ فيه.. بل وتسنى له أن يراقب حتى الهمس.. تمكّن من زرع لاقطات في بيتي.

أهدى لي قلم حبر لم يكن مألوفاً.. فليس هو من نوع (الباركر أو الشيفر أو الصيني) والأغرب من هذا كله أنه يمتص الحبر.. لكنه لا يكتب ولا كلمة واحدة.. ومراعاة لمشاعره لم أسأله عن السبب خشية إحراجه.. فألقيته في مكتبتي صامتاً. وبعد مضي شهر أو يزيد.. سألني عن القلم فأخبرته عن حاله.. فأجابني؛قائلاً: ـ آه ظننته يكتب فأهديته لك.. إذن هاته.. فأرجعته إليه.. وكانت هذه آخر هدية أهداها لي. وبعدها في غضون أسبوعين أو ثلاثة تم إعتقالي. وسبقت هذه الهدية هديتان.. واحدة (راديو) صغير أودعه عندي قائلاً: دعه عندك.. ومتى أحتاجه سوف أسترجعه منك.. وسبقت هذه الهدية علبة شطرنج.. وتمّ ذلك بعد أن سألني زميل لي في المدرسة: هل تجيد لعبة الشطرنج؟

أجبته: أجيدها وأتحدى كل من في المدرسة. وبعد بضعة أيام سألني صاحبي السؤال ذاته.. فأجبته بذات الجواب.. فجلب علبة شطرنج.. وبعد أن تناثرت الجنود والقلاع والفيلة من حولنا.. وأمضينا وقتاً طويلاً،ممتعاً... نهض للعودة إلى داره تاركاً الشطرنج في مكانه فتبعته به.. فمد نحوي نظراً يشوبه الإضطراب.. وقال لي: ـ دعه عندك لكي نلعب به سوية. فتركته عندي.. وبعد مضي بضعة أسابيع عاد واسترده.

وبدأ أول تعارفنا بأن جلب لي (كاميرا) والتقطنا بها صوراً في أماكن مختلفة في شوارع بغداد وعلى شطآن دجلة.. وأغلب الصور كانت لي.. وبعضها تجمعني وإياه.. ثم تركها بيدي وقال: دعها عندك ومتى أكملت الفيلم نطبعه وكل يأخذ منا ما يريد. وبعد أن تم تصوير الفيلم بأكمله أعدت له الكاميرا.. ومضت أسابيع دون أن يذكر لي شيئاً عن الصور التي إنتقينا

أماكنها.. ولتحكي حكاية ذكرى عزيزة على قلبين ودودين متحابين! ولما سألته عنه..أجابني جواباً إختزنته ذاكرتي التي لم تستمرأه: آه.. الفيلم...إحترق!!.

كان دقيقاً وهادئاً في تصرفاته معي.. وحتى الأسئلة التي يوجهها لي يطلقها بصورة تبدو وكأنها عفوية أو كأنه إستحضرها،تواً، خلال الحديث.. ولعل كل تصرفاته معي كانت محسوبة وبتوجيه من ضابط أمن المنطقة.

۞ ۞

كنا نتبادل فيما بيننا الكتب الدينية والأدبية.. وبعد أن نلتقي نكثر من التعليق على ما قرأناه.. من بين الكتب التي أعرته إياها كتاباً أحببته كثيراً.. وتأثرت به كثيراً.. ذلك الكتاب الأخلاقي الرائع: (مرآة الرشاد). وبعد بضعة أيام أعاده لي وهو يعرب عن شديد إعجابه بما فيه من عبر ومواعظ وآراء أخلاقية وتربوية.. مستعيناً على ذلك بكفيه وعينيه وحاجبيه.. وبكل رأسه أحياناً.

عندما أتذكر هذه الحادثة وأمثالها.. أرثي لحال الذين يظنون أنهم سوف يغيرون المجتمع ببضع كلمات وأن "الحكي!" سوف يغير الناس من الضلال إلى الهدى.. ويخرجهم من الظلمات إلى النور،وبسرعة البرق.

وتقفز أمام ناظري صور الشباب المتحمس الذي كان يحرص على أن يتغلغل بين الجماهير ليبعث الثورة فيهم.. وهو مسرور لما يلاقيه من تجاوب لآرائه الحماسية.. وقد فاته أن أغلب هؤلاء الذين يظهرون الحماس هم من عيون السلطة الجائرة.. ومن بين هؤلاء أحد الإخوة المؤمنين كما كان (الدعاة) يذكرون لنا ذلك من أنه يحرص على إستئجار (التاكسي) ليختلي بسائقها ويؤثر عليه.. وما أن يغيره بسرعة مذهلة يترجل منها ليستأجر تاكسي أُخرى.

والمضحك المبكي أن أغلب سائقي التاكسي هم من شرطة الأمن والمخابرات.. وقد تم إعتقال هذا الداعية في مديرية أمن الكاظمية.. لتسحقه وسائل التعذيب الشرسة.. وليلقي بكل ما لديه من أسرار تنظيمية.. ويكون أحد رجال (المساعي الحميدة) كما كانوا يسمونها الجلادون.. وقد فاتهم أن أبطأ شيئ في التغيير هو العقل.. وبالتالي قناعات البشر.. خصوصاً ما يرتبط بأمور غامضة ومرعبة.. إذ تتعلق بقلب نظام وتغير سلطة.

۞ ۞

كنت أظنه صديقاً[3] لي.. ومع كل ما أكنّ له من مودة.. ثمة شعور غريب يخامرني إذا التقيته او سرنا سوية أو تسامرنا.

وصفته ذات مرة في سري.. أن ثمة خيط مرارة يمازج حلاوة علاقتنا.. فظاهره متدين.. حتى كان يلتقي بالمتدينين ويحرص على أن يتم التعارف فيما بينهم.. وكان هو الوحيد الناجي من بيننا من السجن أو الاعدام.

۞ ۞

ضحى يوم صيفي طرق الباب.. وإذا به صاحبي. دعوته إلى الدخول فأبى.. وأصرّ على أن نقضي بعض الوقت خارج المنزل.. وما أن لبيت دعوته حتى أصر ثانية على أن نجلس قرب عتبة باب أحد الجيران الذي كان أحد هؤلاء الأصدقاء. جلسنا سوية على غير رغبة مني.. فالمكان غير لائق لمن يراعي حرمة الجار.. ولكن إستجابة لصديق عزيز! وصرنا نتجاذب أطراف الحديث.

وبينما كنا جالسين.. إذ مر بنا رجل يرتدي (قمصلة) صيفية (نصف كم) ذات خطوط خضراء غامقة تتخلل البياض.. وبنطلون ذات اللون..

---

3) ذات يوم خرج من داره ضاحكاً وهو يرتدي سترة نيلية اللون.. وتزين صدره صورة صغيرة لصدام حسين.. وكنت بانتظاره لنخرج سوية لنتفسح في شوارع بغداد.. فقال لي.. وهو يشير إلى الصورة هازئاً: هذا (الباج) يلبسونه الامن.. فسألته: من أين حصلت عليها؟ فقال لي: حصلت عليها! وضحكنا سوية ساخرين من الصورة وممن (يلبسها).. وكلما سقط نظري على الصورة خلت أنني وصاحبي نستغفل رجال الامن بالمظاهر.. ولم أشك بصاحبي.. ولم يدر في خلدي أن صاحبي خائن.. وهو الذي يستغفلني.. فهو مخبر للامن!

عكش الشعر يبدو كأنه منفوش.. وخلال سيره الوئيد كان يغرز نظراته في وجهي.. وظلال إبتسامة غريبة ترتسم على شفتيه، فالإبتسامة كانت لصاحبي الذي يشير إليه بطرف خفي!

لم أره من قبل.. غريباً عن أبناء المحلة.. سيره.. نظراته جعلاني أسأل صاحبي:

. مَن هذا؟

فأجابني: . لم أعرفه.

وبعد لحظات استأذنني صاحبي وودعني على أمل اللقاء. وما هي إلا أيام معدودة.. حتى جاءني ابن أخيه وهو لا يتجاوز السادسة من عمره راكضاً لاهثاً.. وما أن رآني حتى صاح كالمذعور: ـ عمو.. عمو (سامي) عمو (ك...) يريد كاسيت قرآن. فدسست بيده شريطاً لأعذب تلاوة للشيخ محمد صديق المنشاوي.. وكنت ضنيناً به.. كان مجئ الطفل ظهر اليوم الذي إعتقلت فيه.

****

سألني ذات ليلة.. كما سألني غيره من أشباهه من الأصدقاء: ـ أين أبو عمار؟

وكنت أجيبهم: . لا أدري.

وقبلها بأربعة شهور تقريباً،سألني ؛ قائلاً:هل تعرف حسين رعيد؟

– وهي الفترة التي سمعت من أبي عمار أن حسين رعيّد تم إعتقاله،وكذلك تم إستدعاء زوجته، وحدثنا عنه،بأسف–

فأجبته قائلاً، بصدق:لا.

إذ كنت أعرف شخصاً هو صديق لإخواني الكبار، وسمعت بهذا الاسم يوم بعث أخي الشهيد (خيون) وصية إلى أبي مع بعض وصايا أخرى، مع

معتقل أطلق سراحه،من مديرية أمن الثورة محذراً (حسين رعيّد) فلقد ذكر اسمه على ألسنة الجلادين.

وكذلك رأيته،صيف عام 1979م ظهراً؛إذ زارنا زيارة خاطفة، لم تتجاوز الربع ساعة، كان صامتاً ولم ينبس ببنة شفة،إلا التحية التي ردّها

عليّ عندما دخلت إلى غرفة الإستقبال،وقال له أخي الشهيد(خيون)

وهو يشير إليّ بكفه

– سامي.

ثم خاطبني وهو يشير إلى الزائر فقال:

–أبو علي.

وبعد أن ألقى نظرات متأملة نحوي،غادرنا مودعاً،وكان الوقت،وقت الغداء،ونحن متهيئون لتناوله،ومما إسترعى إنتباهي أن أخي لم يدعه للغداء،كعادته مع الزائرين خصوصاً في هكذا أوقات!

مما جعل أبي يسأل أخي؛قائلاً:

– من هذا ؟

فأجابه أخي بإقتضاب:

– صديق،لديه شغل معي.

فسكت أبي ،وسكتنا،لكن ظلت علامات إستفهام تتقافز أمام ناظري!

بَيْد أنني لم أعرف أن هذا الشخص هو المقصود،فلقدكانوا يتعاملون بكتمان شديد..

* * *

ثم عاد السؤال ثانية وبطريقة أخرى تختلف عن سابقتها؛إذ كان مصرّاً– على غير عادته في إطلاقه الأسئلة– وكان يردد كلمة (صدق ، صدق، متعرف حسين رعيّد) فأجيبه صادقاً:

ـ لا ماأعرفه.

ثم أدركت سبب هذا الأصرار، لإنه ذكرني تحت وطأة التعذيب، وكان هو الإعتراف الأول،وهذه الأسئلة بتوجيه من (أمن المنطقة)،...

في تلك الأيام ثمة شعور خفي سرى إليّ.. كأنني أتوسط حلقة ضيقة تحيط بي أينما كنت.. وتزداد ضيقاً تدريجياً.. حتى إشتد عليّ الخناق!

أفصحت الأيام عن هذا الشعور! إذ كنت تحت مراقبة شديدة.. تلونت فيها الوجوه وتباينت.. ولكن الهدف المشترك بينها واحد.

۞ ۞

وقفت سيارة إزاء المبنى الذي ألقيت فيه.. فتناهت إلى مسامعي أصوات متداخلة. أدركت أن زميلي قد جئ به.. ولكن مَنْ هو هذا الزميل؟

جاءني أحدهم.. جرني من يدي بقوة وهو يصيح: ـ گوم لك.

نهضت مسرعاً.. أوقفني ماسكاً بشمالي.. فأتتني ضربة عنيفة على قذالي.. أحدثت في جسدي رعشة مثل تيار كهربائي سرى في أوصالي.. قيل لي فيما بعد أن هذه الضربة أتتني من أحد الحارسين.

دفع بي نحو السيارة.. إستقبلتني صفعات وكلمات بذيئة.. ثم أجلسوني أرضها.. والرجل في آخر السيارة كأنه يحاول الإفلات من بين أيديهم ويتوسل بحرقة.. وكأنه غريق يطلب النجدة.. وهم يضربونه بقبضاتهم ويمسكون به ويأمرونه بالسكوت.. وحين كلّ عن التوسل إستسلم وسكت.. لكنه تأوه وقال بيأس: ـ والله كلشي ما عندي.. بس ربما واحد كتب عني تقرير.

تبين لي أنه أحد الأشخاص الذين سألوني عن أسمائهم ولم أعرفهم.. إذن مَنْ هو هذا الزميل يا ترى؟!

السفر الى المجهول

ومع تباشير الفجر الرمادية...إنطلقت السيارة تغذ السير بسرعة جنونية.. حتى وصلت مفترق طرق.. قال أحدهم: هل نذهب بهما إلى الفرقة . يقصد مقر الفرقة الحزبية،في مدينة الثورة وكان مسؤولها المجرم الجلاد سمير الشيخلي — إذ أحياناً يجري فيها تحقيق مع بعض المعتقلين.. وتستخدم معهم وسائل تعذيب لا تقل شراسة عن آلات تعذيب مديريات الأمن.

فأجابه أكثر من صوت قائلاً: نعم.. نعم إلى الفرقة.

وبينما جهة الفرقة عن شمالهم.. إنعطفت السيارة نحو اليمين.. أدركت أنها خدعة يبتغون منها خلط الامر علينا ليكون كل شيئ من حولنا غامضاً مبهماً.

كنت صامتاً لا أنبس ببنت شفة.. بينما كان زميلي يستغيث فلا يغاث.. يستعطفهم فيضربونه.. ثم يضربني قائدهم على رأسي ضربات متتالية ويخاطبه بإستهزاء: . ليش متسكت مثل صاحبك؟

قررت أن أصمت.. وأصمت.. وأصمت. فالصمت مع هؤلاء الأوباش هو أنجع أسلوب وأفضل طريقة.. فهم وحوش.. أغبياء.. أجلاف.. لم يكد أحدهم يفقه قولاً.. أحلى قصيدة يتلونها أو يسمعونها هي ما نتن من القول وما فحش.. عقول بليدة سقيمة.. ثم مَنْ هم؟! مهما كبر أحدهم فليس هو سوى مخلب قط!! لذا قررت الصمت حتى أجثو في قبري صامتاً.

كنت مطمئناً أنه ستنهال عليّ الأسئلة من كل حدب وصوب.. ليس فيها إلا إبتغاء الأذى للناس.. كلمة واحدة كفيلة أن تزهق أرواح.. وتيتم أطفالاً.. وترمل نساء..

و(تهجم بيوت)... فهم لا يكتفون بكلمة أو كلمتين.. يريدون كل شي حتى الهمس والمناجاة وحتى الأحلام.. أحلام اليقظة وأحلام المنام.

«مَن آذى مؤمناً بشطر كلمة كتبت على جبهته آيس من رحمتي».

لم تزل هذه الكلمة تملأ وجداني وتفزعني.. حدثني أخي بهذا الحديث.. يحذرني فيه الضعف!

سمعت الكثير عن أساليبهم الوحشية في محاولاتهم لإنتزاع الأعترافات من المعتقل.. الكهرباء.. الحرق.. السياط.. قلع الأظافر.. وغيرها... كل هذا كان يرعبني ويفزعني.. ولكن «من آذى مؤمناً بشطر كلمة» ترعبني رعباً وتفزعني فزعاً أشد من هذا كله.. ثم إن فتوى السيد محمد باقر الصدر رحمه الله: «إن من يخشى أن يدلي بإعتراف أثناء التعذيب.. يجوز له الإنتحار وهو بدرجة الشهيد» كما سمعت هذه الفتوى من بعض الحركيين.. لذلك قررت الإنتحار!! قرار لا تردد فيه أبداً. ولكن كيف؟! وبأية وسيلة سأنتحر؟! لستُ أدري!!

۞ ۞

وقفت السيارة.. ترجلوا جميعاً.. جرني أحدهم من يدي وشتمني.. أمرني بالنزول إلى الأرض. وكذلك فعل بصاحبي.. ثم جمعوا أيدينا بقيد واحد،فاغتنمتها فرصةً لأشدّ على يديه بقوة،.. فشعرت أن شيئاً من الإطمئنان دخل قلبينا.

الظلام الدامس يلفني.. أسمع أصواتاً متباينة.. أدركت أنهم عصبة من الرجال.. خمنت عددهم.. أنهم لا يقلون عن ستة رجال. إنطلقت السيارة.. إلى أين؟ لست أدري. سمعتهم يثرثرون.. قال أحدهم: ـ أنظر إلى ذلك المصباح الذي إشتعل.. هؤلاء يعني يصومون! الآن إستيقظوا للسحور. قال الآخر: ـ البيوت التي تصوم قليلة.. ثم إستمروا في ثرثرتهم كأنهم لا يشعرون بوجودنا.

۞ ۞

عادت السيارة مسرعة.. ترجلوا.. وأسرعوا نحونا.. أمرونا بالنهوض.. فنهضنا على عجل.. فرقوا بيني وبين صاحبي.. وأحكموا القيد على معصمي

جيداً.. ثم أمرونا بجفوة أن نركب السيارة. وانطلقت مسرعة.. إلى أين؟! لست أدري!

بعد مضي ربع ساعة تقريباً وقفت السيارة.. ترجلوا جميعاً.. جرني أحدهم من يدي وشتمني.. وشتم أجدادي.. وعشيرتي.. وكل مَن يمت إليّ بصلة.

أمرني بالنزول.. وكذلك صاحبي.. ظلام يكتم الأنفاس.. والعصابة اللعينة تضغط على عيني.. همس ولغط يحيط بنا.. دفعوا بصاحبي نحوي.. خطونا خطوات وهم يحيطون بنا.. تحسست قدماي بلاط الأرض بالرغم من أنني لم أرَ شيئاً.. لكنني أدركت أنني داخل بناية.. برزت لنا مجموعة من الرجال.. إستقبلونا بحفاوة! أعربت عنها الصفعات.. والركلات.. والشتائم.. والبذاءة.

۞ ۞

إرتقينا سلماً والركلات تتبعنا من خلفنا.. مضوا بنا حتى أقعدوني على كرسي.. ثم أوثقوني بقيد آخر.. ماسكاً بـ(الكلبچة) التي في يدي من طرف وبالكرسي من طرف آخر.وكذلك فعلوا بصاحبي.. أدركت هذا من خلال الكلمات المتبادلة فيما بينهم.. وصوت الحديد المنبعث من القيد والكرسي..

جاء رجل يسعى وهو يتساءل بصوت مرتفع: ـ ها الغارة كم قصفت هاي الليلة؟! فأجابه أحدهم: ـ اثنين..

ـ اثنين بس؟!

ثم جاء رجل يسعى نحوي وهو يردد غاضباً وبحقد: ـ وين أخو (خيون) وينه؟ سمعت صوتاً يقول بلهجة لا تقل جفوة وغلظة عن لهجة السائل: ـ هذا.. هذا أخو (خيون)! وقف قبالتي وقال: ـ أنت؟ ـ نعم. ثم إنهال على رأسي بضربات حاقدة.. وهو يردد قائلاً بحنق وغيظ: ـ لك أنتم شنو.. شتريدون إتصيرون وزراء؟! ثم بادرني بسؤال كنت أنتظره: ـ ها احچي.. شكو عندك؟

أجبته: كلشي ما عندي.

. ليش جبناك ما جبنا غيرك؟. ما أعرف.

. هناك تعرف شكو عندك.. لمن إتشوف صاحبك.

صاحبي مَن هو يا ترى؟! هل حقاً أن لي صاحباً هناك؟! أين هو (الهناك)؟!

ومَن هو صاحبي؟! وماذا قال عني؟! أفكار مجنونة إخترقت رأسي.. ربما هو إستفزاز.. ربما هي حقيقة.. الأصحاب كثيرون.. ولكن مَنْ هو منهم (الهناك)؟!

مَن هو؟! وماذا قال عني؟! هكذا جعلتني هذه الكلمات أضطرب إضطراباً شديداً.. إشتدّ وجيب قلبي.. أحسست بمرارة في حلقي.. أحسست بعذاب يأكل صدري وأعصابي ويشرب روحي.. وكأن الدماء تختنق في عروقي.

توجهوا نحو صاحبي بكلمات إستفزازية.. قال أحدهم:. هذا سايق القطار اللي أراد أن يقلب القطار.وهو ينفي هذا الإتهام متوسلاً ومستغيثاً.

ثم ختمت المحاورة بشائم.. ووعيد.. وصفعات.. ولكمات.. وكلمات بذيئة.. وأخيراً تحسسوا القيد.. ولما إطمأنوا إنفضوا جميعاً.

لم يبق معي في الغرفة سوى صاحبي.. لبثنا وقتاً ثقيلاً.. مشحوناً بالتوتر.

طافت في رأسي آلاف الأفكار.. أفكار تحوم حولي كالذباب.. كأن عيوناً حاقدة وقحة تحملق فيّ. تهدأ نفسي أحياناً.. وسرعان ما تعود كلماتهم تضج في رأسي.(هناك تعرف شكو عندك).. (لمن إتشوف صاحبك).

(صاحبك) من هو صاحبي؟! ربما إعتقل أحد أصدقائي وذكرني تحت وطأة التعذيب (ربما)!! ولكن كان مجيئهم إلى بيتي وكأنهم لم يقصدوني شخصياً.

سألني أحدهم:ـ كم أخٍ لكَ بقي في البيت؟أجبته:ـ ثلاثة.

قال وكأنه يردد كلمات لقنت له تلقيناً: ليش جبناك ما جبنا غيرك؟

ليتهم يقولون لي لماذا؟! (ليش جبناك ما جبنا غيرك)؟ تعود وتضج في رأسي كأنها عواء.. وهذه الكلمات وأمثالها تدور حول رقبتي كحبل مجدول يضيّق عليّ الخناق..علامات إستفهام كبيرة تتقافز حولي.. كأنها ترميني بسهام حادة تنفذ إلى صميم قلبي.. (إذا هرب ارموه)!!إذن أنا المطلوب لهم.. وأنا الذي أستحق الرمي بالرصاص!

مضت ساعات ثقيلة.. كان عقلي يمور بأمورٍ شتى حتى تنفس الصبح بضجر.. وانتشر النور حولي فملأ فضاء الغرفة.وجلّى لي بعض الأشياء التي تحيط بي من وراء الحجاب.. بضعة كراسي يتوسطها (ميز) خزانة في ركن الغرفة.. لاح لي شبح (صاحبي). صمت ثقيل يخيم علينا.. ماذا بعد هذه الحال؟ هل سأبقى موثقاً على الكرسي.. إلى متى؟ هل سيكون مكاني هذا؟؟ ثم ماذا؟؟ لم تكن لدي صورة واضحة عن المراحل التي يمر بها المعتقل.. سوى كلمة (أخذوه الأمن)! واختفى أو أرجعوه جثة هامدة.

بدأ نهار جديد.. تسللت شمس تموز المحرقة إلى الغرفة.. شبابيكها تطل على الفضاء الخارجي. الساعة حوالي الثامنة صباحاً.دخل علينا أربعة رجال تباعاً.. وكل واحد منهم يصفعني وهو سائر إلى الخزانة.. حتى إذا عاد صفعني ثانية.. وكلمة كان يلوك بها الجميع جيئة وذهاباً. ـ لكم شتريدون صيرون وزراء؟ قبل الثورة منو كان عنده بيت؟ سيارة؟ إي.. مو الثورة سوتكم أوادم؟

۞ ۞

يا لله ويا للثورة! أين هي الثورة المزعومة؟أي بلد له خيرات العراق.. ونصف شعبه مصاب بفقر الدم؟ كم عائلة عراقية لا تملك قوت أسبوعها؟

هكذا صرت أتكلم في سري.

جلس قبالتنا رجل.. نثر بين يديه أوراقاً على (ميز) أمامه وبدأ يسأل ويدوّن.. سأل صاحبي عن اسمه.. وعنوانه.. ومواليده.. وعمله.. وعدد أولاده.. وأقاربه فرداً فرداً.. متسلسلاً بحسب درجات القربى.

ثم كانت الخاتمة بسؤال أرعبه:هل لديك أقوال أخرى؟

فأجابه،قائلاً:. (لا)

ثم سأله بلهجة فيها غلظة:. إتوكل محامي؟ لو المحكمة إتوكلك محامي؟

فأجابه بصوت باكٍ:. لا ... المحكمة إتوكل لي محامي.

تبين لي فيما بعد أن السؤالين الأخيرين لا يبتغي منهما سوى إستفزازه والإستهزاء به.. فهو يسأله: هل إتوكل محامي؟ أو هل لديك أقوال أخرى؟ وهو لم يزل بدون تحقيق!

لم يكن سبب إعتقال هذا المسكين هو أنه أراد قلب القطار! أو العداء للحزب والثورة.. بل لأمر آخر ليس له فيه ناقة ولا جمل.

ولأطمئنان رجال الأمن من براءة هذا المسكين فلم يتعرض للتعذيب.. سوى أنه بقي مدة شهر معصوب العينين.. حافي القدمين.. مقيداً على قنينة غاز.. مفترشاً أرض مديرية الأمن العام.. خائفاً مرعوباً..وتناله سياط ليست على الحساب! وهي (القاط الخفيف) كما كانوا يسمونها (السياط التايهه)والتي تسقط على المعتقلين لا على التعيين.. أخيراً أُطلق سراحه.. وقد نال كل هذا العذاب وهو برئ بقرارهم.

۞ ۞

بعد أن أنهى المحاورة مع صاحبي طفق يسألني عن اسمي.. مواليدي.. عنواني.. وأسماء إخواني.. أقاربي.. وأجدادي.. وعن كل شيئ.

كان حين يسألني وكأنه يصرّ على أسنانه حنقاً وغيظاً.. وكلما وجّه لي سؤالاً وأجبته اشتد غضبه.وكلما دخل عليه أحد قال له:. أنظر.. وكأنه يناوله

ورقة.. فتنهال عليّ الشتائم وعلى عائلتي كزخات المطر.ويردد بحنق: ـ اثنان موقوفان.. واحد هارب إلى إيران.. وانت هم.. لك هاي إشلون عائلة (...)[4].

ولما أنهى المحاورة غادر الغرفة وتركنا.. لبثت قرابة الساعة على هذه الحال يلفني الصمت والقلق.. والهواجس تضغط عليّ فتعتصرني.. والصفعات والركلات تنالني.. والشتائم والوعيد تملأ مسامعي دون أن أرى مصدرها.. ولكن كنت أتلقى ذلك فأعرف إتجاهها فقط.

إلى أين؟! لست أدري. بيد أنني أدركت أن مكاني سيتغير.. سوف أُنقل إلى مكان آخر فقد أحسست بحركة دلّت على ذلك.. ثم تأكدت بعد أن جاء أحدهم وهو يطلق كلمات بذيئة فاجرة،داعرة، صائحاً:. وينهم؟

ثم راح يعالج القيد ليفتحه وكأنه إستعصى عليه.. فهوى على وجهي بصفعة هائلة.. أتبعها بركلة.. سقط لها الكرسي مذعوراً.. ثم جاءني آخر وثبّت الكرسي وعدّله.. فاستويت جالساً.

وتكلم بكلمات كأنه يستنكر فعلة مَن سبقه وفتح القيد برفق.. وقال برقة مصطنعة:. ما كان يجب أن يفعل هكذا.. أما ترى حسن معاملتي معك؟

فشكرته على حسن معاملته.. وإعتذرت عن صاحبه.

تبين لي فيما بعد أن هذه هي طريقتهم.. تلاعباً بمشاعر المعتقل.. يصفع أحدهم.. ويلاطف الآخر.. يضرب أحدهم.. ويستنكر آخر.. والمستنكر أحياناً قد يكون هو الضارب.. والضارب هو المعتذر والمستنكر.. وهكذا دواليك.. حتى يغدو المعتقل فريسة للمخاوف.. لا يعرف من أين تأتيه الضربة ومتى؟!

۞ ۞

4) كلمة بذيئة.

أمرونا بالنهوض.. ثم رفعوا العصابة عن عيني.. وكذلك فعلوا بصاحبي.. سقط نظري عليه.. واطمأننت أنني لم أره من قبل.. شاب أسمر نحيل.. عمره خمس وثلاثون سنة تقريباً.ألقيت نظرة شاملة خاطفة.. متسللة من بينهم.. حاولت أن أعرف المكان الذي إستضافنا ليلة البارحة.. ولكن دون جدوى!

قال صاحبي متوسلاً:ـ أريد ماي.

فنهره أحدهم.. ثم أعاد الطلب ثانية.. فزجره بغلظة ،وقال متهكماً:ـ أنتم مو جماعة الحسين وإحنا جماعة يزيد.. يزيد مو موّت الحسين عطشان.. راح نموتكم عطش. ثم أردفها بكلمات حاقدة:ـ الحسين برئ منكم.

هبطوا بنا نحو الطابق الأرضي.. حاولت جاهداً أن أعرف المكان الذي إستضافنا ليلة البارحة.. رفعت رأسي.. بيد أن زعيقهم.. وصراخهم.. وأياديهم.. كلها كانت تأمرني أن اطأطئ رأسي لكي لا أعرف المكان.

أرسلت من بينهم نظرات خاطفة مرتبكة.. كنت حريصاً على معرفة المكان.. ولكن لم يتسنَ لي ذلك[5].

۞ ۞

سرعان ما وجدت نفسي في سيارة (لاندكروز) ذات لون بني.. أجلسوني أرضها مقيد اليدين.. حافي القدمين.. منفوش الشعر.

بجواري صاحبي.. كان جالساً جلسة الحزين الكئيب يجتر آلامه مستسلماً.. ومعنا رجلان.. أحدهما يقود السيارة.. ذو جسم مترهل.. قصير القامة.. أسمر البشرة.. والآخر جالساً بجواره.. أحمر البشرة.. ذو عينين خضراوين.. الجميع صامتون.. سوى همهمة مقتضبة بين الرجلين تتخلل الصمت من حين لآخر.. وهما يستعينان بإشارة الأصابع.. أو تحريك الحاجب.. أو غمز بالعين.

5) تبين لي بعد عقد ونيف أن المكان هو مركز أمن الرشاد.

السيارة تلتهم شوارع بغداد.. سلكت بنا سبلاً لم أسلكها من قبل.. وهي تسير في طرقات تكثر فيها الاشجار العالية.

أنظر إلى ما حولي بإستسلام.. إلى أين؟! من أين؟! متى؟! كيف؟! كل شيئ من حولي غامض مبهم...أسئلة كثيرة تمور في رأسي.. وكل سؤال يظل بلا جواب!

إنتهى بنا المسير في شوارع كبيرة مزدحمة بالسيارات.. سقط نظري على رجل أجنبي يستقل سيارة يبدو عليه أنه من بلاد الغرب.. كهل تتفجر العافية من جوانبه.. مصطحباً سيدة تشاركه اللون والدم.. في ذلك الجو الضاغط الذي يكتم الأنفاس.. خامرني شعور مفعم بالأسف.

هذه هي بغداد.. الأجانب يجوبون شوارعها وهم آمنون مطمئنون.. يتنسمون عذب هوائها.. ويشربون ماء دجلتها.. وأحرارها يزجون في السجون!

أخذوا نفطنا وتمرنا.. ثم صدّروا لنا هذا القيد اللعين الذي ينهش معصمي.. والسوط الذي يتحرق شوقاً ليعانق جسدي الذي لم يبلغ العشرين.

۞ ۞

إنتهى بنا المطاف إلى مكان مجهول.. وقفت السيارة..سمعتهما يتحاوران.. وهما يتبادلان كلمات مقتضبة وكان أوضحها أن قال أحدهما لصاحبه:ـ نحتاج باج.

ثم نزل أحدهما من السيارة.. غاب قليلاً ثم عاد إلينا.. فسارت السيارة قليلاً ثم توقفت فترجل الجميع.. أخذوا بأطراف ثوبي لاهثين.. قاذفين.. ساخطين.. دفعوا بي إلى مجموعة جديدة.. فاحتوشوني من كل جانب.. ثم إقتادني أحدهم . تبين لي فيما بعد أنه الشرطي علي . وارتقى بي السلّم حتى

بلغ بي الطابق الثالث.. فتش مخابئ ثوبي.. ثم رفع المنديل عن عيني وزجرني قائلاً بلهوجة: . غمض عيونك.. غمض عيونك.

أغمضت عيني على عجل.. فوضع قطعة قماش (فانيلة) على عيني.. وأدارها حول رأسي دورتين أو ثلاث.. ثم عقدها من الخلف بقوة.. وأمرني بلهجة عسكرية صارمة؛ قائلاً:. إلى اليسار در.

فاستدرت نحو اليسار.. وإذا به يشتمني ويقول:ـ لك مو إلى اليمين.. إلى اليسار.

ثم إستدرك قائلاً:. ها.. لا.. لا.. لا.. إلى اليمين در.

أدرت جسمي نحو اليمين.. وتبين لي أن هذا مراده.. ثم إقتادني وسار بي قليلاً.. فألقى بي أرضاً وأوثقني بسلسلة حديدية.. أمسكت بالجامعة التي بين يدي.. ولما تولى تحسست السلسلة.. أدركت أنها تنتهي بشيئ ثقيل لم أستطع معرفته.. إلا أنه قيّد حركتي.. تبين لي بعد قليل أن هذا الشيئ هو قنينة غاز.

۞ ۞

الفصل الثاني

صراخ في ليالي طويلة

في ضيافة مديرية الأمن العام في بغداد

إكتنفني الظلام.. ظلام دامس يضيّق عليّ الخناق..كنت حاقناً.. القيد يدق على رسغي بحقد.. أحسست بالخدر يدبّ في كفي.. إبهامي الأيمن إزداد خدره وألمه.. فقد عضّ عليه القيد بقسوة.. حتى كأنه ينهش في قلبي.

جاءني أحدهم يسعى.. كأنما إنتبه للضيف الجديد تواً.. راح يمارس دوره.. إنهال على رأسي بيده الغليظة.. ثم تبعها بركلات.. صار يلاعب رأسي بقدميه كالكرة.. وهو يردد كلمتهم التي لا تفارق شفاههم اللزجة: ـ ها ولكم.. شتريدون إتصيرون وزراء ؟.

كلمات نابية.. شتائم مقذعة.. سباب وبذاءة.. خيّل لي أن أفواههم متصلة بمجار آسنة.. ضحكات جوفاء فارغة مدوية تردد صداها الجدران.. وقع أقدام مستمر بجانبي. ترى مَن هؤلاء؟! من أين أتوا؟! إلى أين يذهبون؟! لست أدري.

تنغرز في أذني فتخض دمي خضاً.

كل ما حولي مدلهم غامض مبهم.. صيحات إستغاثة مدوية تنبعث من حناجر رجال لا من حناجر أطفال.. يرافقها وقع منتظم لسوط آثم.. القيد يبعث خشخشة أتأملها بخشوع.. أصغي لسجعها.. تبدو لي مثل معزوفة

خالدة يهتز لها التاريخ.. فيقتلع حكاياته من الأعماق ينثرها أمامي.. تتقافز أمام ناظري مثل جراد منتشر.

يجتاحني سيل عارم من الخواطر.. خواطر تتوارد على ذهني من الماضي السحيق والماضي القريب.. التاريخ وحده يحدثني الآن.. فالحاضر مجهول غائب عني تماماً والمستقبل غامض مبهم.. كأنني أحملق في ظلمات.. في بحر لجيّ تمزقت فيه الأشرعة وغرقت فيه المراكب.

لم أعرف من الحاضر شيئاً سوى أنني أوثقت بسلسلة حديدية على قنينة غاز! لماذا؟! إلى متى؟! ماذا بعد هذا كله؟! لست أدري. الحركة أمر صعب مستصعب.. إلا ما تتيحه السلسلة التي قيدتني من كل جانب.

۞ ۞

العصابة اللعينة حجبت عني كل شيئ.. لم أرَ شيئاً.. لكنني أسمع همساً ولغطاً.. وأنيناً يتعالى تارة ويخفت أُخرى.. كل هذا يعبّ في أذني عباً بلا رحمة.. فتسري في عروقي رعشة تثير في وجداني زوبعة.. ألجأ إلى الله تعالى وأدعوه في سري.. وأتلو ما تيسر لي من القرآن الكريم، والأدعية والمناجاة.

رائحة كريهة غريبة.. يا إلهي.. ما هذه الرائحة؟!

رائحة حادة عميقة تنفذ إلى خياشيمي بقوة تكاد تمزقها.. ليست هي رائحة شواء لكنها تشبهها.. وليست هي رائحة العفونة لكنها تشبهها.

رائحة غريبة لم أشم مثلها طيلة حياتي.. تبيّن لي فيما بعد أنها الرائحة التي تنبعث من الأجساد التي تتعرض للصدمات الكهربائية.

بإنتظار التعذيب الذي يسمى التحقيق!

صمت ثقيل يجثو على صدري.. الزمن يلوك اللحظات بسأم.. ما انفك القيد ينهش معصمي بشراهة.. إبهامي الأيمن إشتد ألمه.. شعرت شعوراً

موحشاً كأن وجه الأرض قد خلت إلا مني. ترى بأية وجوه سيلاقونني.. وبأي سؤال سيواجهونني.

هذا اليوم هو يوم الأحد المصادف12 تموز 1981.. ما ضرّ لو أن الزمن يقفز إلى ما بعد سنة أو سنتين أو أكثر ليكون هذا اليوم في خبر كان.. كما يقولون.

تمنيت لو أن الزمن ينضغط.. يقفز.. يتلاشى.. ربما لأنني عاجز عن القفز.. عن الهروب.. عن الإختفاء.. عن الدفاع.

تساؤلات وخواطر تغزوني من كل جانب.. تضيّق عليّ الخناق.. ترى ما الآلة التي ستسحق خلايا جسدي.. وتعوّق أطراف بدني؟! ما أجمل الموت.. وما أحلى الطلقة وهي تخترق راسي.. حقاً إنها طلقة الرحمة!

ترى عمّن سأسأل.. يا إلهي إنها لحظات صعبة.. ثقيلة.. رهيبة للغاية.

سوف يغرونني (سوف نطلق سراحك).. (نهدي لك هدية).. (أنت بعدك شاب).. (لا تدمر حياتك).. (بس تعترف تطلع)... إلخ.

ثم تنهال عليّ السياط.. كنت مستعداً لكل شيئ.. للتعذيب.. لأسئلتهم.. أعددت لكل سؤال توقعته جواباً.. الجواب الذي ينقذني.. وينقذ الآخرين.. صرت أكرر الأسئلة والأجوبة فيما بيني وبين نفسي.. الأسئلة التي يواجهون بها المعتقل.. فقد عرفت بعضها من خلال المعتقلين الذين أطلق سراحهم والتقيت بهم.

إفترضت أسئلة كثيرة.. وأعددت لكل سؤال جواباً وحفظته عن ظهر قلب.. لتكون إجاباتي على الفور وكأنها غير مختلقة.

شرعت أهيئ أسلحتي لهذه المعركة.. فالصمود سلاح.. والإنكار سلاح.. والتجاهل سلاح.. والتغابي سلاح.. وأعظم سلاح هو الدعاء.. والتضرع إلى الله تعالى.

۞ ۞

تحسست القيد مرة تلو مرة.. إنها حقيقة لا شك فيها.. الآن أنا معتقل! ولكن أين يا ترى؟! في أي مكان؟! هل يعرفني أحد في هذا المكان؟! هل سألتقي بإخواني وأقاربي وأصدقائي المعتقلين؟!

الصمت الخانق يلفني.. يمزقه وقع أقدام ثقيلة.. ترى مَنْ هو صاحب هذه الأقدام الثقيلة؟ زفير يملأ أذني.. إذن هناك بجانبي شخص.. ولكن مَن هو هذا الشخص؟! هل هو شرطي يرافقني كل هذه المرافقة ليسمع همسي؟ أم إنه معتقل مثلي؟ أسئلة كثيرة وكلها بلا أجوبة.

تشيع في الجو روائح ثقيلة تبعث على الغثيان.. تطغى عليها رائحة زكية.. إنها رائحة الديتول.. فهي أزكى رائحة في ذلك المكان.

۞ ۞

حاولت أن أنفذ ببصري عبر الخرقة.. ولكن دون جدوى.. خرقة لعينة حجبت عني كل شيئ.. حجبت النور.. والحاضر.. والمستقبل.. جذبتني صور وأحداث إختزنها عقلي.. ومارت في قلبي.. والتصقت بوجداني.

خلت أن هذا القيد هو الذي عضّ على معصمي عندما إقتادوني مع حجر وأصحابه.. وعرضوا علينا البراءة من (أبي تراب) فأبينا ذلك.. فأوعدونا أن سيستأصلوا شأفتنا.. وشاهدت رؤوساً تتدحرج وهي تلهج بذكر الله.. بل هو القيد ذاته الذي أدمى معصمي في سجون الأمويين والعباسيين.. ألقي بنا في سجن مظلم حتى لم نكد نميز الليل من النهار.. والماء يسيل من تحتنا فيغطي أقدامنا.. كان الظلام دامساً فلم نهتد لمواقيت الصلاة.. إلا بما ينتهي إليه ذلك الشيخ من أجزاء القرآن الكريم.

بل تذكرت لما سرى بنا نبي الله الكليم.. وكان البحر أمامنا وفرعون وجنوده وراءنا.. وقفنا نتطلع إلى وجه الكليم.. فقال وهو يرفع طرفه إلى

السماء وعلى شفتيه إبتسامة الرضى والإطمئنان وكله ثقة بالله:{ **كَلا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ** }[6].

تذكرت تلك الصحراء القاحلة التي كانت تخشع لصوت الحسين.. تردد صدى صيحته الخالدة: «والله لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل.. ولا أقرّ لكم إقرار العبيد»، فنمتلأ قوةً وثورةً وعزيمةً وإصراراً وإباء،ونحن خلفه، فأرى بريراً يبتسم مسروراً بملاقاة أعداء الله،وهو يرنو إلى حبيب بن مظاهر،فيراه مبتشراً، وعابس يلقي بدرعه ليتلقى طعن السهام، والرماح، والسيوف،فيقول (حبّ الحسين جنني)....

هكذا غدت الخواطر تتوارد على ذهني من كل حدب وصوب.. حتى بتّ كفيسلوف هندي يؤمن بتناسخ الأرواح.

كأنني عشت قروناً.. وسُجنت وعُذبت.. ونحرت مراراً.

إنتزعتني من أفكاري شتيمة نابية أطلقها الشرطي على أحد المعتقلين.. ثبتُ إلى رشدي.. لملمت أطرافي.. جلست القرفصاء.. أدنيت رأسي من ركبتي.. رغبة خطيرة توثبت في نفسي.. حاولت أن أزحزح الخرقة عن عيني.. أحسست أن عيونهم تتابع حركاتي.. ترددت طويلاً.. ثم زحزحتها قليلاً.. فأحدثت فيها خرقاً صغيراً. كدت أهنئ نفسي على هذا الفتح العظيم! فقد أُتيح لبصري أن ينفذ من خلال هذا الخرق.. وبه تقشعت عني سحب الأوهام.. فصرت أبصر أشياء كثيرة خَفَتْ عني تماماً.. وتفسرت لي مبهمات.

الربط بقناني الغاز

تبين لي الزفير الذي يملأ أذني منبعث من أنف فتى كان مقيداً معي على ذات القنينة.. معصوب العينين.. سمعت وقع أقدام.. إعتدلت في جلستي..

---

[6]) الشعراء: 62.

أطرقت برأسي ولم أحرك ساكناً.. بعد قليل أطبق علينا الصمت.. عاودت الكرة ثانية.. ألقيت نظرة شاملة سريعة على مَن حولي.. فوقع بصري على أجساد ملقاة على الأرض.. بعضها جالساً القرفصاء.. وبعضها مسجىً ينزف دماً وقيحاً. سقط نظري على رجل كهل أمامي.. مقيداً مثلي.. تورمت قدماه.. والقيد يعضّ على كفين ينزان قيحاً.

رحت أسترق النظر بين الحين والآخر.. لحظت المكان الذي أنا فيه.. ممر طويل لا يزيد عرضه على المترين تطل عليه أبواب خشبية موصدة.

تناثر على جانبيه كهول وشباب وفتيان.. يبلغ عددهم خمسين شخصاً تقريباً.. أغلبهم من الشباب. مددت إليهم بصراً حائراً.. واشتبكت في أحاديث صامتة لا نهاية لها: مَن هؤلاء؟! ما الذي جاء بهم إلى هنا؟! ما هو هذا المكان الذي يستضيف هكذا عدد؟! كم لبثوا في هذا المكان؟! وكم سألبث معهم؟!

هل نبقى على هذه الحال أياماً؟! شهوراً؟! سنوات؟!

مضت ساعتان تقريباً كنت خلالها أرسل نظرات خاطفة هنا وهناك.

رغبة تلح عليّ أن اجيل ببصري علّني أحظى بتفسذير لما أسمع وأرى.. مع أنني أدركت أن نظر المعتقل جريمة لا تغتفر بعد أن سمعت الشرطي يسأل معتقلاً بغضب: ـ عليمن تباوع؟ ثم انهال عليه بالسوط وهو يستفظع فعلته!

سرت حركة.. وطغت على مسامعي همهمة.. تؤطرها كلمات بذيئة.. وبعد قليل أحسست أن ثمة شيئ وضع أمامي وألقي شيئ في حجري بعنف.. مددت نحوه يدي.. وما أن أمسكت به حتى تبين لي أنها صمونة.. ثم سمعت صوتاً جافاً يأمرني: ـ أكل. صرت أبحث عن الطعام كالكفيف.. فاصطدمت يدي بإناء.. تحسسته.. وجدته إناء متوسط الحجم.. فيه رز لطّخه قليل من (المرق).. حاولت أن أتناول الإناء.. لكن القيد يمنعني..

إستمرت محاولاتي حتى بالكاد ظفرت به.. تناولته بكلتا يدي.. أدنيته من فمي.. واجهتني صعوبة أخرى.. فالقيد يمسك بكلتا يدي.. إذا أمسكت الإناء بيد تعذرت حركة اليد الأخرى.. أخيراً وجدت حلاً.. وهو أن أقتطع قطعة من الصمونة وأجعلها كالملعقة.. ثم صرت أحمل بها الرز إلى فمي.. فيتساقط منه في الإناء وعلى الأرض وعلى ثوبي.. وتصل البقية إلى فمي.

التهمت شيئاً منه بيدين متسختين.. وبنفس عازفة عن الطعام.. ثم دفعت إلينا علبة (كرتون) متوسطة الحجم.. ورفع الشرطي صوته قائلاً:ـ جمّعوا الفضلات.

فأسرع الجميع لوضع ما تبقى من الطعام فيها.. وكل يدفعها إلى مَن بجانبه.. والشرطي يملأ الفاصلة بها برجله ليوصلها إلى الآخر.. ثم جمعت الأطباق على عجل.. وعاد الصمت ثقيلاً يخيّم على الجميع.

ـ لك ليش تحچي؟ صوت غاضب تناهى إلى مسامعي في ذلك الصمت الخانق.. ثم أعقبه صفع وركل. ردّ عليه صوت قائلاً بتوسل:ـ والله ما حاچي.

ـ لك آني شفتك تحچي وياه.. شنو إشگتله؟

ثم تحول السؤال إلى آخر:ـ لك إنت اشگلك؟ والله كلشي مگلي.

فختم الشرطي هذه المحاورة بتهديد:ـ لك انتم ميفيد بيكم إلا الكيبل. ثم انهال عليهما بالسوط وهما يستغيثان.. وتركهما قائلاً:ـ والله اليحچي إلا موته..

۞ ۞

حينئذٍ أدركت سرّ هذا الصمت الخانق. فالكلام كله ممنوع! والذي يتكلم يناله حساب عسير! ثم تبين لي أن حراساً يتناوبون على مراقبة المعتقلين.. من الصباح حتى آخر الليل ومن آخر الليل حتى الصباح.. يتابعون المعتقلين في حركاتهم وهمساتهم.. في يقظتهم وحتى في نومهم!

رحت استرق النظر وأرهف السمع.. عسى أن ألتقط كلمة تفسر لي هذا اللغز وتكشف لي سرّ هذا العالم المجهول.. لقد تجلت لي حقائق مهمة.. يا للهول.. ان هذا المكان الذي يكتنفني هو (مديرية الأمن العام) الشعبة الخامسة!!

هكذا مرة واحدة وجدتني في بطن هذا الشبح الرهيب.. الذي كنت أسمع عنه كما يسمع الطفل عن حيوان خرافي يسرق الأطفال ثم يأكلهم بلا رحمة!

عطاشى على ضفاف دجلة!

إشتدّ بي العطش.. مثانتي كأنها إمتلأت بجرذان مجنونة.. القيد ينهش لحم يدي.. الخرقة تضغط على عيني.. الأسطوانة الحديدية تجذبني إليها بشدة.. تسقط عليها السلسلة التي أوثقت بها فتحدث أصواتاً تذكرني بمبادئ حزبهم وثورتهم (العملاقة)! سوط.. سلسلة.. قضبان.. هراوة.. وخازوق يقعدون عليه ضيفهم المحترم! ليسقوه كأساً محلّى بالسم.

العطش يلهب أحشائي.. ترددت في طلب الماء.. فما زال صوت ذلك المجرم يرنّ في أذني وهو يقول لصاحبي عندما طلب منهم ماءً: ـ أنتم مو جماعة الحسين.. راح إنموتكم عطش! ظننت أنهم سوف يميتونني عطشاً. وإن طلب الماء جريمة لا تغتفر! لكن العطش ألهب أحشائي.. فاضطرني إلى أن أطلب الماء.. وبعد تردد طويل وكأنني أشد صوتي من نهاية حلقي.. ناديت طالباً الماء.. وكنت منتظراً الصفعة.. أو السوط.. أو الهراوة.. أو الماء! وما أن نطقت (أريد ماي) حتى سمعت صوتاً لشيئ ما يزحزح على الأرض غير بعيد عني.. ثم يدنو مني حتى يصطدم بركبتي.. مددت نحوه يدي.. لمسته وتحسسته بكفي.. فأدركت أنه (سطل) متوسط الحجم فيه ماء.

إذن الماء غير بعيد عني.. وطلبه ليس جريمة كبرى كما توقعتها.. وما كلمة ذلك المجرم لصاحبي إلا لتهويل الأمر علينا.. حتى كأننا نساق إلى الموت عطاشى.. كما ذاق الحسين الموت عطشاً.. ثم إنه يدرك أننا نساق إلى (مديرية الأمن العامة).. وهناك المعتقل يشرب الماء ويتناول الطعام في أوقات ثابتة.

مددت يدي إلى داخل (السطل) بلهفة فاصطدمت بالإناء (طاسة بلاستيكية) متوسطة الحجم.. اغترفت غرفة ورفعت الطاسة نحو فمي.. وإذا الماء يسيل على صدري وثوبي من خلال ثقب ثقبوه فيه عن عمد ومهارة.. ابتغاء للأذى.. هكذا هم يسخّرون كل شيئ لأذى المعتقل.. حتى بأدق الأشياء! أدنيت الإناء إلى فمي بلهفة العطشان فلقد جفّ حلقي.. واضطرمت نار العطش في أحشائي.

حاولت أن أعبّ الماء في جوفي ولكن داهمتني حرارته فهو ساخن.. إذ يأتون به من (الخزان) مباشرة.. الذي تضربه شمس تموز الحارقة إلى فم المعتقل مباشرة. وعلى الرغم من ذلك شربت ما في الإناء حتى آخر قطرة.. وبعد مضي قليل من الوقت شعرت كأن مثانتي تتمزق.. فقد ازداد إحتقانها.. إذن هكذا هي الحكاية.. الماء لا يروي.. والإكثار منه يسبب الإحتقان بسرعة.. ثم إن المعتقل لا يعرض على دورة المياه إلا مرتين كل أربع وعشرين ساعة.

مضت ساعات وأنا أتلوى من ألم شديد في مثانتي.. جذبت مسامعي أَصوات غير إعتيادية.. حركة سريعة.. وقع أقدام.. وكلمات بذيئة.. صوت القيد يسقط على الإسطوانة الحديدية..إمتدت نحوي يد.. فتح القيد الموثق بالسلسلة.. ركلني برجله وأمرني بغلظة:ـ گوم.

إلى أين يا ترى؟! ما زالت الأفكار تتلاطم في رأسي.. نهضت فوراً.. دفعني وأمرني بالسير أمامه.. من أسفل الخرقة لحظت أقداماً تخطو على

عجل.. الأقدام حافية.. بعضها ممتلئة بالصديد تتلكأ في سيرها.. وبعضها تنزف دماً رطباً طازجاً.. وبعضها ملفوف بخرقة.

أسير بأمر الجلاد وهو يركلني.. ويسوقني بعصا كهربائية ثقيلة سوقاً بلا رحمة.. يلسعني بها من حين لآخر.. مثل لسعة عقرب حاقد.. أسير كالكفيف.. وتتناهى إلى أذني همهمات وأنات لم أعرف لها تفسيراً..شتائم وسباب.. كلمات عنيفة مقذعة.. صفعات وركلات.. أقدام تسبقني وأقدام تخالفني في السير.. إلى أين يا ترى؟!

دورة المياه أمنية كل معتقل!

هل سأكون لقمة هنيئة في أفواه الكلاب البوليسية؟! أم سألقى في قبو مظلم لا تنفذ إليه شمس ولا رياح؟! أم سيمارسون معي التعذيب؟! غمرتني حالة من الفزع واليأس والإستسلام.. ها أنذا أسير بين يدي الجلاد.. وما زال يحثني على السير بسرعة.. تكتنفني دوامة تكاد تقتلعني من الجذور.. خطوت عشرين خطوة تقريباً.. فجذبني من يدي وركلني.. وانعطف بي شمالاً. أمرني بغلظة أن أرفع الخرقة عن عيني بسرعة.. إمتثلت لأمره.. رفعتها فوراً.. هذه المرة الأولى منذ ليلة البارحة التي ترفع فيها الخرقة عن عيني.. إنتشر النور أمامي.. مسحت المكان بسرعة.. آه.. إنها (دورة المياه)!!

هي أمنية كل معتقل! رأيت عن اليمين مرحاضين.. وعن الشمال مغسلة. وقفت كأنني سمرت في الأرض.. لا أدري ماذا أفعل.. أنكرت نفسي إذ لمحت الحديد الذي يطوق ذراعي.. حافي القدمين.. يا لها من حقيقة مليئة بالشجن والمرارة.. هكذا بت معتقلاً أرسف بالحديد والأغلال!! صاح بي:. أدخل لك.

سقط نظري على حذاء عطن بالٍ ينتظرني.. قال لي بلهجة جافة وبإزدراء شديد: خليه بحلگك.. أدركت ما يرمي إليه.. دسست قدمي فيه على عجل.. ودخلت المرحاض.. صاح بي ثانية صيحة مهولة فيها وعيد وتهديد:ـ لك إستعجل لا تتأخر.. دير بالك.. راح أعدلك للخمسة. فقلت له متوسلاً: لا.. عد للعشرة.

كان الوقت قصيراً.. إذ يذهب ثلثه للتغلب على إعاقة الحديد!

فتح الشرطي الباب وجذبني من ردائي.. ولما أخرجني من المرحاض.. أحكم العصابة حول رأسي وعقدها من الخلف.. وعدت ثانية أحملق في الظلام الدامس.. ثم لكمني على وجهي.. ودفعني أمامه سوقاً بالعصى الكهربائية.. لسعني بها لسعات متعددة على ظهري وهو يمطرني بوابل من الشتائم.. ويأمرني بصوت غاضب أن أطأطئ رأسي وأن لا ألتفت.. بلغت المكان الذي كنت مقيداً فيه.. أوثقني على قنينة الغاز.. ثم تحسس القيد ولما اطمأن من شد الوثاق صفعني وشتمني وركلني ثم تركني وتوجه إلى غيري.. فتنفست الصعداء.. حقاً إنها رحلة شاقة وطويلة.. تتبعني هراوة.. وتنتظرني هراوة أخرى.. ولكن بقيت أتلوى ألماً من مثانتي التي ما زالت محتقنة. شعرت برغبة شديدة لأن أمدد رجلاي.. لولا أن الجلادين يمنعوننا من ذلك.. وبين الحين والآخر يهتف هاتف منهم بصوت مفزع:

ـ إتربع لك إتربع..وأحياناً يضيف أحدهم كلمة أخرى: ـ شنو عدنه فندق!!

ثم تترامى إلى مسامعي أصوات ركل وصفع وأنات.. وهكذا يبقى المعتقل جالساً القرفصاء أو متربعاً منذ الصباح الباكر وحتى ساعة متأخرة من الليل.. وهي الساعة التي ينتهون فيها من تعذيب آخر ضحية ذلك اليوم.

لبثت فترة جالساً القرفصاء.. أغتنم غفلة الشرطي فأرسل نظرات حائرة على مَنْ حولي.. تارة أتأمل الكلمات التي قالها لي رجال الأمن.. وأبحث عن معناها.. ولكن دون جدوى! ثبت إلى رشدي على أثر ركلة من الجلاد وهو يأمرني بغلظة أن أنهض.. نهضت فزعاً...إمتدت يده نحو القيد ففتحه.. ثم رفع العصابة عن عيني.. دهشت إذ أنه لم يأمرني بإغماض عيني.

كان الوقت ساعة الأصيل.. لاحت لي بقايا الشمس الصفراء متناثرة داخل البناية التي ينزلق إليها من خلال الزجاج المغطى بكثافة.. شعرت بحزن عميق إنتشر في صدري.

رجل واقف أمامي بيده (كاميرا) نظر إليّ من خلالها ثم برقت بوجهي.. وهمّ الشرطي ليضع العصابة على عيني فاغتنمت الفرصة وقلت له متوسلاً:ـ أريد الذهاب إلى التواليت! رمقني مقطباً.. وقال لي . وهو يهم بإحكام العصابة على عيني – بنبرة فيها تأنيب وتأديب وتوبيخ: عيب بابا عيب! فآثرت السكوت تفادياً عما لا يحمد عقباه! وعدت إلى مكاني معصوب العينين.. مقيد اليدين على قنينة الغاز.. حافي القدمين.. مفترشاً أرضاً وسخة.. والآلام تمضغ قلبي.. وعاد العواء الأجرب منفجراً من جديد.. ترى لماذا جيئ بي إلى هنا؟ بأي ذنب؟

فالذنوب كثيرة وكبيرة لا تغفرها رحمة جلادي العراق! الصلاة في المسجد ذنب.. عدم الإنتماء لحزب البعث ذنب أكبر وأفحش.. الإصغاء لإذاعة إيران.. إخوة معتقلون.. أخ مهاجر إلى إيران.. كلها ذنوب عظيمة تكاد تزلزل الأرض زلزالاً.. ولكن لماذا إعتقلوني في هذه الليلة بالذات؟!

هل حقاً إن لي صاحباً هنا.. كما قالوا لي؟ إذن أين هو؟ ومن هو؟

يا إلهي.. ما أجمل الموت والخلاص مما أنا فيه.

شهر تموز ينفث أنفاسه الساخنة اللزجة.. الروائح الكريهة تشيع في فضاء الدهليز.. صمت ثقيل مطبق علينا يبعث الضجر والملل في النفس.. الأفكار المقلقة المرعبة ما زال طنينها يملأ رأسي.. ترى.. ما الآلة التي سيستعملونها في تعذيبي؟ الكهرباء؟ سمعت عن ألمها الفظيع.

ولكن كيف يصل السلك الكهربائي بالإنسان فيعذبه عذاباً شديداً دون ان يميته؟! قلع الأظافر.. المكوى.. أشياء كثيرة سمعت عنها وهي الآن هنا.. أجل في هذا المكان ليس غير.. كلها الآن تحوم حولي وتتربص بي بشراهة.

ترى عمن سأسأل؟ وعمّاذا؟ ماذا يريدون مني؟ إلى متى سأظل هنا على هذه الحال؟ هكذا صرت أطفو وأغرق في أمواج الرعب والفزع.

إشتقت كثيراً لأداء الصلاة.. ها هي الشمس تأذن بالمغيب.. وصلاة الظهرين لم يتسنَ لي أداؤها.. وصلاة الفجر كذلك.

هل أن الصلاة ممنوعة في هذا المكان؟ لست أدري؟. لم أسمع أحداً سأل عن القبلة.. ربما يعرفها مَنْ كان قبلي ولا يحتاج إلى سؤال؟ لكنني لم أسمع أحداً أدى الصلاة. أين هي القبلة؟ من البديهي أن الإتجاهات الأربع لم أهتدِ إليها.. فقد دفعوا بي إلى هذا المكان وأنا معصوب العينين.. ثم مَن يجرؤ على السؤال؟.. وحتى لو عرفت جهة القبلة.. كيف يتسنى لي تغيير موضعي؟ قبل قليل إمتنع أحد المعتقلين عن تناول الطعام لأنه صائم.. لم يقولوا له: لِمَ أنت صائم؟ بل قالوا له:. ليش مسوي إضراب عن الطعام؟ ثم إنهالوا عليه بالسياط والأيدي والأرجل.. ترى لو سألتهم عن القبلة لكي أصلي بماذا سيجيبونني؟! تذكرت قوله تعالى الذي ردده سعيد بن جبير عندما أراد الحجاج نحره: {**وَلله الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ**}.

وحضرتني القصة.. حاولت أن أتيمم.. كيف أتيمم؟ وبأي شيئ؟ القيد يمنعني.. النجاسة والأوساخ تلفني من كل جانب.. على أية حال قررت أن

أضرب يدي على البلاط بالرغم من وساخته ونجاسته.. لكنه جاف وربما علق به بعض الغبار.. ولما هممت بضرب الأرض قفز سؤال جعلني أتردد.. ترى لو رآني الشرطي على هذه الهيئة وأنا أتجاوز كل هذه الضوابط الصارمة! ماذا سينالني منه؟

صرت أسترق النظر إلى الشرطي الذي يراقبنا.. حتى إذا ما اطمأننت أنه مشغول بغيري.. مددت يداي على عجل وضربت الأرض ضرباً خفيفاً خشية أن يحدث صوتاً فيلتفت الشرطي نحوي.. ولست أدري ماذا سيكون العقاب.. ثم طأطأت رأسي قليلاً ومسحت وجهي الذي نصفه مغطى بالعصابة.. ثم عاودت الكرّة ثانية وعلى المنوال نفسه.. حتى أكملت التيمم. جلست القرفصاء وأديت الصلاة إيماءً وبصوت خفي.. وصرت أحرك رأسي حركة بطيئة خفيفة غير ملفتة للنظر.. حتى أتممت أداء الصلاة.. ثم دعوت الله كثيراً أن يخلصني مما أنا فيه.. وأن يقبضني إليه من قبل أن يزل لساني فأذكر به اسم شخص فأكون سبباً في قتله.. او سبباً في هتكه. طالما ناجيت ربي وناديته نداءً خفياً بهذه الكلمات وأمثالها.. فقد رست في أعماق نفسي كلمات وحكايات حتى صرت أدرك من خلالها ان الاعترافات أمر فظيع.. في الدنيا العار.. وفي الآخرة النار.

۞ ۞

من المقرر أن كل 24 ساعة يعرض المعتقل على دورة المياه مرتين.. الأولى في الصباح.. وبعد الظهر أُخرى.. لكن حصل ذات يوم أن الشرطي (الخفر) لم يأخذنا الى دورة المياه لا صباحاً ولا بعد الظهر.. وجاء الشرطي (الخفر) الذي بعده.. وانتظرناه ليفتح القيد ويأخذنا الى دورة المياه.. لكنه لم يفعل! فناداه أحد المعتقلين بصوت متهدج.. طالباً منه أن يسمح له بالذهاب الى دورة المياه.. وقال له:. منذ الصباح ولحد الآن لم يذهب أحد الى التواليت!

فأجابه الشرطي بغضب:ـ ليش مگلتوا للگبلي.. ويقصد الشرطي الخفر السابق.فرد عليه أكثر من صوت:ـ كنا منتظرين هوّ يگلنا.

فأجابهم الشرطي جواباً حاسماً.. أخرس الجميع:

. أسكت لك.. لحد يحچي.. مادام ما أخذكم.. آني هم ما آخذكم!

وبهذا الخصام مع صاحبه! كانت النتيجة أن يبقى الجميع الى اليوم الثاني حتى مضت 24 ساعة دون أن يتخلى الجميع!

الإفطار على الشتائم!

مضت ساعة خانقة.. بعدها انبعث صوت مقرئ القرآن من المذياع.. ولما أنهى تلاوته أطلق المدفع طلقة معلناً فيها وقت الإفطار. هذا هو وقت الافطار.. بالأمس أين كنت في مثل هذه الساعة؟ واليوم أين أنا؟ ترى هل يتسنى لي صيام ما تبقى من الشهر المبارك؟ أم سوف أظل على هذه الحال؟

تناهت إلى مسامعي جلبة.. تفوح منها رائحة شتائم مقذعة.. وكلمات تتردد بصرامة.. (لك أخذ).. (لك اكل) حتى جاء دوري.. ركلني بقدمه وقال: أخذ لك.. مددت يدي باتجاه الصوت.. فألقى في كفي (سندويچة) أدنيتها من فمي.. شعرت أن تناول (السندويچة) أيسر من تناول الطعام الموضوع في إناء لمن كان معصوب العينين ومقيد اليدين.. فتبين لي أنها محشوة بلحم دجاج.. بعد مضي عشر دقائق تقريباً.. دارت علبة (كرتون) حولنا يزحزحها الشرطي برجله.. وينثر فوق رؤوسنا شتائم.. ويأمرنا بإلقاء الفضلات فيها.

خيم الصمت الثقيل علينا.. ويبدو أن لحم الدجاج أحرق أحشاء البعض.. تناهت إلى مسامعي خافتة من هنا وهناك طالبة الماء.. ولما لم

يجب أحد من الشرطة.. يسكت الطالب مؤثراً العطش على الجلد.. لكن ثمة شخص نادى بصوت مسموع:

. أريد ماي.. ثم راح يكرر الطلب.. ولكن دون جدوى.. فعلا صوته..

وإذا بالشرطي يضربه وينهره قائلاً بغضب مصطنع:ـ إيه الولد ميريد يفطر.. اليوم كله صايم؟! ويعني من كلامه هذا: أن الشرطي الخفر مشغول الآن بتناول طعام الافطار لأنه كان صائماً. تبين لي فيما بعد أن الجلادين يتظاهرون أمام المعتقلين بالتدين واحترام المقدسات.. سمعت كلمات كثيرة دلّت على ذلك.

۞ ۞

نادى أحدهم الآخر: صوماً مقبولاً وإفطاراً شهياً! وقال آخر: تقبل الله صيامكم.

وذات يوم سمعت الرائد عامر يوبخ شرطياً بصوت عالٍ ومن حوله الشرطة.. بعد أن جلده بطريقة (الفلقة) يقول له: . هذوله أمانة عدنا.. ولك شلون تخون الأمانة؟ شلون نصون الوطن ونخون الأمانة؟! اللي يخون الأمانة يخون الشرف.. ويخون الوطن، ثم توجه نحونا ورفع صوته وأردف؛قائلاً : ـ ويخون الدين.

ولست أدري ماذا صنع هذا الذي خان الشرف والدين والوطن.. واستحق كل ذلك العقاب.. كان يصرخ كصراخ المعذبين من المعتقلين.. ولاحظت شرطياً يتقلص وجهه فزعاً عندما يعلو صراخ صاحبه.

نال تلك السياط لأنه خان الشرف والدين والوطن! وهم يأتون بكل رذيلة.. ويقعدون حرائر الوطن على قناني البيبسي كولا.. واغتصبوا فتىً متديناً من أهالي بغداد وكان إعتقاله الذي إغتصبوه به بعد هذه الموعظة ببضعة شهور.. وبإشراف (الواعظ) الرائد عامر نفسه.

تبين لي فيما بعد أن بعض أفراد الشرطة هم من المناطق الشيعية البائسة[7].. وهم معرضون دائماً للضرب من قبل الضباط وإهاناتهم..فقد كان الخوف والرعب يخيم عليهم كما يخيم على المعتقلين.

۞ ۞

مضت ساعات ثقيلة والصمت مطبق علينا.. وفي ساعة متأخرة من الليل نادى أحد الجلادين بلهجة آمرة.. فيها وعيد:ـ ناموا.. الكل ينام.. يالله.. الكل ينام.

أمسى النوم واجباً.. بعد أن كان قبل لحظات ممنوعاً! سرت حركة سريعة.. واصوات تنبعث من القيد و قنينة الغاز.

إستلقيت متهالكاً.. فمنذ ليلة البارحة وحتى هذه اللحظة لم تكتحل عيناي بنوم.. عندما تناهى إلى مسامعي صوت الجلاد وهو يأمرنا بالنوم.. ظننت أن النوم سوف يغزوني بسرعة لشد ما نالني من جهد.. وسوف أغط في نوم عميق حالما استلقي.. لم أعرف كيف يكون النوم لمن قيّده الحديد عن الحركة. مددت جسدي فأعاقني القيد.. لم أجد موضعاً لرأسي سوى قنينة الغاز.

بعد محاولات انتهيت إلى حل أمثل.. وهو أن أضع يدي المقيدتين أمام وجهي.. ورأسي على الاسطوانة الحديدية.. مضت لحظات شعرت بالألم يدبّ في رأسي من أثر الحديد.. ثم إن النوم على أرض وسخة تثير الاشمئزاز في النفس.. حاولت أن أضع رأسي على البلاط.. ولكن القيد جذبني.

مضت ساعات ثقيلة خانقة مجهدة.. بين تعذر النوم وبين العقوبة المتوقعة من كثرة الحركة الصادرة مني توخياً لطريقة مثلى للاستلقاء.. وهكذا حتى الصباح لم أذق طعماً للنوم.

---

[7]) بائسة بسبب إهمال الحكومات الطائفية المتكررة والمتسلطة على رقاب الشعب العراقي.. والذي جعلها بائسة هو ذاته الذي حول (العوجة) و (تكريت) ومناطق أبناء جلدته إلى مناطق غير بائسة.

۞ ۞

سمعت المنادي ينادي بصوت أجش: إنهض.. الكل ينهض.. وسرت حركة سريعة.. ورنين ينبعث من القيد والأسطوانة الحديدية.. وكانت هذه الاصوات بمنزلة زغاريد تبشرني بحلول الصباح.. فقد كنت منتظراً هذه اللحظة بفارغ الصبر..إذ كنت أتمنى القعود كما تمنيت النوم من قبل.. نهضت مسرعاً.. واستويت جالساً.. خمنت الوقت.. كان الصباح باكراً.. تتابعت صيحات ينبو عنها الذوق السليم.. فهي تحية الصباح.. صفعة.. شتيمة نابية.

ثم سيق الجميع إلى دورة المياه.. واحداً يتلو الآخر.. بين اللكمات والصفعات والبذاءة والشتائم ولدغات العصا الكهربائية.. ولما استقر الأخير في مكانه جاء رجل كهل يمسح الأرض بقطعة قماش.. بعد أن يغمسها بالماء و(الديتول) ويلفها حول الماسحة.. وعادة ما تكون قطعة القماش هذه هي ثياب معتقل جديد.

سمعت رجال الأمن ينادونه باسم غريب وهو (هتلر).. ولما أتم مسح الممر أسرع الشرطي إلى توزيع وجبة الفطور.. حتى جاء دوري.. أدركت ذلك بعد أن ركلني برجله.. تناولت منه (صمونة) عليها قطعة صغيرة من الجبن.. ثم صرت أمضغها دون أن اتحسس طعمها.

۞ ۞

خيم الصمت الثقيل على الجميع.. يتخلله صوت الشرطي الخفر بين الفينة والفينة.. . لك انت ليش تحچي.. ابن الكلب[8].

جلست القرفصاء.. ورحت اوسّع الفرجة في العصابة التي تغطي عيني.. بل صرت أبتكر ابتكارات جديدة.. اذ أدرت شيئاً ما حول رأسي وزحزحتها قليلاً.. ثم جعلت نصفها يغطي حاجبي والنصف الآخر أسفل عيني.. حتى

8) وكلمات بذيئة جداً.

إذا ما اطمأننت أن أحداً لم يرني رفعت حاجبي وسرحت النظر.. رميت ببصري نحو أقصى الممر فلاحت لي أبواب متعددة على جانبي الممر الطويل يبلغ عددها خمسة أبواب تقريباً.. بعضها يفتح بين الحين والآخر.. وبعضها موصد صامت تصرخ خلفه أشباح الرعب! وكلما سقط نظري على هذه الأبواب الموصدة تساءلت طويلاً وقلت لنفسي:ـ ما سر هذه الأبواب الموصدة؟! وماذا بعدها؟! متى تفتح؟! ولمن؟!

سرعان ما أحسست بوقع أقدام.. طأطأت رأسي على عجل.. أعدت حاجبي إلى موضعه.. فعادت العصابة إلى موضعها.

جلادون كبار وصغار.. عامر التكريتي والعقيد حازم...

هكذا رحت أسترق النظر.. عرفت أغلب رجال الأمن في مديرية الأمن العامة الذين كنت بالأمس أسمع وقع أقدامهم دون أن أراهم.. وأسمع هم دون أن أميز صورهم وأشكالهم.. عرفت رجلاً يدنو من الكهولة.. متوسط القامة.. بديناً.. أحمر البشرة.. ذا كرش هائل.. وشاربين أصفرين عظيمين يغطيان فمه.. يدعى الملازم حازم التكريتي.. وهو أحد ضباط التحقيق الثلاثة في مديرية الأمن العامة.. ولديه مهام غير التحقيق هي متابعة الشرطة.. فهو يحركهم بأوامره.. ويمزح معهم أحياناً.. سمعته ذات يوم يعاتبهم قائلاً: ليش مخبرتوها.. ظاله بقلق عليّ.. من خلال مسار الحديث أدركت أنه يقصد زوجته.. لانه يخرج مع مجموعة من رجال الأمن لغرض إلقاء القبض على بعض المطلوبين.. ونصب الكمائن يستغرق وقتاً طويلاً أحياناً فيتأخر.. فتقلق عليه زوجته.. حينها تساءلت: هل لدى هؤلاء الجلادين أُسر وأطفال.. وكيف يتعاملون معهم؟ وهل يمنحون أطفالهم قُبل الحنان؟!

وبعد مضي عقد من الزمن.. أي بعد الانتفاضة الشعبانية في آذار1991م لمع إسمه كثيراً لما اقترفه من جرائم بشعة.. وصار سبباً لإزهاق أرواح الآلاف من خيرة أبناء الشعب العراقي.. ويتردد اسمه على الألسن كثيراً باسم (أبو درع) أو (العقيد حازم).. وفي هذه الفترة ابتكر نوعاً من التعذيب وهو:

لما كان جسمه ضخماً.. ربما يزيد على المائة كيلوغرام.. صار يجلس على بطن المعتقل الذي يعجز الجلادون عن انتزاع الاعتراف منه.. مستمتعاً بـ(سيكار هافانا).. ويظل جالساً وهو يذر رماد (سيكاره) في عيني المعتقل.. وهكذا يظل لمدة لا يعلمها إلا الله حتى يعترف أو يموت.. بعد أن تنزف عيناه دماً.

أما ممارسته في قتل ثوار الانتفاضة الشعبانية فهي غاية في الوحشية.. حيث انه صار يسحق الضحية بالحادلة.. وهي ماكنة كبيرة تستخدم في تعبيد الطرق.. بعد أن توثق أطراف المعتقل وهو ملقىً على الأرض.

كذلك عرفت ضابط التحقيق الرائد عامر التكريتي.. وهو الجلاد الأول في مديرية الأمن العامة آنذاك.. وقيل إن اسمه الحقيقي حذيفة.. يسكن مدينة طويريج التابعة لمدينة كربلاء.. رجل ربعة.. رشيق القوام.. ذو شوارب صفراء غليظة مقززة كطبعه تثير الاشمئزاز في النفس.. تتفجر من وجهه الشراسة والوقاحة.. صوته صلب.. إذا تكلم يشبه صوت مذيع ينقل احتفالاً.. يملأ الفضاء صخباً بصيحاته المدوية والمرعبة الداعرة.. وهو يمارس التعذيب وعادة ما يطلق كلمات سوقية غاية في البذاءة والوقاحة.. وأحياناً يستخدم اسلوب الوعظ قبل التعذيب.. فيقول للمتهم:ـ انت غلطت واحنا نعرف كل انسان

يغلط.. ماكو انسان معصوم.. بس أئمتنا الثنعش[9] المعصومين عليهم السلام ميغلطون.

وعندما لا تنفع هذه الموعظة يأمر بخلع سرواله ودقّ الخازوق في أسته.. وهو يتدلى في الفراغ.. ورجه بالكهرباء وجلده بالسياط.. ويداه مشدودتان إلى خلفه في سقف الغرفة.. أو طرحه ارضاً. ذات يوم كان يضرب فتاة علوية من مدينة النجف الاشرف بيديه ويشدها من شعرها ويجرها في الممر وهي تصرخ بأعلى صوتها بغضب وشجاعة، وتردد قائلة: كفرة مجرمين كفرة.. فكان هذا الهتاف يستفزه فيزيد من ضربها وهو يشدها من شعرها.

وغالباً ما يستفز المعتقل قبل البدء بتعذيبه.. فيقول له مستهزئاً: ـ خو ماكو سداً خلفاً! مشيراً بذلك إلى الآية الكريمة التي غالباً ما يرددها المتدينون في مثل هذه الظروف القاسية: {**وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ** }[10].. ثم يستأنف:

. هنا ميفيد شي غير الاعتراف.. سداً خلفاً ميفيدك.

ذات يوم نادى بصوته الجهوري صائحاً: ـ وين حمزة.. عماد.. صفاء.. وهم الشرطة الجلادون الذين يستخدمهم معه في تعذيب المعتقلين.

بالرغم من كثرة الجلادين الذين يستخدمهم لهذه المهمة.. يزيد عددهم على العشرين جلاداً.. لم أتمكن من التقاط أسمائهم.. إلا أنني كنت أرى وجوهاً متعددة.. لكن إسم صفاء كان يتردد كثيراً.. فهو معتمده الأول.. شاب متين البنيان.. قوي الجسد.. جسمه يشبه أجسام (الرباعين).. طالما سمعت الرائد عامر التكريتي ينادي باسمه قبل أن يلج باب غرفة التعذيب.. فيأتيه صفاء مهرولاً.. وبعد لحظات يترامى صراخ المعذب حاداً يحمل كل معاني الألم.. إسمه صفاء وينادونه أفراد الشرطة (أبو غضب).. فهذا الإسم

---

9) مشيراً إلى أئمة أهل البيت (ع) كما يعتقد الشيعة بعصمتهم.
10) يس: 9.

يروق له.. هكذا هم يخلعون على أنفسهم اسماء مفزعة مرعبة.. إتماماً لاساليبهم الإرهابية.. لأنهم (أمن عام).. رتبته رئيس عرفاء وهو فخور بذلك.. فقد سمعته ذات ليلة يقول لزملائه وهم يثرثرون متباهياً:ـ آني رئيس عرفاء من سنة 1972م.

حتى أفراد الشرطة كانوا يخشونه ويتقون شره ويخطبون ودّه! ولما اجتمعوا حمزة وعماد وصفاء حول الجلاد عامر التكريتي راح يوبخهم: ـ وين تروحون؟ وين؟ كلما يصير عدنه شغل! انتم مو موجودين. ثم أردف قائلاً وكأنه يلقي أهزوجة:ـ البيت تايه والمرة دوّارة.

سقطت كلمة (شغل!) على مسامعي مثل حجارة صلدة رميت بها.. (شغل)! ماذا تشتغل يا عامر التكريتي؟! كنت ألاحظه من وراء الحجاب المضروب على عيني بعد أن يخرج من غرفة التعذيب.. وبعد فترة طويلة قد تستمر ساعة أو ساعتين أو أكثر.. وفيها ألوان من الأساليب المرعبة.. متشابكة تنبعث من حنجرة المعذب.. ومن حنجرة الرائد عامر.. ترافقها السياط والهراوات.. وهناك أشياء أخرى كثيرة لم أسمع صوتها وهي تخترق جسد المعذب أو تكويه أو تلدغه أو...لكن كنت أسمع صراخه يتلون.. تارة زعقة عالية.. وأُخرى يصرخ كأنه مخنوق.. وتارة كأنه يعوي.. أو يستغيث... الخ.

وبعد أن ينتهي الصراخ.. يستمر الصمت لحظات.. يعم الشعبة الخامسة سكون كأنه سكون يعقب طوفان هائل مروّع. فلديهم طقوس لهذه اللحظات.. الجميع يصمتون.. ويمسي كلامهم همساً.

ذات يوم شاهدت شرطياً يمشي على أطراف أصابعه وهو محبوس الأنفاس.. ويقول محذراً لصاحبه الذي يكلمه بصوت مسموع.. مستعيناً بكفه: ـ تحقيق.. تحقيق.. ففزع صاحبه من هذا التحذير وسكت.

بعد هذا السكون.. يخرج الرائد عامر من غرفة التعذيب وقد أخذ من الضحية ما يطلبه.. رافعاً رأسه وقد غمرته نشوة الانتصار! وتفجر زهواً لم يستطع أن يخفيه.. اذن كان (يشتغل) عامر التكريتي!!

أحياناً كان يرتدي البذلة العسكرية وبيده مسبحة.. ويدخل إلى غرفة التحقيق ويبدأ بالتعذيب.. وأحياناً أخرى يأتي وقد ارتدى ثياباً تشبه إلى حد ما ثياب عمال البناء.. فهي عبارة عن (فانيلة) نصف كم زرقاء اللون وبنطلون وبيده (كيبل).. ويخطو خطوات سريعة ثابتة.. ويبدو أن ضحيته هذه المرة من (الوزن الثقيل).

ذات ليلة وقف بين المعتقلين وهو يرتدي الملابس الرياضية وبيده هراوة ثقيلة.. وعيّن بعض المعتقلين للشرطة وأمرهم بجرهم إلى منتصف الممر.. وصار يأتيهم واحداً بعد الآخر ويسأله سؤالاً مختصراً ودقيقاً جداً.. ويطلب منه الجواب بسرعة.. والسؤال هو: تعترف لو متعترف؟ بهاتين الكلمتين فقط والجواب.. يتقرر مصير انسان.. ولما كان الجواب عادة: واللّه كل شي ما عندي.. يسقط الرائد عامر الهراوة الثقيلة على رأسه وفي مواضع محددة وبضربات محددة.. يشهق المعتقل شهقة يفارق فيها الحياة.

ثمت جلادون آخرون.. من بين هؤلاء شاب أسمر.. ممشوق القوام.. خفيف الحركة وهو ضابط تحقيق آخر يسمى الملازم عدنان التكريتي حيث توكل إليه بعض قضايا التحقيق التي تحتاج إلى متابعة لاتمامها.

وفوق هؤلاء مدير الشعبة الخامسة.. رجل كهل.. قصير القامة.. أحمر البشرة.. أصفر الشعر يشبه شعر الثعالب.. لم أعرف اسمه.. ولعله هو المقصود بالرائد سعدون.. وفوق هؤلاء جميعاً الجلاد الأكبر المقبور فاضل البراك.. لم يتسنَ لي التدقيق في قسماته سوى أني لاحظت هيئته.. فهو رجل طويل القامة مع اعتدال في قوامه.. يرتدي البذلة العسكرية دائماً. تكررت زياراته للشعبة الخامسة.. وعادة ما تكون في ساعات متأخرة من الليل..

ويرافقه عسكريان.. يقصد غرفة التحقيق والكل يمشي وراءه ابتداءً من مدير الشعبة ويتبعه الضباط الآخرون.. كان يشرف أحياناً على عمليات التعذيب بنفسه.

الحاج عاشور

ساعة الأصيل.. تناهى إلى مسامعي صوت شجي ينسكب في أذني.. يسري في عروقي.. فتخشع له روحي.. وتذوب جوارحي.. ارهفت له سمعي ورحت أنصت له خاشعاً.. إنه صوت مقرئ القرآن الكريم الشيخ محمد صديق المنشاوي.. يقرأ الآيات الأخيرة من سورة القصص.. هذه الآيات الكريمة طالما كنت أستمع اليها من خلال جهاز التسجيل.. بل كنت أجاري بها المقرئ ذاته والطريقة ذاتها التي يقرأ بها وأهلي يسمعون:

{إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ. [11] حتى آخر السورة المباركة.

لاشك أن أهلي هذه الساعة يتهيؤون لصلاة العشاءين ثم الإفطار.. لابد أن هذا الصوت هو ذاته ينبعث من مذياع أبي الآن.. إذن لابد أنهم تذكروني الآن.. سوف تنكأ هذه الذكرى جراحهم.

كنت أستمع إليه وأنا مفترش سجادة الصلاة.. أو جالساً على كرسيً قبالة مكتبتي العزيزة ناثراً كتاباً بين يدي.. أقضي ساعات طويلة مع العقاد.. طه حسين.. نجيب محفوظ.. توفيق الحكيم.. جبران..الزيات..غادة السمان ..وغير هؤلاء من الأدباء العرب.. وساعات مع شكسبير.. تشارلز ديكنز.. هيجو.. تولستوي.. همنغواي ..وغيرهم من الأدباء العالميين.. مروراً بشعراء

---

[11]) القصص: 76.

المهجر والسياب وغيرهم.. وساعات أخرى أنفقها مع كتّاب الفكر الاسلامي.

فقد أحببت الكتاب إلى حد الهيام حتى باتت لدي المطالعة كالإدمان.. لا أفرغ من قراءة كتاب حتى أتناول الآخر.. بل كنت أعجب لمن ينشد لذة في غير هذا العالم.. عالَم الكتاب! كنت أقرأ عندما يكون أهلي يتسامرون.. وأقرأ في السفر.. وحتى جلوسي في السيارة.. كنت أغتنمه للقراءة.

ثم لما اشتدت حملات الإعتقالات.. لجأت كما لجأ الكثيرون إلى دفن كل كتاب اسلامي تحت التراب فهي كلها ممنوعة! كنت حريصاً عليها.. فوضعتها في أكياس (نايلون) سميكة ثم وضعتها في صفيحة معدنية كبيرة.. وحفرت لها حفرة وأهلت عليها التراب.. وكأنني أرثي عزيزاً.. فتساءلت: لماذا كل شيئ ممنوع علينا إلا العذاب والموت؟ كنت منتظراً الفرج لأعيدها إلى موضعها.. بيد أن السنين الطويلة التي غيّبتني وراء القضبان حالت بيني وبين كتبي.. وبعد أن زارني ابن أخي في السجن وقد مضت تسع سنوات.. طلبت منه أن ينبش الموضع الذي إئتمنته سراً على كتبي.. ودفنت فيه أحب شيئ إلى نفسي.. فوجد الصفيحة المعدنية بالية.. فيها أوراق متآكلة ممزوجة بالطين.

۞ ۞

لاشك أن أهلي الآن قد تهيأوا للصلاة والإفطار.. مجموع المفقودين هذا اليوم أربعة.. أربعة شباب بالتمام والكمال من عائلة واحدة! ثلاثة معتقلون.. ورابعهم مجهول المصير.. بلغنا همس أنه تجاوز حدود عراق البطش والإرهاب قاصداً إيران. لكن مَن يضمن الآخرين.. فما لاحظته من رجال الأمن في إبداء حقدهم على عائلتي يجعلني غير مطمئن على سلامتهم.

الحرارة تنبعث من كل جانب.. ترافقها الروائح الكريهة الغريبة.

القلق والخوف يخيم على الجميع.. أنهى المقرئ تلاوته وأطلق المدفع اطلاقته معلناً وقت الإفطار.. وزّع الشرطي طعام العشاء.. وهو يشتم بلسانه ويركل برجله ويناول بيده.. تناولنا السندويچ المحشو بقطع الدجاج.. وبينما كنت أمضغ لقمتي.. لكز جاري المقيد معي على القنينة ذاتها كتفي بمرفقه برفق.. وهمس باذني وناولني فخذ دجاج.. يستطيع البعض أن يأخذ طعاماً أكثر من حصته.. أحياناً على غفلة من الشرطي.. أو أن تكون نفسه عازفة عن تناول الطعام فيناوله لصاحبه مفضلاً على إلقائه في النفايات.. وربما يكون جاره جائعاً.. أو أنها رغبة لدى المجلود في استغفال الجلاد! تناولت منه فخذ الدجاج وصرت أقضمه.

تبين لي فيما بعد أن جاري هو الحاج عاشور عبد حالوب من أهالي مدينة الثورة.. كان سائق سيارة (18 راكب) كما تعارف العراقيون على تسمية هذا النوع من السيارات.. وطالما سخرها لخدمة المتدينين لنقلهم مجاناً إلى مسجد الخلاني.. وهو المسجد الذي كان يحاضر فيه الشيخ أحمد الوائلي في بغداد في ليالي شهر رمضان المبارك.. ثم وظفه بعض الحركيين لنقل السلاح.. واعترفوا بذلك تحت وطأة التعذيب.. شاهدته في المحكمة.. وكان معي في القفص ذاته رجل كهل اسمر البشرة.. ثم سيق إلى حبل المشنقة رحمه الله تعالى.

۞ ۞

مضت ساعة خانقة.. العرق يتصبب من الأجساد.. وحرارة تموز تلسعنا.. انقطع التيار الكهربائي.. فصار كل شيئ غارقاً في الظلام.. والظلام غارقاً في الصمت.. أسرع الشرطة إلى جلب شموع نثروها في الممر فبددت الظلام القاتم.. بعد مضي ساعة تقريباً عاد التيار الكهربائي.. وامتلأ الممر بالنور.. إلا أنه لم يزل موحشاً.

اشتد بي العطش.. ناديت طالباً الماء.. كررت النداء.. ولكن دون جدوى.. رفعت صوتي بما يناسب المقام.. وإذا بشرطي يقدم نحوي مسرعاً وسألني برفق وقال هامساً:. مو جبتلك ماي بارد؟ فأجبته:. لا.

غاب عني لحظات ثم ناداني برفق وكأنه يهمس: أخذ هاذه المي.

مددت يدي المكبلتين نحوه.. وإذا به يضع طاسة متوسطة الحجم في يدي.. حالما تناولتها سرت البرودة إلى يدي.. كان الماء بارداً.. فالماء هذه المرة من الثلاجة وليس من السطل.. أتيت على آخر قطرة في الإناء ثم ناولته له.. أخذه مني ولم ينبس بشفة.. كان يرفق بي كثيراً.. طالما تحسست يده تمسح على رأسي إذا ما نالتني ضربة من شرطي على الماشي.. ذات يوم وأنا أسير في طريقي إلى دورة المياه.. أسرع نحوي ومشى لصقي وهمس في اذني:. شكو عندك.. انت بحزب الدعوة. فأجبته بالنفي.. فسكت ولم يرد عليّ حتى بلغت دورة المياه ولم يضربني.. ما زلت أتذكر هيئته التي لاحظته بها من وراء العصابة وما زلت أتذكره.. وذكراه طيبة في نفسي.. حتى قلت لنفسي ذات مرة لعله يعرفني.. ولم يفصح لي عن ذلك تفادياً لما لا تحمد عقباه.. فأهل مكة أدرى بشعابها.

في ساعة متأخرة من الليل أُمر الجميع بالنوم.. حاولت أن أغمض عيني لم أتمكن.. بالرغم من أن الارهاق أخذ مني مأخذاً.. بيد أن القلق الذي عمّني وصلابة الوسادة الحديدية والحر الشديد.. كل ذلك حال بيني وبين النوم.. بقيت مسجىً على الأرض لم أرفع رأسي حتى الصباح بالرغم من رغبتي في أن أستوي جالساً.. ولكن (الگعدة ممنوع!) كما يصرح بذلك الجلادون.. وكما كان النوم طيلة النهار ممنوعاً!

وفي الصباح الباكر نادى الشرطي الخفر:. انهض.. الكل ينهض.. لك إنت انهض.. ابن الكلب.. ابن الگحبة.. وهكذا استرسل ينثر شتائم عنيفة مقذعة.

ثم سمعت صفعات.. وركلات.. وآهات تنبعث من حناجر مرهقة.

الأمنية الوحيدة توسعة القيد قليلاً!

ليست لي أمنية في هذه الدنيا سوى أمنية واحدة.. وهي أن يوسّع القيد قليلاً عن يدي.. فقد غاص في اللحم وأحدث جرحاً صار كأنه ينهش في قلبي.

حاولت أن أوسع القيد لكن محاولاتي كلها بائت بالفشل.. ترى إلى متى سيظل القيد هكذا؟ وإلى متى سأظل على هذه الحال؟ كانت هذه التساؤلات ترافقني مع نبضات قلبي.. ومع زفيري وشهيقي.

تناهى إلى مسامعي صوت خافت ينادي الشرطي طالباً منه أن يوسّع عن يده القيد.. فاستجاب له الشرطي.. ومن مسار الحديث بين الشرطي والمعتقل أدركت أن الامر انتهى بسلام.. وما أن فرغ الشرطي ناديته طالباً منه أن يوسّع القيد قليلاً عن يدي.. مددت نحوه يدي المكبلتين.. لاحظته من خلال الفرجة أنه وضع مفتاحاً في القيد ثم أداره قليلاً ووسّع القيد.. ثم ثبته وتركني.

تنفست الصعداء.. وصرت اتحسس كفي وساعدي.. فما زال الألم فيهما.. والخدر في أطراف أصابعي.. وأنا على هذه الحال طغت عليّ أمنية أخرى وهي أن يتيحوا لنا الاستلقاء.. وتساءلت هل يأتي يوم يتسنى لي أن أستلقي متى أشاء وكيف أشاء.. شعرت بأنني أتمنى أن أنال نجمة في السماء!!

۞ ۞

مضت عليّ ثلاثة أيام وأنا على هذه الحال.. الصمت الخانق يلفني.. أطفو وأغوص في بحر متلاطم من الخوف والقلق والمنغصات.. والاشتباك في

أحاديث صامتة مع نفسي لا نهاية لها. في ساعة متأخرة قد تدنو من منتصف الليل.. صكت مسامعي صرخة مجهولة انبعثت من حنجرة فتىً تعرض للتعذيب.. ثم استمر يصرخ صراخاً عالياً يصل إلى عنان السماء.. اشتد وجيب قلبي.. تملكني الفزع.. مسحت المكان ببصري علّني أرى شيئاً.. لكنني أدركت أن الصراخ ينبعث من مكان غير بعيد.. رافق الصراخ صوت مجلجل يدوي.. وكان يردد كلمة واحدة وهي: فضها.. يالله فُضها[12].

لم تكن وسائل التعذيب واضحة لدي.. بل كنت أسمع من المعتقلين الذين أطلق سراحهم وصفاً مجملاً وغير دقيق.. كانت كلمة التعذيب بالكهرباء كلمة تكلست في أذني.. وحالما سمعت هذا الفتى يصرخ هذا الصراخ الذي يمزق صماخ الاذن خمنت أنه يعذب بالكهرباء.. لكنني تخيلت الطريقة التي يعذب بها.. ربما تبدو هذه الصورة غريبة أو مضحكة.. وإلا لماذا تصورت هذه الصورة دون أن أتصور غيرها.

عندما أتذكر مثل هذه الصور الغريبة التي رسمت في خيالي.. وذلك لأنني معصوب العينين.. أتذكر الكفيف الذي يتمكن من الوصف الدقيق للأشياء التي يعجز عن وصفها البصير.

تصورته.. كأنما وضع في خزانة حديدية ثم راحوا يوصلون الكهرباء إلى هذه الخزانة بواسطة السلك الكهربائي.. ربما لأن الصوت الذي يبلغني يوحي إليّ بهذه الصورة.. كان الصراخ عالياً وكأنه ينبعث من مكان محكم.. رددت بصري من بين العصابة.. لاح لي باب قبالتي يفتح.. وداهمتني ترافق الصراخ.

تبين لي فيما بعد أنه باب غرفة التحقيق والصراخ الذي يعلو صراخ المعذب والصوت المجلجل هو صوت الرائد عامر التكريتي.. وأما الغرفة فقد أحكمت نوافذها لئلا ينفذ الصوت.. استمر معه التعذيب ربما أكثر من

12) فضها باللهجة العراقية تعني احسم الأمر.

ساعة.. تتخللها فترة قصيرة يستريحون فيها تستغرق بضعة دقائق.. الصراخ يتلوّن بتلوّن وسائل التعذيب.. يتواصل صراخه فترة تزيد على الدقائق العشر.. دون أن أعرف سبباً لهذا الصراخ.. ثم أسمع صوت سياط تنهال عليه بإيقاع منتظم وهو يصرخ من أعماقه.. معزوفة تحكي حكايات الاستبداد في أرض الرافدين!!

وفي ظهر اليوم التالي أعادوا الكرّة معه.. وفي هذه المرة أطالوا معه فترة التعذيب ثم ألقوه في الممر.. عارٍ مغمىً عليه.. شاهدت الشرطي يرفع رجله بقدمه ثم يتركها تسقط على الأرض ويسأله عن اسمه.. ولما لم يجب سمعت الشرطي يخاطب صاحبه:. هذا مغمى عليه.

وفي اليوم الثالث.. كذلك عادوا إليه فكان يصرخ هذه المرة بصوت مبحوح.

التقيت به فيما بعد وحكم علينا سوية.. وحدثني طويلاً عن تلك الساعات الرهيبة وعن آلات التعذيب التي استخدموها معه.. كنت أسمعه يصرخ وكأنه في حالة اختناق فأخبرني قائلاً: إنه الخازوق!

ثم أردف قائلاً: كنت أشعر أن فيه شحنة كهربائية.. وأما عن الكهرباء.. فقد ثبتوا كلابّاً في عضو ذكورته وصاروا يضخونه بها.

هذه الليلة الأولى التي سمعت فيها صوت معذّب.. و الجلادين وهي ترافق التعذيب تكون مرعبة للغاية.. فهي تارة تكون كالفحيح.. وتارة كالأنين.. وتارة كالعواء.. وتارة لا أجد لها شبيهاً. تملكني الرعب.. ورحت أحث نفسي على الصمود.. وأسائلها ترى هل تصمدين إذا تعرضتي لهكذا تعذيب؟ وقطعاً سوف أتعرض فسيأتي دوري لا محالة.. الأفكار تضرب كالمطرقة في رأسي.. وانتظر التعذيب كما ينتظر الطفل يوم الختان.. فهو خائف من الختان.. يفزعه ذِكره لكنه يرتجي الخلاص من هذه العقبة الكؤود.

الجلاد مهدي الدليمي وسمفونيته المفضلة

الأيام تمر.. مجموعة من الساعات الكئيبة يتراكم بعضها فوق بعض.. ولا أحد يعرف كيف سينتهي؟ ومتى؟ أتجرع فيها الذل والمهانة متصبراً وأفوض أمري إلى الله.. التعذيب يستمر.. والصراخ يستمر من الصباح الباكر حتى الظهر.. وفي أول الليل وحتى ساعة متأخرة بعد منتصف الليل.. رجال تعوي.. تئن.. تصرخ.. تستغيث.. والسياط تهوي على الأجساد فترتج لها الجدارن!

كانوا ينشطون في الليل أكثر من النهار.. عندما يضرب الليل فسطاطه ويجثو علينا بكلكله.. كانوا يهبّون هبّة رجل واحد.. ممتلئين بالحيوية والنشاط والقوة والإنتقام.. والشراسة والوحشية والسرور!! كثيراً ما أراهم عند ساعات التعذيب ممتلئين بهجة وسروراً ولذة!!

كان أحد الجلادين الذي أزهق أرواح كثيرة بهراوته.. والتي كتب عليها بخط واضح: (الموت لأعداء الثورة) اسمه مهدي الدليمي.. كان شرساً عبوساً.. حب الانتقام يتفجر من جوانبه.. أشرف على تعذيب المعتقلين في مديريات أمن متعددة.. وتنقل من مديرية أمن البصرة إلى مديرية أم بغداد ثم إلى مديرية أمن الثورة ليكون لها مديراً. لهذا الجلاد حالة غريبة.. عندما توضع مائدة الطعام أمامه يأمر بتعذيب أحد المعتقلين لتثار شهوة بطنه.

ذات يوم دخل إلى مديرية أمن الثورة.. وراعه إذ لم يسمع صراخاً.. فزعق وفزع أفراد الشرطة لزعقته.. وصاح بهم صيحة عظيمة مستنكراً شينع فعلهم.. وقال لهم بغلظة: شنو هاي ليش ما اسمع صريخ.. ياللّه علگوا أي واحد من هذوله! فأسرعوا إلى تعليق مجموعة من المعتقلين لا على التعيين في سقف الغرفة.. ليهدأوا روعه.

وكان من الذين علّقوا وعذبوا صديق لي اسمه أحمد من مدينة الثورة.. وقد التقيت به فيما بعد في سجن أبو غريب.. وكان يحدثنا عن ذلك اليوم وعن حظه العاثر كما كان يقول.. والجميع يضحك.. وتتناثر حوله دعابات خفيفة ساخرة من حال عراق صدام حسين ومبادئ ثورته وحزبه!!

وأنت اشّفت من التعذيب؟!

ذات ليلة هجموا علينا هجمة شرسة.. فقد كان الرائد عامر التكريتي يعذب في غرفة التعذيب المخصصة له..والملازم حازم التكريتي يعذب في غرفته.. والصراخ والعويل يتعالى ويصل إلى عنان السماء.. والخوف والهلع يتغلغل في قلوب الجميع. في غمرة ذلك الرعب سمعت الملازم حازم يكلّم معتقلاً كان يعذبه قبل قليل وعاد به الشرطي إلى مكانه.. فيقول له بصوت مرتفع يملأ مسامع المعتقلين:

. لك اشلون تعرف عنده علاقة بايران ومتخبّر عليه؟

فأجابه بصوت باكٍ والألم يعتصره:. ما أدري هيچ تعذيب!

فرد عليه الملازم حازم بتهكم:. وأنت اشّفت من التعذيب؟!

عندما تناهت إلى مسامعي هذه المحاورة.. شعرت كأن سهماً انغرز في فؤادي.. وكأن هذه الكلمات رسالة موجهة لي.. فأنا أيضاً لدي أخ مهاجر إلى إيران. إذن سوف ينالني مثل الذي نال هذا المسكين من عذاب أو أشد منه عذاباً.. وسوف يوجه إليّ نفس السؤال.. مَن الذي هرّبه؟ ومَن الذي رافقه؟ مَن الذي أبلغكم بوصوله إلى ايران؟ وهل تصلكم أخباره؟ و... الخ.

هذه الأسئلة المتوقعة وغيرها.. صارت تضج في وجداني وكأنها طبول حرب تقرع رأسي.. فأحث نفسي على الصمود.. متذكراً: «مَن آذى مؤمناً بشطر

كلمة كتبت على جبهته آيس من رحمتي».. فأتمنى لو يتاح لي الانتحار! فألجأ إلى الله تعالى بكل جوارحي.

أحسست بعذاب يأكل صدري ويشرب روحي.. بينما كنت على هذه الحال.. وإذا بسوط هائل يسقط على رأسي وكف غليظ يشدني من شعري.. وصوت يأمرني بالقيام.. قائلاً بلهجة جافة مرعبة:.گوم لك.

يا للهول! وقع المحذور!! الآن أنا والملازم حازم وجهاً لوجه.. لا يحجبني عنه سوى العصابة التي غطت نصف وجهي.. شعرت كأن الدماء تختنق في عروقي.. نهضت على عجل فسألني بجفوة:. اسمك؟

أجبته على الفور:سامي حمادي علي.

دفع بي نحو الأرض بقوة وأمرني بالجلوس.. فتنفست الصعداء وهدأ روعي.

محاورة بين الجلاد والمجلود.. وإن لم تستغرق سوى لحظات لكنها قاسية.. مفزعة.. ترتجف لها مفاصل اللغة.. الخوف يلفنا من كل جانب.. الخوف من الله.. الخوف من الجلاد.. الخوف من وصمة العار التي تطبع على جبين مَن يعترف على الآخرين.. بعد لحظات إنبعثت صرخة من حنجرة رجل تحمل كل معاني الألم.. ثم إستمروا في تعذيبه فترة لا تقل عن ثلاث ساعات دون ؟إنقطاع ولو للحظة واحدة. كانت ليلة رهيبة.. فالرجل تارة يصرخ.. وتارة كأنه يعوي.. وتارة يختنق.. وتارة يئن.. ثم صرخ صراخاً عالياً ومتصلاً وهو يستغيث صائحاً بلهجة قروية: . إهلاه بويه إطعيمه إهلاه.

ـ ولكَم بيَّ سَحَنه[13]. ثم سكت تماماً سوى أنات متقطعة تنبعث من حنجرة منهكة غاية الإنهاك.. ويبدو أنه أغمي عليه.. والوقت قريب من الفجر.. وبعد قليل شاهدت من بين الخرقة اثنين من الجلادين كل منهما

13) حالة تشبه الصرع.

يمسك بأحد ذراعيه وكأنه يتأبطهما.. ويجرانه وهو كالميت لا يقوى على الحركة ثم أوثقوه على قنينة الغاز.. وبعد ذلك صاح الشرطي الصيحة المنتظرة قائلاً بصوت فظ:. الكل ينام.. يلّه بسرعه.. وسرَت حركة سريعة.. و تنبعث من سقوط القيد على القنينة.. وكأن الجميع يريد أن يهرب من عالم اليقظة إلى عالم السبات.. ثم إن الجميع ممنوع عليهم النوم منذ الصباح الباكر وحتى هذه الساعة المتأخرة من الليل.. أحد منهم لم ينم.. لذلك أسرع الجميع للإستلقاء طلباً للراحة.. وأنّى لهم ذلك.. فالنوم عادة ما يكون في تلك الليالي الطويلة المريرة قلقاً متقطعاً.

ثم جاء الشرطي مرتدياً (تراكسوت) ذا لون أزرق وبيده قنينة.. ينثر منها عطراً في فضاء الممر والقاعة المجاورة التي تزدحم بالمعتلقين.. درءاً للروائح الكريهة المنبعثة من أجساد المعتقلين المتسخة.. ومن الأجساد التي تتعرض للصدمات الكهربائية.. ومن الأقدام والأيدي المتقيحة. وهكذا هم كل ليلة.. بعد الإنتهاء من التعذيب عندما يتهيأون للنوم.. ينثرون هذا العطر.. وكأنهم كانوا في حفلة أنس.. ولم يبق سوى العطر لتتم مراسيم الإحتفال البهيج.

مضى أسبوع وأنا على هذه الحال.. دبّ الخواء في أوصالي.. ونال التعب والإرهاق مني كل منال.. ثم إن الخرقة التي تعلو عيني باتت وسخة جداً.. وآكام من الوسخ اجتمعت فوق عيني.

صباحاً سمعت صوتاً ملأ الأفق قائلاً بلهجة خشنة: ـ الكل ينهض.. انهض.. لك انت انهض..ويبدو أنني لم أفق إلا على النداء الأخير.. استيقظت واستويت جالساً على عجل وجلست القرفصاء كعادتي.

رنين القيد و السلاسل التي تسقط على قناني الغاز ملأت مسامعي.. دهمني شعور بالفزع.. والضجر.. والاستسلام.. والحزن.

حاولت أن أفتح عيني ولكن دون جدوى.. حاولت ثانية.. انفتحت واحدة بالكاد وظلت الاخرى على حالها.. فقد تيبّس عليها الوسخ.

ويبدو أنني في أثناء محاولاتي هذه رفعت رأسي.. ومن بين الخرقة لمحت شاباً نحيلاً.. طويل القامة.. شديد السمرة.. لم أره طيلة مكوثي في هذا المكان.. عرفت فيما بعد أن اسمه سعدون.. ولما لمحته اطمأننت أنني قد رأيته مراراً وتكراراً.. ولكن أين؟ ومتى؟ لست أدري.. كان يرنو إليّ ثم مشى نحوي وقال متوعداً:. أكو واحد اشلون راح أريگه ريوگ! وما أن انتهت آخر كلمة إلا وصفعة عنيفة إنهالت على وجهي.. خلت أن انسان عيني سقط في حجري.. ثم أردف قائلاً بكلمات جافة:. عليمن تباوع ولك؟ متدري المباوع ممنوع؟

ثم اقتادنا واحداً إثر واحد إلى دورة المياه.. ولما عدت كان أحد المعتقلين قد أوثق في مكاني.. وبهذا فقد تزحزح مكاني قليلاً حتى صرت في آخر الممر.. إزاء باب غرفة تسمى (غرفة المساعي الحميدة).

غرفة المساعي الحميدة

طالما سمعت الضباط ينادون الشرطة قائلين:ـ اخذوه للمساعي الحميدة خل ينصحونه! وذلك بعد الانتهاء من تعذيب معتقل.. وكنت أظن أن (المساعي الحميدة) لجنة من رجال الأمن.. ولكن لما صرت إزائهم تجلت لي حقائق أخرى كثيرة.. تجرعت خلالها خيبة مريرة.. وكأنما هويت من شاهق إلى قرار سحيق.

فقد تبين لي أن هؤلاء الذين يسمونهم (مساعي حميدة) هم ليسوا من رجال الأمن.. ولم يسعوا مسعىً حميداً.. انما هم من المعتقلين.. بعضهم من قيادي الحركة الإسلامية أو رجال الدين وبعضهم من المستقلين ولهم وجاهة

اجتماعية.. وقد انهاروا من جراء التعذيب الوحشي الشرس وأدلوا بمعلومات كثيرة حتى اعترف بعضهم على العشرات.. وسيق الجميع إلى حبل المشنقة.. وبعضهم تطوّع لكتابة التقارير مخبراً عن بعض المساكين الذين ما زالوا في ديارهم وبين أهاليهم ابتغاء لمرضاة الجلادين ظناً منهم أن الجلادين سيطلقون سراحهم.. ولكن الجلادين يعتقلون اولئك ليرافقوا هؤلاء إلى السجن أو إلى حبل المشنقة. وبعض هؤلاء تطوع لجلد المعتقلين لينتزع منهم اعترافاً خفي على الجلادين!

ولكن مهمتهم الأساسية هي تخذيل المعتقلين.. ودفع المعتقل الصامد منهم الى الإعتراف ولعل أسلوبهم هذا يؤدي إلى إنهيار المعتقل في وقت يعجز عنه الجلادون بوسائلهم الشرسة لإنتزاع الإعتراف منه.

والحق يقال إن بعض هؤلاء هم من الناس الأخيار والمتدينين.. ولكن أريد لهم السقوط إجتماعياً.. فأقحمهم الجلادون بين هؤلاء.. وغالباً ما يلوذون بالصمت.. أو يرددون بعض الكلمات التي تلقن لهم وهم مجبرون على ذلك.. أو يغتنم بعضهم غفلة الجلاد فيحث الصامد على الصمود.. وعند يئس الأمن من الاستفادة منهم يزجونهم مع المعتقلين في الزنزانات.. أما بعض هؤلاء فكان يخدم الجلادين بحرارة.. وعندما يتكلم فكلامه بضمير (نا).. حتى يبدو للسامع أنه أحد رجال الأمن فيقول: جبنه المتهم.. أو جعلناه ينهار.. أو نصحناه... الخ. وهو يأمل العفو الخاص الصادر من السيد الرئيس له.. وقد تحسنت معاملته من قبل الجلادين.

اذن المساعي الحميدة هم مجموعة من المعتقلين يتراوح عددهم بين الستة والسبعة.. أو يزيدون عن ذلك أو ينقصون.. وضعوا في غرفة واحدة في احدى زوايا الشعبة الخامسة.. ولهم بعض الامتيازات الخاصة إن صح التعبير. فهم يشربون الماء البارد من الثلاجة التي تزين إحدى زوايا غرفتهم.. ويلفهم

هواء بارد تنفثه المبردة.. ويجلسون وينامون على فرش.. وقد أوثقوا بسلاسل طويلة لكي تتيح لهم الحركة داخل الغرفة.. ورفعت العصابة عن أعينهم إلا عندما يساقون إلى دورة المياه.. فتغطى أعينهم بنظارة سوداء تحجب عنهم الرؤية.. ولهم امتياز عظيم آخر! وهو أنهم يعرضون على دورة المياه متى يشاؤون.. وقد تحسن طعامهم.. فطعامهم خاص يتابعه الملازم حازم التكريتي بنفسه.. سمعته ذات يوم يسألهم:ـ هذا الأكل يكفيكم إتلث تيام؟فأجابوه بصوت مسموع:ـ نعم.. نعم.. هاذه هواي.

فقال لهم: خلّوه ليومين.

۞ ۞

ثم إن الضرب والإهانة والتحقير والتعذيب الذي يتعرض له المعتقل قد رفع عنهم.. ذات يوم جلس الشرطي (عماد)[14] إزائهم.. في فترة إستراحة عقب حفلة دامية صاخبة وهو يصفق بيديه.. ويردد بأسلوب إحتفالي: . نحتفل هذه الليلة بمناسبة إلقاء القبض على حزب الدعوة العميل.

ثم التفت نحوهم معتذراً وقال:ـ احنا مو عليكم نحچي.فأجابه أكثر من صوت:

. لا.. لا.. احنا بطلنه من حزب الدعوة.

ثم استمر ينثر فوق رؤوسنا شتائم مقذعة.. وعلاوة على ما ينالهم هذا القسط من الراحة.. فهم يأملون بتنفيذ العفو الخاص الصادر من السيد الرئيس لهم!!.

وبعضهم يسمح له بمقابلة أهله تثميناً للخدمة التي يقدمها!

---

[14] كان سفيهاً حتى وصفه أحد مايسمى بالمساعي الحميدة...(بُهل)... ولايتحرج من ذكر حادثة ،كان يذكرها ويضحك وكأن الأمر لايعنيه، وهي؛ عندما كان السيد محمد تقي الجلالي – رحمه الله وكيل السيد أبو القاسم الخوئي أعلى الله مقامه – معلقاً بالسقف يقول قلت له :

– سودتوا وجه التاريخ.

فردّ عليه السيد الجلالي وهو مقطع الأنفاس ؛ قائلاً بغضب : إنجب ما أنت والتاريخ؟

فكان يحدثهم ويضحك.

وهكذا حتى إذا امتص الجلادون كل محتواه.. لفظوه لفظ النواة.. وسيق إلى حبل المشنقة وسط الشتائم والسباب والصفعات.. وإذا ما حاول أن يذكرهم بـ(العفو الخاص الذي خصه به السيد الرئيس) يكون الجواب على الفور:. انچب لك.. أنت خائن.. وقليل من هؤلاء مَن يحكم عليه بالسجن المؤبد.. والتقيت ببعضهم في سجن ابو غريب وهم يعانون من نقمة وغضب بعض السجناء الذين تخاذلوا بسبب أحاديثهم المستمرة ونصائحهم.. والحاحهم المتواصل.. والكلمة التي يرددونها باختصار: ـ جيبلك واحد اثنين واخلص.

وكان بعض السجناء من يسميهم (لجنة المساحي[15] الخبيثة). كان من بين هؤلاء خطيب يقرأ المجالس الحسينية وقد صدر له ديوان شعر وكتاب.. وكان يجالس علماء الدين في الحوزة العلمية.. وكلما يناله تجريح يسرع مذكراً باصداراته وجلسائه.. متعالياً على مَن حوله!!

من أجل هذا وغيره.. كم تجلت لي معان غزيرة للمأثور الذي يقول: «حب الدنيا رأس كل خطيئة».. وما يقابله من مأثور: «رأس الحكمة مخافة الله».

كما صرت أشعر بتفاهة الكلمة ولزوجتها.. مهما كانت مشعة.. دفّاقة.. موحية.. أخّاذة.. تنطلق من فم يقضم أذناب الحروف لتنطلق انطلاقة صاروخية.. إذا لم يرافقها عمل وكفاح.. والعمل يرافقه صدق وإخلاص.. والإخلاص يرافقه وعي وإدراك.. والإدراك يرافقه توكل على الله. عند ذاك تكون كلمة حبيب بن مظاهر ومسلم بن عوسجة غير كلمة ذلك الكوفي الذي يدعو الحسين ثم يؤلب عليه ويعضد قاتله.. ثم ينوح عليه.

---

15) المساحي: جمع مسحاة.. وهي آلة يدوية تستخدم لحراثة الأرض.

وكلمة عنترة العبسي غير كلمة حسان بن ثابت أو المتنبي.. يهمز جواده مولياً هارباً وعندما يذكره خادمه بـ (خيله.. ليله.. البيداء.. الرمح.. السيف) يعود ليموت دون كلمته.. كم صرت أرثي لمن يجري وراء الألقاب المطهمة ولا يدري أنها مسؤولية أكثر مما هي امتيازات.. وخصوصاً في عصر الفتنة.

وكلما لاح لي خطيب يضرب الهواء بيمينه وشماله وقد أحمر وجهه وانتفخت أوداجه ليحرر أو يطهر أو يهز عروش الظالمين.. فيغدو عندي لا فرق بين أن يطهر البلدان.. أو يطهر الصبيان.. أو يهز عروش الظالمين.. أو يهز... حتى يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود!! ما أنبل وأعظم اؤلئك الذين يخلّي الحسين(ع) سبيلهم ليلة العاشر من المحرم.. فيتشبثون به ويتمسكون بأذياله.. ليلة العاشر وظهر العاشر.. وحتى تفيض أرواحهم الطاهرة دونه.

۞ ۞

تبين لي فيما بعد أن أمثال هؤلاء في جميع مديريات الأمن.. ويمارسون الدور ذاته والمهمة ذاتها.. بل لبعضهم دور أشد إخلاصاً.. كما حصل لشاب من حي العامل من مدينة بغداد.. فقد كان يشترك مع رجال الأمن في الإعتقالات والتعذيب.. وكثيراً ما عذّب المعتقلات المؤمنات.. بعد أن يجردهن من ثيابهن ويشدهن إلى السقف.. كان يتجول في اروقة مديرية الأمن وهو يرتدي (دشداشة) بيضاء تسر الناظرين! وينتعل (شحاطة) من النوع الثمين (شحاطة كويتية) كما يسمّيها العراقيون. وإذا أقبل على الشرطة وقفوا أمامه وقفة عسكرية وقالوا بصوت كالهمس ولكن يبلغ مسامعه: جاء الملازم جاسم.. ثم انهالوا عليه بالتحيات بكل سخاء. ولا يناديه أحدهم إلا قائلاً في ابتداء كلامه: سيدي! كل هذا حصل لأنه صار ضابطاً بعد أن أُعفي عنه كما أكد له ذلك المسؤولون في مديرية أمن بغداد.

ومقابل هذه (المكرمة!) السخية لم يترك شيئاً (يعتب عليه!) كما قال لي أصحابه.. فقد أدلى باعترافات كثيرة.. ثم صار يتذكر ويتذكر.. ولما أفرغ ما في جعبته تماماً صار يخبر عن أشخاص لم يرهم.. ولكن سمع أحدهم قد ذكرهم.. كما حصل لفتى اشترك في سفرة سياحية مع أصدقاء لصديقه.. ولكن راعه إذ سمعهم ينشدون نشيداً مطلعه: (يا مهدي.. إحفظ لنا خميني). فقد أفزعه هذا النشيد ولم يكن مستعداً لسماعه.. لأنهم ينشدونه في سيارة تجوب الطرقات الآهلة.. ثم إنه من (أهل السنة)[16] وهؤلاء كلهم من الشيعة (الثوريين!).. فصار يناديهم بغضب ويدعوهم للسكوت.. ثم لما تبين له أن كل هؤلاء (ثقة!) حتى السائق شاركهم على مضض.. وفي نشوة الأناشيد والتصفيق تدحرجت على لسانه طريفة قائلاً: لا يسمعكم بطيحان[17].. وبلغت هذه الطريفة مسامع هذا الشاب.. ولم يكن معهم ولكن من خلال (الرواة الثقة!).. ولما أدلى بكل ما لديه.. صار يطالب من ذكر هذه الطريفة باسم الشخص الذي قالها.

وتحت وطأة التعذيب تمت معرفة قائلها.. وسيق إلى مديرية الأمن ثم حكم عليه بالسجن المؤبد فقط! مع مجموعة غير قليلة.. ولما تم إلقاء القبض على كل مَن له صلة بهذه المجموعة.. وانتهى رجال الأمن من التحقيق معهم.. فقد انتهى دور (الملازم جاسم) ليعود إلى (المجرم جاسم).. وزج به مع أصحابه في زنزانة واحدة ولم يسلم من بأسهم وانتقامهم.. ثم سيق مع قسم كبير منهم إلى حبل المشنقة.. وفي زنزانات قسم الإعدام ضربوه ضرباً مبرحاً.. حتى أن أعضاءه التناسلية لم تسلم من أقدامهم المنتقمة.

---

16) عادل.. سني ثم تشيّع في السجن.

17) بطيحان: اسم بطل أحد المسلسلات التي تحكي عن الحياة البدوية.. مجرم وسفاح.. شاع هذا الاسم في أوساط الشعب العراقي.. إشارة منهم لصدام حسين.. ومنعت السلطة عرض المسلسل.. وبات ذكر كلمة (بطيحان) تعني التهجم على (سيادة الرئيس).

لم يعرف عن هذا الشاب سوى أنه شاب متدين وقد انضم إلى صفوف حزب الدعوة.. وسبق إعتقاله هذا بإعتقال عام 1979م وحكم عليه بالسجن المؤبد.. ولما أزاح صدام حسين أحمد حسن البكر عن السلطة أصدر عفواً.. نال هذا الشاب كما نال غيره.. ثم ظل مطارداً من قبل رجال الأمن لاستمراره بالعمل الجهادي.. حتى ألقي القبض عليه عام 1984 م.. وكان هذا الفصل الأخير من قصته.

سألت أصحابه كثيراً عن سلوكه قبل إعتقاله.. فأكدوا لي أنه لم يعرف عنه سوى أنه شاب متدين ومجاهد.. وقد عانى كثيراً من أجل ذلك. ولكنه كان يكثر من كلمة (عندما نستلم السلطة).. حتى قال لي أحد أصحابه وكان لبقاً في كلامه: كان يؤكد لي عندما (نستلم السلطة) نجعلك وزيراً للخارجية.. ويقول: كنت أظنه يمزح.

۞ ۞

لبثت أياماً إزاء (غرفة المساعي) كما كان المعتقلون يطلقون عليها هذا الإسم.. من دون ذكر (الحميدة)! التقطت أذناي أحاديث شتى.. فيها أسماء لشخصيات معروفة وأسرار و... وبأساليب مختلفة كلها تؤدي إلى التثبيط.. التخذيل.. إقناع المعتقل الصامد بالاعتراف.

المتكلم شخص واحد.. وكأنه يدير ندوة لحل أزمة السيارات.. أو السكن.. أو البيض.. أو الطماطة.. أو المجاري.. أو غيرها من الأزمات المتعددة في (عراق الثورة) و (عراق صدام حسين).. الجميع صامتون.. ولكنهم بين الحين والآخر يؤمّنون على كلامه.. ثم يبدأ يشيع جواً من المرح.. فينفجر الجميع ضاحكون بصداقة ومودة.. حتى لكأن المثل الشعبي ينطبق عليهم: (بين الاحباب تسقط الآداب).. وكأنهم في حفلة أقيمت للتعارف! ثم فجأة يصمتون.. وكأن على رؤوسهم الطير.. وكأنهم يضحكون ويصمتون ويتكلمون وكل هذا يجري باشارة.. ثم يستمر المتحدث في حديثه.. ويبدأ من

حيث انتهى.. الكلام يتكرر مع كل ضيف جديد.. والشواهد هي ذاتها.. سوى اختلاف بسيط بين حديث وآخر.

أدركت حينها أن تصرفاتهم لم تكن عشوائية ولا ارتجالية.. بل هم يتصرفون وفقاً لدراسة.. فهم يخلقون جواً من الراحة يطوف بالمعتقل.. بعد أن مزقوا جسده بوسائل التعذيب المتنوعة.

أما محاور الحديث فغالباً ما تكون على الشكل التالي: انت بعدك شاب ومستقبلك گدامك.. كلشي انعرف عنك.. إذا متعترف اليوم تعترف باچر.. اعترف احسلك.. بس تعترف تطلع. وإذا كان أباً فتضاف جملة: أنت عندك جهال.. وبس تعترف تطلع لجهالك.. وأحياناً أسمع: وقبضوا على هويات مزورة إلك ولجماعتك.. وأحياناً أخرى يقولون: قبضوا على أسلحة إلكم.. مسؤولك اعترف عليك ليش هذا الإصرار.. وإحنا نعرف شلون انخلي المتهم ينهار.. لمن نجيبله مسؤوله ويكشف أسراره ينهار تلقائياً.. ثق المعلومات اللي متكشفها الآن راح تزوعها[18] كلها.. هواي گبلك صمدوا.. ولكن يوصلون لحد يزوعون كل اللي عدهم.. ثم يسندون كلامهم بشواهد كثيرة وات خطيرة.. سمعتهم مرة يقولون:. وحتى عثرنا على گونية[19] فلوس كانت مخباية أبيت سيد قاسم المبرگع[20] وكيف ألقي القبض على شخص مهم كان يلتقي بالكوراني والآصفي وحسين الشامي[21] ثم اعترف على كلشي. وبعضهم كان يكشف عن جرح في جسده ويقول: ـ تشوف هذا الجرح.. تعرف اشلون حصل؟ثم يستطرد:

---

18) تزوعها: باللهجة العراقية تعني تتقيأها.
19) الگونية: تعني كيساً كبيراً.
20) السيد قاسم المبرقع.. إمام مسجد (محمد الباقر) في مدينة الثورة.. نفذ فيه حكم الاعدام مع أولاده ومجموعة كبيرة معه.
21) كانوا يرددون هذه الاسماء باستمرار.

ـ هـذا حصـل مـن جـراء مقابلـة مـع الأمـن.. ثم تم إعتقـالي واعترفـتلهم بكلشي. وإذا جئ لهم بمعتقل واتفق أن فيما بينه وبين أحد رجال (المساعي) رابطة نسبية أو صداقة وأحياناً عمل جهادي مشترك.. فيفاجئه بكلمة تؤدي به للذهول وهو يقول:

. أنت شتعرف عني سابقاً؟ آني الآن اعترفت على كلشي وراح يطلعوني.. وثق بس تعترف يطلعونك.. وموجود قرار عفو من (السيد الرئيس).. وكلنه راح نطلع. هكذا يدور الحديث حول هذه المحاورة.. وأحياناً يتوقف عند محور واحد فيسهب به.. وأحياناً يتكلم باقتضاب عند محور آخر حسبما تقتضيه الحاجة.

۞ ۞

ذات ليلة لاح لي الملازم حازم ماسكاً شاباً من ذراعه ويقوده نحو غرفة المساعي.. كان منحني الظهر من جراء التعذيب.. أزرار سرواله مفتوحه.. ويسير بتؤدة لأنه لا يقوى على السير:فسأله بصوت خافت لكنه بلغ مسامعي: . إنت شنو؟

أجابه بهدوء: ـ آني ضابط تحقيق.. ثم أدخله إلى غرفة المساعي.. وبعد برهة قصيرة اندفعت مجموعة من الرجال يدنو عددهم من العشرة.. يحثون الخطى نحو غرفة المساعي يتقدمهم الرائد عامر.. وكنت قد طرحت القنينة أرضاً لتستريح يداي.. ويبدو أنها أعاقت سيرهم.. وإذا بالملازم حازم يصرخ بي: ـ لك ارفع القنينة. فرفعتها على عجل. وبعد لحظات انطلق ذات الصوت.. والحق يقال ان صاحب الصوت متحدث بارع.. وذو نبرة صافية مؤثرة.. والكلمة طيعة على لسانه.. وقد فاجئني عندما سمعته اول مرة وكنت اظنه من رجال الأمن.. حتى عرفته فيما بعد إنه مدرس لغة عربية.. وإنه معتقل! وراح يتحدث بذات الكلمات التي سمعتها مراراً وتكراراً.. ولكن هذه المرة عليها حلاوة وفيها طلاوة وتتخللها طرائف.. وهكذا يستمرون مع

المعتقل.. تتنوع أساليبهم فتتلون وتتعدد.. حتى ينتزعون منه الاعتراف أو يموت تحت وطأة التعذيب.. فالشعار الذي يزيّن غرفة التحقيق هي تعليمات (القائد الضرورة.. صدام حسين!). وأبرز هذه التعليمات هي الكلمة المرعبة: «انتزعوا الأعترافات بشتى الوسائل».

أخيراً سمعته يقول بصوت متهدج وكأنه يزدرد ريقه:. ما أعرف.. بس إتلث بيوت بيها أسلحه.. ومن هذه الكلمة تبدأ قصص من المآسي.. فالمسبحة من أول حبة ثم تنفرط جميعها.

لماذا تزجون النساء في التنظيمات الإسلامية؟!
إسماعيل يوسف من الشعلة

الساعة الثالثة بعد الظهر تقريباً.. رمقت من خلال الفرجة الصغيرة التي أحدثتها في العصابة فتىً كان جالساً قبالتي.. يدرج في العشرينات من عمره.. أسمر البشرة.. شعره جعد غزير فاحم.. مشدود القوام.. يرتدي قميصاً ذا لون أخضر وبنطلوناً باللون نفسه.. وحذاؤه لم يزل في قدميه.

جئ به تواً.. معصوب العينين.. موثق على قنينة غاز.. يبدو أنه كان مهماً لديهم.. إذ لم يمهلوه نصف ساعة حتى جاءه الشرطي وركله.. ثم قال له بعنف:. اسماعيل يوسف گوم.. وأدار المفتاح في القيد.. فنهض الفتى وقاده الشرطي نحو غرفة التحقيق.. وبعد مضي دقائق قليلة انبعث صراخ هائل.. واتصل الصراخ.. واستمروا معه على هذه الحال مدة تزيد على الساعتين.. وهو يرزح تحت وطأة تعذيب قاسية.. تتناوب عليه السياط والهراوات والصدمات الكهربائية والخازوق ووسائل التعذيب الأخرى.. ثم أخرجوه من غرفة التحقيق وألقوه في الممر.. وبعد مضي ساعتين تقريباً أعادوا الكرة معه ثانية.. رمقته من خلال العصابة.. لاحظته يتعرج في سيره.. يسنده شرطيان قاصدان به غرفة التحقيق.

التحقيق! تخشع دونه الاصوات.. الجميع سكوت.. وحتى الشرطة إذا تكلم أحدهم فكلامه همساً وباقتضاب وإذا مشى أحدهم فيخطو خطوات هادئة وبحذر.

لم تمض سوى لحظات.. وإذا بصراخ مجلجل ينبعث من جديد.. ثم انطلقت صيحة عظيمة مدوية تحمل كل معاني الحقد والانتقام من حنجرة الرائد عامر الصاخبة وهو يقول بنفاد صبر: . لك فضها لا أ... ك[22].

ثم سمعته يصرخ كأنه في حالة إختناق من جراء الخازوق!

مضت ساعة رهيبة وهم مستمرون بتعذيبه.. وبعد برهة تجلى صمت مفعم بالإنفعالات.. لاحت لي فتاة يقودها شرطي.. رمقتها من خلال العصابة.. لم تزل ترتدي عباءتها.. معصوبة العينين.. مكبلة اليدين.. يقودها شرطي أحمر البشرة ذو شعر أصفر، كشعر الثعالب،.. ماسكاً بيدها وهي منحنية إلى الأمام نصف إنحناءة!،... أواه لشد ماآذاني ذلك المشهد المروع، ومازالت تتقطع أنفاسي لذكراه،وحش مجرد من الإنسانية يقود هذه المرأة العفيفة!...إلى أين!!؟،كل هذا والرجال مقيدة، وتلوكها وسائل التعذيب. أدخلها غرفة التحقيق.. مضت لحظات ثم ترامى صراخها يحمل كل معاني الألم.. استمر التعذيب يهرس الفتى والفتاة.. كان صوت الفتاة يتعالى صارخة من ألم التعذيب:

. يا بويه انسحنت روحي.. يا بويه انسحنت روحي..

ثم تستطرد هاتفة بألم وبصوت باكٍ:. الله اكبر.. الله اكبر..

ثم تعود تردد الكلمة الأولى.. كل هذا حصل دون أن أسمع صوتاً لآلة تعذيب.. تبين لي فيما بعد أنها الكهرباء اللعينة! وهي تتسلل إلى مخابئ جسدها بإشارة وتوجيه من حماة الوطن وصائني شرفه وعرضه.. استجابة لأمر

22) كلمة بذيئة جداً.

القائد وعملاً بتعليمات قائد الأمة العربية!! وباني مجد العراق!! ثم انهالوا عليها بالسياط بلا رحمة.. فكانت تصرخ صراخاً يتناغم مع صراخ الفتى وهي ترزح تحت وطأة السياط والكهرباء تسحق خلاياهما! وعندما يتعالى صراخهما.. ويرافقه الإيقاع المنتظم للسياط.. ينبعث صوت الجلاد الرائد عامر مجلجلاً مرعباً صائحاً بوحشية وإنتقام: حيل.. حيل.. حيل.. حيل[23].. وكأنه قائد أوركسترا لمعزوفة البطش والموت في بلاد الرافدين.. وبعد مرور أيام.. كان جميع المعتقلين يسمعون صوت فتاة أخرى.. قد أجلسوها على قنينة بيبسي كولا.. وأدرك الجميع ذلك من خلال صراخها ونداءاتها المنبعثة من غرفة التحقيق.. وهي تستنجد وتستغيث: آخ.. آخ.. تألم الجميع.. وازداد كربهم كرباً.. أما البعض فلم يتمالك نفسه فأخذ ينهنه.. وينشج بحذر!

۞ ۞

من أجل هذا وغيره.. صرت استهجن إقحام المرأة التي هي (ريحانه وليست بقهرمانة) في مثل هذه الدروب الوعرة.. خصوصاً في عراق صدام حسين الذي لا يراعي أية حرمة لأيّ كان. تساءلت دائماً وأنا أستحضر صراخ هؤلاءِ الفتيات وغيرهن.. أو مشاهد العوائل المحطمة المفزعة على أثر إعتقال الأم مصطحبة الأب إلى غياهب السجون.. أين كانت الزهراء عندما كان الإمام علي بن أبي طالب يقاتل؟ أين هي زينب عندما كان الحسين يقاتل؟

لا أبتغي من قولي هذا أن يمحى دور المرأة تماماً.. ولكن لو ترفق بها (الحركيون) متذكرين قول نبي الرحمة': «رفقاً بالقوارير».

---

23) حيل: كلمة باللهجة العراقية تعني بقوة.

نعم إن للمرأة دوراً عظيماً ولكن يجب أن يناسب طاقتها وحشمتها.. خصوصاً أن اللاتي يسلكن هكذا طريق هنّ من النوع العفيف.. وهنّ المؤمنات حقاً.. وبنات عوائل شريفة.. فكيف يكون حالهن وهن بين أيدي أوغاد مجرمين لا يراعون حرمة لأيّ كان! ثم إن عدداً كبيراً من (الحركيين) انهاروا وأدلوا باعترافات خطيرة أمام تهديد الجلادين الأوباش: ـ راح نجيب زوجتك و...

وكان بعض الحركيين يبرر انهياره قائلاً: ـ صمدت.. ولكن عندما هددوني بالاعتداء على زوجتي لم أتحمل فاعترفت! إذن لماذا هذا التوريط.. لماذا تقحموا (بنات الناس) يا أيها الحركيون؟!

وقد عاينت بنفسي عوائل.. وكنت شاهداً على مصائب حلت بهم.. وسيقت إلى المعتقلات رجالاً ونساءً بسبب تعاطفها مع... أو تسترها على... وأما مَن تستروا عليه أو تعاطفوا معه... فقد حمل عائلته سالماً إلى خارج الوطن.. تاركاً بيوتاً تقوضت.. ودماءً سفكت بسببه.. وراح ينعم بلذائذ الدنيا ومتعها.. ولا ينسى أن يحث الناس على الجهاد.. وأن يزهدوا بهذه الدنيا الدنية وزخرفها وزبرجها.. ويرجون ما عند الله من نعيم مقيم.. وأن يتحملوا كل شيئ من أجل الدين!!

مضت أيام والجلادون مستمرون في تعذيب الفتى.. وأما الفتاة فقد انصرفوا عنها.. ربما لأنهم نالوا منها ما طلبوه.

لم يتركوا موضعاً في جسد ذلك الفتى إلا وعرضوه للتعذيب.. ضربوه على قدميه حتى تقيحت واستخدموا معه الكهرباء والخازوق.. وهو مشدود إلى سقف الغرفة يتدلى في الفراغ.. ثم ضربوه بـ(الكيبل) ضرباً شديداً على عصب عاتقيه حتى فقد رشده.. وعادةً بعد الإنتهاء من تعذيبه يوثقون يديه على شماعة الملابس..ويتركونه واقفاً ساعات أو أيام!

وهذه إحدى طرقهم في التعذيب.. فقد يظل المعتقل واقفاً وهو عارٍ حتى من ورقة التوت.. ويطفئون أعقاب سجائرهم في إبطيه أو بين إليتيه.

قال لي أحد هؤلاء الذي طال وقوفه على المشجب.. وهو فتى في السابعة عشرة من عمره.. كانت أعظم أمنية لي في تلك الساعات العسيرة هي أن أقيد على قنينة الغاز كغيري من المعتقلين.. وكنت أنتظر تحقق هذه الأُمنية بفارغ الصبر.

وقد ظل بعض المعذبين على هذه الحال أياماً طويلة.. من بين هؤلاء سيد فاضل حسان مدرس الكيمياء من أهالي الديوانية.. ظل على هذه الحال ستة عشر يوماً.

كما أعرف شاباً من أهالي البصرة اسمه كنعان.. أصيب بالهستريا وظل يهذي وهو في شبه غيبوبة من جراء الوقوف أياماً طويلة.. وصار يبشر مَن حوله بقدوم جيش التحرير بقيادة السيد محمد باقر الحكيم.. وهو لم تزل يداه مقيدتين إلى الأعلى على الجدار.. كذلك الأخ علي هليل من أهالي العزيزية ظل مقيداً وقوفاً على الشماعة تسعة أيام.. حتى بدأ يتساقط شعر رأسه!

ساعة الأصيل.. صمت ثقيل يجثو علينا.. روائح كريهة تنبعث من اقدام متقيحة.. اليأس.. الاستسلام.. التساؤلات التي لم تزل تقلقني وتعبث بكل زاوية من قلبي.. لماذا أتو بي إلى هنا؟. هناك تشوف صاحبك!

مَن هو صاحبي يا ترى؟ هل سأتعرض للتعذيب الرهيب الذي تعرض له اسماعيل يوسف.. أو ذلك الرجل الذي صمد ساعات طويلة حتى أغمي عليه في تلك الليلة الليلاء.. ارتفع صوت مقرئ القرآن من المذياع.. فشعرت بالطمأنينة تسري في فؤادي.. وإذا بصوت يعلو ويقول بفزع:ـ سدوا الراديو لا يجونه الأمن!

فنهره الشرطي قائلاً: انچب لك.. شنو احنا منريد القرآن؟!

ثم التفت نحو صاحبه: اسمع اسماعيل يوسف شيگول!

مثل هذه المفارقات تحدث كثيراً في مديريات الأمن.. تارة تدعو للضحك.. وتارة تدعو للبكاء.. ينادي محذراً من رجال الأمن وهو داخل مديرية الأمن العام.

هكذا بات الشعب العراقي يخشى السلطة.. الطفل والشيخ.. المذنب والبرئ.. العاقل والمجنون.. ظل على هذه الحال عرضة للتعذيب.. ثم ألقوا به في الزنزانة وهو فاقد الوعي.. ويهذي لمدة عشرة أيام.. وبعدها ثاب إلى رشده.

تبين لي فيما بعد أن هذا الفتى الذي طالما شعرت بفؤادي يتقطع عندما أسمع صراخه من جراء التعذيب الوحشي الذي تعرض له.. وتكلست صيحات الجلاد الرائد عامر في أذني حينما كان يعذبه لمدة سنين طويلة.. هو اسماعيل يوسف من أهالي بلدة الشعلة.. عمره لا يتجاوز 25 سنة.. كان صديقاً لأخي الشهيد.

عُرف عنه أنه دمث الأخلاق.. حميد الخصال.. مهذباً عذباً.. ينضح بالأدب الجم والخلق الرفيع.. فقد كان العالم الديني للمنطقة السيد عباس الشوكي&وكذلك الشباب المتدين يلقبونه بـ (الساحر).. وهكذا غدا هذا الساحر فاقداً لعقله.

ظل مطارداً من قبل السلطة منذ العام 1979م.. وقد اختفى لمدة سنتين لم يظفروا به حتى تمّ الاعتراف عليه.. وفي تلك الفترة كان متخفياً في مدينة كربلاء.. يعمل في أحد معامل الأحذية. وبينما كان منتظراً صاحبه لاجراء اللقاء الحزبي بينهما.. كان صاحبه هذا متوارياً في سيارة الأمن يشير إليه.. بعد أن انتزعوا الاعتراف منه بالتعذيب الشديد.

كان واقفاً.. وإذا برجل قوي البنية يقف بجواره يرتدي الزي الكردي.. وصار يبحث في مخابئ ثيابه وكأنه فقد شيئاً ما.. ثم التفت نحوه وقال له بغضب وبكلمات متعثرة:. انتي ضربني جيب[24].

ثم طوقه بكلتا يديه وبكل قوته وهو يردد قائلاً الكلمات ذاتها: انتي ضربني جيب! وبينما يحاول التخلص من يدي هذا المتهِم له ظلماً.. إذا بعصبة من الرجال الأشداء يندفعون نحوه.. وبسرعة خاطفة أمسكوا به وقصدوا به نحو سيارتهم.. وهم يرددون بتوبيخ:

. ولك ملعون الوالدين.. ليش تضربه جيب؟ وسرعان ما تبين له أن هؤلاء هم رجال الأمن.. وإذا بهذا الرجل الكردي يتكلم بلغة عربية طلقة.. فهو ليس كردياً.. وظل أحياناً يذكره في مديرية الأمن العام ويقول له ساخراً:. ليش تضربني جيب؟

۞ ۞

شاهدته في قاعة محكمة الثورة منحني الظهر لا يقوى على رفع رأسه.. مع كل هذا لم يوصِ بشيئ سوى وصية واحدة أوصى بها أحد المعتقلين من أبناء محلته.. وهو محمد كاظم كرم: إذا أطلق سراحك.. أرجو أن تبلغ سلامي إلى أبناء منطقتنا كافة.. وأن يبرأوا ذمتي ويسامحونني فيما إذا قصرت مع أحدهم.

ثم يؤكد له:. لأنني سوف أعدم.

ولما عادوا بنا من المحكمة إلى مديرية الأمن.. ألقوا بي في سيارة كان قد سبقني اليها اسماعيل يوسف.. ويده مكبلة في قيد يشاركه معه شاب حالما رمقته بنظرة خاطفة عرفته.. فهو صباح چياد من أهالي الشعلة أيضاً.. وطالما كان يتردد إلى بيتنا فهو صديق أخي الشهيد أيضاً.. ولما كان يزورنا كنت صبياً.. حالما رأيته عرفته.. فألقيت عليهما التحية.

---

24) ضربه جيب: كناية تعني أنه سرق ما خبأه في جيوب ثوبه.. ولما يقول: (انتي) ليؤكد له أنه كردي لا يجيد اللغة العربية مثله مثل الكثيرين من الاكراد يخطئون في تلفظهم عند التذكير والتأنيث.

وكنت منتظراً أن يرد عليّ صباح چياد التحية بحرارة ويأخذني بالاحضان.. فقد كان رحمه الله صديقاً ودوداً محباً لنا.. إلا أنه ردّها اسقاطاً لواجب كما يقال.. فقد فاتني أن الفراق الذي حصل فيما بيننا لمدة دامت ست سنوات.. كنت في غضونها قد تغيرت ملامحي.. إذ صرت أطرق أبواب الشباب.. وانشغلت بصاحبي ولم أجد في نفسي رغبة لأن أتواصل معهما بحديث.. لما أصابنا من ارهاق وتعب.. وما يحيط بنا من خوف وقلق.. ثم انهماكهما في حديث خاص.. وكأن أحدهما يناجي الآخر. وفي ضحى اليوم الثاني.. نودي باسم اسماعيل يوسف.. وكان أول اسم يفتتح قائمة طويلة لأسماء كثيرة كلها سيقت إلى حبل المشنقة.

حامد عزيز موسى

لم أزل أشعر بالوحدة والغربة.. وأبحث عن دفء الانتماء.. تفرست طويلاً في وجوه مَن حولي . مغتنماً بذلك غفلة الشرطي المراقب لحركاتنا وسكناتنا . علّني أجد صديقاً أو رحماً.. ذات صباح بعد أن عادوا بنا من دورة المياه.. وبالرغم من الاضطراب الذي تحدثه العصا الكهربائية.. الركلات.. الصفعات.. إلا أنني تمكنت من فرز وجه صديق وذي رحم من بين الوجوه.. اسمه حامد عزيز موسى.. حرصت على أن أجلس إزاءه.. وحصل ما أردت.. وكانت هذه امنيته.. فقد عرفني قبل أن أعرفه.. وبالرغم من طول شعر لحيتي.. وتغير ملامحي.. تبادلنا التحية في تحفظ.

وبعد ساعة أوعز الملازم حازم التكريتي أن ينقلوا مجموعة . كنا من بينهم . الى قاعة يطل بابها على الممر ذاته.. فساقونا.. وكان بعضنا يلاصق الآخر لكي نجلس سوية.. ولما أدخلونا الى القاعة . كما كانوا يسمونها . لم تكن كبيرة الحجم.. ربما طولها أربعة أمتار وعرضها كذلك.. خالية من قناني الغاز.. إذ

قيدونا على انبوب غليظ يبلغ قطره (10 سم) تقريباً يمتد على أرض القاعة.. مع امتداد أضلاعها.. وبعد أن أحكموا القيد علينا جميعاً تركونا وولوا.

لاحت لي صفيحة معدنية دائرية الشكل يبلغ قطرها قدم تقريباً.. فيها ثقوب كثيرة.. ظن بعضنا أنها جهاز يلتقط الصورة والصوت.. وقال البعض: لا تؤدي غرضاً سوى الاستفزاز.. ثم تأكد لنا ذلك.

شعرت بالارتياح.. فقد صار مكاني في أحد أركان الغرفة.. ثم إن القيد قد توفرت فيه بعض الحلقات التي كانت تستهلكها القنينة.. وجلس صاحبي إزائي.. فصرنا نتناجى طويلاً. قال لي: سمعت بإعتقالك منذ أول ليلة.. وسرد لي الحكاية.

ثم أخبرني عن أهلي.. وعن وقع مصاب إعتقالي عليهم.. فبينما كانوا ينتظرون الإفراج عن أخويّ المعتلقين.. إذ صرت ثالثهم.. وسقط أخي الذي يكبرني مغشياً عليه.. وانتابته حالة إغماء ظلت ملازمة له لسنوات طويلة.

أما هو فكان يرجو الإفراج عنه بأسرع وقت.. لأنه (ليس لديه شيئ) وقد اعتقل من الشارع وهو واقف.. ولا يدري أن مسؤوله الحزبي اعترف عليه.. وكان جالساً في سيارة الأمن يومئ عليه.

لم يكن هذا وحده الذي ظن أنه سيفرج عنه في أسرع وقت.. لأنهم (جابوه من الشارع).. وتتجلى له الحقيقة المؤلمة عندما يأتيه مسؤوله الحزبي وهو مشدود الى سقف غرفة التعذيب.. ويؤكد للجلاد أنه أحد أفراده! تجاذبنا أطراف الحديث طويلاً.. مغتنمين غفلة الشرطي.. فقد أتاح لنا انزواء المكان فرصة للحديث تصل الى حد تبادل الطرائف والدعابات الخفيفة.

كما أتاح لنا أن نتحكم بالعصابة.. نرفعها قليلاً ليرى بعضنا بعضاً.. وحالما نشعر بقدوم الشرطي نرجعها فوراً.. تسنى لي أن أرى أصدقاء آخرين..

منهم فاضل محمد وغيّاض عبد راضي.. وبعضهم يعرف اخواني ولا أعرفه.. وتعرفت إلى الأخ علي ناصر بنيان من أهالي الشعلة.. بعد أن تزحزح مكاني قليلاً فصار إزاءه.. والحاج مناتي من مدينة الثورة.. عند ذلك شعرت بالطمأنينة.. وأضحى بعضنا سلوى لبعض.

وكنا نتبادل التحية بتحفظ.. ونزحزح العصابة قليلاً لنتملّى بعضنا من بعض.. فكلنا مفعم بالشوق الى مَن يناجيه.. او يواسيه.. أو يحتضنه بنظرة فيها مودة صادقة.. فقد سئم من كل شيئ يحيط به.

كما صرنا نتظافر على قراءة دعاء كميل في ليالي الجمعة.. ودعاء الافتتاح كل ليلة.. فقد كان الشهر هو شهر رمضان المبارك.. وجميعنا يحفظ منه مقاطع.. وإن نسي مقاطع اخرى. ونقرأ كالهمس.. وبعضنا يكمل ما فات الآخر.. حتى نأتي على نهايته. وقرأنا سوية الآية الكريمة: {أمّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء}.. وصرنا نكررها باستمرار.. وكان بعضنا يوصي بعضاً:

ـ إذا ما خرجت إن شاء الله.. ارجو أن تذهب الى أهلي وتقول لهم.. ثم يسرد وصيته، فيتعهد له صاحبه بصدق.. ولكن الجميع لم يخرج من المعتقل إلا ما ندر.. أما البقية فبعضهم أخرجه حبل المشنقة.. وهم الأكثر عدداً.. وبعضهم خرجوا سوية بعد أن أمضوا سنين طويلة وراء القضبان.. كما هو حالي وحال صاحبي.

من أمراض المعتقلين

طالما سمعت من المعتقلين نداءات شكوى من بعض الأمراض.. ويطلبون علاجاً.. فتردّ الشرطة عليهم بالاستهزاء. قال أحد المعتقلين يشكو من الصداع:ـ راسي لازمني. فأجابه الشرطي متهكماً وبلا مبالاة: ـ انت هم إلزمه.

وقال آخر يشكو من حالة الامساك التي لازمته مدة أسبوعين.. فأجابه الشرطي:ـ هز رگبه ونص.

وشكى آخر من الاسهال الشديد فأجابه الشرطي:ـ خلّي بـ... ك[25] تبدورة.

الشكوى من هذه الأمراض وأمثالها مستمرة.. ولكن قلما تكون لها استجابة.. وغالباً ما يكون الرد جافاً.. وأهونه:ـ إيه.. وشنسويلك؟ أو بركلة.. أو بصفعة.

كانت حالة الإمساك الشديد.. حالة تكاد تكون ملازمة للجميع.. ربما الخوف الشديد.. وربما من مادة تمزج مع الطعام.. أو لسبب آخر.

مضت أيام وليالٍ وأنا على هذه الحال.. شعرت بالإعياء الشديد وتهالكت قواي.. أحياناً . وفي ذلك الحر الشديد . يفتح أحدهم الأبواب المطلة على الممر.. فينبعث منه هواء بارد يلفح الجميع.. عند ذاك أشعر كأن مساً سحرياً يمسني.. فيسقط رأسي على ركبتي وقد عقد النوم جفوني.. وحالاً أفيق فزعاً على أثر صوت الجلاد:ـ اتربع.. الكل يتربع.. شنو عدنه فندق؟

وعندما أفيق يكون الباب قد أُغلق.. عند ذاك ادرك لماذا فتحوه.. وفي هذا الوقت بالذات.. وغالباً ما يكون وقت الظهيرة! فالغاية التعذيب النفسي للمعتقل.

أخذ سلطان النوم يستحوذ عليّ.. فعقد جفوني بيديه الناعمتين.. وبالرغم من فظاظة الجلادين.. وبالرغم من مقاومتي الشديدة له.. بيد أنه كان يغلبني هذا المرة.

---

25) كلمات نابية.

فشعر الجلاد بنومي بعد أن امتدت رجلي اليمنى رغماً عنّي.. افقت على أثر ضربة عنيفة على قدمي وكأنه يضرب كرة.. أحسست كأنما قدمي خلعت.

صرت اصارع النوم.. وأقاومه مقاومة شديدة.. لكن شيطانه غلبني ثانية.. أفقت على أثر ضربة هائلة على صدغي وجهها لي الجلاد بالكيبل.. أفقت مذعوراً وكأن سقف الغرفة سقط على رأسي.. دام مكوثي في هذا المكان ستة عشر يوماً بلياليها الليلاء.. بنهارتها السوداء.. بساعاتها الخانقة.. بلحظاتها الثقيلة.

من أسماء الجلادين

ألفت هذا المكان الصاخب المرعب.. وكثيراً ما تذكرت قول الإمام علي بن أبي طالب –ع–حيث يقول: «إذا هبت أمراً فقع فيه.. فإن شدة توقيه أعظم مما تخاف منه».. وكنت اقارن بين تصوري عن هذا المكان والحال التي أنا فيها.

ويوماً بعد يوم تجلّت لي غوامضه.. تبين لي أن رجال الأمن والجلادين ليسوا بألمان ولا انگليز كما كان البعض يحدثنا بذلك.. ولست أدري ما هي الغاية من ذلك؟! فهم: علي.. حسين.. محمود.. عامر.. حازم.. حمزة.. صفاء.. عدنان.. سيد كريم الياسري.. سيد عبد الحكيم... وغير هذه الأسماء التي ليس فيها غريب سوى (هتلر)!ظننته جلاداً أجنبياً عندما كانوا ينادون باسمه.. ثم تبيّن لي أنه رجل كهل ضعيف من ضواحي بغداد.. مهمته تنظيف الأرض.. ثم مسحها بالديتول ضحى كل يوم.. وأما هذا الاسم الغريب فلست أدري أهو اسمه الحقيقي أم يسمونه بهذا الاسم لحاجة في نفس يعقوب!

وتبين لي فيما بعد أن هناك في كل محافظة مديرية أمن.. وللمديرية فروع في كل قضاء وناحية.. وأما بغداد ففيها إضافة لمديرية الأمن العام هناك مديريات أمن اخرى: (بغداد.. الكرخ.. الرصافة.. الكاظمية.. الثورة.. بغداد الجديدة).. ولكل مديرية جلادون.. ولكن بعض الجلادين تميزوا باجرامهم! ومن هؤلاء (علي الخاقاني النجفي.. كريم الياسري.. فاضل الزركاني.. عبدالحكيم البكاء[26].. مهدي الدليمي.. المقدم قاسم.. الملازم ماجد التكريتي ضابط أمن البصرة.. الملازم قيصر التكريتي ضابط أمن العمارة.. كريم البصراوي.. وغير هؤلاء ممن لم أعرف أسماءهم ولكن تسنى لي أن أرى بعضهم في سجن أبو غريب.. وأغلبهم من قرى شمال وغرب بغداد.

الجلاد علي الخاقاني

كان الضباط الذين ينحدرون من أُصول شيعية أشد قساوة على المعتقلين من غيرهم.. وذلك ليأكدوا للسلطة أنهم أبرياء من الشيعة والتشيّع! أما علي الخاقاني فكان عندما يعذب. وعادة ما تكون الضحية التي بين يديه شيعياً. وهراوته في صعود ونزول.. وهو يردد الأهزوجة المعروفة على ذات الايقاع:

. إظهر يالمهدي وصفيها.. شوف الشيعة إشصاير بيها!!

وهكذا يختلط صراخ المعذّب وصوت الهراوة عندما تسقط على جسده.. وأهزوجة علي الخاقاني.

حكى لي أحد المعتقلين واسمه ماجد يقول: كان ضابط الأمن في مديرية أمن الثورة يدوّن لي بـ (افادة) وهو غارق ويترنم:

. ماجد.. يماجد.. ما دريت بكربله اشصار.. ومن شبوا النار.. على ذات اللحن للقصيدة المعروفة: (جابر.. يجابر.. ما دريت بكربله اشصار) التي

26) قيل إنه شقيق العالم الديني المعروف عدنان البكاء.

تصور مآسي واقعة الطف تصويراً دقيقاً.. مؤثراً.. تذوب له الروح.. ويسيل له الفؤاد.

كان علي الخاقاني يسمي نفسه الملازم كاظم.. ولكنه معروف لدى أغلب المعتقلين باسمه الحقيقي.. والكثيرون سمعوا باسمه قبل إعتقالهم.

فهو محقق مديرية أمن الثورة.. ثم ارتقى ليكون معاون مدير أمن بغداد. بدأ حياته شرطي أمن.. ولما أثبت جدارة فائقة في التعذيب وفي خدمة جلادي الشعب.. ترقى الى رتبة ضابط أمن.

ينحدر من أُسرة شيعية نجفية.. ثمة كلمة يعتز بها ويرددها دائماً عندما يهيئ معتقلاً للتعذيب.. فيقول مفتخراً بعد أن يعرض كفه أمام عينيه:

. تشوف هاي الإيد.. أول ما انمدّت على عارف البصري.

كان بديناً.. ضخم الجثة.. ولضخامة جثته يبدو أنه قصير القامة.. أجش الصوت.. ويبدو في كلامه أحياناً أنه مخنوق.

سجيته السخرية والإستهزاء والتهكم.. ذات يوم نقل خبراً عن إذاعة إيران مفاده: أن المجاهدين قتلوا علي الخاقاني.. ثم أردف:

. اتگولون إذاعة إيران مچّذب.. وآني وياه البارحة إتعشينه سوه.

لديه أسلوب وعظي.. ويحفظ بعض الأدعية والأوراد.. وزيارة الحسين(ع) المعروفة بزيارة وارث! يقف أحياناً باتجاه القبلة ويأمر القابعين في الزنزانة أن ينهضوا الى الإتجاه ذاته.. ثم يسترسل مترنماً ويقرأ بطريقة مسجدية:

. السلام عليك يا وارث آدم صفوة الله.. السلام عليك يا وارث نوح نبي الله.. السلام عليك... حتى يأتي على نهاية الزيارة.

ذات ليلة وقف إزاء باب الزنزانة وأخذ يحدث المعتقلين وكأنه يعظهم بخشوع:. هسه إجيت من زيارة أمير المؤمنين(ع).. وبطريقي اشتريت لي قطعة أرض صغيرة بالمقبرة أريدها قبر إلي.. الدنيا متسوي شي يا ولدي.. منو أبو

باچر؟ الموت بالسّاعات! وبعد أن يختم هذه الموعظة يتطلع في الوجوه.. ثم يشير الى أحدهم ويفتح باب الزنزانة.. ويأمره باصطحابه.

يغيب ساعتين أو ثلاث ساعات.. ثم يعودون به مصبوغاً بدمه من أُم رأسه حتى أخمص قدميه.. بعد أن صبّ عليه علي الخاقاني تعذيباً شرساً.

أقسم عليه ذات مرة أحد الذين يعذبهم قائلاً له بتوسل: ـ بستر مرتك اتركني! فضحك علي الخاقاني وهو لم يزل منهمكاً بتعذيبه وقال بكل وقاحة:ـ ولك يا ستر مرتي! آني أعذب بيك هنا وما أدري بيها بيا حضن نايمه!! عجيب أمر هؤلاء (حماة الوطن) والداعين الى (صونه)! إنهم مجردون من الشرف والغيرة ومن الانسانية.. فممن إذن يصونون الوطن!!

لديه أسلوب في استدراج بعض المعتقلين السذج.. وخاصة صغار السن منهم.. استدعى اثنين من المعتقلين . وكانا حدَثيَن . الى غرفته.. ولم يمس أحدهما بأذى.. بل رحب بهما وأجلسهما قربه.. وخاطبهم بكل رقة قائلاً لهم:. بابا..

وبطريقة .كأنها عفوية . فتح المذياع وثبته على محطة إيران.. وما أن ملأ صدى إذاعة إيران فضاء الغرفة حتى أخذ يبكي.. ثم إذا فتح الباب اصطنع الدهشة والفزع وأسرع لغلق المذياع.. وما أن يولّي القادم ظهره ويغلق دونه الباب.. يهمّ علي الخاقاني بسبّه وسبّ الحكومة ولكن بهمس.. وكأنه يخشى من رجال الأمن ولا يريد أن يسمعه أحد.

كل هذا.. وهذان ينظران حتى إذا اطمئنا له.. طلب منهما أن يمضي كل واحد منهما على إفادته ووعدهما خيراً.. أن يتوسط لهما عند الحاكم ليفرج عنهما! وحكم عليهما بالسجن.. وكان غالباً ما يصطحب المحقق المعتقلين الذين أجرى التحقيق معهم الى محكمة الثورة.. ولما حكم عليهما حكماً كان

قد هيأ لهما سلفاً.. قال لهما:ـ والله بابا اتوسلت بالحاكم.. بس مقبل يطلعكم.

في رأس السنة الميلادية عام 1983م قال له أحد المعتقلين مهنئاً: ـ عيدك مبارك. فأجابه بصوته الأجش:ـ ولك آني والعيد شنو.. آني شيعي.. إمامي.. أُصولي.. وهذا العيد مال المسيحيين.

عندما يطالب معتقلاً بالادلاء به.. وعادةً ما يكون المعتقل شيعياً.. فإذا صمد أمام تعذيبه واعترف تحت وطأة تعذيب محقق آخر.. يقول له موبخاً وباستهزاء: . ولك آني شيعي مثلك واعترفلي[27].. ليش تعترف لهذوله السنّه.

ثم يسب أهل السنة.. وكل هذا على مرأى ومسمع من الجلادين الذين ينحدرون من أُصول سنية.. فيضحكون لسماعهم هذه المفارقة.. والتي تؤكد ولاء المجرم علي الخاقاني للسلطة الطائفية وبراءته من الشيعة والتشيّع.

مدير الأمن الجلاد فاضل الزركاني

أما فاضل الزرگاني.. فهو جلاد معروف.. كان مدير أمن البصرة لمدة. اعتقل أخوه عبد الأمير الزرگاني.. لانتمائه للحركة الإسلامية.. وكان مع المعتقلين في موقف مديرية الأمن العام.. وعبد الأمير شاب متدين.. حدّث مَن حوله عن أخيه الكبير فاضل.. بعد أن وجهت له الاسئلة عنه وعن سيرته.. كان يجيب باقتضاب:ـ لا نعرف عنه شيئاً.. فمنذ صغره خرج من

27) للمحققين إكراميات بعدد الذين ينتزعون منهم اعترافاً.

البيت.. ولما تقدم به العمر كان وقته موزعاً بين مديرية الأمن وبين البارات ودور البغاء!

ولكي يثبت فاضل ولاءه للسلطة.. طلب أخاه من محقق مديرية الأمن العامة الجلاد الرائد عامر ليقوم بمهمة انتزاع الاعترافات منه.. ولكن الرائد عامر أبى ذلك.. فهم يتنافسون فيما بينهم على الإجرام. وأخيراً اكتفى بقتل أخيه عبدالأمير الزرگاني(رحمه الله) رمياً بالرصاص..(وذلك أضعف الإيمان).

الجلاد كريم الياسري

وأما كريم الياسري.. الضابط في مديرية أمن الكرخ.. فهو شاب ينتسب الى عشيرة السادة المعروفة (آل ياسر).. وبالرغم من صغر سنه.. إلا أنه أثبت جدارة في الإجرام.. ولذلك ارتقى ليمنح رتبة عالية وهو لم يزل شاباً. أحد[28] الذين مروا تحت هراوته كان معي في سجن أبوغريب.. وهو من أرحامه ومن وجهاء آل ياسر.. والروح العشائرية بما فيها من رجولة واريحية متغلغلة فيه.. وغالباً ما يذكر لي المعارك الدامية التي وقعت بين عشيرتهم وعشائر أخرى.. ويذكر اشتراكه في هذه المعارك مفتخراً..

فاجئته ذات يوم بسؤال وهو يتحدث عن كريم الياسري.. وكيف أنه يعرفهم ويزورهم.. قلت له: (الله عليك ما توسلت بيه وكتله دخيلك؟)

ولمعرفتي أن هذه الكلمة تستفز الرجولة.. وكان بعض المعتقلين يتوسل بها.. عندما يشتد عليهم التعذيب وهم في حالة الإعياء.. نظر إليّ وكأنما ألقيت في وجهه قدح ماء بارد.. تمالك نفسه وقال لي:ـ لا والله.. ما گلته دخيلك.. بس لمن أذاني كلش گلتله: دخيل شرفك إذا عندك شرف.

28) يحيى إدريس من قضاء الشامية التابع الى محافظة الديوانية.. وهو ينتسب الى اسرة وجيهة معروفة.

ثم استدرك قائلاً فالقى بالتوثية وخرج دون كلام

ذات يوم جئ له بأحد المعتقلين.. وما أن نظر اليه عرفه.. وكان يعرف أقاربه وبعضاً من أهالي قريته.. فأغلق باب غرفة التحقيق واختلى به.. وراح يحدثه بمودة وأخوة قائلاً:ـ آني راح اطلعك.. وتسلم لي على فلان.. وفلان.. ثم وكأنه يفشي له سراً فيقول له:ـ احنا اگلوبنه ويه السيد الخميني الله يحفظه.. بس هو ـ الله يحفظه ـ ما انطانه مجال حتى نمارس دورنه... الخ. وعندما يفتح باب الغرفة يسكت ويومئ له بطرف خفي أن اسكت.. وهكذا حتى استدرجه.. وقال له:ـ لا اريد منك سوى أن تعترف واطلعك.

ولما اطمئن له هذا الفتى غاية الاطمئنان.. اعترف له.. وأكد له أنه أحد أفراد حزب الدعوة.. وطلب منه المزيد ليدلي باعترافات عن آخرين.. فامتنع.. وبعد ذلك.. بدأ معه فصلاً شرساً من التعذيب.. وحكم عليه بالسجن المؤبد.

الجلاد ماجد التكريتي

وأما ماجد التكريتي محقق مديرية أمن البصرة.. كان يحفظ الكثير من الأحاديث النبوية الشريفة.. ويستشهد بها.. وغالباً ما يردد النجاة في الصدق.. وذلك عندما يريد انتزاع الاعتراف من المعتقل.. وعندما يأمر الشرطة بتعليق معتقلاً في السقف وخلع سرواله.. يردد: ـ لا حياء في الدين.. لا حياء في العلم.. لا حياء في التحقيق! تسلل الى صفوف المجاهدين في الأهوار ليكون مجاهداً.. ثم صار مسؤولاً عن مجموعة! وبعد ذلك ساق الجميع الى مديرية أمن البصرة ليجري معهم التحقيق!

۞ ۞

عندما يدفعون بأحد المعتقلين الى غرفة التحقيق.. تمضي فترة بين الخمس دقائق والعشرة.. ثم تعلو صرخة مجلجلة تستمر دقائق.. وبعد ذلك يكون الصراخ يشبه صراخ المخنوق.. ثم يسكت.. وبعدها يخرج الملازم حازم عادة من غرفة التحقيق وبيده عصا.. وأحياناً تكون بيد أحد افراد الشرطة.

يأمر أحد المعتقلين الجالسين قبالة غرفة التحقيق.. فيأخذ العصا . بعد أن يفتح الشرطي قيده . قاصداً (التواليت) وهو يرافقه.. فينهض المعتقل مسروراً؛ لأنه أتيح له التخلي.. وغسل يديه ووجهه. شاهدت هذه العصا الغليظة.. مراراً والدم العالق في طرفها.. وتساءلت كثيراً عنها.. تبين لي فيما بعد أنه الخازوق.. وقال لي أحد الذين كانت مهمتهم غسل (الخازوق): أحياناً أجد الغائط مختلطاً بالدم..!

عندما كنت مقيد اليدين.. معصوب العينين.. وعقارب الرعب والقلق تلدغني.. وحرارة الشوق الى الحرية تلسعني.

ثمة صور تتراءى لي دائماً.. وهي ما علق في ذهني من بعض الروايات والقصص العربية والعالمية.. وعلى وجه الخصوص رواية (عذراء جاكرتا) لنجيب الكيلاني.. كانت صور هذه الروايات تحوم فوق رأسي.. وأنا أنتظر الثوار والمجاهدين ليقتحموا علينا الأبواب.. ويتسلقوا الأسوار.. ليفكوا عنا القيد ويحررونا مما نحن فيه!!

۞ ۞

ذات يوم ظهراً.. وقد اشتدت حرارة تموز الخانقة.. خيّم الصمت الثقيل علينا.. والشرطي يراقب حركاتنا وسكناتنا.. الآلام تعتصرنا.. الحرارة تنبعث من كل جانب فتبعث معها الروائح الكريهة والغريبة.. روائح الأجساد التي تعرضت للصدمات الكهربائية.. والأجساد المتقيحة.. دماء تسيل.. صديد ينز.. الجروح الكبيرة فاغرة أفواهها.. الأجساد الملقاة على البلاط قد تراكمت

عليها آكام من الوسخ! ربما الجميع كان يتمنى الموت.. فهو أجمل هدية في ذلك المكان.. وفي تلك الحال.. عند ذلك سمعت أحدهم ينهنه.. ويحدث صوت بكاء مكتوم.. نظرت اليه من خلال الخرقة.. سقط نظري على شاب في ريعان شبابه.. يبدو أنه مضى عليه أيام طويلة.. ربما تزيد على الاسبوعين.. أدركت ذلك من خلال شعر لحيته الأشعث ووجهه المغبر.. كان يبكي بحرقة وألم وكأنه مختنق.. سأله الشرطي:ـ شبيك.. ليش تبچي؟ فأجابه بكلمات متقطعة.. وقال كالمتطاير: ـ اتضايقت.. اتضايقت.. اختنگت!! ثم استمر يبكي.. وظل صوت بكائه يصلني مثل هدير مكتوم.. وبعدها لم أره.. فقد ذهب مع الذاهبين الى حبل المشنقة.. وقد تبين لي فيما بعد أن كل الذين كانوا حولي في تلك الأيام حكم عليهم بالاعدام.. شنقاً حتى الموت. ومَن لم يشنق.. سيق الى الصحارى ليقتل ويدفن.. أو دفن حياً..

وبقية السيف كانت معي.. وهم الاقلون عدداً.

كثيرة هي المشاهد المبكية.. وكثيرة هي المشاهد المضحكة.. كثيرة هي المشاهد التي تنتاب مَن يتأملها حالات شبيهة بالهستريا.. اذ تُضحك المرء حتى تبكيه.. وتبكيه حتى تُضحكه في هذا المكان.

وبالطبع أن كل هذا البكاء وذلك الضحك يحصل سراً.. فيجرح القلب ويهرس الاعصاب! مآسٍ تتلو مآسٍ.. وعذاب متصل.. بعضه يأخذ برقاب بعض.

هنا تتلاشى قيمة الانسان.. إذ يكون أقل شأناً من قنينة الغاز الموثق عليها.. إذا مر الشرطي فيما بيننا.. وهو يمشي على عجل.. وبيده إناء ليجلب به فاكهة أو شيئ آخر.. أو (دولكة) يجلب فيها ماء أو أي شيئ بيده.. يبدأ بأولنا وحتى آخرنا ضرباً بالرؤوس! كنت أتأمل حالي وحال القنينة الموثق عليها.. فألحظ لها احتراماً لم أحظ به.. ولم يحظَ به غيري ممن حولي!

كل هذا وأنا حتى الساعة (متهم!) ولم يثبت عليّ (جرم) أُدان به.. وهذا هو حال جميع الذين أُلقوا معي.. إلقاء النفايات!!

هنا (اشتراكية) يتساوى فيها الكبير والصغير.. العالِم والجاهل.. البعثي والشيوعي.. الحركي الاسلامي والمستقل.

كانوا يصرحون دائماً قائلين:. خريج مريج كلها بالإبريج!!

لا قيمة لأحد.. لا احترام لأحد.. لا إنسانية مع أحد..

قيل إن (رمز الأمة العربية وقائدها صدام حسين!!) سمح للجلادين أن يموت بين أيديهم أثناء التعذيب نسبة (عشرة بالمائة) [29] من المعتقلين.. حتى ينتزعوا الاعتراف منهم.. والحق يقال إنهم ماهرون.. يذيقون المعذّب طعم الموت مراراً وتكراراً.. لكنهم لا يميتونه!! مهما كان شأنه هنا.. اسمه.. منصبه.. مستواه.. تاريخه.. حسبه.. نسبه.. وكل شيئ يتلاشى فهو (معتقل) وهو (عدو للحزب والثورة) وهو (متهم) وكل مواطن متهم حتى تثبت براءته!

رئيس اتحاد الطلبة !

جئ بفتى يدفعون به نحو غرفة التحقيق.. إحتوشوه من كل جانب.. إنهالت عليه الصفعات والركلات واللكمات.. وهو يلوذ منهم بيديه ويردد:ـ سيدي آني بعثي.. آني رئيس اتحاد طلبة.. والله ظلم البعثي ينضرب.. سيدي آني بعثي.

وبينما هو كذلك.. اذ أدخلوه الى غرفة التحقيق وأغلقوا الباب.. وبعد لحظات أطلق صيحات مدوية.. ويبدو أنهم أوثقوه الى سقف الغرفة ؛ اذ كانت هذه تحيتهم قبل الخازوق.. الكهرباء.. السياط.. وأراد أن يثبت ولاءه

29) كان شحيحاً مع الشعب في كل شيء الا في الموت، فسخاؤه لا حدود له.

لصدام وزمرته.. فأخذ يصيح بأعلى صوته: ـ بويه صدام.. بويه صدام.. بويه صدام..

ثم صاح صيحة أخيرة على ذات الايقاع.. وذات الوزن.. وبدون فاصلة.. لكنها كانت صيحة صادقة انطلقت من أعماقه مجلجلة: ـ بويه.. ط.. ي.. ز.. ي.

وراح يصرخ كالمختنق.. وعلم الجميع أن الخازوق دقّ في أُسته.

وهكذا اختلط الحابل بالنابل في عصر الثورة!!

۞ ۞

إنطلق صوت رجل يعلو بالصراخ.. متناغماً مع السياط الساقطة على جسده.. لكنه يثير دهشة مَن يسمعه.. فقد كان غريباً للغاية.. إذ هو في ظل حكم البعثيين يتوسل للمحقق صارخاً: ـ دخيل الملك فيصل!! لكنه لم يشفع.. ويستمر الجلاد بجلده..ـ دخيل نوري السعيد!! لكنه لم يشفع.. ويستمر الجلاد بجلده..

ـ دخيل عبدالكريم قاسم.. دخيل عبد السلام عارف.. دخيل عبدالرحمن عارف.. دخيل أحمد حسن البكر.. لكن أحداً منهم لم يشفع.. والجلاد مستمر بجلده.. ولما يئس من شفاعة هؤلاء.. نفد صبره فنادى بأعلى صوته صارخاً: ـ دخيل الگحاب[30]!

والغريب أنه لم يتوسل بصدام حسين.. فقال البعض عنه: ربما متابعته السياسية توقفت عند البكر.. وتبين فيما بعد أنه مدمن على الخمر.. ويتعاطى المخدرات أحياناً.. لكن الحق يقال أن توسله بالگحاب هو التوسل الوحيد الذي شفع له فيضحك المحقق.. ويأمر الشرطة بالكف عن ضربه.. وسرت همهمة خفية بين المعتقلين.. وتبادلوا ضحكات مكتومة.. وخالج

30) وتعني باللهجة الدارجة: العواهر.

الجميع شعور أفصح عنه أحدهم ؛ فقال: ـ يبدو أن الگحاب أشرف من هذوله كلهم!!

ثياب صدام للسجناء!

دخل علينا الملازم حازم ظهراً.. وراح يكلمنا برفق.. ويبدو أن الرعاية (الأبوية) والرحمة (البعثية) قد شملتنا هذا اليوم! فقد أكد لنا أن الجميع هنا مغرر بهم.. وهم أبناء هذا الوطن.. وعلى وجه العيد ـ يعني عيد شهر رمضان ـ كلكم راح اطلعون بس تعترفون!! هكذا قال بالحرف الواحد.ثم أمر الشرطة قائلاً:ـ أخذوهم سبحوهم! فاقتادونا نحو دورة المياه.. واحد إثر واحد.. وأُلقيت الهراوات جانباً.. ولم يمس أحد منّا بسوء.. وسمحوا لنا بأن يسكب كل واحد منا مقدار إبريقين من الماء على جسده.. ويلامسه بالصابون.. ثم ناولونا ثياباً جديدة ذات قماش ردئ ردئ جداً.. شبيه بقماش أكياس السكر!! وكان نصيبي منها دشداشة قصيرة لا تغطي الركبتين إلا بالكاد.. ذات فتحة طويلة.. تبدأ من الرقبة.. وتنتهي الى ما فوق السرة بقليل!! لكنها ـ والحق يقال ـ مكرمة كبيرة!! إذ لامس الماء أجسادنا بعد غياب طويل.. بالرغم من حرارة تموز الخانقة.. لم يتسنّ لأحدنا أن يلقي على جسده قطرة ماء.. أما اليوم فالرحمة شملتنا..تم الإستحمام.. ووزعت علينا الثياب.. وأُلقيت الهراوات جانباً.. والعصي الكهربائية.. والكيبلات.. التي كانت ترافقنا الى دورة المياه كل يوم ذهاباً وإياباً. لكن هذه (المكرمة) لم تستمر الى نهاية الشوط.. فقد استعاضوا عن الضرب بشيئ جديد.. وهو العبث بمؤخرة المعتقل!! سمعت أحد المعتقلين يقول للشرطي متوسلاً: ـ أخوك.. أخوك.. أخوك..

فيجيبه الشرطي هازئاً: إذا إنت أخوي ليش متخليني أ... ك[31]؟!

عاد الجميع الى أماكنهم.. وهم يشعرون بشيئ من الراحة.. فقد أُتيح لهم التخلي والإستحمام.. إذ أن الوقت كان طويلاً.. فقد بلغ الخمس دقائق! حقاً إنها (مكرمة)! كما كانوا يصفون مثل هذه الهبات السخية. لكن هذه الرعاية الأبوية لم تستمر.. إذ دخل علينا بعد ساعات قليلة الملازم عدنان التكريتي وكان ثملاً.. فانهال علينا بالكيبل.. وبعد قليل هتف هاتف: ـ الكل ينام.. يله إنت ابن الكلب.. أبو[32].. ليش متنام.. يله الكل ينام.. وسرت حركة سريعة.. وتسجى الجميع.. منتظرين غداً أكثر شقاءً.

أمنية الشاي والجكارة!

كم تاقت نفسي الى قدح شاي.. هذا الشراب الساحر الذي أدمنت عليه خلايا جسمي ولمدة طويلة.. منذ الطفولة ولهذه اللحظة.

شاهدت الشرطي محمود يتناول الشاي بإفراط.. وأحياناً يقتطع قطعة من (الصمونة) ويغمسها في الشاي ويلقيها في فمه.. ثم يتبعها برشفة من القدح.. حُرمت علينا السكريات.

وتبين لي فيما بعد أن الجميع تائقون الى الطعم السكري.

ثمة حاجة أخرى لم أشعر بها.. وهي الدخان.. فلم أكن ممن يتعاطى السجائر.. أو لست مدمناً عليها في حقيقة الأمر. لذلك لم ألتفت اليها.. حتى سمعت أحد المعتقلين ينادي بالرغم مما يحيط به من أهوال: ـ أريد جگارة.. أريد جگارة..

---

31) كلمة بذيئة.
32) كلمة بذيئة.

رمقته من خلال الفرجة.. لاح لي شاب جالساً القرفصاء.. معصوب العينين.. مكبل اليدين.. موثق على قنينة غاز. عجبت له.. إذ هو على هذه الحال ويطلب الجگارة.. وبإلحاح. يأتيه الجلادون فيضربونه.. ويأمرونه بالصمت.. ثم يعود ثانية وينادي قائلاً: . أريد جگارة..

ثم جاءه الجلاد مستغلاً حاجته وسأله:ـ انت شمسوي؟فأجابه:ـ كلشي ممسوي..

فقال له متوعداً:ـ زين.. بعد شويه الكهرباء والكيبلات تخليك تعرف شمسوي..فصاح مرة أُخرى:. أريد جگارة..

فنهره الجلاد:ـ اسكت لك.. ثم ضربه.. وفي هذه الاثناء جاء الملازم حازم.. وسمع آخر المحاورة.. فسأل عنه: . اشبيه هذا؟. يريد جگارة..

قال بدهشة: ـ يريد جگارة.. ثم قال ساخراً: ـ جيبوله سشوار وعدلوله شعره! ثم ضربه.. وانهالت عليه الشرطة بالضرب.. وهو ينادي:ـ أريد جگارة..

لعنتُ (الجگارة) ومَن صنعها.. قلت في سري: أين أنت؟ وفي أي حال؟ وأين (الجگارة)؟ وممَن تطلبها؟

المرحوم صادق جعفر الخطاط

دخل الملازم حازم الى الصالة.. وألقى نظرة متأملة علينا.. ثم وجه الكلام لمعتقل مقيد بجانبي:. لك إنت الطويل أكملت التحقيق كتبت إفادة؟ فأجابه:ـ نعم.

هكذا كان كلامهم مع المعتقلين.. كل ذي عاهة ينادونه بعاهته.. (لك انت الأعرج.. أو انت الأعور) وإذا لم يجدوا عاهة لكنه يتميز بشيئ ما..

يحاولون إشعاره أن هذا نقص فيه: إنت الأسود.. إنت القزم.. إنت الطويل! وإذا كان سوياً.. وليس فيه علامة فارقة ينادونه:انت أبو الـ... [33]

قبل قليل لفت نظري عندما همس بأذني: ـ دير بالك.. لا يشوفونك..إذ كنت أنفذ بصري من خلال ثقب في الحائط يطل على باب مديرية الأمن العامة فأرى جموعاً غفيرة تتوافد على المديرية زرافات ووحدانا.. أشكالهم متنوعة.. وأزيائهم مختلفة.. حتى أدهشني مرأى رجال ونساء في عمر يتجاوز الكهولة.. وحينها أدركت أن كل هؤلاء هم متعاونون مع رجال الأمن لجلب الأخبار لهم..حتى قلت لنفسي: يبدو أن الشعب العراقي نصفه مخبرون للأمن! ونصفه الآخر مخبر عنه!!

عرفت ـ فيما بعد ـ أن هذا الشاب الطويل القامة هو صادق جعفر الخطاط.. وقد حكم عليه بالإعدام شنقاً حتى الموت!

هو الخطاط المعروف في بغداد.. طالما اعجبت بخطه الجميل.. الذي يزيّن (جامع الخلاني) بلافتات كبيرة.. مخطوط عليها آيات قرآنية وأحاديث نبوية شريفة.. واسمه في ذيل اللافتة.

كنت أتأملها مأخوذاً.. وأنا أصغي للدكتور الشيخ أحمد الوائلي (رحمه الله).. وهو يلقي محاضراته في ليالي شهر رمضان المبارك.. جالساً بين جمع من الإخوة ،والأقارب والأصدقاء.. ونسيم ليالي بغداد العذب يعبث بنا.. وكلنا آذان صاغية لصوت يشدّ جوارحنا.. فيغمرنا كالسيل المنحدر من عل.. ثم نعود الى أهالينا ونفوسنا ممتلئة بهجة.. والأرواح تشف من أثر الموعظة الحسنة. حاملين معنا الحلوى.. لنواصل سهرتنا حتى صلاة الفجر.. بين تلاوة قرآن.. ودعاء.. وصلاة.. وطرائف.. ودعابات.. جمع كله صلاح وخير وأُلفة

---

33) كلمة بذيئة جداً.

ووداعة ورحمة.. بعضه سيق الى المشنقة.. وبعضه غيّب تحت الثرى وهم أحياء.. أو بعد أن نخر صدره الرصاص.

بعد عشرة أيام في مديرية الأمن العام

بعد مضي عشرة أيام على هذه الحال شعرت بالإعياء.. وقد هدني الإرهاق. ولما كان النوم ممنوعاً في النهار.. وليلاً يتعذر لصعوبة الحركة ولصلابة الوسادة! فهي قنينة غاز.. والقيد يمسك بالذراعين.. ثم إن النائم واليقظان عرضة لركلات الشرطة المتعمدة.

ضحى هذا اليوم كنت متربعاً كما يأمرون.. لكن النوم تسلل الى عيني فعقد جفنيهما.. حلمت حلماً شفافاً نقلني الى مضيف جدي والبساتين التي تحيط به.. والأقارب وابناء القبيلة.. وكنت أسير بمحاذاة الجدول الذي شهد سمر الأهل على حافته.. والذي علمتني أمي فيه السباحة عندما كنت في السابعة من عمري.. إذ كانت تغتنم انقطاع المارة والزوارق فتضع يديها تحت صدري وبطني.. وأنا أضرب الماء بيدي ورجلي حتى صرت سباحاً.

إستيقظت فزعاً على أثر ثقل هائل سقط على القيد الذي يمسك بذراعي.. فشعرت مثل وخزة كهربائية سرت في يدي.

لاح لي من خلال الخرقة الشرطي علي.. فهو ضخم الجثة.. مترهل.. سفيه.. جبان.. إذا ما ضيّق عليه أحد زملائه أو أهانه.. حالاً ينهال علينا صفعاً وركلاً.. ويمطرنا بوابل من الشتائم.. وهو يبدي حركات مضحكة.. فمع ترهل جسمه وثقل وزنه كان يقفز.. ويضرب مقلداً لاعبي الكاراتيه ونحن مقيدون.

ذات يوم ـ صباحاً ـ دخل علينا ونحن مقيدون في الصالة.. توسطنا واقفاً وقد وضع يديه على خاصرتيه.. وكأنه يتأملنا ممتلئاً زهواً.. وخيلاء..

وتجبراً..ثم قال متوعداً:ـ لكم ديروا بالكم مني اليوم.. ديروا بالكم.. تره آني متريگ باچة وشارب سفن.. ديروا بالكم مني!! فما كان من أحد المعتقلين إلا أن قال له بلطف ؛ امتصاصاً لنقمته:ـ هني وعافية! وبالرغم من الحال الذي هو فيه طأطأ رأسه وكأنه استحيى.. ثم ولّى مدبراً ولم يتكلم.

وذات ليلة انهال علينا ضرباً هو وأحد زملائه بعد أن أخبرا أنهما (خفر) هذه الليلة.. فيضرب أحدهما يميناً وشمالاً.. ويردد:ـ لو ما هذوله أخوات الگحبة چنه نعرف خفارة.

إنهال شرطي على أحد المعتقلين وهو يحاسبه حساباً عسيراً ويقول له: ليش الخميني يعدم گوگوش؟! وتركه.. ثم عاد ليضرب ثانية.. وهو يردد بحرارة:ـ ليش الخميني يعدم گوگوش؟!

وهكذا مر على جلّنا.. يضرب ويحاسب.. وليس لأحد أن يجيب.. وربما الكثير من المعتقلين هم ليسوا من هواة الفن! ولم يعرفوا (گوگوش) أو يعرف (گوگوش) فيمنعه الحرام من الاصغاء إليها.. أو أن له شغل شاغل يمنعه عن متابعة أخبارها. ولكن على أية حال (كلٌ أكل المقسوم) من أجل گوگوش!

وعندما سمعت ـ في المنفى ـ أن گوگوش المطربة الإيرانية لم يعدمها أحد.. وهي آمنة مطمئنة.. ولم تزل بخير في بلدها! عادت إليّ الذكرى.. وقلت:

كم اكلنا ضرباً.. بعضه لأجل گوگوش والكثير منه لا ندري لأجل مَن؟!

كلب ابن كلب

قادنا الشرطي الى دورة المياه.. ووقف شرطي في منتصف الطريق المؤدي الى دورة المياه وبيده (الكيبل).. وقال:ـ كل واحد منكم يقول أنا كلب إذا مرّ من يمي.. وإذا رجع كذلك.. فقال الجميع ما أراد.. وفي العودة نسي شاب

من أهالي الزعفرانية.. فنهره الشرطي مذكراً.. التفت نحو الشرطي فزعاً رافعاً يديه.. وقال له:

. آني كلب ابن كلب!! فغرق الشرطي في الضحك وعفى عنه.. ولأجله لم يطلب جواز العبور.

۞ ۞

جئ بفتى الى غرفة التحقيق.. وانهالوا عليه بالسياط.. وانطلق هو بصيحات ثورية وينادي بأعلى صوته: الله أكبر.. الله أكبر..

ظناً منه أن سيهدّ أركان مديرية الأمن العامة بهذا الهتاف المفعم بالثورية.. وسوف يفزع الجلادين.. وما كان من الجلادين إلا أن قابلوه بالإستهزاء كعادتهم مع المعتقلين.. كان أحدهم يقول: . هذا هواي متأثر بفلم الرسالة!!

واستمروا بجلده حتى تحولت صيحاته الثورية الى صيحات إستغاثة وتوسل.. ثم إنتهى الصياح والهتاف الى إعترافات أدت الى إعدام خمسة شباب.. وسجن مجموعة أُخرى بالسجن المؤبد..

عرفت الفتى فيما بعد.. هو من أهالي مدينة الثورة.. عمره 18 سنة.

مثل هذا الهتاف يستفز الجلادين ويستنفر حقدهم ووحشيتهم.. وهم يملكون كل وسائل البطش والارهاب.. فليس من الحكمة أن يهتف المعتقل في مثل تلك الظروف بمثل هذه الهتافات.. قد يُسلط عليه تعذيب لا قبل له به.. فتكون العواقب وخيمة ونتائجها الندامة.

أنعل أبوك لابو حزب البعث

سأل الشرطي معتقلاً عن اسمه ؛ لمراجعة معلومات خاصة به.. فأجابه المعتقل: . يحيا البعث! فرد عليه الشرطي طالباً اسمه.. فأجابه بالجواب ذاته: يحيا البعث.

فالتفت الشرطي نحو جماعته وقال مستهزئاً:

. تعرفون هذا شسمه؟ اسمه يحيا البعث!

فضج الجميع بالضحك.. وانطلق يهزج ويقفز على الإيقاع ذاته: ـ هلهوله للبعث الصامد.. هلهوله للبعث الصامد.. فوقف قبالته الرائد عامر.. وأخرج لسانه ووضع كفه على جانب فمه ؛ ليضيقه.. وأخذ يعفط منه.. وهو يقفز معه على الإيقاع ذاته.. ثم ساقوه الى غرفة التعذيب.. فكانوا يعذبونه وهو ينادي بأعلى صوته مؤكداً ولاءه للسلطة.. راجياً عفوهم:ـ بعثي.. بعثي.. بعثي للموت!! ثم خمدت أنفاسه.. وبعدها وقّع على إفادته المعدة له.. وحكم عليه بالإعدام فقط!!

كان هذا الرجل بعثياً.. ومخبراً للسلطة.. وطالما سبب الأذى للآخرين.. ولما طالبوا أحد المعتقلين بالاعترافات على أفراده الذين معه في حزب الدعوة.. وكان يعرف أدق التفاصيل عنه.. فاعترف عليه على أنه متعاون ومتعاطف ومنتمي الى حزب الدعوة.. وبهذا أراح العباد من مخبر.. وقتله بأيدي أسياده.. لمثل هذه الحالة حالات أُخرى تشبهها.. فالسلطة لا تثق بأحد.. والمعتقل عادة ما يكون متديناً يخشى الله.. فلكي ينجو من الجلادين وعذاب الآخرة.. يعترف على بعثي مجرم (ويخلص)!

قال أحد المعتقلين للملازم حازم متوخياً إحترامه.. ومستجدياً عطفه ورعايته:ـ سيدي آني عضو شعبة بالحزب..

فأجابه الملازم حازم:ـ انچب لك.. أنعل أبوك.. لا أبو اللي سواك عضو شعبة.. لا أبو حزب البعث كله!!

داسوا على بطنه حتى مات!

في الشعبة الخامسة.. في الطابق الثالث.. حاول شاب معتقل الخلاص من التعذيب.. فاغتنم الوقت الذي يساق فيه الى دورة المياه.. وهرب نحو احدى الغرف وألقى بنفسه من الشباك.. وفزع الجلادون من محاولة الهروب هذه! وما هي إلا دقائق حتى عادوا به الى الشعبة الخامسة وطرحوه أرضاً.. وقيدوا يديه ورجليه.. وأخذوا يقفزون على بطنه وعلى أعضائه التناسلية.. حتى مات (رحمه الله).

كان البعثيون أول حكمهم سبعين نفراً!

بينما علّقوا أحد المتهمين.. وبدأوا بخلع سرواله.. وهو يصر على عدم ارتباطه بحزب الدعوة.. ولما خلعوا سرواله وانكشفت عورته.. تبين أنه حالق عانته.. قال الرائد عامر ساخراً: ـ ينكر هو بحزب الدعوة.. وشاهده وياه.. وهاي شنو الحالقها.. مو عدكم مستحب كل أربعين يوم تحلقون؟!

وذات مرة أكد لنا قائلاً:ـ انتم اتگولون بالروايات: احنا لو نبقه ست أشهر.. لو ست اسنين.. لو ستين سنه.. بقينه ست أشهر.. وبقينه ست اسنين.. راح نبقه ستين سنه!! ثم استدرك:. حزب الدعوة[34].. عيب عليكم تحچون.. اجينه واحنا سبعين واحد.. والدنيه كلها بيد (محسن الحكيم).. مو هسه الدنيا كلها بدينه.. عدمنه (الصدر) عبّالنه تگلبون الدنيه.. عيب عليكم تحچون!!

۞ ۞

34) لا خفاء أن السلطة آنذاك أطلقت على كل متدين شيعي ينتمي للحركة الاسلامية.. أو يتعاطف معها.. أو يتستر على شخص حركي من أي اتجاه اسلامي شيعي.. كانوا يلصقون به تهمة الانتماء الى حزب الدعوة، بل وحكموا على بعض المتدينين المستقلين بأحكام مختلفة لأنهم مهيئون لأن ينتموا إلى حزب الدعوة كما كان بعض الجلادين يقول ذلك:
. إحنا نعرف إنت مو بحزب الدعوة بس إنت متهيئ للانتماء إلى حزب الدعوة.

كان أحد المعتقلين يصر على عدم إرتباطه بحزب الدعوة.. فهددوه بأن يلقوا به في حوض (التيزاب).. ولما كان ذهنه مشبعاً بحكايات التذويب في التيزاب.. اطمأن الى أنه سيتم تذويبه.. لكنه ظل مصراً.. وبينما هو مقيد اليدين.. إذ أمسكوا بيديه ورجليه وأدنوه الى حوض التيزاب.. وما زال مصراً.. إلا أنه أدرك أن ليس بينه وبين الموت سوى لحظات.. فردد على عجل الشهادتين.. ولما يأسوا منه.. ألقوا به في الحوض.. وإذا به ماء قراح[35] يقول:ـ صرت انتظر أن أذوب واستسلمت.. لكنهم لما قالوا لي: گوم أخ الگحبه.. عندها اطمأننت أنني ما زلت حياً أرزق!! ثم قالوا له: إذا انت مو بحزب الدعوة.. تعال إحلف بالقرآن.وكان أمامهم مصحفاً كبير الحجم. ويقول: من حركة گلبي ضربت المصحف بقوة وقلت: قسماً بها... ولم أكمل إذ أن (المصحف) ما هو إلا صفيحة معدنية على هيئة مصحف.. موصل فيها تيار كهربائي.. فهبّوا جميعاً واقفين وصاحوا:ـ شوّر بيه.. شوّر بيه القرآن..واستنكروا عليه عظيم فعلته.. وقالوا له:ـ شفت القرآن شوّر بيك.. لانك كذبت.. ثم انهالوا عليه بالتعذيب حتى وقّع على إفادته المعدة له.

۞ ۞

حلاقة الأمن العام!

جئ برجل يودع سن الكهولة.. ذي لحية طويلة بيضاء.. تبين أنه أذن للصلاة.. ثم ختم الاذان بدعاء كان يردده الناس قبل الثورة! وهو: (اللهم انصر مَن نصر الدين.. واخذل مَن خذل الدين). ولما كانوا متأكدين أن هذا الرجل على (نيّاته) وغير مسيس.. وأن دعاءه لم يمس الحزب والثورة!!

35) كان الجلاد الرائد عامر عندما يغمى على معذب بين يديه يصيح بصوته الجهوري منادياً الشرطة قائلاً: (اسحلوه ذبوه بالشط)، فيظن المعتقلون من حوله انها نهاية كل معذب هو الشط..!! وفي الحقيقة هو حوض ماء في الشعبةالخامسة من مديرية الارهاب العام!!

فكانت عقوبته أن أمر مدير الأمن الشرطي قائلاً:ـ زيّن لحيته بالنعال! فما كان من الشرطي إلا أن انهال على وجهه ضرباً بالنعال ليحلق كريمته.. فصاح به مدير الأمن:ـ لك مو هيچ! ثم علمه أن يلصق شفرة الحلاقة بأسفل النعال ويحلق لحيته.. وخرج الشيخ أمرداً بعد أن دخل بلحية طويلة.. ومنعوه من الأذان وإمامة الجماعة منعاً باتاً.

۞ ۞

إيقاع صعب

عندما يصيب الجلادين الملل.. يتوسلون بأي شيئ ليرفع عنهم الملل فابتكروا طريقة.. وهي أن يجردوا المعتقلين من ثيابهم إلا من السروال.. ثم يأخذ أحدهم بالنقر على الطاولة.. وآخر ينقر على (صينية) الشاي.. وهكذا وسط هذه الضجة يأمرون احد المعتقلين بالرقص.. والسياط مشهورة من كل جانب.. فرقص البعض (تقية).. وامتنع البعض فأكلته السياط.. ولما جاء الدور إلى أحدهم وهاله أن يرى نفسه مجرداً من ثيابه وسط الطبول والسياط.. والأوامر تأتيه من كل جانب.. التفت نحو الجلاد
قال له:ـ هاي الرقصة إيقاعها صعب.. لا أستطيع الرقص على هذا الإيقاع! فألقوا (بصينية) الشاي والسياط.. وغرقوا في الضحك.. وعفوا عنه وعن الآخرين.

هل العباس معصوم؟

تم إلقاء القبض على رجل دين كهل.. إمام مسجد في مدينة الثورة.. ويبدو أنه يستحق (التأديب).. ولكن ليس لديهم اتهام يدينه.. أدخلوه على مدير الأمن.. فأشار له بالجلوس.. فجلس.أمره المدير قائلاً: ـ عِدلي المعصومين؟

فلم يرَ الشيخ سؤالاً أيسر من هذا السؤال.. وظن أن إعتقاله من أجل أن يعد المعصومين ويُفرج عنه.. فأجابه على البديهة:ـ علي.. الحسن.. الحسين.. السجاد.. الباقر.. الصادق.. الكاظم.. الرضا.. الجواد.. الهادي.. العسكري وصاحب الزمان.

وبينما ينتظر أن يُخلوا سبيله ويُفرجوا عنه.. بعد أن أجابهم على سؤالهم الذي من أجله إعتقلوه! مدّ مدير الأمن بصره نحوه وهز رأسه مستنكراً.. وقال له بلهجة فيها إتهام:ـ وبعد؟! فأجابه الشيخ: ـ هذوله هم المعصومين!

فقال له بتوبيخ: ـ والعباس؟! فأجابه على الفور: ـ العباس مو معصوم..

فحدجه مدير الأمن بنظرة قاسية.. وأخذ يضيّق عينيه ويهز رأسه مستنكراً ويقول:ـ لك هذوله كلهم معصومين.. والعباس ابن البدوية مو معصوم!!

ثم أشار الى الشرطي؛ قائلاً:ـ جيب لي الصونده! فأتاه بالسوط.. وانهال على الشيخ بقسوة وهو يردد:ـ لك اشلون تگول العباس ابن البدوية مو معصوم؟! والشيخ يستغيث فلا يغاث!وبعد ذلك اطلق سراحه.. ووصية مدير الأمن تطن في اذنيه.. عندما قال له متوعداً: ـ دير بالك.. والله إذا گلت العباس مو معصوم.. دير بالك..

۞ ۞

كان الجلادون يصفعوننا ذهاباً واياباً.. وهم يوجهون اسئلة لا ينتظرون أجوبتها.. ومن هذه الاسئلة:ـ لك انت اشگد راتبك؟! وبعد الجواب تأتيه الصفعة.. وإلقاء كلمة جاهزة وهي: ـ بعد شتريد من الحزب والثورة؟!

الاسئلة كثيرة.. فمنها: أنت بيا صف؟ فإذا كان الجواب بالكلية.. تأتيه الصفعة.. أو عندك بيت؟ أو عندك سيارة؟ وهكذا...وكان من بين الشرطة شرطي شديد الغباء.. وجه سؤالاً لشيخ عمره يزيد على السبعين سنة.. وقال له:ـ كم ولد عندك؟

فأجابه: ـ سبعة. فرد عليه فوراً:ـ بعد شتريد من الحزب والثورة؟!

وذات يوم سأل أحد المعتقلين:ـ انت شنو شغلك؟! فأجابه:ـ استاذ مساعد.

فرد عليه متهكماً:. استاد مساعد!! گول معاون معلم وفضها.

۞ ۞

طلب أحد المعتقلين من شرطي أن يغيّر له الخرقة التي عُصبت بها عيناه لما علق فيها من وسخ وقذارة. غاب الشرطي قليلاً ثم عاد وأزاح عن عينيه الخرقة القذرة.. ووضع بدلها خرقة جديدة.. وعقدها من الخلف ثم سأله:ـ اتشوف لو لا؟!

فأجابه المعتقل:. لا أبداً ما شوف. فأكد عليه الشرطي:. ولا شويه؟!

فأجابه: . ولا شويه.

دفع الشرطي برجله نحو وجهه بقوة.. وكأنه يهمّ بضربه.. وإذا به يبعد وجهه.. فقال له مستنكراً:. ها لك.. مو تگول ما شوف؟ ثم أردف قائلاً.. وهو ممتلئ زهواً.. وهز كتفيه:. بابا احنا مضروب بينا المثل.. احنا كلاوچيه[36].

۞ ۞

سمعت أحد المعتقلين.. وكان مقيداً إزائي يطلب من الجلادين العودة الى الموقف قائلاً:. آني مريض.. عندي بواسير.. رجعوني للموقف. قال له الجلاد:. إنت كاتب إفادة؟ . نعم كاتب إفادة.. ومكمل تحقيق.

اغتنمت غفلة الشرطي وهمست بأذنه متسائلاً عن الموقف.. فأجابني هامساً باقتضاب: إنه مكان مريح وفيه مجال للنوم.

يا إلهي.. ما معنى هذا الكلام.. كاتب إفادة.. مكمل تحقيق.. هل تنتظرني إفادة أكتبها؟!ثم ماذا يعني مكمل تحقيق؟ أليس يعني مكمل تعذيب؟

---

36) تعني باللهجة العراقية: نحن مخادعون ومراوغون وما الى ذلك...

ثم ما هذا الموقف؟ لابد أنه مكان للراحة.. تراءى لي كأنه قاعة كبيرة.. أرضها مغطاة بالفراش.. وعلى جوانبها ألقيت وسائد.. وأجهزة التبريد تغمره بهوائها البارد.. إذن كيف سألقي بنفسي بعد كل هذا الحرمان من النوم؟!

۞ ۞

الموقف! ترى متى سأذهب الى الموقف؟ وكيف سيكون نومي؟ لابد أني سوف أغط في نوم عميق.. ترى متى سأفيق إذا ألقيت بنفسي على الفراش؟ ورَفَعت رأسي وسادة.. ولفني نسيم بارد؟! لابد أن الموقف هو مكان للراحة.. فيه النوم.. والحمام.. وفيه (التواليت) وفيه أجهزة التبريد. وإلا فلماذا يطلب هذا المعتقل العودة إليه.. ألا يبتغي الراحة؟اشتد بي الشوق الى الموقف.. لكنني سرعان ما شعرت بطعنة في قلبي.. إذ أن بيني وبين الموقف فاصلة.. وهي التعذيب التي يسمونها التحقيق! كم كنت أغبط الذين أتموا تحقيقهم.. وحتى لو كان بعد ذلك الإعدام! فكل شيئ يهون أمام هذه الحال التي أنا فيها.. ومن التعذيب المنتظر! ترددت على مسامعي كلمات: ـ إعترف.. أعترف.. يعترف.

كيف يكون حال مَن يعترف على إنسان يؤدي به الى القتل؟ تصورت أن وجهه سوف يسوّد ثم يتهرأ لحمه،وما عند الله أشد وأخزى! لابد أنهم سيسألونني.. بأي شيئ سوف أجيبهم؟ إذن كيف النجاة؟ تذكرت (بلك الكهرباء) في دورة المياه. ولكن هل يتسنى لي الانتحار؟!

۞ ۞

أرخى الليل سدوله.. تم توزيع العشاء.. ألقيت في حجري (سندويچه).. ازدردتها.. وكنت أسقط الطعام في فمي من دون أن أشعر بطعمه.

طيلة هذه الفترة أشعر كأنني مصاب بالحمى.. بالرغم من سلامة صحتي.. ومتانة بنيتي الجسدية آنذاك.. فقد كنت رياضياً وفي عمر الفتوة! انفجر في داخلي بركان من الأحاديث والتساؤلات.. بعضها يشبه العواء في

رأسي هناك تعرف صاحبك.. إذا هرب ارموه.. ليش جبناك ما جبنا غيرك؟! الرجال الذين يصرخون مستغيثين: آخ إيدي.. آخ.. آخ..(هلا... بويه اطعيمه.. هلا).

حسن الأسمر القصير

ولما كنت أنتظر التحقيق.. إذن أمامي عقبة كؤود لابد أن استحضر لي قدوة في الصمود.. فمَن هذه القدوة؟! لابد أن أكون قد عايشتها عن كثب..حالاً قفزت في خاطري صورة ذلك الشاب[37] الأسمر القصير القامة.. المرح.. الصامد.. صديق اخي الذي زارنا في البيت قبل عام.. شاركنا (الإفطار) إذ كان الوقت شهر رمضان المبارك.

عرفت أن إسمه (حسن).. ويسمي نفسه (محسن).. متزوج ولديه أولاد.. ولكي يوفر لعائلته احتياجاتها.. وبما أنه مطارد من قبل السلطة.. فلا يستطيع العمل في الدوائر الحكومية.. فقد كان عمله في البناء.. اضافة الى عمله الجهادي.

كان ذكياً.. جريئاً.. اقتحامياً.. ينثر الدعابات الخفيفة التي تجعله قطباً لكل تجمّع يحل به.. بالرغم من يأسه من الدنيا.. إذ كان يردد: أليس الدنيا سجن المؤمن؟ فالموت هو الفرج من الدنيا.. كما يفرّج عن السجين ويطلق سراحه.

---

37) كذلك كنت استحضر صمود ابن عمي عائد حامد عزيز الشياع الذي تعرض لتعذيب شرس شديد في قاعدة الإمام علي العسكرية.. إذ كان عسكري فني في القوة الجوية.. وصمد صموداً عجيباً واطلق سراحه.. وعاد الينا محروق الفخذين.. مدعياً أن خللاً فنياً حصل في الطائرة وسبب له هذا الحرق.. إلا أنه خصني بالسر وحدثني عن سبب الحرق الكبير.. وهو أنه تم إعتقاله مع مجموعة من العسكريين منتمين الى حزب الدعوة.. وأجرت معهم التحقيق لجنة من القصر.

كان عمره ثلاثون عاماً.. من أهالي مدينة الشعلة..تنقل الى مدن أُخرى.. وفي الوقت الذي عرفته فيه عام (1980م) كان يقطن مدينة المحمودية.. واختار مكاناً يكثر فيه أهل السنة سكناً له.. ليبعد عنه أنظار المخبرين.. وعرّف نفسه باسم (محسن) لقربه من اسمه (حسن) خشية أن يفاجئه احد باسمه الصريح.. وهو متنكر.. فهو معروف لدى الكثيرين باسم (الحاج حسن الكناني) ويتوارى في تحركه الجهادي وراء كنيته (أبو جواد).

صرت استحضر صورة حسن الذي صمد في التعذيب عند إعتقاله عام (1979م) من قبل مديرية الأمن العام.. واثبت براءته.. وأُطلق سراحه.. بالرغم من انتمائه لحزب الدعوة الأسلامية.

صمد أمام تعذيب الجلادين في مديرية الأمن العام بالرغم من قسوته ووحشيتهم.. وقد رافقته (دوخة) مستمرة من جراء التعذيب.. ولهذا كان يخبئ في جيبه علبة صغيرة فيها سم قاتل.. لكي يتمكن من الانتحار فيما إذا أُلقي القبض عليه.. فكما يقول: أصيبت قواه بالضعف من جراء التعذيب.. وقد حاول ذلك عندما رأى رجال الأمن أحاطوا به.. لكنهم لم يمهلوه.. فقد أمسكوا بكلتا يديه حالما دس يده في جيبه.

حدثنا عن ليلة ليلاء مارسوا معه فيها أساليب وحشية.. ومن أشدها عليه تلك الغرفة الصغيرة جداً . حيث القوه فيها . ذات أرضية مفروشة ببساط مغموس بالماء وجدرانها مشبّعة بالماء متصل بها سلك كهربائي.. وبين الحين والآخر يرتج من مكانه بعنف وتتقاذفه الجدران فيما بينها.. أحياناً عندما يكون نائماً.. وأحياناً عندما يكون مستيقظاً.. ولكنه في غفلة من أمره.. وبعد ذلك ألقوا به في غرفة مظلمة.. تنبعث فيها مرعبة.. صراخ رجال.. لبناية شاهقة تنهار.. فيخيل إليه أنها سقطت فوق رأسه.. ثم قلعوا ظفر إبهام رجله اليمنى. ومع كل هذا صمد.... وأخيراً أُطلق سراحه.. إذن من الممكن الصمود.. وحسن خير مصداق..فبه أقتدي..

تعاقبت أيام وليال وذكراه ثابتة في خيالي.. وصورته في ذهني.. كانت توقظ عندي أحاديث وحوارات ليست لها نهاية.. وبينما كنت أستعيد كلامه.. والبواعث التي جعلته يصمد.. وأتأمل ذلك.. قطع عليّ تأملاتي صوت عالٍ..

قدوتي في الصمود حسن علي كماش

ثم انبعثت جلبة ترافقها زغاريد من حناجر الشرطة.. وآخر إرتجز (هوسة) وصاروا يدبكون ويرددون:. وين يروح المطلوب إنّه؟

ثم إن الجلادين بعضهم يهنئ بعض.. والضباط يثنون عليهم قائلين:

. عفيه.. عفيه.. إسباع.. إسباع.

قال أحد الشرطة مفتخراً:. آني أول واحد طفر سياج البيت ولزمته!

مَن هذا . يا إلهي . لقد بات اسمه يتردد على لسان كل الجلادين.

وقال شرطي مذكراً صاحبه: ـ هذا اللي كان عدنا قبل سنتين.. وذكّره ببعض الحوادث التي حدثت معه بين أيديهم.

مَن هذا؟! ولماذا كل هذه الجلبة؟! حتى تحولت الشعبة الخامسة في مديرية الأمن العام الى هرج ومرج.. وزغاريد وتهاني وهوسات؟!

لابد أنه خطر جداً.. إذ لم يحصل مثل هذا سابقاً كما حصل هذه الليلة بالرغم من كثرة المعتقلين؟! كما أنهم لم ينادوا باسم شخص إلا نادراً.. أما الذي كان سبباً لكل هذه الجلبة فقد كانوا ينادون باسمه الثلاثي:. حسن علي كماش. وصار اسمه يتردد على ألسنة الجلادين.. كما سمعت باسماء أخويه (حسين وعباس).. ويبدو ان جميع عائلته تم إعتقالها.. ثم تبين لي ان زوجته وأخويها تم إعتقالهم.

أُلقي بأحد إخوته الى جانبي.. وقُيد معي على القنينة ذاتها.. وهو (حسين) الأخ الأكبر.. ضعيف البنية.. يرتدي (دشداشة) ذات خطوط متقاطعة على شكل مربعات.. ذات ألوان أخضر غامق وأبيض.. وخطوط سوداء.. يبدو أنه جئ به من بيته. تبدو عليه إمارات الذعر والفزع.. بل كان اسم اخيه (حسن) يسبب له رعباً شديداً.. فكلما سأله سائل من الجلادين:ـ أنت حسين علي كماش؟ فيجيبه على الفور:ـ نعم. ثم يستدرك بسرعة:ـ آني حسين مو حسن. حتى باتت هذه الكلمة ثابتة مع اسمه.. وكأنها تتمة لاسمه.

سأله الملازم حازم بعد أن جيئ به بثلاث ساعات تقريباً قائلاً له:

. حسين الجهاز اللي بالكنتور عندك علم بيه؟! فأجابه قائلاً:

ـ لا والله.. آني عسكري بـ (H3) ولم آتِ إلا هذا اليوم. ظل على هذه الحال قابعاً بجواري مدة أسبوع تقريباً.. دون أن يستدعى للتحقيق.

۞ ۞

ينطفئ النور أحياناً بسبب انقطاع التيار الكهربائي.. وتنتشر عتمة خانقة.. فيفقد الشرطي السيطرة على همسات المعتقلين.. في ذلك الجو الخانق المرعب همست بأذن جاري (حسين مو حسن) قلت له: ـ قضيتك صعبة لو سهلة؟

كنت ابتغي من سؤالي هذا معرفة سبب بقائي كل هذه الفترة دون استدعاء الى التحقيق.. هل أن الإتهامات المخبأة لي كبيرة وكثيرة.. فأرجئ التحقيق معي ليتفرغوا لي ولأمثالي الخطرين جداً!! أم أن الإتهام سهل يسير.. فانشغلوا عني وعن أمثالي بمن يصك مسامعي صراخهم من الصباح الباكر وحتى ساعة متأخرة من الليل!! قلّبت الأمور رأساً على عقب لعلي أعرف السبب الذي من أجله اعتقلت ولكن دون جدوى.. توقعت أسباباً كثيرة.. بعضها الذي له علاقة بأناس آخرين يفزعني كثيراً.. وأما السبب الذي لا يؤدي الى أذى غيري فكنت أتمناه.. وأرجو أن يكون هو.

۞ ۞

كنت أعيش في جو قاتل مفعم بالقلق والرعب.. وأتوسل الى أي شيئ يدخل السكينة الى قلبي.. وبينما كنت منتظراً جواب الأخ (حسين مو حسن) ليثلج صدري.. وتنزل السكينة على قلبي.. فاجابني بلهجة جافة تنم عن ضجره وتبرمه.. وبصوت خافت كالهمس قال لي: ـ سدها.. سدها.. سدها..

وبعد مضي أيام مريرة وليال قاسية.. سمعت الملازم حازم ذات ليلة ينادي باسماء أخوي (حسن).. ثم قال لهم: ـ يالله توكلوا على الله.. گوموا. وتبين لي فيما بعد أنه أُطلق سراحهم.. وقد جئ بهم الى مديرية الأمن العامة بسبب أخيهم.. وهم لا تربطهم به أية رابطة حزبية ولا جهادية.. بل كانوا يخشون من سلوكه وهو يواجه الطغاة.. وحتى سكناهم.. فهم بعيدون عنه.. ولم يعرفوا عنه شيئ.. ونالهم ما نالهم من أذىً دون أي سبب.. سوى أن أخاهم (حسن علي كماش).

۞ ۞

ما زلت استحضر صورة ذلك الفتى الصامد.. الذي اتخذته قدوة لي.. وطيفه لا يفارق خيالي. مضت أيام عسيرة وليالٍ ثقيلة.. وبعد أن أُجري معي التحقيق.. ثم دفعوا بي الى الموقف.. وحتى ليلة النهار الذي ساقونا به الى محكمة الثورة.

زجوا بي مع عدد هائل في زنزانة صغيرة.. كنت جالساً.. وحشداً ضاغطاً من حولي يكتم الأنفاس.. بعضهم واقف.. وبعضهم جالس.. منهم مَن التقى بصاحبه الذي كان في زنزانة أُخرى.. وصار يشكو له ما ألمّ به.. وبعضهم يصبّر الآخر ويواسيه.. ومنهم مَن يضحك ملء شدقيه ويُضحك مَن حوله.

في وسط ذلك الإزدحام الضاغط استرعى انتباهي شاب.. يستقطب الانظار بلباقته وطرئفه. حالما سقط نظري عليه تيقظت في نفسي ذكرى غير واضحة.. لكنني شعرت شعوراً لا لبس فيه.. هو أنني قد التقيت به أو رأيته.. أو جمعتني به مناسبة ما. ولكن أين يا ترى؟ ومتى؟ لست أدري..

كنت أمد نحوه بصري وأتفرس بوجهه وأتساءل.. وهو يحدث مَن حوله وينشر دعابات تضحكهم جميعاً. وبينما هو يجيل النظر في الوجوه.. القى نحوي نظرة خاطفة وسألني: ـ أنت أخو[38]...؟أجبته على الفور:ـ نعم.

وكأن هذا الحوار السريع أيقظ ذكرى كانت نائمة في ذاكرتي.. تذكرته فوراً وسألته:ـ انت حسن؟فأجابني:ـ نعم.

وأردف: متى تمّ إعتقالك؟ـ يوم 12 تموز.

ـ سمعت باسم حسن علي كماش؟ـ نعم

ـ هو أنا. فغرت فمي متعجباً وقلت:ـ أهو أنت؟!

السيد عباس الشوكي

صرنا نتبادل أحاديث سريعة.. ثم توجه بالنظر الى شخصين وقال لهما: ـ هذا أخو (خيون). تبادلنا التحية.. أما أحدهما فكنت أعرفه ولكن لم ألتق به.. فهو السيد عباس الشوكي إمام مسجد الجوادين في مدينة الشعلة.. وأما الثاني فلم أعرفه. جذبتنا جميعاً ذكريات مشتركة وتبادلنا أحاديث من هنا وهناك.. فهم أصدقاء لإخواني، وتجمعنا المنطقة ذاتها سابقاً. وعادوا لإتمام حديث.. قال السيد عباس الشوكي:ـ آني كنت مطمئن هذه الأيام في غاية الاطمئنان.. وتفاجأت لما طرقوا عليّ الباب ليلاً. ثم توجه فتى بالسؤال الى حسن علي كماش:

38) ذكر اسم أحد إخوتي.

. ولكن كيف إنكشفت المحاولة الإنقلابية؟!

. إنكشفت قبل ساعة الصفر بيوم واحد.

. كيف إنكشفت؟!

. لا أدري.. ولكن أنا متأكد قد حصلت خيانة فيما بيننا.

. يعني من أين بالضبط؟!

. لا أدري ولا اريد أن أتهم أحداً.. ولكن الشيئ الذي أنا متأكد منه هو أنه قد حصلت خيانة.

ثم أردف:. بينما ذهبت الى الگرنة لجلب مجموعة من المجاهدين قادمين من ايران.. وكان لدي موعد مع (مهدي عبدالمهدي)[39] على تل هناك..انتظرته طويلاً ولم يأتِ.. وما أن رجعت حتى القي القبض عليّ.

سأله الفتى:. مهدي عبد المهدي هذا الذي تسميه أبو حوراء؟!

. لا.. هذا أسمه أبو زينب الخالصي.. أما أبو حوراء[40] فهو شخص آخر.. وهو من القياديين أيضاً في حزب الدعوة.. وكان يركب سيارة مرسيدس سوداء مظللة ليوهم رجال السلطة أنه منهم.. وكان يجتاز كافة السيطرات دون تفتيش أو سؤال.

. إذن قيادة المحاولة الإنقلابية كم واحد؟

. كان إرتباطنا المباشر مع مهدي عبد المهدي وأبو حوراء وحسين الشامي. إستوقفني هذا الاسم الأخير وسألته: . حسين الشامي صاحب كتاب كلمة الانسانية العليا؟! فأجابني: . لا ليس هذا الخطيب.. حسين الشامي شخص آخر.. وهو من قياديي حزب الدعوة.ثم تنهد وقال بحيرة وألم: ـ وجدت

---

[39] في المنفى التقيت الحاج مهدي عبدالمهدي وذكرت له هذا الموعد فأكده لي.

40)اسمه فائز عبدالحسين علي.

معلومات عند الأمن حيرتني.. كيف وصلت لهم؟ ومَن الذي أوصلها لهم؟ لست أدري؟

ثم تحول الحديث بلا مناسبة.. فقال السيد عباس الشوكي لصاحبه بمواساة صادقة وهو واقف وصاحبه جالس في وسط الزنزانة،وبصوت يسمعه جلّهم: آني هواي.. هواي إتأذيت عليك لمن سمعتك تصيح من التعذيب: ولكم (عزي). فأطرق رأسه وضحك بحياء معرباً عن ألم الخازوق الفضيع.. بحركات من رأسه وحاجبيه.. وكلمات مقتضبة.

كانا صديقين رحمهما الله وتم إعتقالهما معاً عام 1979م.. ومن ثم أُفرج عنهما سوية، بعد أن أمضيا شهرين في مديرية الأمن العام.. وكان هذا الإعتقال الأخير لهما والذي أُعدما فيه سوية كذلك.

۞ ۞

قيل لي أن هذه المحاولة الإنقلابية إستهدفت رأس السلطة في العراق.. ومضت فترة ستة أشهر يدبرون لها.. والمسؤول عنها هم قياديو حزب الدعوة الإسلامية.. سمّيت فيما بعد بقضية (جيزان الچول)[41] نسبة الى منطقة في محافظة ديالى. وقد حصلت مقابلة مسلحة بين أهالي هذه المنطقة وأزلام صدام.. لذا أطلق عليها هذا الاسم.. وإلا فأغلب المشتركين والمنتمين هم من أهالي مدينة الشعلة ومدينة الثورة وأهالي الخالص.. ومن هنا وهناك.

۞ ۞

شاهدته في قاعة محكمة الثورة هادئاً مطمئناً غير مبالٍ وكأن شيئاً لم يكن.. عاد من دورة المياه الى مكانه وتبادل مع الملازم أدور كلمات أغرقت

41) أشار صاحب كتاب (سنوات الجمر) في الصفحة 339 قال: حصل خلل فني! فهل يجرؤ أحد ليقول ما هو هذا الخلل الفني؟ ومَن هو المسؤول عنه؟ وهل نكتفي بهاتين الكلمتين الخفيفتين على اللسان.. وبينهما الحاج حسن البيضاني ألصق المكوى على ظهره،وعلى راحتي قدميه،وضرب على عجانه حتى صار بوله دماً.. وسيق جمع كبير من خيرة الشعب العراقي.. أغلبهم من الشباب الذين هم بعمر الورود الى أعواد المشانق.

الضابط في الضحك.. قدماه مملوئتان بالصديد من جراء التعذيب.. وقد عذبه سعدون شاكر وزير الداخلية آنذاك بنفسه على أثر محاورة أغضبته.

يوم 25 آب كنا سوية مع مجموعة غصّ بها قفص الإتهام.. ولما جاء دوره دارت محاورة مقتضبة.. وهو مطمئن الى مصيره. سأله الحاكم:

ـ هذي إفادتك12 صفحة؟ . نعم.. إفادتي. ـ كل ما فيها صحيح؟

فأجابه كاليائس من الحال الذي هو فيه.. وكمن يستعجل الموت:

. نعم.. نعم.. كله صحيح.. كله صحيح.. كان يتكلم معه بلا مبالاة.. الشيئ الوحيد الذي نفاه هو عندما قال:. بس المسدس الذي عثرتم عليه عند نسيبي لم يكن له علم به.. أنا الذي خبأته في بيته دون علمه.

كان يبتغي من ذلك أن يتحمل المسؤولية ويبرئ غيره.. كما هو حال الكثيرين من الإخوة المجاهدين رحمهم الله.. وقد تجرعوا مرارة التعذيب والموت حرصاً منهم على نجاة غيرهم.

۞ ۞

ولما عادوا بنا الى مديرية الأمن العام، ليعودوا بنا الى المحكمة في اليوم الثاني.. كان هو مع مجموعة مطمئنين الى نتيجة الحكم.. وهو الإعدام.. ومن الطريف أنه طلب من أصحابه أن يشاركوه لعبة (المحيبس). وإذا حاول أحدهم أن يخدع أصحابه يقول له مازحاً: . لا تقشمرنه.. إنت باچر معدوم. وكانوا يضجون بالضحك. سأله سائل وهو مستغرب للحال التي هو فيها.. فقال له بدهشة:

. أبو جواد؟!. نعم.

. أنت شنو مخايف من الإعدام؟

. لا.

. وعائلتك.. وأولادك؟!

. إلهم الله.

. ليش تلعب محيبس؟! فأجابه بالكلمة التي عُرفت عنه عندما يحاول تقييم الوضع بإقتضاب وبلا مصطلحات سياسية: الدنيا جايشة!! أي ان الحال الذي نحن فيه مضطرب لا يثبت على قرار.

وفي اليوم الثاني نودي باسمه.. فنهض من مكانه ليقف وراءه صف طويل من خيرة شباب الشعب العراقي وكهوله وشيوخه[42].. ليساقوا الى المشنقة وهو غير مكترث! بل تصورته وهم يعالجون حبل المشنقة ليطوقوا به عنقه، أو عندما يجلسوه على الكرسي الكهربائي.. سوف يستوقفهم ليطرفهم بطرفة تضحكهم جميعاً.. ثم يقرأ الشهادتين ليرحل عن هذه الدنيا التي زهد بها شباب في زهوة الشباب.. لأنه لا خير في دنيا الظلم والإضطهاد والإستبداد والسجون والمعتقلات والقتل والتشريد ثم الخيانة؟!

ذهب الى حبل المشنقة.. والشيئ الذي بات كظله لا يفارقه هو: مَن الذي أفشى به وبمن معه الى رجال السلطة.. ومَن هو الخائن؟!

حيدر كاظم كرم وعبد الحسين

تناهى الى مسامعي صوت معذّب صارخاً بألم: . آخ إيدي.. آخ إيدي.. آخ إيدي.. آخ.. وظل مستمراً على هذا الصراخ. تبين لي أنه حيدر كاظم كرم من أهالي مدينة الشعلة.. مهندس عمره أربع وعشرين سنة.. كان ذو جسم ممتلئ قصير القامة.. تعرض لتعذيب شرس.. فقد إستخدموا معه

42) كان من بينهم الحاج جاسم علگ جابر الخزعلي.. من شيوخ القبيلة المعروفة (الخزاعل) ومن (بيت عبيد) عمره تجاوز الستين عاماً.. صوته مبحوح.. يسكن في بغداد حي الاسكان.. ينحدر من عائلة معروفة أصلها من العمارة.. شاعر.. ينظم الشعر الفصيح والشعبي.. سأله الحاكم وأراد أن يغضَ من قدره.. فقال له: متستحي.. واحد بگد ابنك يضحك عليك؟ فأجابه باسلوب مَن يتحدث في (ديوان) وبكل صلابة وهدوء.. قائلاً: ما ضحك عليّ أحد.. فرد عليه قائلاً: وهاذي الفلوس اللي تبرعت بيها لحزب الدعوة؟! فأجابه قائلاً وهو يبسط يديه ويرفع رأسه: ما تبرعت بفلوس الى حزب الدعوة.. تبرعت بالفلوس للجهاد.. ثم سيق الى حبل المشنقة مع أخويه.. المقدم عبدالرضا.. ضابط في دائرة التوجيه السياسي.. والدكتور خالد.. طبيب في كربلاء.. رحمهم الله جميعاً.

معظم وسائل التعذيب وأحرقوا فخذيه.. وعُلق في السلك المتدلي من السقف من يد واحدة وكان أحد الجلادين ماسكاً برجليه ويتدلى معه في الفراغ.. ولفظاعة الألم كان يصرخ:. آخ إيدي.. آخ إيدي..

شاهدته في أول يوم عذبوه.. أدخلوه الى غرفة التعذيب.. وبعد فترة أخرجوه.. وقيدوه قبالتي.. لاحظت آثار التعذيب عليه.. ومدّ يده في السطل ليتناول الإناء ليشرب الماء... لكن يديه تخاذلتا من جراء التعذيب.. ولم يستطع رفع الإناء.. ثم عادوا به الى غرفة التعذيب ثانية.. وثالثة.. وكل هذا لم أسمع له صوتاً.. لا شك أنهم هذه المرة عذبوه عذاباً يجعل الرجل يصرخ:ـ آخ.. إيدي.

قال لي الأخ (جبار عبود) معه في الزنزانة ذاتها في (الموقف) في الأيام الأخيرة عندما ينادونه ليعودوا به الى التحقيق.. ينظر إلينا متوسلاً ويقول: إدعُ لي.. بعد ما أتحمل تعذيب!! أُلقي القبض عليه قرب الجامعة المستنصرية.. حيث كان على موعد مع صاحبه.. ولم يعلم بإعتقاله.. وبسبب التعذيب الوحشي الذي تعرض له إعترف عليه.وبينما كان واقفاً ينتظره.. وإذا بمجموعة من الشباب مرتدين ثياب الرياضة.. وهم يهرولون.. ففاجئوه.. إذ أحاطوا به من كل جانب.. وأمسكوا بيديه.. ثم تبين له إن هؤلاء هم من رجال الأمن جاءوا لإعتقاله.. بعد أن انتشرت من حوله مجموعة كبيرة من رجال الأمن.. أحاطت به دون أن يشعر بهم.

سيق معه الى مديرية الأمن العام جميع عائلته.. أبوه الشيخ الكبير السيد كاظم كرم البخاتي.. وأُمه.. وإخوانه الأربعة.. واحد منهم سيق الى الإعدام معه اسمه (عبدالحسين).. وحكم على ثلاثة بالسجن المؤبد.. وهم ناصر ومحمد وأحمد.. توفي أحمد في السجن وعمره تسعة عشر عاماً على أثر مرض شديد.. وأطلقوا سراح أُمه وأبيه بعد أن تعرض (للفلقة) على كبر سنه.

الجلاد عامر التكريتي

بعد أن تم إعتقاله.. وبعد أن عذّبوه أشدّ تعذيب لإنتزاع الإعترافات.. أفاض عليه الرائد عامر التكريتي بما جادت به أيدي المخبرين. ولكن ثمة أمر فوجئ به(رحمه الله) حتى سوقه للشهادة ولم يزل يعرب عن دهشته وإستغرابه.. عندما وضع الرائد عامر بين يديه صورة له.. كان قد إلتقطها قرب جسر نادري في مدينة الأهواز الإيرانية. ولما نظر فيها عرفها لأول وهلة.. وتذكر المكان الذي التقطها فيه.. ولكن كيف وصلت من مدينة الأهواز الى يد الرائد عامر.. الجلاد الأول في مديرية الأمن العام؟! ثم إنه كان يتعامل بكنية (أبو رحيم) ولم يتعامل باسمه الصريح.. فسأله الرائد عامر:. هذا منو؟! . آني.

. وين ماخذ هاي الصورة؟! ولما كان جسر نادري يشبه الجسر المعلق في بغداد شبهاً بسيطاً.. أراد أن يوهم الرائد عامر.. فقال له: قرب الجسر المعلق.

فصفعه الرائد عامر وشتمه وقال له: هاذي قرب جسر نادري بالاحواز! وظل (رحمه الله) يتساءل.. وطالما أعرب عن استغرابه ودهشته.. وسؤال كبير يواجهه ويرافقه الى حبل المشنقة.. كيف وصلت الصورة؟ وبهذه السهولة من جسر نادري في الأهواز الإيرانية الى مديرية الأمن العام في بغداد.. وبيد الجلاد الرائد عامر التكريتي؟!

۞ ۞

وزير الداخلية سعدون شاكر
وحسن علي كماش وآخرون

ذات ليلـة.. وفي الهزيـع الأخـير منهـا.. شـاهدت رجـلاً يعتمـر العقـال والكوفية الحمراء.. ويرتدي (دشداشة) بنية اللون أو ذات لون رماني غامق.. خـرج مـن غرفـة التحقيـق يمشـي مختـالاً.. وخلفـه مـدير الشـعبة والرائـد عـامر والضباط وبعض أفراد الشرطة ولكن بإهتمام بالغ هذه المرة. كان الصمت يخيّم على الشعبة الخامسة.

تبـين لي فيمـا بعـد أنـه وزيـر الداخليـة سـعدون شـاكر.. حقـق مـع بعـض المعتقلين.. وجلد حسن علي كماش بيده الآثمة.

أما الذين حقق معهم.. فمنهم الملازم محمد.. ملازم في الشرطة المحلية.. وقيل إنه كان ضابط أمن في أول الأمر.. ثم حولوه الى الشرطة المحلية لعدم أطمأنانـهم لولائـه.. وهـو مـن أهـالي الخـالص.. وكـان مشـتركاً في المحاولـة الإنقلابية.

بعـد أن سـأله سـعدون شـاكر بعـض الإسـئلة وأجابـه عنهـا.. التفـت الى ضابط التحقيق وقال بلهجة الواثق: هذا بعد عنده حچي.. دگوه زين.

ويقـول: حقـاً كـان لـدي أشـياء أخفيتهـا عـن ضـابط التحقيـق.. وبعـد أن غادرهم الوزير.. عذبوه تعذيباً شديداً.. حتى أنهم قلعوا أظافر رجليه.

وأوعـد واحـداً فقـط بـالإفراج عنـه.. ومَنحِـهِ (نجمـة وسـيارة) وهـو النائـب الضـابط (ص...) في وزارة الـدفاع مـن أهـالي الخـالص.. وكـان مشـتركاً في المحاولة الانقلابية. وكان هذا الوعد المزعوم إكراماً له لما أدلى به من اعترافات كثيرة.. وقد طلب منه الوزير أن يفيدهم أكثر.. ولم يبخل عليهم بالمزيد.. ومن الإمتيازات التي نالها وهو مسجىً معنا.. حيث سمحوا له بالاضطجاع

على الأرض متى شاء.. في الوقت الذي يمنعوننا منه.. ووضعوا الى جانبه علبة سكائر (روثمان).

۞ ۞

والحق يقال إنه تعرّض لتعذيب شرس كغيره.. لكنه إنهار.. وقد إعترف على الكثيرين من أصدقائه.. وجلّهم حُكم عليهم بالإعدام.. سوى القليل منهم حُكم عليه بالسجن المؤبد، ومن بينهم اثنان، أحدهما سائقه والآخر مرافقه عندما يصبح وزيراً للدفاع في الجمهورية الإسلامية القادمة في العراق! كان اسمه يتردد على ألسنة بعض المعتقلين.. وبعضهم كان يفتري عليه ناقماً ؛ لأنه كان سبباً لإعتقاله.

وكلما تذكرته.. وتذكرت التعذيب الشديد الذي لاقاه الحاج حسن البيضاني بسببه.. أدركت كيف أن الصديق الضعيف في المحنة يتحول الى وبال على صديقه.. ويسبب له أذىً لا يسببه له أشد الناس عداوة له.

۞ ۞

شاهدته في المحكمة.. وكنا سوية مع مجموعة كبيرة في قفص الإتهام.. بعد أن سأله الحاكم عن اسمه وعمره وعنوانه وسكناه.. كغيره من المتهمين.. قال للحاكم كلمة ظن أن سيُخلي سبيله:. سيدي آني أوعدني السيد الوزير بنجمة وسيارة.

فأجابه العسكري الذي عن يمين الحاكم:. إنچب لك إنت خائن.

فصاح باكياً:. سيدي آني جبت ناس أبرياء.

فرد عليه العسكري بلهجة المستنكر: . ليش تجيب أبرياء؟ منو گلك تجيب أبرياء؟! فقال وهو يكاد يشرق بدموعه؛وأسند رأسه على خشبة القفص: ـ سيدي من التعذيب.. والله أبرياء.. تركه غارقاً بدموعه وهو ينشج.. وأشار الى مَن كان بجانبه.. منادياً إياه باسمه.. ثم سيق هو والأبرياء الذين(جابهم!) الى حبل المشنقة.

الشيعة عندهم كلهم خونة!

وأخيراً أفصح وزير الداخلية سعدون شاكر لمن حقق معهم من المعتقلين عن حقده على الشيعة.. حيث قال: ـ إحنا نعرفكم الشيعة إنتم 95% منكم حزب دعوة خونة!! هل يعني هذا إن (القيادة الحكيمة!) قد حكمت على أكثر من نصف الشعب العراقي بالإعدام سلفاً بتهمة الانتماء الى حزب الدعوة[43].

ولا خفاء أن الكثير ممن أُعتقلوا وعُذبوا وسُجنوا وأُعدموا ليس لهم انتماء الى حزب الدعوة.. لكنهم رفضوا الظلم والاستبداد وقارعوه.. أو أنهم أرادوا أن يعيشوا أحراراً.

الشيخ راضي

ظهر أحد الأيام.. هجم أفراد الشرطة على الشيخ راضي.. أحدهم خلع حذاءه الأبيض وصفعه على رأسه وهو يردد:ـ شيخ راضي! مو كنت تلبس عمامة بيضة.. هاذي القندرة بدل العمامة!! وآخر يصفعه.. وهو يرفع يديه فزعاً.. وقد أخذ الرعب منه كل مأخذ! لا يقوى على تحريك يديه من جراء التعذيب.

---

43) نص القرار الذي يحمل الرقم 261 على ما يلي:
استناداً الى أحكام الفقرة (أ) من المادة الثانية والاربعين من الدستور المؤقت.. قرر مجلس قيادة الثورة في جلسته المنعقدة بتاريخ 31/3/ 1980 ما يلي:
لما كانت وقائع التحقيق والمحاكمات قد أثبتت بأدلة قاطعة أن حزب الدعوة هو حزب عميل.. مرتبط بالأجنبي وخائن لتربة الوطن ولأهداف ومصالح الأمة العربية.. ويسعى بكل الوسائل الى تقويض نظام حكم الشعب ومجابهة ثورة 17 تموز مجابهة مسلحة.. لذلك قرر مجلس قيادة الثورة تطبيق أحكام المادة (156) من قانون العقوبات بحق المنتسبين الى الحزب المذكور مباشرة.. أو العاملين لتحقيق أهدافه العميلة تحت واجهات أو مسميات أُخرى.
ينفذ هذا القرار على الجرائم المرتكبة قبل صدوره التي لم يصدر قرار بإحالتها على المحكمة المختصة.
صدام حسين.. رئيس مجلس قيادة الثورة

كل هذا والرائد عامر واقف بجانبهم وبيده (الكيبل).. وفي اليد الأُخرى قنينة (سينالكو)[44].. وكان يشرب منها.. ثم يكلم الشيخ راضي بتهكم ويقول له:ـ أبو محمد.. ولك شلون تحبب بالبنات.. مو حرام.. الدين وين صار؟؟ثم ناوله القنينة.. وفيها ثمالة متبقية مما شربه.. قاصداً بذلك إهانته وتحقيره.. وهو يردد قائلاً باستهزاء:ـ جرّ أبو محمد.. جرّ. وكان أبو محمد يضع القنينة في فمه والقيد ماسك بيديه المعوقتين.. فيرفع رأسه ويشرب وهو خائف مرعوب.

أحياناً يسقط مغشياً عليه.. وأحياناً يطلق اصواتاً من صدره تشبه الصفير.. فيناوله الشرطي علاجه الذي وضعوه بجانبه.. وهكذا كان.. غالباً ما يُغمى عليه.

تبين لي فيما بعد أن الشيخ راضي من قيادي حزب الدعوة.. ووكيل شرعي للسيد الشهيد محمد باقر الصدر– رحمه الله–في مدينة الثورة.

وكان مطارداً منذ العام1979م حتى تم إعتقاله صيف عام1981م.. وكان مسؤولاً عن خط البنات في حزب الدعوة الإسلامية.. ولهذا كان يوبخه الرائد عامر متهماً إياه أنه (يحبب بالبنات).. لايكتفون بتمزيق الضحية جسدياً ونفسياً.. بل يتجاوزونه الى إسقاطه اجتماعياً بإتهامات مشينة وباطلة. تعرض لتعذيب شرس.. ثم حكم عليه بالإعدام وسط شائعات وتهم أخلاقية ...(لاأستطيع إثباتها برغم تواتر بعضها ؛لأنني لم أكن شاهداً عليها،ولاأستطيع نفيها لأنني ليس لدي دليل لنفيها..).

۞ ۞

44) أحد المشروبات الغازية.

تُرى إذا نفدت الكلمات التي تصف الألم.. فهل ينتهي الألم؟!

لبثت في الشعبة الخامسة ستة عشر يوماً.. أياماً طويلة.. طويلة جداً.. ثقيلة مريرة.. لا يكاد يساغ شرابها.. يعجز البيان عن وصفها.. وينضب المداد إذا أراد وصف كل صغيرة وكبيرة فيها.. وما شاهدته.. وما سمعته.. وما لاقيته.

مكان لا يشبه الأمكنة.. مفرداته كلها تثير الفزع والرعب.. وكل شيئ يدعو الى الاضطراب والهلع.

هراوة.. قيد.. سوط.. خازوق.. كهرباء.. و(گناره).. ومكوى كهربائي لجلد الانسان.. الزمن لا يقاس باللحظات ولا بالدقائق.. هناك مقياس لم يوضع له اسم بعد.. المقياس هو بعدد السياط.. وعدد الصدمات الكهربائية!!

الرحمة.. الإنسانية.. القيم.. وحتى البطولة والتحدي.. ليس لها مكان هنا!! وحقوق الانسان.. قيمة الانسان.. مفردات ليس لها معنى.. وحتى لا تثير السخرية أو الإستهزاء.. إنما تبعث شعوراً غامضاً مبهماً.. ليس من السهل إدراكه.

اللحظات متغيرة.. متباينة.. متلونة.. بين عطش وجوع.. إرهاب وحرمان.. عذاب متصل.. آلام يقفو بعضها بعضاً.. منه اللاذع.. ومنه الهادئ.. ومنه ما يهرس العظم واللحم والعصب.. ومنه ما يحرق الروح ويدمي القلب.

ما هي المفردات؟ بل ما هي الكلمات التي تصف إنساناً مقيداً على قنينة غاز تارة.. أو على أنبوب تارة أُخرى؟.. معصوب العينين.. مفترشاً (الكاشي) الوسخ.. حرارة تموز تصهره؛ إذ حرم من نسمة هواء.. إذا طلب

الماء سقوه ماءً ساخناً يشوي البطون.. لا يروي ظمئاً.. يعبه عباً في جوفه.. تمتلئ مثانته.. فلا يعرض على دورة المياه إلا كل12 ساعة مرة.

۞ ۞

أفيق صباحاً على عويل معذّب.. وأصوات السياط وهي تسقط على جسده بإيقاع منتظم. وأغفو.. بعد أن يمزق صماخ أذني صراخ يدوم ساعات.. وأحياناً يكون هذا الصراخ لرجل واحد يرزح تحت وطأة التعذيب.. تمضي الساعات وهم مستمرون في تعذيبه.. ولا يكفون عنه حتى يأخذه الإغماء.

صراخ.. صراخ.. في آخر الليل.. في مكان مجهول من الأرض! كنت كلما أسمع هذا الصراخ.. تذكرت عنوان رواية جبرا إبراهيم جبرا.. صراخ في ليل طويل. مضت سنون طويلة على هذه المشاهد والحكايات والاصوات ولم تزل حية صاخبة.. مدوية في وجداني.. لم يستطع الزمن محوها وإن طال.

۞ ۞

الفصل الثالث

جلادون.. حتى النخاع

وقت الظهيرة من يوم 28 تموز 1981 م.

الصمت الخانق يلفنا جميعاً.. سكون عمّ الشعبة الخامسة.. كلّ اختلى بنفسه يجترّ آلامه التي ليس لها نهاية.

تناهى إلى مسامعي همس.. لاح لي من بين العصابة.. الشرطي محمود يسأل المعتقلين.. واحداً واحداً.. عن اسمه.. وبصوت كالهمس.. وهو يجلس أمام المعتقل جلوس القرفصاء.. ثم يربت على يده.. ويهمس قرب أذنه.. ثم يتركه. وعندما بلغني أمسك بيدي بطريقة استفزازية.. ألقيت عليه نظرة عن كثب.. فتى يدرج في العشرينات من عمره.. أحمر البشرة.. أصفر الشعر كشعر الثعالب.

سألني عن اسمي الثلاثي فأجبته.. فك القيد الذي يشدّني إلى الأنبوب.. وأمرني بالنهوض فنهضت.. كنت قد قرأت رواية عن أهل البيت(عليهم السلام): «إذا ما قمت لمواجهة السلطان الجائر فأقرأ سورة التوحيد عن يمينك.. وعن شمالك.. ومن أمامك.. ومن خلفك». وهل في الدنيا سلطان أشد جوراً من هذا السلطان؟!

إقتادني ماسكاً بيدي.. رحت ألهج بذكر الله.. قرأت سورة التوحيد سراً.. وبإمالة بسيطة جداً إلى يميني.. ثم إلى شمالي.. ومن أمامي.. ولكن تعذّر عليّ أن أقرأها من خلفي.. فالشرطي أمرني أن أسير إلى الأمام.. وأقل حركة جانبية تؤدي بي إلى ما لا يحمد عقباه.

إلى أين يا ترى؟! لابد أنها غرفة التعذيب.. ستكون نهاية المطاف..

كنت أشعر شعور الطفل الذي ينتظر الختان الذي طالما سمع به.. وتصوّره.. وخشي الوقوع فيه.. إلا أنه يتمنى أن يتجاوزه إلى ما بعد الختان! فالتحقيق شر لابدّ منه! تمنيت بحرارة أن أتجاوز هذه العقبة الكؤود.. وما بعدها كل شيئ يهون.. حتى الإعدام.. تبيّن لي فيما بعد أن هذا الشعور.. هو الشعور ذاته الذي يراود مَن حولي. أجل هذه عقبة.. صعبة.. كؤود.. لابدّ أن تنهال عليّ فيها اسئلة.. وسياط.. وكهرباء.. وهراوات..

۞ ۞

كنت أتصور أن الذي يعترف على شخص ما سوف يسودّ وجهه.. ثم يتساقط لحمه.. كالمصاب بمرض الجذام.. وما بعد ذلك نار جهنم البيضاء! إذن.. كيف يعترف أحدّ على أحد؟! وكيف لا يعترف أمام هذا التعذيب.. الذي لم يصمد أمامه أحد؟! وفي نهاية كل فصل تعذيب.. تنتهي بصوت إستغاثة.. أعترف.. أعترف.. بس نزلوني!

إقتادني الشرطي.. وكنت مدركاً إلى أين.. إلى غرفة التعذيب! وكنت أعرف بابها.. ورغبت في المسير لأتجاوزها لكنه جذبني نحو الشمال نحو غرفة التعذيب !!.

كان ممسكاً بذراعي بقوة.. وكنت معصوب العينين.. حافي القدمين.. أشعث الرأس.. مغبّر الوجه.. مرتدياً دشداشة كاشفة عن الساقين.. قواي خائرة.. قد أخذ التعب والإرهاق مني مأخذاً عظيماً.

۞ ۞

من مكاني الذي نهضت منه إلى غرفة التعذيب.. مسافة لا تبلغ العشرين خطوة.. بيد أن مئات الأفكار ركضت في رأسي.. ومشاعر متناقضة طافت بي وأخترقتني.. الأفكار تخض دمي خضاً.

هذه اللحظة التي كنت أنتظرها.. تهيأت لها.. أعددت العدة.. لكل سؤال جواب.. نذرت نذراً لوجه الله إن أنا تجاوزتها ولم أعترف على أحد. ما الذي

ينتظرني وراء الباب؟! قالوا لي: هناك تعرف صاحبك؟! هل حقاً أن لي صاحباً وراء هذا الباب؟! لا شيئ يخيفني.. ولا شيئ يبعث فيَّ كل هذه الآلام التي تمضغ قلبي.. وتشرب روحي.. سوى خشية أن أعترف على أحد! وما زالت وصية من أوصاني ترن في أذني: «من آذى مؤمناً بشطر كلمة كتبت على جبهته يوم القيامة آيس من رحمتي » {أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ}[45].. رددت في سري هذه الآية الكريمة.. متوسلاً بقاهر الجبارين. فتح الباب.. خطوت.. ثلاث خطوات.. أوقفني.. وسكت. لم أرَ شيئاً.. صرت أردد دعاء الإمام الحسين(عليه السلام)يوم عاشوراء.. كنت قد حفظته عن ظهر قلب.. لمثل هكذا محن:

«اللهم أنت ثقتي في كل كرب.. وأنت رجائي في كل شدة.. وأنت لي في كل أمر نزل بي ثقة وعدة.. كم من كرب يضعف عنه الفؤاد.. وتقل فيه الحيلة.. ويخذل عنه القريب والبعيد.. ويشمت به العدو.. وتعييني فيه الأمور.. أنزلته بك.. وشكوته إليك.. راغباً فيه عمّن سواك.. ففرجته.. وكشفته.. وكفيتنيه.. فأنت وليّ كل نعمة.. وصاحب كل حاجة.. ومنتهى كل رغبة.. فلك الحمد كثيراً.. ولك المنّ فاضلاً ».

طالما رددت هذا الدعاء في تلك الأيام الرهيبة! وكنت أتساءل كيف يكون من يلحد بالله ويكفر به؟! سبحانه جلّت قدرته. وكيف يصمد أمام هكذا صعاب من لا يؤمن بالله تعالى.. ولا يستعين به؟! وما هي الحلاوة.. والإنس.. الذي حرم نفسه منها بجحوده؟! ربما لاح لي شيئ من معنى الحديث القدسي: «ما وسعتني سماواتي ولا أرضي.. ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن».

الحاج مناتي

---

45) النمل: 62.

في تلك الليالي الثقيلة.. كان بيننا الحاج مناتي.. من مدينة الثورة.. مقيداً معنا.. ذات مرة كلمنا بصوت مسموع مغتنماً غفلة الشرطي وقال: «لا تبالوا كل هذا في سبيل الله. ثم تلا قوله تعالى: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ}[46]».. عندها شعرت كأن نسمة رطيبة لامست شغاف قلبي المحترق. إذن كيف يكون من يقول (لا إله)؟!

عندما أمرني الشرطي بالنهوض بدأت ألهج بذكر الله.. لا أتذكر كيف قرأت.. وكيف سمح لي الوقت.. فالمسافة قصيرة.. وكنت حريصاً على أن لا أحرك شفتي. لكنني أتذكر جيداً.. كيف كنت ألجأ إلى الله بروحي وجسمي. كانت الأفكار تتوالد في رأسي بسرعة مذهلة! هل حقاً أنا واقف بين أنياب هذا الوحش الكاسر.. الذي لا يكل ولا يمل من تقطيع الناس بالكهرباء والسياط؟!

۞ ۞

كنت أدرك أن الشرطي محمود إزائي.. لكنه لم ينبس بشفة.. تركني برهة.. شعرت كأنني مجرداً من ثيابي.. وعيون تتربص بي.

ندت كلمة منه.. كانت بمنزلة المفاجئة لي.. قال لي متهكماً.. وكأنه يتأملني ويصغي للنداء الخفي: ـ إتشاهد.. إتشاهد[47].. اليوم راح تموت.

ثم أردف كلامه: ـ عندك أخ معتقل؟أجبته: ـ نعم.

قال لي: ـ هسه هو إعترف وراح إنطلعه. أدركت أنه يكذب.. فأخويّ اللذان عتقلا قبلي أولهما في مايس1980.. والثاني في أيلول1980.. ولم يكن أحد منهما معي الآن. لكنه دهمني بالسؤال الأعظم..والأدهى.. فقال:ـ إعترف.. شكو عندك؟

---

46) البقرة: 186.

47) إتشاهد: يعني اقرأ الشهادتين.. وهي: (أشهد أن لا إله إلا الله.. وأشهد أن محمداً رسول الله) وعادةً ما يقرأها المسلم عند الاحتضار.

بالرغم من إنتظاري هذا السؤال.. لكنه كأنما رجمني بحجارة صلدة سقطت على رأسي.. فأصابني دوار.. وكأن الأرض مادت تحت قدمي!

أجبته: . أبداً.. كلشي ما عندي.

. لك إعترف أحسن لك.. إحنا كلشي نعرف عنك.

. ما عندي شيئ أبداً.

. زين هسه يجي الرائد.. وهو يحچي وياك.

الجلاد عدنان التكريتي

إنقبضت روحي.. وغاص قلبي بين ضلوعي.. عندما سمعت أن الرائد سوف يأتي.. هل حقاً سأكون وجهاً لوجه مع الرائد الجلاد الرهيب.

صرّ الباب وكأنما دخل شخص ما.. سمعت وقع أقدام.. أزاح الشرطي العصابة عن عيني.. لاح لي شاب أسمر رشيق ممتلئ نشاطاً وحيوية.

مددت إليه بصري فدهمني شعور بالفزع مشوب بالحيرة! مَن هذا؟!

رمقني بنظرات كأنها سياط تمزق جسدي.. وابتسم ابتسامة الظفر.

لا شك أنني رأيته من قبل.. عندما سقط نظري عليه.. تيقنت أنني التقيت به.. وجهه مألوف لدي! راح يردد بصره فيّ ويبتسم.. أحسست بابتسامته كأنها سائل لزج يسيل على وجهي.

لا شك أنني رأيته مراراً وتكراراً.. وعن قرب.. ربما في الشارع.. ربما في المدرسة.. ربما في أمكنة أخرى.. ربما جمعتني به جلسة واحدة!!

مقتعداً كرسياً في الجانب الأيمن من الغرفة قرب الباب.. إزاءه منضدة عليها جهاز بحجم راديو متوسط الحجم.. تتدلى منه أسلاك كهربائية.. تنتهي بكلابات صغيرة.. تشبه (قراصات) حبل الغسيل.

في ركن الغرفة كرسي كبير.. وعن يمينه كرسيان أو ثلاثة.. وعن شماله كذلك.. دماء عالقة ببلاط الغرفة.. أدوات أخرى متناثرة على المنضدة.. وبجانبها هراوات وسياط.. ومجموعة صور فوتوغرافية ملقاة عليها. وفي أحد جوانبها سلّم متوسط الحجم.. هذا ما نالته عيناي على عجل.. وظل ما خلفي مبهماً.. فلم يتسنّ لي الالتفات إلى الوراء.

مَن هذا يا ترى؟! كان يردد بصره فيّ ويرسم على شفتيه إبتسامة خبيثة.. موجعة.. وكل شي فيه يقول: أخيراً جئتنا.. وهذه نهاية المطاف.

عرفت فيما بعد أنه الملازم عدنان التكريتي!

بالرغم من أن ذاكرتي كانت تلتقط كل ما حولي وتسعفني متى شئت.. وأنّى شئت.. وليس من عادتي أن أرى شخصاً قد رأيته من قبل ثم أظل أتساءل.. مَن هذا؟ وأين التقيته؟ إنما أتذكر هذا كله.. وأتذكر الحديث الذي دار بيننا ولو بعد سنين. حاولت أن أتذكره.. لكنه ظل يعاندني!

ربما لم تتجلّ لي الحقيقة لسبب أدركته فيما بعد.. كنت مضطرباً.. أشعر كأن آلاف الأفواه تحيط بي وتصرخ.

بإشارة آمرة من الضابط للشرطي.. إمتثل الشرطي لأمره.. فقادني نحوه وأجلسني على الأرض.. وهو مقتعداً كرسياً.. فبدا كأنه مخيّماً عليّ.. بيده سيكارة ذات حزام ذهبي.. يتنقل بها بين شفتيه وأطراف أصابعه.. وهو مفعم بالسعادة.. والبهجة.. والزهو.. والخيلاء.. تزيّن معصمه الأيسر ساعة ثمينة.. كان الوقت الثانية عشر إلا ثلثاً.. ثمة ورقة موضوعة على (الميز) مخبأة بين رزمة أوراق.. يتدلى طرفها.. مكتوب عليها: شاب طويل أصلع قرب مركز شباب الثورة!

۞ ۞

كان يسألني ويدون إجاباتي في ورقة وضعها على ركبته، بيده قلم حبر، وهو يراوح بين يديه وركبتيه ، وشفتيه، بين السيجارة ، والقلم ، والورقة، ويدفع الدخان عن وجهه

سألني عن اسمي.. مواليدي.. عناوني.. شغلي.. إخواني.. ثم سألني عن المعتقلين من أقاربي..ولما كانت زيارات المخبرين ، وشرطة صدام لاتنقطع عن بيتنا ، وبيوت أقاربنا

المعتقلين بين الحين ، والآخر؛ لتدوين معلومات عن اسم المعتقل، وعن مكان عمله...وماإلى ذلك، كذلك كانوا يركزون على صلة القربى فيما بيننا –كنت أعرف كل هذا وغيره–

لذا أجبته قائلاً:

- سعد حمادي علي شياع – أخي–
- خيون حمادي علي شياع – أخي–
- حامد عزيز شياع – ابن عم والدي –
- زامل طعمة شياع – ابن عم والدي–
- دعير خلف محمد شياع.
- مزهر جاسم سالم شياع.
- عادل حمود سالم شياع.
- عزيز شنون شبيب شياع.
- حسين وجر راشد –خالي–
- زهور جاسم – زوجة خالي–[48]

---

[48] كان هذا عدد أقاربي إلى ذلك الوقت ...ثم تم إعتقال؛ كل من: ماجد قاسم سالم شياع، حمود زامل شبيب شياع، وكاظم زامل وجر – ابن خالي–، محمد زامل وجر– ابن خالي– وعبد الواحد جبار ثامر شياع. وقد تم تنفيذ حكم الأعدام بهم جميعاً دون أن تسلم جثثهم إلى ذويهم جميعاً بإستثناء حمود زامل شبيب شياع)،و(ابني خالي).

ولما أجبته على سؤاله (بعد منو معتقل عدكم)؟

- بس هؤلاء.

تناول الصور الفوتوغرافية الملقاة على الطاولة.. ثم ناولني إحدى الصور.. أمرني أن أنظر فيها.. مسحتها بنظرة سريعة.. صورة تضم حشداً كبيراً لعلماء الدين.. يتوسطهم

السيد الخميني – رحمه الله- بعضهم جالس، من بينهم الشيخ محمد مهدي شمس الدين – رحمه الله- والسيد بهشتي – رحمه الله –

.. وآخرون واقفون.. عرفت أغلبهم.. ولم أعرف بعضهم. قال لي بطريقة آلية.. وكأنه ردد هذه العبارة على المئات أو الآلاف من قبل: هذوله القشمروكم[49].. ودمروكم.

۞ ۞

قالها هو.. وقالها غيره.. هذوله القشمروكم.. نطق بها الجلادون في مديريات الأمن والسجون.. إذن بإعتقادهم أن الكثيرين من المعتقلين هم مخدوعون.. خدعتهم شعارات أو كلمات من هنا وهناك أو ما شابه.. فلو كانت السلطة حريصة على دماء أبناء الشعب.. أليس من واجبها أن تعطي فرصة للمخدوع لكي يراجع ذاته؟؟ لكن كل ما تعطيه السلطة للمعتقل بعد هذه النصيحة خازوقاً.. وحبلاً في عنقه.. إذن هؤلاء ومن استعملهم ليسوا ساسة.. ولا هم حملة مبادئ.. أو رجال ثورة.. أو دعاة إصلاح.. إنما هم جلادون.. يطيعون ما في قلوبهم من غلظة وحقد.. ويخدعون بما في أيديهم من أموال ووعود.. فعلاجهم لكل ما يعترضهم هو سفك الدماء.. فهم ساديون يتلذذون بسفك الدماء.. التعذيب.. القتل.. هؤلاء هم حماة الوطن!!

49) قشمروكم باللهجة الدارجة تعني خدعوكم.

صورة السيد الشهيد الصدر

أخذ مني الصورة ووضع سبابته على صورة أحد رجال الدين؛ كان واقفاً ورأسه يطل من بين الرؤوس، ناولني ثلاث صور أخرى.. بأساليب رخيصة ومبتذلة.. يبتغون الحط من قدر كل مَنْ يعلن لهم الرفض أو العداء.. وهو يقول: ـ أنظر هنا ماذا يفعل؟! ثم ناولني صورة للسيد الشهيد محمد باقر الصدر (رحمه الله) عرفته لأول وهلة.. كان حاسر الرأس.. رافعاً رأسه ويضحك.. أمامه قنينة خمر كبيرة.. وبجانبه فتاة نصف عارية، لم أحتج إلى جهد أو عناء في التفكير ، لأكتشف أن هذه الصورة مجموعة من صور لتحكي إفتراءاتهم الخبيثة.

سألني: ـ تعرف هذا؟! أجبته: ـ لا ما أعرفه.

قال موضحاً: ـ هذا محمد باقر الصدر.

سألته متغابياً: ـ هل هو رئيس إيران؟!

إذ كان رئيس إيران آنذاك هو بني صدر.. فهو قريب من اسم السيد الصدر.. كنت قد وطنت نفسي علىالصورة.. وضع سبابته على أحد رجال الدين.. كان واقفاً ورأسه يطل من بين الرؤوس. ناول أن أتجاهل كل شيئ.. وأتغابى عن معرفة أي شيئ.. لمعرفتي أن هذا الأسلوب ناجع لمن يجيده بين يدي الجلادين[50].

نظر إليّ بدهشة وقال: ـ لا.. هذا محمد باقر الصدر.. رئيس الحركة بالنجف.. شنو متعرفه؟! أجبته: ـ لا.. ما أعرفه. ويبدو أنه إقتنع أنني لم أعرفه. ثم ناولني صوراً أخرى.. وكان يضع سبابته على الصورة.. ويقول: هذا (...) وكان يسمّي أسماء رجال دين حركيين.

○ ○

50) حاول أحد المعتقلين المتدينين أن يوهم مفوض أمن.. ويؤكد له أنه لا علاقة له بالدين ولا برجاله.. فقال له: (أنا كنت فاسق). ومن المفارقات أن هذا المفوض من أهالي الكاظمية.. ويعرف رجال الدين وما يرددونه من كلمات.. فرد عليه مستهزئاً: إنت فاسق؟ نعم أنا فاسق، يعني شنو تبيع فستق؟ ثم انهال عليه بالسياط غاضباً.

ولهذه الصور مفارقات.. وحكايات.. ذات يوم ألقوا بها في يد رجل دين[51].. ولما نظر فيها رفع رأسه نحو المحقق مستنكراً.. وقال: ـ إنتم صوچكم[52].. ليش متعرضونها بالتلفزيون حتى الناس تعرف الحقيقة؟ فرد عليه ضابط يجلس بجوار المحقق مستنكراً: ـ شوف.. شوف الشيخ إشجاي يحچي.. إحنا بدون منعرضها بالتلفزيون الدين منتهي.. إذا عرضناها بالتلفزيون إشيبقه بعد بالدين؟ وفي حقيقة الأمر.. أن الشيخ يستغفلهم بكلامه هذا.. وهم يستغفلونه بردهم عليه.

لديهم صور أخرى يعرضونها في (الفيديو).. فيها افتراء سافر.. وبعضها يضحك بعد استعبار.. فهم يعرضون صورة لأحد مراجع الدين وهو منهك القوى..إذ تجاوز عمره الثمانين سنة.. يدخل هذا الرجل إلى غرفة فيها امرأة فاجرة.. فيخلع ثيابه وتبقى عمامته السوداء على رأسه.. ثم يلقي بنفسه عليها ملتمساً البغاء!!

عادة ما تكون أساليبهم مع المعتقل عقيمة.. وهم يدركون ذلك.. لذا لا يولونها اهتماماً كبيراً. والأسلوب الوحيد الذي يعتمدون عليه.. هو الأسلوب الذي أثبت جدارة.. التعذيب.. التعذيب.. التعذيب..!!

۞ ۞

أخذ آخر صورة من يدي وضمها إلى بقية الصور التي يبلغ عددها سبع صور تقريباً.. وعدّلها.. وهو ينقر بها المنضدة نقرات متتالية.. وكأنه يطرق على قلبي بمطرقة.. وكأن الاصوات المنبعثة من النقرات.. كمواء هر يريد أن ينقض على فريسته.حدجني بنظر متعالية.. وقال لي بنبرة لاذعة:

ـ إحچي لك طگ بطگ.. إجتنا إخبارية عليك.. إنت بحزب الدعوة.

ثم قال لي: ـ اعترف أحسن لك.. تره إحنا كلشي نعرف عنك. بدا لي هذا الكلام مألوفاً.. حتى لكأنني سمعته مراراً.

---

51) الشيخ عبدالزهراء البديري.
52) صوچكم: تعني ذنبكم وتقصيركم.

اصطنعت الدهشة.. وأجبته بصوت بدا متلجلجاً.. مستنكراً ما سمعت: . هذا غير صحيح. امتلأ شدقاه بضحكة ساخرة متعالية.. ثم قال لي:

. إعترف أحسن لك.. وإلا أموتك بالتعذيب! ثم أشار بسباته إلى الوراء.. نحو السقف.. وقال لي: . أنظر.

أدرت جسدي باتجاه إشارته.. شاهدت سلكاً حديدياً متيناً.. ثابتاً في منتصف سقف الغرفة يتدلى في الفراغ.. وينتهي بحلقة. وما أن لاح لي حتى إرتسم أمام ناظري . وبلمح البصر . شريط طويل فيه صور لأصدقاء وأقارب.. وعلماء ومجاهدين... قال لي بلهجة فيها تحذير ووعيد.. وكأنه نفد صبره: . لك إعترف أحسن لك.. هنا أموتك بالتعذيب.. لكنني ما زلت مصراً على النفي..

۞ ۞

مدّ بصره نحوي.. وكأنه يحاصرني من جميع الجهات.. وقال: ـ (هـ...) عدنا!

كأن صوته أتاني من مكان سحيق.. كأنه يحدث شخصاً إزائي.. نظرت إليه صامتاً.. اكتنفتني دوامة كادت أن تقتلعني من الجذور.

حدجني بنظرة غاضبة.. وأشار إلى الشرطي.. فأرجعني إلى مكاني وقيدني.

ـ (هـ...). ماذا يقول؟! (هـ...) عدنا.. هل معنى هذا أن (هـ...) هو صاحبي الموعود؟! هل من المعقول أن هذا الجبل الراسي . هكذا كنت أظنه . انهار!!ـ هناك تعرف شكو عندك.. لمن اتشوف صاحبك؟

ساور الشك قلبي.. وأحسست بمرارة في حلقي.

هنا أبو عمار؟

منـذ الليلـة الأولى.. سمعـت أفـراد الشـرطة يضـجون بالضـحك ويقولـون مستهزئين: ـ هـا.. أبـو عمـار وگـع...[53]. عنـدما جـاء الطبيـب ليضـمد جراحـات المعذّبين.. أو يفقأ الأقدام الممتلئة بالصديد من جراء الفلقة ثم يضمدها... سقط أبو عمار من الكرسي عندما أجلسوه لغرض المعاينة.

زحزحـت الخرقـة قلـيلاً.. ومـددت بصـري نحـو المكـان الـذي إنبعثـت منـه الاصوات.. والضحك الساخر. لاح لي (هـ...) بشحمه ولحمه.

دهمني شعور بالفزع والحيرة.. إنها حقيقة لا شك فيها.. لكن متى جئ به إلى هنـا.. مـاذا فعلـوا بـه؟! حـتى بـات لا يقـوى علـى الجلـوس علـى الكرسـي. سمعـت الطبيب يقول: ـ صايره عنده دوخه. وشكى له من ألم في قدمه.. تحسسه الطبيب.. وقال ببرود: ـ هذا خلع.. يطيب من كيفه.

۞ ۞

وفي صباح اليوم الثاني.. عندما أيقظونا وقصدوا بنا إلى دورة المياه.. سمعت الشـرطي يكلمـه بجفـوة دون أن يضـربه.. عنـدما رآه يزحـف مـن مكانـه.. إذ لم يكـن مقيداً مثل بقية المعتقلين.. قائلاً له: ـ إنت ما آخذك للتواليت.

فـرد عليـه بصـوت مسـموع، قـائلاً: ـ آني مكمـل تحقيـق.. والبارحـة قـال الطبيب عندي دوخه.

لم أكترث لكلمة مكمل تحقيق.. ولم تستوقفني مثل هذه العبارات.. فهي لم تزل غامضة بالنسبة اليّ ولم أعرف مدلولها.. ولكن الأدهى من هذا كله.. إنتهت المحاورة بينه وبين الشرطي دون أن يناله سوط.. أو كف.. أو حتى ركلة. ما السر في ذلك؟!

مكمـل تحقيـق.. ثم حـاور الشـرطي.. وختمـت المحـاورة بصـمت الشـرطي.. ثم إنه الوحيد من بين هذا الجمع من المعتقلين لم يكن مقيداً.. لماذا؟! منذ مدة تبلغ

53) كلمة بذيئة.

الشهرين تقريباً.. تقطعت الأسباب فيما بيننا.. تذكرت صاحبي (ك..) عندما سألني قبل إعتقالي ببضعة أيام: هل تعلم أين هو أبوعمار؟

وأجبته: ـ لا.. لم أعرف عنه شيئاً. فسكت وكأنه يضمر سؤالاً كبيراً.. وكنت لا أريد أن يعرف أن لدي علاقة خاصة به.. فسكت أيضاً ولدي رغبة في أن أعرف المزيد عنه. وأعاد السؤال عليّ شاب آخر ذو رحم.. جلس إزائي في حديقة المنزل.. وإغتنم ضجة ضاحكة إنطلقت من أفواه الجمع الجالس.. فهمس بأذني على عجل: ـ أبو عمار وين؟. فأجبته: ـ لا أدري...

وما أن إلتقط جوابي حتى عاد غارقاً في الضحك مع الجميع!

۞ ۞

بعد مضي ثلاث ليال أفقت على صوت الشرطي الخفر وهو يشتم شخصاً ويقول له: ـ نام.. نام.. ليش تمشي، ثم أجلسه! والغريب أنه لم يضربه! تبين لي أن صاحبي.. كان يمشي في الممر عندما كان الجميع نائمين. وفي نهار يوم غد.. رأيته مسجىً قبالتي.. لا تفصلني عنه سوى مسافة متر تقريباً. كان معصوب العينين بعصابة تكاد تغطي نصف وجهه.. حجبت عنه الرؤيا.. فهو لا يملأ عليّ فراغاً.. ولا يؤنسني.. وحتى لا يدري بوجودي قربه. الجراحات العميقة منتشرة من منتصف ذراعيه وحتى كفيه.. لا يقوى على تحريك أحدهما.. سوى أنه أحياناً يستوي جالساً.. ويقبض على ذراعه الأيسر ويئن.. وعادة ما تكون يداه ملفوفتين بقطعة قماش طبي.. وكذلك قدماه. كان مسجىً دائماً.. وحتى عندما ينادي الجلاد قائلاً بين الحين والآخر: ـ إتربع.. الكل يتربع.. شنو عدنه فندق؟! يناديه الجلاد: ـ إنت إبقه نايم! فكان هذا الإستثناء له مدلوله.. أولاً أنهم أخذوا منه ما يريدون.. والثاني أنه لاقى تعذيباً لا يعلمه إلا الله وحده!

مع كل هذه الآلام كان صائماً.. وعند الإفطار يستوي جالساً.. ويأمر الشرطي أحد المعتقلين أن يناوله طعامه ويسقيه ماء.. فهو لا يقدر أن يحرك يديه.. تمنيت أن أكون أنا الذي أناوله طعامه وشرابه.. لكي أعرف السر منه.. كنت متوثباً

لأن ألبي نداء الشرطي إذا ما أمر أحدنا مخيراً.. لكن التخيير لم يحصل.. والأمر لم يأتني. وبعد بضع ليالٍ.. تزحزح من مكانه حتى صارت الفاصلة فيما بيننا خمسة أمتار تقريباً.

ابن عمي ماجد قاسم سالم

ثم بعد مضي أسبوع تقريباً.. سمعت الشرطي ينادي اسم ابن عمي ماجد.. وراحوا يعذبونه.. ثم أدخلوا عليه (هـ...).. وبعدها سمعت الجلادين يكلمونه وما سمعته منه، وهو ينكر معرفته أو إرتباطه بـ(جميل عبود) وكنت على علم بإرتباطه بـ(جميل عبود) او إرتباط (جميل عبود) به[54].. ثم أخرجوه سريعاً واستمروا مع ماجد بالتعذيب والجلد.. وهو يصرخ من الآلام.. مردداً كلمة لا إله إلا الله.. وبعد فصل من التعذيب.. إنقطع صوت السياط وسكت ماجد.. ثم خرج من غرفة التحقيق والشرطي يقوده.. وهو يمشي ببطؤ معتمداً على جانبي قدميه.. وتارة يقلصهما.. وتارة يبسطهما.. وقف قبالتي.. معصوب العينين.. مكبل اليدين.. تركه الشرطي بعد أن طلب ماء ليشرب.. وبعد أن شرب الماء.. أدخله إلى غرفة بجوار غرفة (المساعي).. وأدركت من مسار الحديث أنهم يدوّنون له (صحيفة أعمال).. وبعد ساعة تقريباً أوقفوا (هـ...) وخلفه ماجد.. وخلف ماجد بضع أشخاص.. وكلٌ ماسك بثوب مَن هو أمامه.. وهم معصوبوا العينين.. مكبلوا اليدين.. والجميع يسيرون خلف الشرطي.. وهو يمسك بأولهم قاصداً بهم الموقف.. كنت على علم بعلاقتهما.. لكن هل حصلت بينهما علاقة تنظيمية يا ترى؟! سرت إلى نفسي طمأنينة وقلت لنفسي: ربما سبب إعتقالي هو أن (هـ...) قد ذكرني لهم.. ومعنى هذا سأتحمل النتيجة وحدي.. ولا يطالبونني بأسماء لأناس آخرين.. كما كنت أظن أن سبب إعتقالي هو بحثهم عن أخي المهاجر إلى إيران..لكن هل من المعقول أن (هـ...) إعترف؟! ثم ماذا قال عني؟!

54) ثم تأكدت من ذلك في المحكمة وأكد انه إتصل بـ(جميل عبود) و(جميل عبود) إتصل بـ(صالح حميد) و(ماجد قاسم).

الجلاد عدنان التكريتي[55]

بعد مضي ربع ساعة تقريباً.. عاد إليّ الشرطي وفكّ القيد.. وأمرني بالنهوض.. ثم إقتادني.. كانت لحظات صعبة.. تناهشتني فيها مشاهد شتى.. فتح الباب.. ودخل قابضاً على يدي.. كتفه يلامس كتفي.. ثم ضرب الأرض برجله.. ليقف وقفه الأستعداد العسكري للضابط.

أزال عن عيني العصابة.. لمحت شاباً مفترشاً الأرض على يمين الملازم عدنان التكريتي.. الذي اقتعد كرسياً.. وصار يردد بصره فيما بيننا.. كان حريصاً على أن يكون شديد المراقبة.. لكي لا تحصل إشارة من طرف خفي لا يستطيع اللحاق بها. مقيد اليدين.. قروح كبيرة تملأ نصف ذراعه.. لكنها أكثر عمقاً عند المعصمين.. ودماء طازجة تنزّ منها. تفصدت جبهته عرقاً غزيراً.. بان عليه الأنكسار.. ونطقت ملامحه بخجل الثوري المنهار!

إغتنم التفاتة عدنان التكريتي نحوي.. فأطرف لي بعينه.. ورسم على شفتيه ظلال نصف إبتسامة ميتة. لكن عدنان ظفر به.. فحدجه بنظرة قاسية غاضبة.. وغرز عينيه في وجهه.. أمرني بالجلوس أرضاً.. حتى صرنا وجهاً لوجه.. لا تفصلني عنه فاصلة سوى كرسي المحقق الذي بات يلاحق نظراتنا بعينيه. سألني المحقق: ـ تعرف هذا؟

–عرفته!

–أجل.. عرفته! قبل ثلاث سنوات.. عندما كان يدرّس المرحلة الثانية من المتوسطة درس اللغة العربية.. وأنا في المرحلة الثالثة.

---

55 عندما أذكر كلمة تكريتي لالسبب معين إلا لأن هكذا تعارف السجناء على تسميتهم،حتى سمعت عن الملازم حازم أنه فلوجي بينما كنّا نسميه التكريتي.

لم يستثر إهتمامي إلا عندما رأيته عام 1979م يلقي قصيدة ثورية في جامع الإمام محمد الباقر.. الذي غلب عليه اسم إمام الجامع.. فسمّي باسم جامع المبرقع.. نسبة إلى الشهيد السيد قاسم المبرقع(رحمه الله).. وكانت المناسبة ظاهرها ذكرى مولد الإمام علي(عليه السلام).. وباطنها كما قال لي أخي الشهيد (خيون حمادي) وهو أحد المقربين من القيمين على الأحتفال؛إذ كان صديقاً للسيد محمد حسين المبرقع نجل السيد قاسم المبرقع – رحمهم الله جميعاً-.. هو إنتصار الثورة الإسلامية في إيران. بعد ذلك.. صار يتحيّن الفرص ليمدّ الجسور مع عائلتنا.. حتى صار صديقاً للعائلة.. بعد أن كان صديقاً لأخي.

في شتاء عام 1980م اعتقلته المخابرات بسبب حصل من رجل ادّعى إنه كان يعيره كتباً دينية.. ولديه كتابا السيد الصدر: فلسفتنا وإقتصادنا.. وتعرض لتعذيب شرس..كما أقعدوه على كرسي الإعتراف.. وهو كرسي كهربائي.. واسمه يدلّ عليه! ويبدو أن سبب إعتقاله ليس هو الاعتراف فقط.. إنما هو إلقاؤه المحاضرات الدينية.. والتهجم العلني على السلطة.. في جامع المبرقع وغيره. وصمد.. وأخيراً أطلق سراحه بعد أن مكث معتقلاً لدى المخابرات أربعين يوماً.

خرج من المعتقل صامداً.. ولم يكشف تنظيمه في حزب الدعوة..

زارنا صباح يوم شتائي.. وكان مبكراً.. عندما دخلت غرفة الإستقبال فوجدت أبي وأخي(الشهيد خيون)- رحمهما الله- يصغيان إلى حديثه بإهتمام.. بعد أن إنقطع عن حديثه على أثر إلقاء التحية.. وما تقتضيه مراسيم التحية لرجل خرج من الإعتقال تواً.

إستمر في حديثه بحرارة عن صمود المؤمنين ، المجاهدين،وعن إعجاب الموقوفين بهذا الصمود...

ثم إلتفت نحوي.. ونظر إلى أخي (خيون) نظرة فيها معنى،

وقال: . معرفتنه على الأخ؟.

تبين لي فيما بعد أنه يعرفني.. ويريد أن يمد الجسور فيما بيني وبينه وتم ذلك بتوجيه، وتكليف من مسؤله الشهيد الأستاذ (حسين رعيّد)[56].

. فقال له أخي: . هذا (سامي...) وهو يعتمد عليه!

تصورت أن الحديث كان لا يتجاوز حدود المجاملة.. ولم أدرك مغزى كلمته (يعتمد عليه).. حتى مضت سنون طويلة.. وصرت أتأمل أيام المآسي الماضية بهدوء وروية ودقة.. أقارن وأجمع وأقلب الأمور.

وأدركت أن هذه الكلمة هي بمنزلة محطة كبرى عطفت بمجرى حياتي..

لم يكن لأبي أو بقية إخواني علم أن هؤلاء هم منظمون في حزب الدعوة الأسلامية.. ولكن كل ما يعرف عنهم أنهم شباب متدينون ؛ ويتلقون العطف والتقدير من والدي ووالدتي، وإخواني، وكان بعضهم مَنْ يودع أمانة عند والدي أو نعرفه باسم معين ،وأبي وأخي يعرفانه باسمه الحقيقي..حتى سألت شاباً كان يزورنا أول مرّة ، عن اسمه ، وقبل أن يجيبني ، بادر أبي بلهجة قاطعة أسكتتني إذ قالً:

– اسمه حامد من الحلة.

وبعد سنوات في سجن أبو غريب كنت أتذكّر الأيام الماضية ، مع الأخ (حسين جودي) ونتجاذب أطراف الحديث ، متذكرين بعض أصدقائه الذين هم أصدقاء أخواني فتذكرنا الشيخ (حسن عدّاي) ثم سألته عن صديق لأخي اسمه (حامد من الحلة) فأخبرني ضاحكاً وقال :

– هو هذا الشيخ حسن عدّاي!

إذ كنت أعرف هذا الشيخ باسمه دون رسمه ، وبعد سنوات طويلة أدركت أن صاحبي الذي كنت أبحث عنه ، قد جلست معه، وإجتمعت أيادينا عل زادٍ واحد، وتناولنا الطعام سويةً....

---

[56] الشهيد حسين رعيّد أستاذ في الجامعة المستنصرية لعلم الفيزياء، تم إعتقاله في ربيع عام 1981م ... ثم سيق مع مجموعة كبيرة من موقف مديرية الأمن العام، إلى مكان مجهول، وبعد سقوط صدام عثرنا على وثيقة تؤكد أنهم حكم عليهم بالأعدام شنقاً حتى الموت ومن بينهم الشهيد المرحوم ماجد قاسم سالم شياع عام 1983م.

صار بيتنا ملتقى للشباب المتدينين، وبعضهم كان محكوماً بالأعدام غيابياً... وقد أعدم جلّهم – رحمهم الله–

بإستثناء نفر قليل قدّر له أن يهاجر خارج العراق. كان جلّهم من طلبة الجامعات.. ومن بينهم أخي الشهيد (خيون حمادي علي شياع) في كلية الزراعة في جامعة الموصل.

وكانوا في غاية الحماس ، والشجاعة ، والإستعداد للتضحية بالغالي والنفيس من أجل الدين، والخلاص من الظالمين.. وقد أحاط بهم جمع غفير.. جلّهم من الفتيان، والشباب.. إلا أنهم كانوا يفتقرون للتجربة، لذا تصوّروا إن هي إلا صفعة توجه للسلطة.. أو إلقاء قصاصة ورقية في زاوية مظلمة تندد بالسلطة.. كفيلة بإسقاط النظام.. وإقامة جمهورية إسلامية في العراق.

إشاعات وفتاوى

كانت فاتحة كلامهم: إن السيد الصدر[57] يقول.. بعد هذه المقدمة الثابتة لكل خبر.. أو فتوى.. أو أمر.. يأتون بما تلقفوا من أخبار، وما جاءتهم من تعليمات.

لعل ذروة ما وصلت بهم أن يستخدموا هذه المقدمة.. وهي السيد الصدر يقول: في صيف عام 1979م.. عندما إعتقل السيد محمد باقر الصدر (رض). وذلك عندما إختلى أخي بأبي وهو يستأذنه في أن نشترك في المظاهرة الإحتجاجية على إعتقال السيد الصدر.

لكن أبي رفض ذلك أولاً..

وقال: . إن الوضع لا يتحمل مظاهرات.

57) يقصدون اية الله العظمى الشهيد السيد محمد باقر الصدرقدس سره.

مشيراً الى القبضة الحديدية التي يمسك بها البعثيون.. ولما سيستخدمونه من بطش وفتك بحق المتظاهرين وبحق عوائلهم.

فقال له أخي: إن السيد الصدر أفتى بذلك. وهنا سكت أبي وأطرق برأسه.. وبعد برهة رفع رأساً مثقلاً.. وهو يرنو إليه بنظرات حائرة وقال له:

. إنت متأكد أن السيد الصدر أفتى؟!

فأكد له ذلك.. وكان يظن أن الخبر الذي أتاه من مسؤوله هو حقيقة.. وبالرغم من عدم قناعة أبي.. لكنه صار محرجاً أمام هذه الفتوى.. ثم إنه مقلد للسيد محمد باقر الصدر(رحمه الله) فقال لأخي: في حال إذا كان السيد الصدر أفتى بوجوب المظاهرة إشتركوا.. وإلا فلا.

۞ ۞

ومع إنهمار الرصاص إنطلقت حناجرنا صادحة:(عاش عاش الصدر...والبعث لازم يندحر).. (باسم الخميني والصدر الدين دومه منتصر)...(نموت.. نموت.. ويحيا الصدر)... (صدر.. صدر.. والدين دومه منتصر)...(عشت يا صدر يا قائد الثورة).. (بالروح بالدم نفديك يا إمام)...

إنطلقت المظاهرة في مدينة الثورة[58] من باب مسجد الإمام الباقر.. بعد أن أذيع من مكبرات الصوت التي في المسجد: طفل ضائع عمره أربع سنوات.. يرتدي دشداشة حمراء.. وهرع الشباب نحو المسجد.. تبيّن لي فيما بعد.. أن هؤلاء إجتمعوا من مختلف مناطق بغداد.. وبدأت المظاهرة برفع صور البكر وصدام.. ثم مزقت وألقيت في الأرض.. وبدأ الهتاف.

كانت الأفواه تفتح إلى آخرها.. والأيادي ترفع إلى أقصاها.. والعيون جاحظة.. قصد رجل أعزل وهو كالمجنون صاحب البندقية الذي يتزيّا بزي الجيش

58) سميت هذه المدينة الباسلة والمجاهدة والمظلومة باسم مدينة الصدر.. إعتزازاً باسم السيد الشهيد الصدر الثاني قدس سره، وقد ذكرتها باسمها الأول لأن الأحداث التي ذكرتها في هذا الكتاب عندما كانت تسمى مدينة (الثورة). وقد دونت صفحات هذا الكتاب في عهد الطاغية صدام، وقد سميت من قبل البعثيين باسمه، لذا كنت اسميها باسمها الأول الذي سميت به في عهد منشئها الأول المرحوم عبدالكريم قاسم.

الشعبي.. وفتح النار على المتظاهرين.. فانهال على رأسه ضرباً بقبضته.. واندفع نحوه جمع من الشباب المتظاهرين.. وسقط البعض من جراء الرصاص.. وهوت امرأة على رأسه بطبر.. فسقط صريعاً.

وتلطخت أيادي البعض بدمائه[59].. واشتدت زخات الرصاص.. فتفرقت الجموع.. وألقي القبض على الكثيرين.. وكانوا صيداً سهلاً.

ورأيت البعثيين وهم يدفعون بفتيات مؤمنات ـ بكل وقاحة ـ نحو سيارتهم اللاندكروز البنية اللون.. كان عددهن خمس فتيات.. يتبعن مظاهرة الرجال بمسيرة متحدية.. اثنتان في الأمام، وخلفهنّ ثلاث.. واستطاع البعض أن يختفي،ويموه على المخبرين بأن يحمل بيده رقية يوحي أنه عائد من السوق ، وآخر دخل عيادة طبية ، وآخرون تسللوا بين الجموع، لكن الأغلبية أمسوا لقمة سائغة بأفواه البعثيين!.

وأما البعض الآخر ما زالت الثورة تغلي في وجدانه.. يريد أن ينقض على شيئ ينتمي للسلطة.. يريد أن يعبر عن إستيائه البالغ.. ولكنه لم يجد أمامه أحداً يفرغ به ثورته.. فعاد إلى مسجد الإمام الباقر متحدياً.. وظل يتمشى في الساحة المنبسطة أمام الباب.. جيئة وذهاباً.

ابن عمي الشهيد زامل

كان ذلك الشاب هو ابن عمي المرحوم الشهيد زامل.. وبينما هو يتجول تارة..ويقف تارة.. قصده أحد رجال الأمن فنهره.. وأمره بالابتعاد عن المسجد.. فرد عليه زامل رداً قاسياً.. وشتم الحكومة ورئيسها.. فاندفع نحوه الشرطي غاضباً.. فما كان من زامل إلا أن أخذ بتلابيبه وجلد به الأرض.. لكن اجتمعت عليه قوة لا قبل له بها.. فاحتوشوه من كل جانب.. وقيدوه.. ودفعوا به نحو سيارتهم.. ثم إلى مديرية

59) من بين هؤلاء الأخ الفقيد كاظم حلو من أهالي مدينة الشعلة.. ألقى بساعته في الوحل لما علق فيها من دماء.. ولما تسلل إلى بيتنا.. خلع قميصه المشبع بالدم.. وارتدى قميص أخي.. وتناول العشاء على عجل هو وشابان لم أعرفهما.. وخرجوا من البيت متسترين بالظلام.. وكل على انفراد بعد أن أطفأت مصابيح الدار الخارجية.

الأمن العام.. حيث عذبوه عذاباً شرساً.. وظل صامداً.. وهو يهتف بحياة الثورة المقبلة.. وبحياة السيد الصدر.. وبالموت للنظام وإسقاطه.. حتى استشهد تحت وطأة التعذيب.

...وفتاوى أخرى

لم تكن هذه الفتوى هي الفتوى الوحيدة التي نقلت عن السيد محمد باقر الصدر(رحمه الله).. وتأكد لي فيما بعد أنها عارية عن الصحة! فهناك فتاوى نقلها بعض الحركيين عن السيد الصدر.. ما زلت أتساءل ما هي الغاية منها؟ لكنني لا أجد لها جواباً. ومن هذه الفتاوى: إن السيد الصدر حرّم شرب البيبسي كولا.. فامتنعنا عنه.. إستجابة للسيد الصدر! وبعد مضي شهرين تقريباً.. تطورت الفتوى إلى أن السيد الصدر حرّم كل المشروبات الغازية ذات اللون الأسود.

وكان من بين هذه المشروبات.. مشروبي المفضل.. وهو الكراش الأسود.. وبعد أن حرّمت علينا جميع المشروبات السوداء.. تبيّن لي وأنا في السجن.. أن هذه الفتاوى لا صحة لها.. فقررت أن حالما يطلق سراحي من السجن.. سوف أعود لتناول مشروبي المفضل.. وبعد أن امتدت المدة طويلاً وراء القبضان.. وخرجت من السجن.. سألت عن الكراش الأسود.. فقالوا لي: إنه تلاشى من الأسواق منذ سنوات...أين كنت!؟ لكني ظللت أتساءل.. لماذا حرّم علينا كل شيئ حتى البيبسي كولا والكراش الأسود.. هل كان هذا ليتحقق حكم الله في الأرض.. أو لأمر آخر؟! هل من مجيب!!

من هذه الأمور التي ما زلت أبحث لها عن جواب.. في صيف عام 1979م أُمِرَ المنتمون إلى حزب الدعوة.. وجلّهم من الفتيان بأمر غريب.. وهو أن يقفوا ظهراً في مواقف الباص.. وعندما يركبون الباص.. يجب على كل واحد أن يطوي البطاقة ويدسها بين يده وسير ساعته. وكان المنظر ملفتاً للأعمى.. أن يكون في كل

باص مجموعة من الشباب والفتيان.. وهم يدسون البطاقات في الموضع ذاته.. واليد ذاتها.. وهم يتبادلون نظرات فاضحة فيما بينهم.. هذا ولم يزل العمل سري... إذن لماذا وكيف حصل ذلك؟! هل من مجيب؟!

فتوى تحريم الإنتماء لحزب البعث !!

وهذه ثالثة الإثافي.. هي الفتوى التي كلفت الكثير.. وخدمت السلطة كثيراً.. واستوقفتني كثيراً ....كلفتنا الكثير..

الطالب يهدد بالطرد من المدرسة.. والموظف يحاصر.. والأمتيازات يحرم منها كل من يستحقها.. المتفوّق في الدراسة يحرم من البعثة إلى خارج البلاد لغرض التخصص في الدراسات العليا.. ويمنع الطالب من دخول بعض الكليات المهمة.. خصوصاً لأصحاب مشاريع التغيير الكبرى.. يمنع الطالب من دخول الكلية العسكرية.. أو كلية العلوم السياسية وكليات أخرى... كذلك يمنع من مواصلة الدراسات العليا.. ولست أدري ما هي الحكمة من هذا التحريم.. وهم يدعون إلى تغيير الحكم واستلام السلطة.. فبأي كوادر يديرون شؤون الدولة.. والمتدينون المتشرعون تصدهم هذه الفتوى فتحرمهم من أبسط حقوق المواطنة.

وكاتب السطور حرم حتى من الأنضام إلى مركز شباب رياضي.. كذلك حرم حتى من الإنتقال من مدرسته إلى مدرسة أخرى.. وحرم حتى من العمل في الدوائر الرسمية.. وحرم من كل شيئ إلا من السجن! بسبب هذه الفتوى.

أصداء إنتصار الثورة الإيرانية

كان لإنتصار الثورة الإسلامية في إيران بقيادة الإمام الخميني(رحمه الله) صدى في نفوس الشيعة المضطهدين في العراق.. والذين يعاملون معاملة الدرجة الثانية

في المواطنة، وحتى البعثيين منهم إلا من إمتحن حزب البعث قلبه بحب صدام، والأجرام ؛ أمثال علي الخاقاني ، وحكيم البكاء، وفاضل الزركاني ،وكريم الياسري، وأضرابهم... فكانت بمنزلة العاصفة التي إجتاحت الشيعة في العراق نحو إيران.. بمشاعرهم وأحاسيسهم.. بدمائهم ودموعهم.

كنا في البيت نتابع حركات الإمام الخميني وسكناته وتصريحاته.. منذ مغادرته العراق.. قاصداً فرنسا.. ثم إلى إيران.. ولم نكتف بأن نصغي للمذياع.. بل كنا نحتفظ بالأنباء الآتية من إذاعة (مونتي كارلو).. في (الكاسيت). وفي خضم هذا اللهب المتوقد.. والزخم العاطفي الجارف.. كانت الإذاعة الإيرانية تؤجج هذا اللهب العاطفي.

ثمة برنامج كان يذاع من قسم اللغة العربية[60] عنوانه: (العراق يبحث عن حسين)... وما هي إلا أيام تغير العنوان إلى (العراق في طريق الحسين).. وبها تغيرت الأحاديث واشتدت الخطب الحماسية.. والدعوة لإغتيالات مسؤولي حزب البعث.. وتوزيع المنشورات والقصاصات الورقية الداعية إلى مواجهة السلطة والوقوف على سطوح الدور وأطلاق صيحات (الله أكبر) وإعلان الرفض للسلطة...الخ والإمتناع عن دفع أجور الماء والكهرباء، وكأنما حال العراق هو كحال إيران أو كما يقال نسخة طبق الأصل، ومقاسها بالسنتمترات، وتوهم الكثيرون؛ أنّ الإمام الخميني بدأ بإيران، وسوف يثنّي بالعراق!

من غير حساب لخصوصيات البلدين؛ التاريخية،والجغرافية،والسياسية،والإجتماعية،والأقليمية،وكذلك الظروف الدولية...وما إلى ذلك.

كانت الدوافع غالباً ما تكون هي العواطف الساذجة، والنوايا الصادقة.. الغالبية العظمى لا ترجو سوى إقامة دولة الحكم الإلهي،وبأسرع وقت!!.

---

60) كأنّ المشرفون على هذا القسم هم ممن ينتمون إلى منظمة العمل الإسلامي.

ومما زاد النار أواراً.. هو خطب العلماء من إيران الداعية إلى إسقاط النظام العراقي،بأسرع وقت!!.. فالشيخ المنتظري، وهو نائب الإمام الخميني آنذاك.. قال بالحرف الواحد: والله لو أذن لنا الإمام الخميني بالدخول إلى بغداد.. لدخلناها في يوم واحد!

ولاقت هذه العاصفة الآتية من إيران تأييد السيد الشهيد محمد باقر الصدر رضوان الله عليه وهو يقول: إن الدماء التي سالت في أرض إيران.. هي كالدماء التي سالت في أرض كربلاء.

وروي عنه في تلك الأيام.. أنه خاطب الإمام الخميني بقوله: نحن ومقلدونا تحت إمرتكم.. أو أتمنى أن أكون وكيلاً شرعياً للإمام الخميني في قرية صغيرة.

هذا وغيره الكثير.. جعل الكثير من شيعة العراق تثور ثائرتهم من غير حساب لحركاتهم.. ولا إستعداد لعدوهم.. فكانت الفتوى التي تحرّم الإنتماء إلى حزب البعث.. خدمة كبيرة للسلطة الغاشمة في العراق.. فبدلاً من أن تبذل السلطة جهوداً كبيرة في فرز الموالي لها من المحايد.. والموالي أو المحايد من المعادي.. جاءتهم جاهزة على طبق من ذهب.. لأنها وضعت المتدينين في زاوية حادة.. حتى حسبت عليهم أنفاسهم.. وشلّت حركتهم.. ووفرت للسلطة جهوداً كبيرة.. وذلك بأن تدعو جميع أبناء المناطق الشيعية للإنتماء إلى حزب البعث.. وكل من لا ينتمي فهو في عداد الأعداء.. ولو بقلبه..

(وذلك أضعف العدوان!!) وكان فرزاً حاسماً قاسياً ظالماً.

كان للحماس المنقطع النظير،والعواطف اللاهبة التي حرّكت الشباب الثائر.. جعلهم أن يكونوا صيداً سهلاً لم يكلف السلطة عناء بإختراق صفوفهم.. وإلقاء القبض عليهم.. وإنتزاع الإعترافات منهم.. بعد تعريضهم لتعذيب وحشي شرس يهدّ الجبال الرواسي!

تساءلت كثيراً.. ما الحكمة من هذا التحريم؟! وهل حقاً أن مثل هذا الكلام يتفوه به المرجع الديني الفذ.. والمفكر الكبير السيد الشهيد محمد باقر

الصدر(قدس سره)، هل من الحكمة إصدار مثل هذه الفتوى.. في بلد يحكمه دكتاتور أرعن بالحديد والنار.. وتعسفي مجرم كصدام حسين؟ وهو يصرح من خلال التلفاز وبكل وقاحة وصفاقة.. فيقول: (إحنا ميهمنه إذا بقوا ثلث ملايين مخلصين لوطنهم كلش كافي!).

شاهدته مرتين يردد هذا الكلام من خلال التلفاز.. وعدد نفوس الشعب العراقي آنذاك[61] قرابة العشرين مليوناً.

أي جرأة؟! وأي إستهتار يدع حاكم يتفوه بمثل هذا الكلام؟!

وهل من الحكمة أن يحرّم الإنتماء لحزب السلطة درءاً للأخطار المحدقة بالشعب الأعزل.. وصدام حسين، وحزبه في عنفوانهم.. وأغلب دول العالم الكبرى ودول المنطقة ودول الخليج العربي تؤيده وتسدده وتبارك أفعاله الإجرامية.. وتخدمه بمخابراتها وكشف تحركات أعدائه.. وابن الشعب يموت مخنوقاً دون أن يسمع له صوت؟! والصحفيون والكتّاب والمنشدون العرب يمجّدون بصدام حسين.. البطل..العبقري.. المفكر.. السياسي.. الإنسان.. القائد!!

بعض الأصدقاء كانوا يلحّون عليّ لأنتمي.. مؤكدين أنهم يبغضون السلطة وحزبها.. ولكن درءاً للشر.. وكنت مقتنعاً بالإنتماء الشكلي الذي يضمن السلامة من بطش النظام.. ثم بدلاً من أن أكون طريداً متابعاً.. تترصدني عيون المخبرين.. بإمكاني أن أكون في محل أدفع فيه الخطر عن نفسي.. وعن غيري.. وأحيّد المتزلفين.. والمخبرين الجبناء.

هذه كانت قناعتي.. ولكن ما يمنعني ويصدني هو الفتوى!!!

كلما تفحصت هذه الفتوى مع تلك الظروف القاسية.. وما آلت اليه من خسائر باهضة بأرواح المتدينين.. تأخذني الحيرة وتطوقني[62] حتى تكتم أنفاسي،وتذهب نفسي حسرات،وأقول ؛أليس الحرب كرٌ وفر؟.

---

61) شتاء أو ربيع عام 1980م.

في تقديري إن مَن أشاع هذه الفتوى هو إما: من المتدينين المخلصين المتحمسين.. الذين لم يقدّروا الظروف الموضوعية.. ولم يدركوا تبعات مثل هذه الفتاوى.. ظناً منهم أن الشعب سوف يرفض الأنتماء.. ومن ثم يتم التصادم مع السلطة.. ويتم قيام دولة إسلامية..واستلام السلطة..بأسرع وقت ممكن،أو غير ممكن!! وهؤلاء قادهم وهم كبير إلى أوهام كبيرة[63]. أو أن السلطة هي التي روّجت لمثل هذه الفتوى القاتلة.. لغرض فرز المتدينين المطيعين لأوامر المراجع الدينية.. خصوصاً للمرجع الديني الكبير والعبقري الفذ السيد الشهيد محمد باقر الصدر.. وذلك يتم إما بالإختراق الذي حصل كثيراً في صفوف الحركة الإسلامية.. أو من خلال قنواتهم الخاصة.. ولكن أرجّح الإحتمال الأول.. وهو الإختراق.. فقد حصل كثيراً.. وكل من دخل السجن لاحظ الكثير من هذه الحكايات الدامية، المؤلمة، المفزعة، والموجعة!

كانوا . رحمهم الله وتغمدهم فسيح جنانه . أغلبهم متحمسين.. وكان من أشد هؤلاء حماساً هو صاحبي.. فكان يردد كلمات من المحقق أن ثمة شريحة كبرى من شباب الشيعة، الثائر كانوا يرددونها.. وهي:

(إذا ما نتغده بيهم يتعشون بينا)! هذا ونظام صدام في عنفوان قوته وإستحكام قبضته الحديدية.. وأجهزته القمعية المتنوعة.. وقد سخّر البدوي في الصحراء.. والفلاح في الأهوار.. والكردي في الجبل.. والأستاذ الجامعي.. والفنان.. ورجال دين.. كل هؤلاء سخَّرهم لخدمته.. بل وحتى المرأة والطفل.. إضافة الى أجهزته القمعية والمخابراتيه.. ودعم دول المنطقة له.. بل وأغلب دول العالم.. وكلمة أخرى كان يرددها.. الآن أي بعد إنتصار الثورة الإسلامية الإيرانية، الركعة تعادل سبعين

---

62) أكد لي رجل دين في المهجر.. نقلاً عن أحد تلامذة السيد الشهيد محمد باقر الصدر– قدس سره– أن السيد الصدر لم يفتِ بهذه الفتوى مطلقاً. ولما تناقلت الألسن هذه المقولة التي فاجأت الكثيرين هرعوا اليه ليتأكدو منه ا فانكرها!!!.

(63) قال لي أحد قيادي الحركة عن تلك الأيام في المهجر؛ لم نكن واقعيين لذا صُدمنا بالواقع!!، وكتاب السيد حسين بركة الشامي عن الزمن في حركة العاملين،ربما يؤكد هذه الحقيقة.

ركعة..كان عندما يدعو أحداً للإلتزام بفريضة الصلاة.. تمهيداً لضمه للحركة الإسلامية.

وإذا أشكل أحد على سلوكه وسلوك غيره من الثائرين.. كان يرد عليه بعينين جاحظتين.. ويدين تخبط الهواء خبطاً.. ووجه مشدود القسمات.. وبأنفاس تشبه اللهاث قائلاً: . إنت سوّي اللي عليك.. وما عليك بالآخرين.

هذه الكلمة إستوقفتني كثيراً فيما بعد.. سوّي اللي عليك.. فما هو اللي عليه؟! ثم من الذي قرر هذا؟!

ومن بين الكلمات التي يخصني بها.. يجب أن (نختزل الزمن)!! لأن الوقت فاتنا.. فاتنا كثير- وهنا يكمن السر الخطير،وهو إهمالهم لأهم عنصر في حركة العاملين،وهو الزمن- حتى تكلست فكرة قيام الجمهورية الإسلامية واستلام السلطة في أذهان الكثير من الحركيين وانعكست في سلوك الأغرار إنعكاساً سيئاً ومؤسفاً يثير الشفقة والأسف كما يبدو منهم من تصرفات مضحكة ،مبكية ، ومدمية للقلب وهم يتقاسمون مناصب الدولة والمحافظات فيما بينهم بل وحتى توزيع (نجمات) للإرتقاء في السلم العسكري وهم ما زالوا بين جدران صماء في زنزانات ظالمة عراة حفاة والقمل يغزوهم زرافات،ووحدانا، والأنكى من هذا ان أسمع من بعض الحركيين عندما يقيّمون شخصاً حركياً عاملاً لم يقولوا هذا متدين، او عابد أو زاهد أو ما شابه به من الصفات التي يحبها الله ورسوله والمؤمنون، إنما يكون التقييم لمن يشيرون إليه بالبنان قائلين: هذا بدرجة وزير[64]، أو هذا عضو أقليم حتى أصاب الكثيرين حَوَلٌ في تقيميهم للمفاهيم، وإضطراب في تشخيصهم فشدهم للدنيا وللمناصب، وأشربوا بحب الدنيا الدنية، وابتعدوا عن أهدافهم التي إستشهد من أجلها أولئك الرجال الأفذاذ والدعاة

---

[64] كان الشهيد الشيخ حسين معن رحمه الله قد وضع كتاباً اسمه (الأعداد الروحي)؛ بيّن فيه وحذّر من غلبة حبّ الدنيا، وضمور الجانب الروحي،والأخلاقي، في سلوك العاملين، وأرشد إلى قراءة بعض الكتب الأخلاقية ، والتربوية؛ وكأنه رحمه الله يستشرف مستقبلاً مؤسفاً لبعض العاملين،ممن غلب عليه حب الدنيا.

الأبطال والعاملين بسيرة الأنبياء والصالحين، اولئك الذين عشقوا الشهادة فكانت هدفهم وشعارهم وانشودتهم، وبهذا المنعطف تكمن الخطورة.. حتى بات البعض يسخّر آلة الدين للدنيا كما وصفهم أمير المؤمنين علي بن ابي طالب (عليه السلام).

* * *

إذن كانت العجلة؛ جعلتهم مكشوفين في كل حركاتهم وسكناتهم.. وحتى في همسهم في الظلام..

الجلاد الملازم عدنان التكريتي يحقق معي

أعاد الملازم عدنان التكريتي السؤال ثانية.. إذ كنت صامتاً.. فقد أخذتني الدهشة: تعرف هذا؟! تذكرت أن الحركيين كانوا يوصوننا قائلين لكلّ منّا: ـ عليك بالإنكار. وإذا قابلوك مع شخص.. حتى لو كان صديقك.. فقل: لا أعرفه. وحتى لو قال هو: أعرفك.. فصرّ أنت على كلمة: لا أعرفه،واصمد...

المشاهد التي تحيط بي كلها تقول: لا داعي للإنكار.. ولكن...؟! حاولت أن أوفق بين ما قالوا وبين ما أرى.. فقلت مظهراً أن ثمة معرفة بسيطة فيما بيننا.. وليست هي علاقة خاصة: . رأيته من قبل.

. أين؟

.كان مدرّساً لنا أيام المتوسطة.

حدجني بنظرة غاضبة.. وقال لي: ـ (.....)[65]. ثم التفت نحوه.. وقال لـــــــ

من أنا؟! ما هو تاريخي؟! عنواني؟! أين أحلامي؟! أين طموحاتي الكبيرة في الحياة؟! كلها تلاشت في لحظة واحدة.

يقال أن الكون خلق لأجل الإنسان! أي إنسان هذا الذي خلق الله الكون لأجله؟! جلاد ومجلود.. قاتل ومقتول.. سجّان ومسجون.. ظالم ومظلوم.. قاهر ومقهور.. خادع ومخدوع. هل حقاً أن السماوات والأرض خلقتا لأجل الإنسان؟! أين هذا الإنسان الذي يستحق كل هذا الوجود العظيم؟!

إذا كان الإنسان لا قيمة له.. فما قيمة ما خلق لأجله؟!

راح يضخني بالكهرباء.. سمعت عن التعذيب بالكهرباء.. ترجّ الجسد رجاً.. وتخضه خضاً بلا رحمة.. حتى كأن القلب يتوقف.. ولكن لا يموت.. ويظل الإنسان يعوي مثل الكلب كما يقول الجلاد: . راح أخليك تعوي مثل الچلب.

وهكذا.. ما هي إلا لحظات.. حتى يصبح الإنسان والكلب سواء. لكن الكلب يعوي بدون كهرباء.. أما الإنسان في بلاد الرافدين.. فيعوي بكهرباء!

أين هو الإنسان.. في الغرب أم في الشرق؟! في الأرض أم في السماء؟! أما الذي على الأرض فها هو بعضه يأكل بعضاً.. لما كلّت أسنانه عن العض.. ويداه عن اللكم والصفع.. ورجلاه عن الركل.. صار يبتدع أساليب أخرى للبطش.. والتعذيب.. والقتل.. والدمار.

۞ ۞

كلما نظرت إلى الرائد عامر من خلال الفرجة التي في العصابة.. وهو يمشي في الممر.. قاصداً غرفة أُنسه! غرفة التعذيب.. وهو ينادي بصوت عالٍ صفاء.. يالله استعجل.. ثم أرى معتقلاً يدفع به الجلادون نحو غرفة التعذيب.. كان يخطو خطوات طويلة ثابتة.. يمشي مسرعاً.. وقد غمره السرور.. كنت أراه ذئباً شرساً في صورة إنسان! ليس هذا تشبيهاً.. أو مجازاً.. إنما هو حقيقة.. ذئاب منكرة! حدثني

الأخ (أسعد عبدالحسين) من بغداد قائلاً: ـ بعد أن أصابه الملل من تعذيبي.. ولم أعترف.. قفز نحوي بوحشية.. وطوّق عنقي بقوة.. وقال لي: راح أموتك.

وذكر لي (سيد صالح السويج)* :ـ في مديرية أمن البصرة.. بعد أن أجهدهم التعب من تعذيبي.. قفز أحد الجلادين نحوي كالمجنون.. ثم رفعني عن الأرض بأسنانه التي غرسها في كتفي.. ولم تبق كلمة في قاموس البذاءة إلا وأطلقها على من يعذبه.. كل ذلك ليصون الوطن!!

وكذلك حدثني الاخ قاسم التركماني من أهالي تلعفر، وكان ذو بنية جسدية صلبة ويدرج عمره في الثلاثينات لما سألته عن سبب اوجاع أذنه اليسرى المستمر، وما تنزه من جراحه وهو يدس فيها القطن ويتألم فاجابني قائلاً: ضربني المفوض ضربة قوية فالقى بي الى الارض فصاح به الضابط المحقق: ولك جتلته[66]!

قال أحد المعتقلين: ـ استعملوا معي الخازوق الألماني.. ولما صمدت ولم أعترف.. صاح المحقق بغضب: جيبوله الأمريكي[67]!!

هكذا إذن.. أمريكا تصدّر إلى بلد الرافدين خازوقاً أفضل من الخازوق الألماني لأنتزاع الإعترافات!

كان المعتقل يشعر بالإرتياح عندما يقيّد بالكلبچة الإسبانية.. أكثر مما يقيّد بالكلبچة البريطانية ؛ لأنها أرق من البريطانية وأدقّ! إيهٍ يا بلد الحضارات.. لكن هذه الكهرباء من أين إستوردتها؟!

الكهرباء؟! طالما سمعت بها.. لكنني كنت أظنها تضخ في جسد المعذّب من سلك مربوط بالجدار.. أما هذه الكهرباء.. تضخها آلة يحركها المحقق بيده. كهرباء لعينة.. تفتش عن مخابئ الإنسان الحساسة! وتدعه لا يموت ولا يحيا! أما الرجل.. ففي عضو ذكورته.. وأما المرأة ففي حلمة ثديها.. وكذلك السرة لكليهما.

---

66) باللهجة الدارجة تعني قتلته.

67) لديهم خوازيق متنوعة.. والاستخدام حسب الحاجة.

إيهٍ يا بلد الحضارات.. قالوا فيك شقاق.. وفيك نفاق.. ورفعت رؤوس الأخيار على رماح الأشرار.. وديست أجساد الطاهرين بحوافر الخيل!

لكن هل كان في حسبانك أن أبناءك سوف يلتقمون قناني البيبسي كولا من أسفلهم.. لا من أعلاهم.. ترى هل إنقلبت الحقائق؟!

۞ ۞

إشتد بي العطش.. طلبت ماء.. سقاني الشرطي ماء يشوي البطون.. وأنا أتدلى.. شربت ماء دجلة.. وأنا أتدلى.. أتدلى.. والجلاد يداعبني بسوطه.. والشرطة كلّ ماسك بيده عصا كهربائية.. يوخزون بها جسدي.

الخوازيق والكلبجات الغربية!

قال لي أبو عروبة الذي كان يردد بكلمات لا طعم لها ولا لون ولا رائحة طيبة، يرددها بمناسبة وغير مناسبة ولا يغفر لمن لا يتجاوب مع نداءاته.. كان ابو عروبة يقول دائماً وبصوت عالٍ(أمة عربية واحدة... ذات رسالة خالدة)ثم يهدئ روعه فيردد كمن أجهده التعب (وحدة،حرية،إشتراكية)، المواطن المسكين كانت ترعبه هذه (الحرية) وتزيده كربا على كرب، وتفزعه (الإشتراكية) وتزيده فقراً،وجوعاً،ويقف حائراً عندما يعد قصور السلطان،وممتلكات العائلة المالكة!!

أما (الوحدة) والعياذ بالله!! فربما ينظر اليها كما ينظر الى الخازوق الذي بيد الجلاد وهو يتدلى!!، تنذر بالحروب، والدمار، وتشريد ، وقتل، وصواريخ تلقى على عواصم عربية.. وعودة فروع الى أصول...وحرق آبار نفط العرب.... ثم ضحيتها المواطن المسكين بلقمة عيشه، وبراحته ، وبكرامته، ثم بحياته.

أجل قال لي ابو عروبة ذات مرة.. عندما سمعني أثني على أمجاد العرب الماضين!.. قال بسئم:

ـ يمعود كل العرب (أخوات كَحبة) كنت أحب عروبة.. لكنني كرهتها عندما تبيّن لي أنها (مومس عمياء...) وصرت أبحث عن العروبة الشريفة.

الخازوق الألماني.. والخازوق الأمريكي.. والكلبچة البريطانية.. والكلبچة الإسبانية...غدت هذه مفردات أبنائك.. يرددونها حين يمسون.. وحين يصبحون!

قال لي الخونة: يا خائن. وهم الخونة الذين باعوك ياعراق للأجنبي.. وعينيك يا عراق.. ذرة من ترابك لا أساويها بتراب الأرض كلها.

قالوا لي: أنت عميل للأجنبي.. ثم سمعت (القائد الضرورة) ومن تلفاز بغداد يقول:

. نحن قاتلنا إيران ثماني سنوات.. لمصلحة الغرب[68]!

ثماني سنوات؟! أزهقت أرواحاً.. سحقت ورودا.. أيتمت أطفالاً.. رمّلت نساءً.. كلها لمصلحة مَنْ!؟، والذين قتلتهم بالمشانق ودفنتهم أحياء لمصلحة مَنْ!!؟؟

قال لهم الجلاد آمراً: ـ نزلوه. فطرحوني أرضاً.. ولم تزل يداي مكبلتين إلى الوراء.. وضعوا قدمي بين عصا ثقيلة.. وبين حبل يرافقها.. أداروا العصا حتى ضغط الحبل بقوة على قدميّ.. إنها الفلقة!

اثنان متقابلان.. العصا بينهما.. كل يمسك بطرف منها.. تزحزحت العصابة عن عيني.. رأيت الملازم عدنان التكريتي يمسك الكيبل بيده اليمنى ويجذبه بيده اليسرى وبكل برودة وكأنه يبري قلماً ليكتب خاطرة.. خاطرة البطش والموت والأستبداد ثم رفعه إلى الأعلى.. يشق الهواء شقاً.. ثم ينزل على قدمي.. وكأنه يريد أن يلتهمني إلتهاماً. كان يضرب.. ويضرب.. ويضرب.. كأنما إختزل حقد الإنسانية جمعاء.إنه يمزق أجساداً بسوطه.. ويلعق دماءها.. وهو يتلمّظ!

لم أكن أتصور أن بإمكان الإنسان أن يكنّ كل هذا القدر من الوحشية.. والإجرام.. والكراهية.. والحقد.. والإنتقام.. حتى دخلت عالم السجون.تزحزحت

68) قال ذلك صدام حسين لصحفي أوروبي إبّان غزوه للكويت.. وقبل اندلاع حرب الخليج الثانية بأسبوعين تقريباً.

الخرقة عن عيني فلاح لي الملازم حازم مقتعداً كرسياً في ركن الغرفة.. يراقب.. تبيّن لي فيما بعد أن هذا المكان هو مكان لجنة التحقيق.

بعضهم يراقب بعضاً.. وبعضهم يُعين بعضاً على الضحية!

المحقق يعذّب.. ومجموعة من الجلادين يأتمرون بأوامره.. يساعدونه.. ومجموعة أخرى يجلسون في ركن الغرفة يراقبون التحقيق.

كنت أشعر كأن السياط تسقط على قلبي.. كنت أصرخ من شدة الألم.. آلام فظيعة.. كان يهوي عليّ بالسياط.. ويسألني: . مَن تعرف؟ مَن هم أصدقاؤك؟ مَن هو مسؤولك الحالي؟ كم دفعت بدل إشتراك؟!

وكان الجواب هو الصراخ..قررت ألا أبوح بسري، حتى النهاية ، لكنه توفيق الله تعالى.

وليس الأصرار وحده.

بلد الأمجاد!

هكذا بات بلد الأمجاد.. ترى هل كان ابن الرافدين يصرخ عندما كان يشق الترع.. ويشرّع القوانين.. ويشيّد الحضارات.. ويقيم العجائب؟!

منذ متى يا ابن الرافدين صار الصراخ نشيدك.. والبكاء والنحيب أغنيتك العذبة المستساغة؟؟ موّالك يبدأ بـ (أحوي يا بويه).. وينتهي بـ(خايب يگلبي).

لماذا خاب الگلب.. هل خاب الأمل وانقطع الرجاء.. ومنذ متى؟

أيوم وضع جلجامش رأسه بين ركبتيه وانخرط باكياً؟ أم منذ أن داست الخيول الأعوجية صدر الحسين؟!

هكذا صرت يا ابن الرافدين تصرخ من المعلم وهو يهوي عليك بالعصا.. وتصرخ من الختان.. وتصرخ من الشرطي.. وتصرخ من الحرمان.. وتصرخ من الضياع.. وتصرخ من الجوع.. وتصرخ من الإقطاع.. وتصرخ من المد الأحمر والمد الأسود..

وتصرخ من بطل التحرير القومي.. وتصرخ من الغد المجهول المرعب. المعلم يصرخ ويقفز أمامنا كالسخل

إذا مسّه جنون، ويصفق بيديه بحرارة.. ويلهب خدودنا الطريّة بكفه ويقول:

. يالله هوسوا: جيش وشعب وياك يا مجلس الثورة.

. باچر بالقدس يخطب أبو هيثم.

. إشورطك يا بهلوي.. حزب البعث يشوي شوي.

ويصرخ صارخ بالعقيدة[69]: كلكم نعدمكم إذا ما صرتوا بعثية!!

وصرخنا بوجهه قائلين: . إفعل ما تشاء!

وآخر يصرخ: . بالروح.. بالدم.. نفديك يا صدام.

ويصرخ صارخ.. وهو يتدلى من السقف.. آني بعثي.. بويه صدام.. بويه صدام.. وتنتهي الحكاية.. بويه ط..ي...ز.. ي!.

وأتذكر القائل الذي يقول(لاتهتمون بالحرب هيه كاكه، ومحيسن)؛ فأتوجع لهذه المقولة،وأندب حظ بلدي وأبنائه، وأتألم على (الكاكه)، كما أتألم على (محيسن) وتتراءى لي آثار سياط الإقطاع على ظهره، فأراد أن يضمدها لكن أبطال القومية، والوحدة ، والحرية، والأشتراكية... زادوها لهباً، وزادوه نصباً؛عزيز على قلبي أنت يا(محيسن)

من حولك ثعابين فاغرة فاهها دوماً ، مازلتَ في أرض الخيرات، والأنبياء، والأولياء....والمؤامرات تحاك لك عن يمينك وعن شمالك، وأنت تذوب على إيقاع.....

(الهجع) (أجلبنك يليلي إثنعش تجليبة...) منتظراً فجراً جميلاً يبشرك بخير مع سجع البلابل لاأصوات المدافع ، والقنابل، والمتفجرات...

۞ ۞

69) كان بعض البعثيين يقسمون بهذا القسم تملقاً.. أي عقيدتهم بحزبهم.

كان الجلاد يتصبب عرقاً.. ويمسح جبهته بكمه.. أمرهم أن يخطو بي خطوات.. أوقفوني.. لم أستطع الوقوف.. أحسست بخدر شديد.. وآلام فظيعة تنهش قدميّ.. وحرارة كالجمر وكأنما أسحق على مسامير.. أسندني شرطيان.. ثم صارا يخطوان بي ثلاث خطوات إلى الأمام.. وثلاث خطوات إلى الوراء.. كأنما تعلق بكل قدم طن من حديد.. طرحوني ثانية.. وانهالوا على قدمي بالسياط.. قال لي حامد:

.كنت أعدّ عدد السياط التي جلدوك بها.. بلغ عددها 178 سوطاً.

كنا نشارك المعذّب ونحن مقيدون.. نعدّ السياط التي تسقط على جسده.. إذ إن صوتها يسمع على بعد مائة متر أو يزيد.. مع أن باب غرفة التعذيب مغلق! وقع السياط منتظم.. إذ يسقط السوط فيتبعه السوط الثاني بلحظة.. وهكذا تتكرر النغمة.. يقف واحد أمام المجلود.. وآخر عند رأسه.. ويتناوبان الضرب.

عادوا بي إلى الصنّارة.. وصرت أتدلى في الفراغ.. وعادت الكهرباء..

لم تكن لدي صورة واضحة عن التعذيب.. ولم أتوقع أن ثمة تعذيباً يجعل الرجال يصرخون كالأطفال الجائعة.

حالما صكت مسامعي الصيحات الفظيعة من جراء التعذيب.. تذكرت ابن أخي ميثم وهو يدرج نحو الثالثة من عمره.. إبّان إعتقال أبيه.

كان عندما يسمع صوت صافرة الإنذار أثناء الحرب العراقية الإيرانية يأتي إلى أمي قائلاً لها: بكلمات متعثرة.. مرتبكة في مخارجها: ـ بابا يسوي مثل هاي.. ويشير بكفه الصغيرة إلى الأعلى! فتجهش أمي بالبكاء.

إيهٍ يا ابن الرافدين.. صافرة الإنذار.. وصوت أبيك.. بعض يسابق بعضاً.. لم يدعك (قائد الأمّة العربية) عاماً دون أن تسمع دوياً في السماء.. أو دوياً في الأرض.. لم يمهلك لترتوي من الأبوّة.. تأتيك أمّك فتجدك ساهماً.. تبادرها بصوتك الناعم البرئ: ـ ماما أين بابا؟! بقيت أتدلى في الفراغ.. جف حلقي.. طلبت الماء.. فأوعز الجلاد إلى الشرطي أن يسقيني ماء.

حييت سفحك عن بعدٍ فحييني يادجلة الخير ياأم البساتين

شربت ماءك يا دجلة الخير ساخناً يشوي البطون.. شربته هذه المرة.. لم أكن مقتعداً مقعداً في مقهى بغدادي.. أتصفح كتاباً أو مجلة أو جريدة.. وفنجان القهوة يبعث بأبخرته الشهية نحو خياشيمي.

شربتك هذه المرة.. ولم أكن ماشياً بين أصدقائي.. ونحن نقطع شارع المتنبي وسوق السراي ويشغلنا جبرا إبراهيم جبرا بنتاجه الجديد.. أو نجيب محفوظ برائعة أخرى.. أو غادة السمان.. أو محمود درويش.. أو البياتي..

والطموحات تتقافز أمامنا.. مثل عصافير أطلق سراحها!

شربتك هذه المرة.. ليس بين أهلي وأقاربي وأصدقائي.. بل في مكان لا يشبه الأمكنة.. وفي وقت لا صلة له بالأزمنة.. في مكان لا يميّز المرء فيه بداية أو نهاية.. الزمن هنا لا يقاس باللحظات أو الدقائق.. إنما يقاس بعدد الصدمات الكهربائية.. وبعدد السياط! كلّت قواي.. عجزت عن الحركة.. أمرهم أن ينزلوني.. ثم عادوا بي إلى مكاني وقيدوني. شاهدت الحاج مناتي . من تحت الخرقة . ينظر نحوي.. ويبكي بصمت.. والتفت صوبي الأخ فاضل محمد وقال لي بألم وبصوت مسموع.. إذ كانت فيما بيننا فاصلة:. الحمد لله على السلامة.

آلام فظيعة تنهش قدمي، حرارة كحرارة الجمر.. راح الأخ (علي ناصر) يدلكها وهو معصوب العينين.. ومقيد اليدين.. وبالرغم مما يحدق به من مخاطر.. إذ كان الشرطي يرنو نحوي.. وهو مقتعداً كرسياً غير بعيد.. ظلت الآلام تلازمني..ولم يزل بعضها إلى الآن.. بعد مضي سنوات طويلة.

الجلادان عدنان التكريتي وسامي البغدادي

أرخى الليل سدوله.. وراح الشرطي يلقي علينا السندويج، رفعت (السندويجة) الى فمي.. قضمتها.. وصرت أمضغها دون ان أشعر بطعمها.. آلام مريعة تنهش جسدي وقدميّ وتخاذلت يداي عن مسك إناء الماء، بينما كنت على

هذه الحال، وإذا بشبح الشرطي يخيم عليّ.. وهو يدير المفتاح في القيد الذي يشدني إلى قنينة الغاز وأمرني بالنهوض.

إلى أين يا ترى؟! هل هي عودة إلى التعذيب.. القلق والإضطراب يخض دمي خضاً.. ربما تذكروا الآن أمراً.. خطوت خطوات ثقيلة.. قدماي لا تقويان على الحركة.. كنت أمشي ولا أستطيع أن أضغط عليهما.. آلام حادة تشبه وخز الإبر.. لذلك كنت أمشي معتمداً على جانبي القدمين. الشرطي يمسك بيدي.. ويقودني في الممر ذاته.. وباتجاه غرفة التعذيب.. وبينما غرفة التعذيب عن شمالي.. إذ دلف بي نحو اليمين.. وفتح باباً.. أجلسني على كرسي هذه المرة! ولم أزل معصوب العينين. سمعت الملازم عدنان التكريتي يخاطب الشرطي؛

قائلاً: ـ إرفع الوصلة.

فأزاح الشرطي العصابة عن عيني. وجدتني في غرفة إنتشر فيها النور.. في إحدى أركانها عدنان التكريتي مقتعداً كرسياً..وأمامه منضدة.. ناثراً عليها أوراقاً.. جالساً بجواره شاب..عرفت فيما بعد اسمه الملازم سامي من أهالي بغداد الجديدة.

نظر إليّ وقال بإستهزاء: ـ إرفع الوصلة.. شنو إتخاف منه يغتالنا؟!

ثم قال لي باللجهة ذاتها: الله بالخير.

لاحت لي ورقة كبيرة كان يكتب فيها.. أهملني.. وراح يتكلم بهمس مع رفيقه تارة.. وتارة أخرى يكتب في الورقة. بلغت المدة وأنا على هذه الحال نصف ساعة تقريباً. ثم رفع طرفه.. ونظر إليّ نظرة بإزدراء مشوبة بالشعور بالظفر.. وقال لي:

ـ عندك شي إتضيفه؟!

ـ لا ما عندي شي. ثم إستمر يكتب!! لم أقل شيئاً حتى أضيف.. فما قاله (هـ...) دوّنه.. وأضاف عليه حتى ملأ به ورقة كبيرة.

كنت أنظر إلى الإعدام كهدية تقدم لي على طبق من ذهب.. لا أبتغي شيئاً سوى أن أفارق هذه الوجوه الكريهة!!

أخيراً.. نظر إليّ نظرة وكأنه يتأملني.. راح يغرز نظراته في وجهي.. والحقد يتفجّر من مكامنه.. وقال: ـ سامي إتصير بعثي إذا تطلع؟!

أجبته وكنت أريد إنهاء الحديث معه: ـ إن شاء الله.. إذا طلعت.

نظر إليّ بقرف وقال: ـ لعد إلّه بالكتل[70]!

(تصير بعثي)؟!

عندما قال هذه الكلمة تيقظت في نفسي ذكرى.. وكأنما سقطت على رأسي حجارة صلدة!! تذكرت ذلك الشاب الأسمر الذي زار المدرسة.(ثانوية بورسعيد)، في مدينة الثورة.. وكان جالساً بجوار عباس رئيس الإتحاد الوطني للطلبة .. بإمالة قليلة من جانب وجهه الأيمن.. وعن شماله ثلاثة من الطلاب[71].. وهم من اللجنة الأمنية للمدرسة.. وكان الجميع يتكلمون.. وبعضهم يصرخ غاضباً ويقول:ـ بالعقيدة نعدمكم إذا ما صرتوا بعثية!!

لكنه كان صامتاً صمت القبور.. الفعل الوحيد الذي بدر منه هو أنه كان بين الفينة والفينة يدوّن في قصاصة ثم يناولها لرئيس الإتحاد.. وكان هذا الآخر حالما ينظر في الورقة تتغير نبرة صوته.. فتارة يزعق.. وتارة أخرى يتكلم بهدوء.

وتذكرت عندما رفع محمد جبار دعيد[72]ش عني تقريراً.. مفاده أنني أتكلم بالدين.. وذلك على أثر نقاش تناولت فيه كتاب نقد الفكر الديني لصادق جلال العظم، وبعد أيام جاءني مسرعاً.. قال لي والبجهة تغمره:ـ يريدونك بغرفة الاتحاد.

وتحدث معي ضابط أمن المدرسة خالد جبار قائلاً: ـ جاءك صديقك وقال: إن الموعد الذي بيننا قد تغيّر. ثم ذكر لي مكان لم أعرفه.. فقلت له: ـ ليس لدي موعد مع أحد.. وحتى هذا المكان لا أعرفه.

---

70) الكتل باللجهة الدارجة تعني: الضرب المهين.

71) هم: كريم... محمد جبار دعيدش.. وآخر لم أتذكره.

72 بعد سقوط حكم صدام عمل ناشطاً في حقوق الأنسان!!قرّت عين الإنسان الذي ينادي بحقوقه هكذا ناشطون.

فالتفت نحوي فتىً نزق.. وقال لي وهو يحرك رأسه ويومئ بعينه اليمنى وحاجبها.. وكأنه يعيّرني بأمر مشين: ـ قرب الجامع! ويقصد المسجد الذي أصلي فيه. وأكدت له أن ليس لي موعد مع أحد.. فقال لي ببرود مصطنع: ـ لا.. لا تقلق.. الأمر بسيط.. بس هو أوصاني أن أخبرك. وقلت له: ـ هل بإمكانك أن تريني هذا الصديق؟! فأوعدني قائلاً: ـ بس أشوفه أگلك.

وتشاغل عني وكأنه يتم حديثاً مع الفتى الواقف بجانبه.. وانتهت المحاورة.. وساورني قلق.. وشيئ ما لفت نظري.. أن شاباً أسمراً كان واقفاً بجوار رئيس الاتحاد.. ووقفته جانبية.. وينظر إليّ بطرف خفيّ.. وهو يدس كفيه في مخابئ بنطلونه الرمادي.. وتعلوه سترة زرقاء.. اذ كان هذا هو الزي الجامعي.. وتذكرت ذلك الشاب الذي زار مدرستنا قبل عام!

ـ من هذا الشاب؟! تبيّن لي أخيراً أنه الملازم عدنان التكريتي. أمرني بالمجئ نحوه.. كانت تفصلني عنه ثلاثة أمتار تقريباً.. ناولني قلم.. وقال لي بغلظة: ـ وقّع هنا. وأشار إلى أسفل الورقة.. ولم يسمح لي بالنظر إلى ما سأمضي عليه.

أحسست أن هذا التوقيع[73] سوف يكون الفاصلة بيني وبينه.. لذا وقعت وأنا مسرور. وعاد بي الجلاد إلى مكاني.. فاستقبلني البعض سائلاً والكل يهمس همساً.. فأجبتهم هامساً عما حصل باقتضاب.

۞ ۞

73) الإمضاء لا يعني شيئاً للمتهم في عراق صدام حسين الدموي.. ثمة مجموعة أجري معهم التحقيق في مديرية أمن الكاظمية من بينهم علي كاظم كريم.. من أهالي مدينة الشعلة.. وظلوا أياماً تحت وطأة التعذيب.. وهم مصرّون على عدم الإمضاء على الإفادات التي أعدت لهم.. وبعد أن يئس منهم مدير الأمن.. سأل عن أسمائهم واحداً واحداً.. وبعد أن يذكر له الاسم يمضي على إفادته كيف يشاء.. وسيق الجميع إلى الإعدام باستثناء عدد قليل.. من بينهم صاحب الاسم المذكور.

الفصل الرابع

زنزانات.. ووجوه جديدة

مضت ساعة.. والأفكار تضرب كالمطرقة في رأسي.. تُرى ماذا بعد؟! هل انتهى كل شي؟!.. هل ينتظرني سوط يريد أن يلقي عليّ تحية الوداع؟! تساؤلات شتى ليس لها أجوبة.. أفكار طائشة تعبث برأسي.. آلام مبرحة تنهش جسدي.

الساعة العاشرة ليلاً تقريباً.. جاء الشرطي مسرعاً.. حرّك المفتاح في القيد ففصله عن القيد الماسك بالأنبوب الأرضي.. أمرني بالنهوض.. اقتادني في الممر.. وبعد خطوات لاح لي شخصان من خلال العصابة.

جعلنا واحداً إثر واحد.. كل ماسك بثوب الآخر.. أمرنا أن نسير خلفه.. وهو يقود أولنا.. ظلمة حالكة تلفّنا.. والعصابة تحجب عنّا الرؤية.. هبط بنا سلماً.. ثم تبعه سلّم.. حتى انتهينا بالسلّم الثالث.. فأفضى بنا إلى أرض مفروشة بالإسفلت.

كنت لا أقوى على السير على الأرض بكامل قدميّ.. كإنما هناك إبر تشكّهما.. فألجأ إلى أن أمشي على جانبيهما.

الجلاد يسير ونحن نسير خلفه.. ظلمات تلفّنا.. بعضها يلف بعضاً.. ظلام الليل.. وظلام العصابة.. وظلام المجهول!

علي حبيب رباط وعلي ناصر

مضت ربع ساعة تقريباً ونحن نسير خلف الشرطي.. إلى أين؟! لا أحد منّا يعلم بالضبط.. ولكن نتوقع إلى الموقف.. في هذه الأثناء مرت بخاطري سحابات داكنة.. وصور شوهاء.. برزت من خلالها مسميات غريبة لا أدرك كنهها.. باتت لي

كأنها حيوانات منقرضة.. ماذا تعني جمعية حقوق الإنسان.. أو منظمة العفو الدولية..أو الجمعيات الخيرية..أو الإنسانية.إذن.. أين هي جمعية....ومنظمة...إلخ؟ هل هي أنثى أم ذكر.. وفي أي مخدع فاحش تتمطى الآن؟!

۞ ۞

هذا اليوم.. هو يوم1981/7/28م ليلاً.. والساعة تجري نحو الحادية عشرة تقريباً.. وحتى الساعة التي لا يعلمها إلا الله..

كم هو الوقت.. أو ماذا يعني الزمن لإنسان بين لحظة ولحظة يلاقي شيئاً لا يعرف له اسماً.. بل كل ما يتذكره هو.. أن أجمل ما في هذه الحياة.. هو الموت! فالعذاب الذي يتمنى دونه الموت.. لاشك أن معاجم اللغة لم تحدد له اسماً! ظهر هذا اليوم.. هل سمعت الإنسانية ومنظماتها صدى السياط التي إنهالت على جسدي..) {وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ}[74].

عندما أمشي أشعر كأن مئات الإبر تنغرز في قدمي.. لماذا حصل كل هذا.. ولماذا يفعلون هكذا؟! والذنب الذي إقترفته!؟

كان الشرطي يسير بتؤدة.. ونحن نسير خلفه.. لفحتنا أنسام ليل بغداد العذبة.. فأدركت أننا نسير الآن في فضاء مفتوح.. هل يعرف أحد في العالم.. ماذا يجري في عراق صدام حسين؟!

كنت منهك القوى.. والقلق يسري في عروقي.. فكنت ألهج بذكر الله تعالى. لم أفتر لحظة واحدة عن ذكره تعالى. هو وحده المنقذ.. وهو وحده المنجي.. تلوت آية الكرسي مرات عديدة.. وتلوت آيات قرآنية غيرها.. ورددت بعضاً من الأدعية المأثورة.. التي تدفع ظلم السلطان الجائر!

إنتزعتني من أفكاري خشخشة المفاتيح.. وبينما هو يعالج الباب ليفتحه.. ظننت أن السعادة خلف هذا الباب! فغاية ما يتمناه الإنسان في هذا المكان هو ألا يُضرب ولا يُشتم.. أو يوسع القيد عن معصميه فلا ينهش بلحمه.

ركلة من الجلاد أعادتني إلى ما أنا فيه.. ولجنا الباب نحن الثلاثة.. كنت ماسكاً بثوب علي حبيب رباط من أهالي طويريج.. وعلي ناصر بنيان من أهالي مدينة الشعلة.. ماسكاً بثوبي.

---

74) البروج: 8..

كنا نتلمس الطريق كالعميان خلف الشرطي.. وصمت مطبق علينا.. تركنا بعد أن أمرنا بالوقوف.. لفحتنا أنسام باردة تنبعث من المبردة.. كادت تغرقني في نوم عميق؛ إذ مضى ستة عشر يوماً.. لم أهنأ بنوم إلا لماظاً.. ولم أنعم بنسمة باردة سوى اللحظات التي كان الجلادون يفتحون باب إحدى الغرف المطلة على الممر الذي أُلقينا فيه مكبلين بالقيود.. ليذكروننا بالنسيم البارد.. وما هي إلا لحظات حتى يغلق الباب.. وهكذا جعلتني هذه الأنسام أغرق في بحر من الأحلام الوردية.. حتى قلت لنفسي سوف أغرق فى نومة عميقة كنومة أهل الكهف.. فنفسي الآن لا تتوق لشيئ سوى النوم.

۞ ۞

بينما كانت الأنسام الباردة تتغلغل في أوصالي.. وسلطان النوم يخيّم عليّ ليسرقني.. وإذا بصفعة ثقيلة إنهالت على رأسي.. ثم راح الشرطي يدعك رؤوسنا بالمكنسة.. بعد أن لاثها بالوحل.. وهو ينثر حولنا شتائم وسباب وكلام بذئ.. ولما أنهى عمله بالمكنسة.. إنهال علينا صفعاً وركلاً.تبيّن لي فيما بعد أن هذا الإستقبال من واجبات الجلادين المسؤولين عن الموقف.. وأحياناً تبلغ ممارساتهم مع المعتقل الجلد بالسياط.. وإطفاء أعقاب السكائر في عنقه.. وكل حسب أهميته.. أما أنا وصاحبيَ.. فكنا في سلام من هذا.

جاءنا مسؤول الموقف.. وسأل كلاً منّا عن اسمه.. لقبه.. مواليده.. عنوانه.. وبعد

أن أنهى مهمته معنا.. سار بنا الشرطي في الدهليز.. والنسيم البارد تدفعه المبردة بسخاء.. ولكن نغص علينا هذه المتعة تلك الحفاوة و حرارة الإستقبال!

أوقفني قرب الباب.. وبجانبي علي حبيب.. واخذ علي ناصر بعيداً عنّا.. ثم عاد إلينا فرفع العصابة عن عيني.. هكذا حقيقة أن هذا الكابوس رفع عن عيني.. وبعد مضي ستة عشر يوماً.. صرت أبصر من حولي.. ثم فكّ القيد عن معصمي.. سبحان الله! هكذا تهبط الرحمة مرة واحدة.. العصابة ترفع عن عيني.. والقيد يوضع

عن يدي.. وبالأمس كنت لا أتمنى شيئاً كما أتمنى أن يوسع القيد قليلاً.. لأنه عضّ على أصل إبهامي الأيمن.. وسبّب لي آلاماً مبرحة.

أما الآن.. فلا أستطيع أن أصف عظيم الفرحة التي غمرتني.. وأنا أرنو بعينين مفتوحتين إلى يدي الطليقتين.. بعدما كانتا مكبلتين طيلة سته عشر يوماً.

سرور عظيم غمرني.. اليدان حرتان.. والعينان أزيحت عنهما العصابة.. بعد أن كانت لا تزاح إلا في دورة المياه لمدة دقيقة كل اثنتي عشر ساعة.. وبعد قليل سأغط في نوم عميق. سوف أعوّض عن تلك الأيام العجاف.. أيام السهر والتعب والإرهاق.. بعد هذا كله.. سألقي بجسدي تحت هذا النسيم البارد الذي يلفحني بحنان.

الزنزانة رقم 15

فتح الباب.. داهمتني رائحة كريهة.. كرائحة قبر مفتوح عن جثة متفسّخة.. دفع الجلاد بظهري ثم أردف بصاحبي.. أغلق الباب على عجل.. وجدتني في مكان خانق.. لم أستطع أن أضع قدمي إلا بالكاد.

المكان صغير جداً إلى حدّ أن خمسة أشخاص لا يمكن أن يناموا فيه.. مكتظاً بالناس حتى لم يعد به موضع لواقف.

كان ازدحاماً ضاغطاً.. يضغط على كل شيئ.. على الأجساد.. على المشاعر.. على الفكرة.. أما الجدران والسقف فقد كانت متقاربة لزجة.. ذات لون أصفر كئيب.. ينسكب عليها ضوء خفيف.. ينبعث من مصباح دائري قطره قدم تقريباً، ملصق بالسقف.. تبيّن لي فيما بعد أن هذا المصباح لا تتجاوز قدرته الكهربائية 40 فولتاً. وذلك درءاً لانتحار المعتقل الذي لم ينتزع منه الاعتراف بعد.. فيما إذا حاول الانتحار..تبيّن ذلك عندما حاول أحد المعتقلين الإنتحار بعد أن هدده

الجلادون بقطع رجله بالمنشار في حال عدم إدلائه باعترافات يطالبونه بها.. بعد أن مارسوا معه شتى الأساليب..

حاولت أن أجد لي موطأ قدم.. ولكن دون جدوى؟! قدمي ترتطم بأجساد متداخلة.. ملقاة على غير هدى.. بعضها جلس القرفصاء.. بعضها تربّع.. والبعض الآخر واقف.. دسست جسدي بين الأجساد.. كان الجميع عراة إلا من السروال.. بمشقة بالغة وبخطوات متعثرة.. وبهيئة من يبتغى القفز.. بلغت آخر الزنزانة.

ألقيت التحية.. فأجابني أكثر من صوت بمثلها أو بأحسن منها.. وقفت لحظات.. لا أدري ماذا أصنع.. وكأن البعض أدرك الحال الذي أنا وصاحبي فيه. كنت مستغرباً كل شيئ.. مستفهماً عن كل شيئ.. امتدت نحونا أيادٍ واصوات تأمرنا بالجلوس.. ولكن بأدب!

هذه اللهجة المؤدبة باتت شبه غريبة على مسامعي. فمنذ اللحظة المجنونة التي استقبلني بها أوغاد البعث المجرمون وحتى هذه اللحظة.. كان الصفع والشتائم أهونها شراً! ألقيت بجسدي بمشقة بالغة حتى انتهيت إلى الأرض.. جلست القرفصاء.. وأسندت ظهري نحو باب المرحاض الموصد.. الذي يعلو أرض الزنزانة بارتفاع يبلغ القدم تقريباً.

أين أنا يا ترى؟! ما هذا؟! ماذا أرى؟!مَن هؤلاء؟! إلى متى سأظل على هذه الحال؟! ثم أين هو الموقف المنتظر؟!

الجميع صامتون.. وقد وزّعوا نظرات وجلة مستفهمة بيني وبين صاحبي.. طلاسم.. ألغاز.. تساؤلات بلا جواب حاصرتني من كل جانب.. باتت كأنها أيادٍ أحكمت القبض على عنقي.. أحسست بالاختناق.

أجلت النظر.. سقط نظري على مجموعة متراكمة من الشباب حولي عراة.. مجردين من الثياب.. حرارة شديدة تنفثها جدران قذرة.. الرائحة الكريهة تمزق الخياشيم.. وتفك الرأس فكاً بلا رحمة.

ثمه شاب أبيض البشرة.. طويل القامة.. في جسده ترهل.. واقف قبالتي عاري الجسد إلا من السروال.. كان فاغراً فمه.. ويتنفس أنفاساً متلاحقة.. مثل خروف تعرض لشمس حارقة في حر القيظ.

لاحت لي كلمات محفورة على الجدار.. وكلمات مكتوبة بصبغ أصفر باهت اللون.. تبيّن لي فيما بعد أن هذا الصبغ هو عصارة قشور البرتقال.

وكلمات أخرى مكتوبة على الباب.. وذلك بتقشير صبغه.. أيضاً تبيّن لي فيما بعد أن هذا التقشير يتم بواسطة عظم صغير ينتزع من اللحم.. ثم يهذب ويصقل.

الكلمات تقرأ بسهولة.. حروفها واضحة.. أبرزها كلمة الإمام الحسين الخالدة.. حيث يقول: «والله لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل.. ولا أقرّ لكم إقرار العبيد».

وكلمه أخرى له (ع): « إني لا أرى الموت إلا سعادة.. والحياة مع الظالمين إلا برما». وفي جانب آخر كتب دعاء الفرج: «إلهي.. عظم البلاء.. وبرح الخفاء.. وانكشف الغطاء.. وانقطع الرجاء.. وضاقت الأرض.. ومنعت السماء.. وأنت المستعان.. وإليك المشتكى... إلخ».

وعلى باب المرحاض كتب دعاء من ادعية الصحيفة السجادية للامام علي بن الحسين السجاد (ع) وهو دعاء يوم الأحد.. وبطريقة تقشير الصبغ الجاف.. وكلماته واضحة.. وهو: «بسم الله الذي لا أرجو إلا فضله.. ولا أخشى إلا عدله.. ولا أعتمد إلا قوله.. ولا أتمسّك إلا بحبله.. بك أستجير.. يا ذا العفو والرضوان.. من الظلم والعدوان.. ومن غِيَر الزمان.. وتواتر الأحزان.. وطوارق الحدثان.. ومن انقضاء المدة قبل التأهب والعدة.. وإياك أسترشد لما فيه الصلاح والإصلاح.. وبك أستعين فيما يقترن به النجاح والإنجاح.. وإياك أرغب في لباس العافية وتمامها.. وشمول السلامة ودوامها.. وأعوذ بك يا رب من همزات الشياطين.. وأحترز بسلطانك من

جور السلاطين.. فتقبّل ما كان من صلاتي وصومي.. واجعل غدي وما بعده أفضل من ساعتي ويومي.. وأعزني في عشيرتي وقومي.. واحفظني في يقظتي ونومي.. فأنت الله خير حافظاً.. وأنت أرحم الراحمين.. اللهم إني أبرأ إليك في يومي هذا وفيما بعده.. من الآحاد من الشرك والإلحاد.. وأخلص لك دعائي تعرضاً للإجابة.. فصلِ على محمد وآل محمد خير خلقك.. الداعى إلى حقك.. وأعزّني بعزك الذي لا يُضام.. واحفظني بعينك التي لا تنام.. واختم بالانقطاع إليك أمري.. وبالمغفرة عمري.. إنك أنت الغفور الرحيم».

بادرني أحدهم بالسؤال عن اسمي.. وعن سكناي.. وعن سبب إعتقالي.. وكنت أبوح بأشياء وأكتم أشياء أخرى.. استمرت الاسئلة من هنا وهناك. أين كنت؟ متى إعتقالك؟ هل أكملت التحقيق أم لا؟ من الذي أجرى معك التحقيق؟

ثم طلب أحدهم أن يرى إبهام يدي اليمنى.. ولما رآه قال لي: أكملت التحقيق؟ كان إبهامي الأيمن فيه أثر الحبر الذي لطخه المحقق ثم أخذه فضغطه على ذيل الورقة التي دوّن سطورها. بعد أن أمرني أن أمضي في المكان ذاته. تبيّن لي أن سؤالهم عن الإبهام يبتغون منه أمراً.. وهو لغرض الاطمئنان من أنني معتقل حقاً.. فكانت هذه العلامة الأُولى يميّزون بها بين المعتقل والدسيس. ثم تتبعها علامات أُخرى.. وهي آثار التعذيب أو ذكر أصدقاء له... إلخ.

كانت الكلمات سريعة مقتضبة.. حاولت أن أعرف الحقيقة فسألتهم.. وكان الجواب يأتيني من أكثر من واحد: ـ ما هذا المكان؟ ـ الزنزانة رقم 15. ـ من أنتم؟! وكم عددكم؟! ـ نحن هنا معتقلون.. عددنا الآن خمسة وعشرون شخصاً.

ـ مضت علينا أيام متفاوتة ونحن هنا قابعون.. بعضنا مضى عليه أسبوع.. وبعضنا مضى عليه أسبوعان.. ولا ندري إلى متى سنبقى هنا؟!

ـ هل أنتم فقط هنا؟!

ـ لا.. زنزانات كثيرة من حولنا.. يبلغ عددها مع هذه الزنزانة23 زنزانة.

شعرت كأن دواراً أصابني.. وافترسني الذهول.. وكأنما الأرض مادت تحت قدمي.. أحسست بأنفاسي تتقطع.. وكأن سكيناً حادة انغرزت في قلبي.. والكلمات تسري في أذني.. تجلي لي الحقائق التي أتوخاها.. وكنت أستزيدهم..

وأطلب توضيحاً أكثر: . ثم ماذا؟! أجابني أحدهم[75]: ـ أما بالنسبة إلى هؤلاء.. فبعضهم تمّ تحقيقه.. وبعضم ينتظر التحقيق.. وأما بالنسبة إليك فقد تمّ تحقيقك وستبقى هنا.. حتى يستدعونك إلى المحكمة.

الى المحكمة ...

محكمة؟! هل حقاً ما أسمع.. ثم محكمة؟! وهل حقاً سألبث في هذا المكان إلى ما شاء الله. كانت هذه الكلمات بمنزلة الضربة القاضية التي طوحت بي.. وأتت على كل أحلامي. إذن أين هو الموقف الذي كنت أنشد الراحة فيه؟

أين هو التبريد؟! أين المكان الواسع الذي يتيح لي الاستلقاء بعد كل هذا الإرهاق والنصب؟!

في ذلك المكان كنت أستطيع أن أتمدد.. وأن أستلقي بضع ساعات من كل ليلة.. أما الآن فجلوسي القرفصاء.. ولا علم لي إلى متى سأظل على هذه الحال؟! ثم المحكمة! وماذا سيجري في المحكمة؟! وما الذي يعقب المحكمة؟! ومتى سيدعونني إلى المحكمة؟!

ارتسمت أمامى خرائط من الأحزان.. شعرت بانقباض شديد.. لم أشعر به حتى عندما كنت موثقاً على قنينة الغاز.

أحسست أن أنفاسي تنهدات.. وصرت أردد قائلاً وأنا كالمخنوق:

---

75) عرفته فيما بعد أنه الحاج حسن خلف البيضاني.

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. واسترجعت.. ثم وجدتني أردد قوله تعالى: {عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم}. ثم سكت والألم يعتصرني من كل جانب. نهض فتى وهو يقول: ـ ربما لم تتعشوا.

وهو يرفع كلتا يديه إلى أعلى ليتناول إناء.. ثم مدّ يده نحوي وناولني سندويچة.. ويبدو أنه ناول صاحبي ولكني لم أره.. لأن ثمة فاصلة بيننا.. فهو قد جلس في جانب المرحاض.. وأما جلوسي ففي بابه.

تناولت السندويچة.. وجدتها ذات الطعام في الشعبة الخامسة.. فهي صمونة محشوة بقطعة لحم.. وعليها قليل من الطرشي.. صرت أقضمها ونفسي عازفة عنها.

هكذا وجدتني في زنزانة صغيرة.. موحشة.. كئيبة.. ضيقة.. خانقة.. مصبوغة جدرانها بلون أصفر غامق.. تبعث الوحشة في النفس.. وسخة.. يتصبب منها سائل.. ترتسم عليها مثل خيوط من ماء.. من أثر الأبخرة المتصاعدة.. طولها لا يزيد على ثلاثة أمتار.. وعرضها لا يزيد على المترين.

كل شيئ فيها معدّ للأذى.. أرض الزنزانة كونكريتية متعرجة.. مغطاة ببطانية قذرة تفوح منها رائحة كريهة.. ثم أنها كانت تسبب لنا مشكلة كبيرة.. إذ كانت لحى البعض طويلة.. فيعلق بها من صوف البطانية.. وفي الوقت ذاته يتعذر الغسل باستمرار.. لذا كانت تسبب إزعاجاً لنا.. طواها البعض وألقاها جانباً.. ولم نتخلص من شرها.. كان البعض يلجأ إلى حلق لحيته وشاربه هروباً من مشاكل الشعر الذي يعلق بالوجه.. ثم ينتهي بالفم والأنف.. وذلك عندما يأتي الحلاق إلى الموقف لغرض الحلاقة.

في ركن الزنزانة مرحاض مساحته متر مربع تقريباً.. والفاصلة بينه وبين سقف الغرفة تكفي لجلوس شخص متوسط القامة لكي لا يبلغ رأسه السقف.

يستغل هذا المكان أحياناً لجلوس شخص أو شخصين.. وأحياناً أخرى لخزن طعام الغداء إلى وقت أذان المغرب.. فيتناوله الصائمون.. ثم يتركون طعام العشاء في ذات المكان.. ليتناولونه في وقت السحر.

الفنانون المعتقلون

الأجساد دبقة بعضها يلزق ببعض.. تبيّن لي أن ما يزيد على نصف الموجودين هم من أهالي البصرة.. منهم مجموعة كلهم طلاب في معهد.. وفيهم رئيس اتحاد الطلبة في المعهد ذاته.. وجئ به ليدلي بشهادته عليهم.. وكان يعاني نفس معاناة الجميع.. سمعته ذات صباح وقد رفع رأسه من بين ركبتيه.. وقال والألم يعتصره:

. ولله ماكو ظلم بالعالم كله مثل هذا الظلم.. حتى بإسرائيل مو موجود.

وبعد أيام.. بعد أن ذاق مرارة العذاب.. أطلق سراحه.كانت فيما بينهم عنصرية شديدة.. فحالما يحصل شجار بين أحدهم وشخص آخر.. وإذا بالجميع ينحازون إلى صاحبهم ظالماً أو مظلوماً!

ومن غرائب الصدف أن ألتقي بكل هذا الجمع من أهالي البصرة.. وكنت أسمع من بعض الحركيين أحاديثاً تبلغ الأساطير عن ثورتهم وجهادهم.. وفوجئت أكثر عندما حان وقت صلاة الفجر.. ولم ينهض أحد منهم.. بل كان بعضهم يغني ويصفق بيديه بصوت خافت.. وهو يردد أغاني بذيئة جداً.. أيضاً كان لقائي بهؤلاء صدمة أسندت تلك الصدمات.. تبيّن لي أن هؤلاء ليسوا من المتدينين.. وبعضهم من ينتمي إلى الحزب الشيوعي.

وكان من بينهم فتى أحمر البشرة.. شديد الإيثار على نفسه.. إذ يقف الساعات الطويلة ليوفر مكاناً لغيره.. حتى تورمت قدماه.. وكان يقف على قدم واحدة أو يراوح فيما بينهما.

كانوا منكفئين فيما بينهم.. يتبادلون الطرائف.. بإشارة أو كلمة أو تصرف يبدر من أحدهم يضحكون سوية.. أو بعضم يوفر مكانه للآخر.. أو يتعاضد اثنان أو ثلاثة منهم ليهاجموا واحداً من غير مجموعتهم.. لم يشاركوا أحداً سواهم بحديث.. لذا حتى عندما افترقنا لم أسمع منهم حديثاً يذكرني بأحد منهم.. أو بإسم واحد منهم.. وكأنهم يخبئون شيئاً ما، إلا واحداً كان يحدث بصوت مسموع وهو مستلقي بين أصدقائه، فيغرقون في الضحك فيقول مبرراً:

. شنو الفرق إذا هنا وإذا هناك.. وهو يشير إلى التواليت.

تبيّن لي فيما بعد أنهم مجموعة عرفت إبّان الحرب العراقية الإيرانية بفرقة (إلما قصرتوا).. نسبة إلى أغنيتهم التي اشتهروا بها.. ما قصرتوا.. ما قصرتوا.. وكان من بينهم ملحن اسمه طارق الشبلي مع جماعة آخرين متفرقين في زنزانات أخرى.. وبعضهم صار يؤدي الصلاة فيما بعد.. وكان من بينهم هذا الملحن.. وكان يذكر أنه لما جئ به إلى مديرية الأمن العامة كان مشغولاً بتلحين أغنية لمطربة عراقية اسمها سيتا هاكوبيان.. ولما كان مع المتدينين صار يؤدي الفرائض معلناً تركه لماضيه.. كان يصغي لبعض اللطميات والردات الحسينية ويشاركهم باللطم.. وبعد ذلك أطلق سراحهم جميعاً.. وتبيّن أن سبب إعتقالهم هو أنهم أنشدوا فيما بينهم أغنية يخاطبون بها صدام حسين بكلمات داعرة.. وبعد مضي سنتين وبضعة شهور انطلق صوت المطرب صلاح عبدالغفور من التلفاز مردداً أغنية غرامية من ألحان طارق الشبلي.. على لحن الردة الحسينية المشهورة: يمه اذكريني من تمر زفة شباب.. والكل أجمع على أنه سرق لحنها عندما كان في الزنزانة.

الشهيد غانم المعقلي

مضت ساعة تقريباً.. وأنا أجتر آلامي صامتاً.. وأتشرب العذاب على مهلٍ. وكان ثمت فتىً طاوياً جسده بمشقة بالغة بين الأجساد العارية والأقدام على أرض الزنزانة.. وقد غط في نوم عميق.. ولما أفاق أرسل نحوي نظرة مثقلة بالتعب.. فأدرك أنني حللت بينهم أثناء نومه.. كان متقلص الوجه.. على جبهته وبين حاجبيه حَب غريب. وبعد أن انتزع الكلمات من جوفه بعسر.. قال لي بلهجة مؤدبة وبصوت لا يكاد يسمع: ـ مساكم الله بالخير. ـ مساكم الله بالخير. ـ إشوكت إجه الأخ؟ ـ قبل ساعة تقريباً. ـ أهلاً وسهلاً.سأله سائل كان بجانبه قائلاً: ـ ها إشلون صرت؟ ـ زين.. الحمد لله.. أحسن.

تبيّن لي أنه مصاب بحمى شديدة.. وسببها هو الحب المنتشر على جسده.. وواضح على جبهته وبين حاجبيه..

تألمت لحاله كثيراً.. ووددت لو تسنّى لي أن أقدم له يد العون.. تبدو عليه سيماء الأدب والحياء.. لذا رققت لحاله كثيراً.. عرفت أن اسمه غانم من أهالي البصرة.. ومن منطقة المعقل.. طالب في كلية الزراعة.. وكان ينتظر إطلاق سراحه بفارغ الصبر.. ليتسنى له اللحاق بالسنة الدراسية القادمة.. فلقد كنا في شهر آب.. والسنة الدراسية تبدأ في شهر أيلول.. لذا كان متحرقاً لإطلاق سراحه.

وبالرغم من تساوي عمرينا.. لكن كنت أشفق عليه لما أرى فيه من وداعة.. ومسالمة.. وحسن خلق.. كان هادئاً وإذا تكلم.. تكلم بصوت كالهمس. ولشدّ ما تألمت عليه ذات ليلة ليلاء إذ سمعته ينشج.. التفت نحوه بصعوبة بالغة.. إذ كان هو قرب باب المرحاض.. وأنا في ركن الزنزانة الذي يليه.. رأيته قد دسّ رأسه بين ركبتيه وأجهش ببكاء محموم. كان مريضاً.. وأراد أن يستلقي فلم يستطع.. وقد هدّه الإعياء.. واستلقاؤه يعني حرمان الكثيرين من الجلوس.. والكل مجهدون.

وبعد أيام تحسنت صحته.. وحدثني كثيراً عن حياته وآماله.. أعظم أمل له هو إطلاق سراحه ليتم دراسته الجامعية.. وهو الابن الأكبر للزوجة الثانية.. وأدركت أنه كان مترفاً.. وكما يقال: تربية دلال.

ثم إفترقنا.. وانقطعت أخباره عني تماماً.. ولم أسمع باسمه كما سمعت عن غيره من بعض السجناء الذين التقيت بهم فيما بعد في سجن أبو غريب. حتى كادت السنون الطويلة وراء القضبان أن تمحي ذكراه عني.

وبعد مضي عشر سنوات.. سمح السجّانون لأهالينا بمقابلتنا.. وبينما كان مجموعة من السجناء في الساحة الصغيرة يواجهون أهاليهم.. وكنا نطلّ على هذه الساحة من خلال شبابيك ضيقة.. لاحت لي امرأة حاملة على رأسها (علاگة) ممتلئة.. وهي تجوب الساحة جيئة وذهاباً كالمدهوشة بين السجناء وأهاليهم الآتين لزيارتهم.. يبدو أنها استطاعت أن تزج بنفسها مع عائلة سمح السجانون لها بزيارة ابنها.. وكان يحصل هذا نادراً..

ولما يئست ممن في الساحة لجأت إلينا.. نحن الذين في داخل القسم.. وهي ملهوفة.. ملتاعة.. وتردد بلهفة اسماً.. وحالما سمعت بالإسم انبعثت لدي ذكرى دفينة.. كان الإسم هو غانم.. وتذكرت اسمه كاملاً.. ولما قالت من أهل البصرة.. من المعقل.. جذبتني إليها هذه الكلمات.

فناديتها من وراء الشباك.. وسألتها عن اسمه.. أعادت لي الإسم.. ثم ذكرت لي عمره.. وسنة إعتقاله.. وكلّيته.. وشكله على عجل.. فتيقنت أنه صاحبي الذي أبحث عنه.

تألمت لحالها كثيراً.. وحال الآلاف من أمهات العراقيين في عصر (القائد الرمز والقائد الضرورة.. عصر الدكتاتور الحامض صدام حسين

كنت أبحث عن جواب يلائم حالها.. فأدرك ذلك الأخ سعد علي التميمي إذ كان إزائي.. فقال لي هامساً: قل لها.. احتمال يكون في غير سجن. فوجدته جواباً مناسباً لامرأة جاءت من البصرة إلى بغداد.. ثم إلى منطقة أبوغريب

النائيـة.. ومجازفـة بـدخولها الـذي لـو التقطهـا السـجانون لربمـا تلقـت مـنهم الأذى والإهانة.. وهذا أهون الشرور.

قلـت لهـا: ربمـا يكـون في غـير سـجن.. لـئلا أقطـع أملهـا بلقـاء ولـدها.. وبالرغم من علمي أن كل الذين لم يحكموا في سجن أبو غريب.. ولم يطلق سراحهم.. فقد تمّ تنفيذ حكم الإعدام فيهم.. وذلك بطريقة القتل الجماعي[76]! إذن.. فهو قد أكله التراب كما أكل الآلاف من خيرة أبناء الشعب العراقي.. آلاف ذهبوا من خيرة شباب الشعب العراقي بلا وصية.. ولا وداع.. ولا نواح عليهم. في عهد بطل الدمار القومي.. ورمز البطش والإستبداد المجرم صدام حسين!

لما رأيت أمّه بهذه الحالة تذكرت أمّي.. إذ لم أزل ممنوعاً من مواجهة أهلي.. بالرغم من أن أبناء منطقتي كلهم يواجهون أهاليهم.. لا لذنب إلا لأن لدي إخوة في إيران.. وعائلتي من ضمن العوائل الغير مرغوب فيها صدامياً.. وبعثياً.

كما تذكرت حاله وهو يضع رأسه بين ركبته.. وينخرط في بكاء شديد.. وكل جارحة فيه تنطق بالبحث عن يدٍ حانية تعلّله.

۞ ۞

أجلت النظر مرات عديدة دون أن أنبس ببنت شفة.. كل شيئ من حولي مستغلق مبهم.. العالم الذي أقطنه عالم مجهول.. ولكن لديّ انطباعاً سابقاً عن كل من حولي.. إذ كان ذهني مشبعاً بالصور الأخاذة عن المعتقلين.. فكثيراً ما سمعت من إخواني أو من أصدقائي أو من بعض الأقارب رحمهم الله جميعاً.

كانـت أحـاديثهم عـن بطـولات المعتقلـين.. عـن صـمودهم.. أخلاقهـم.. ثقافتهم.. وكانت هذه الأحاديث تلاقي ذهناً فتياً لم يخبر الحياة بعد.. لذا كانت كل كلمة تندّ عن أحد منهم أو سؤال.. كنت أتصوره بدافع الحس الأمني والحذر.. فأكبر ذلك فيهم.. خلت أنهم نخبة من المجاهدين.. وفيهم العلماء والمفكرون.

---

76) دوّنـت هـذه السـطور إبّـان عهـد الـدكتاتور المجرم صـدام.. وأكـدت ذلـك وسـائل الإعـلام العالميـة والعربيـة.. بكشفها المقابر الجماعية بعد سقوط الطاغية.

كاظم الدليمي

عندما سقط نظري على شاب أبيض البشرة مشرب بحمرة.. قصير القامة.. لبقاً.. إذا تحدث يأخذ السامع بطريقة سرده ورشاقة إيماءته.. وعلاوة على ذلك فهو ذو أخلاق رفيعة جداً.. ولديه اطلاع على بعض الكتب الإسلامية.. برز شعر لحيته عقب حلاقة بالموسى.. فبان كطلعة قمر في ليل متلبد بالغيوم الداكنة.. قلت لنفسي هكذا هي وجوههم.. النور يسطع منها.. ظننته من علماء الدين الثوريين الذين كنت أسمع عن تحركات بعضهم.. التي يبدون فيها كالأشباح النورانية التي يخفيها دعاء.. ويفتح على يديها الأسرار بطلسم.

بدأت شمس الحقيقة تتجلى.. وكأنما تتقشع عنها السحب رويداً رويداً.. عن أشياء خفيت عني.تبيّن لي أن اسمه كاظم جواد كاظم الدليمي من أهالي الحلّة.. نائب ضابط في وزارة الدفاع.. خطاط ماهر.. متزوج.. كان دمث الأخلاق.. طيب القلب.. نقي السريرة.. رقيق المشاعر.

ولما امتدت جسور المودة فيما بيننا.. وصرنا نتجاذب أطراف الحديث طويلاً.. تأكد لي أن ما رأيته في وجهه ليس نوراً.. إنما هو لون بشرته.. هذا هو لونها.

رحت أتأملهم متسائلاً في سري: كيف ينامون؟! كيف يتناولون طعامهم؟! من أين يشربون الماء؟! أين يقضون حاجتهم؟! أين هي ثيابهم؟! مَن هؤلاء؟! من أين أتوا؟! أي تهمة جاءت بهم إلى هنا؟!

كان هذا المنظر يبعث الدهشة.. التأمل.. اليأس في النفس.. وكان الجلادون يستخدمون هذا المنظر لتفزيع المعتقل أو للسخرية منه.

قتلوه بالمرض والتخويف!

ذات يوم جلد الرائد عامر أحد المعتقلين لينتزع منه الإعتراف.. وكان لديه معرضاً لبيع السيارات.. ولما كان متديناً ومتعاطفاً مع رجال الحركة الإسلامية.. سخّر بعض سياراته لهم دون أن يعرف أسرار تحركهم.

والمحقق يطالبه باعترافات عن أمور لا علم له بها.. فلما يئس منه قال له منتقماً: ـ بعد ما أريد اعتراف.. راح أموتك! ثم انهال عليه بالهراوة الثقيلة.. لا على التعيين.. وضربه عدة ضربات عنيفة على كليتيه.. ولما فقد الوعي حمل إلى الزنزانة رقم 9.. في الوقت الذي كنت قابعاً في الزنزانة رقم 15.

وبعد مضي ساعات طويلة.. وهو في غيبوبة تامة.. وأقرب إلى الموت منه إلى الحياة.. ولما أفاق راعه أن رأى من حوله أشخاصاً عراة.. وفي مكان غريب يشبه القبر.. مكتظاً بهم.. فاطمئن أنه في عالم الأموات.. فسأل مَن حوله بلسان أثقلته الغيبوبة الطويلة قائلاً: ـ إحنا بعالم الأحياء لو بعالم الأموات؟!

فأجابه أحد الجالسين بجانبه قائلاً: ـ إحنا في عالم الأموات. فما كان منه إلا أن سأله بسرعة طالباً الجواب سريعاً: ـ وإحنا من أهل الجنة لو من أهل النار؟!

فضحك الجميع وهو يشيعون حوله جواً من المرح.. والبعض يعلّله.. وقال له أحدهم: ـ أنت لم تزل حياً.. وفي موقف مديرية الأمن العامة.. وهذه زنزانة رقم 9.

وعقب يومين ارتفعت حرارته حتى قال لي الاخ قاسم عبدالمجيد الساعدي صار (يچوي) بدون مبالغة.. ارتفعت حرارته بشكل غريب.. وفاضت روحه رحمه الله.. هذا مشهد من مشاهد التفزيع الذي استخدمه الجلادون مع هذا الرجل.

۞ ۞

ومشهد آخر استخدمه الجلادون للسخرية من أحد المعتقلين.. جئ بمعتقل من الشعبة الخامسة إلى الموقف.. فقال له الشرطي:ـ الآن سوف تدخل إلى الحمام وتغيّر ثيابك.. ثم بعد ذلك نأخذك إلى الموقف.. وزجّ به بين الحشد الضاغط في الزنزانة.. ولما رآهم عراة وحرارة الزنزانة تشبه حرارة الساخن.. اطمأن إلى ما قيل له..

وجلس القرفصاء منتظراً دوره إلى الحمام.. وهو كالمختنق مما هو فيه.. ولما طال انتظاره سأل من حوله متبرماً: ـ متى يأتي دوري إلى الحمام لأغتسل؟! فضحك البعض من هذه المفارقة التي ألفوها.. وأخبره البعض عن مكانه الجديد!

۞ ۞

الجدران تهرسنا بزفيرها الحار.. الباب موصد.. تتوسط أعلاه فتحة صغيرة مساحتها قدم مربع تقريباً.. وفي آخر الزنزانة قرب السقف مفرغة للهواء.. في إحدى الزوايا فانيلة مصنوعة على هيئة كيس نصفه مملوء بالصمون.

طلبت ماء.. فنهض أحد الجالسين وهو يشق طريقه بين الجالسين والواقفين بصعوبة بالغة.. رفع كلتا يديه إلى الأعلى فتناول دولكة مملوءة بالماء.. شربت منها قليلاً ثم ناولتها له.. فأخذها وتحرك بصعوبة قاصداً المكان الذي جلبها منه.

۞ ۞

البعض يئن من الألم.. والبعض الآخر عاجز عن تحريك يديه.. ثمة فتى إزائي استرعى انتباهي.. تطلعت إليه.. كان قابضاً على كاحله الأيمن.. رميت ببصري نحو كاحله.. بان لي كالفم المفتوح.. ينزف قيحاً ودماً.. بشرته بيضاء ممتلئة بالحب الناعم.. إبهاميّ قدميه كقطعتين سوداوين.. وبقية أصابع قدميه قد تخثر الدم فيهما من جراء الفلقة. مضت ساعات طويلة وهو على هيئته منكفئاً على قدميه وماسكاً بكاحله ويئن.

شمس الدين عبد النبي محمود

ضحى اليوم الأول الذي حللت بينهم.. تزحزح مكاني حتى صرت بجانبه فسألته: ـ ما هذا الجرح؟! أجابني بصوت متهدج.. وهو لم يزل على هيئته: ـ من التعذيب.. علكوني مثل الطلي.. من أديه ورجليه.. والكلبچة جرحتني هذا الجرح.

مشيراً بألم بالغ إلى الجرح العميق النازف في كاحله.

سألته: ـ كم عمرك؟. 17 سنة.

ـ بس؟! ـ بس.

ـ من أين؟. من بغداد.. من منطقة شارع الكفاح.

ـ ما اسمك؟. شمس الدين.

سرعان ما تذكرت قبل ليلتين.. سمعت الملازم حازم التكريتي يردد هذا الاسم قائلاً لأحد المعتقلين: ـ شنو علاقتك بشمسي؟

فأجابه: ـ علاقة عمل.. كلانا نعمل في محل للأحذية.

فسألته على الفور: ـ أنت شمس الدين؟

ـ وكيف عرفتني؟ ـ سمعت الملازم حازم يسأل شخصاً عنك.

فسألني بلهفة: ـ ماذا قال لحازم؟. ـ قال له لم تربطني به سوى علاقة العمل.

هشَ لهذا الخبر.. وبالرغم من آلامه الحادة ردد مسروراً: ـ عفيه بالسبع.. عفيه بالسبع.. ومگال شي بعد؟! ـ لا أبداً.. لم أسمع منه سوى هذا الكلام.

استمر في تأوهه.. وهو ممسك بكاحله.. والأجساد العارية بعضها يلزق ببعض من كثرة التعرق.

سألته عن حكايته.. فأجابني: ـ اعترف عليّ واحد.. واتهمني أنه ادّخر عندي أسلحة..مسدس ورمانات.ثم أردف قائلاً بلهجة الشاكي:ـ عذبوني تعذيباً شديداً.. إستخدموا معي أساليب تعذيب متعددة.. ثم أوقفوني على الشمعة[77] يومين.. حتى أحسست كأن رجلاي أصيبتا بالشلل.

ـ وماذا ذكرت لهم؟!ـ لم أذكر لهم شيئاً سوى اسم شخص غير حقيقي.. قلت لهم إنه الآن جندي يقاتل في الخفاجية[78].

---

77) يعني قيدوه وقوفاً على الشماعة أو المشجب.

78) هي المدينة الإيرانية التي دارت فيها معارك طاحنة في الحرب العراقية الإيرانية.. إبّان تلك الأيام التي دارت فيها هذه الحكاية.

ثم قال متوسلاً:ـ إذا خرجت.. أرجوك أن تذهب إلى أهلي في شارع الكفاح.. (وأخذ يوضح لي المكان الذي يقطنه أهله) وتخبرهم عني وتطمأنهم. وأكّد عليّ ذلك مراراً وهو ممسك بكاحله ويئن.

ولما سألته عن اسمه كاملاً.. قال لي:ـ اسمي شمس الدين عبد النبي محمود. ويتخلل وقت الأنين والألم أوقات قصيرة.. نتجاذب فيها أطراف أحاديث بلا مقدمات ولا نهايات.. وغالباً ما تكون أحاديث السجناء هكذا.

أخبرني أنه كردي فيلي.. ويعمل في محل للأحذية في بغداد الجديدة.. وهو يعيل عائلته.. وله إخوة هو كبيرهم.. لأن أباه مريض وعاجز عن العمل.

كان مثار إعجاب الجميع في صموده.. وطالما كان البعض يردد:ـ يا ريت الكل يصمدون كما صمد شمس الدين.. وإلا ما كان تورطت الناس بالإعترافات.

فيقول آخر: ـ وين شمس الدين.. وين ذلك اللي مخلا واحد مجابه؟!

كان يقصد الشخص الذي اعترف.. فذكر اسمه وأسماء مجموعة حوله.. فكان سبباً في إعتقالهم.

مفسر الأحلام جاسم محمد أبو زينة

كان مولعاً بتفسير الأحلام كغيره منّا.. لكن لو تسلسل الولعون لكان أولهم.. ولحسن الحظ كان معنا رجل من أهالي الديوانية اسمه جاسم محمد.. وعادة ما ينادى بكنيته أبو زينة.. نائب ضابط ومرشح لشرف (العضوية في حزب البعث) كما يقول.. ومكانه الذي يجلس فيه دائماً هو في آخر الزنزانة.. ويجلس متربعاً وبإزائه النائب الضابط كاظم الدليمي يجلس جلسته.. ويعني هذا أنهما شغلا المكان عرضاً الذي هو من باب المرحاض إلى الجدار.

أبو زينة رجل يطرق أبواب الكهولة.. يدّعي أنه مفسّر للأحلام.. ولا يكتفي بالتفسير فقط.. إذ كان محللاً سياسياً أيضاً.. بيد أن تحليله السياسي لا يفوق

تفسيره للأحلام.. فهو كلما لاحظ تصرف من شرطي غير مألوف.. كأن يبدأ بتحية الصباح دون شتيمة.. أو إذا طلب أحدنا منه علاجاً واستجاب له أيضاً من غير شتيمة.. وقال راح أصيح الدكتور.. أو زعقة من ضابط.. أو إشارة في الجريدة.. إلخ.. يبدأ بالتحليل.. وكل توقعاته هي: إن شاء الله خير.. أو راح نطلع.. أو يكتفي بكلمة معبرة تختزن معانٍ شتى وهي: أكوشي. ثم يعرج بنا من الموقف حتى يفضي بنا إلى الشارع!! كذلك تفسيره للأحلام.. كلها تؤدي إلى الخلاص مما نحن فيه.. وحالما يفيق أحدنا من غفوة سريعة.. وذلك بعد أن يضع رأسه بين ركبتيه.. ويرى فيما يراه النائم.. المعتقل.. المرهق.. الخائف.. الذي ينشد الحرية.. يصيح: ـ أبو زينة.. أبو زينة.. ـ نعم.

ـ شفت حلم. ـ خير إن شاء الله.. شنو هو الحلم؟!

ولما يستمع إلى الحلم يصمت قليلاً وكأنه يتأمل.. والجميع ينصتون.. وينتظرون التفسير المرجو.. ويبدأ بالتفسير من الزنزانة منتهياً بنا إلى الشارع.. فيتنهد البعض ويردد: إن شاء الله.. وهو غير مقتنع بالحلم.. ولا بالحالم.. ولا بالتفسير.. ولا بالمفسّر. وحالما ينتهي تفسير الحلم.. حتى يعود كل إلى ذاته البائسة.. فيجدها لم تزل في زنزانة ضيقة خانقة.. عاري الجسد.. يحلم بنسمة هواء باردة تملأ رئتيه.. لكنه يظل يأمل ويحلم ويتمنى.. وكمن ينظر إلى الدنيا من فتحة صغيرة لباب مغلق.

۞ ۞

هكذا كانت الأيام والليالي.. ثقيلة.. مدلهمة.. ليس فيها أمل سوى أحلام النوم الذي يتسلل بمشقة بالغة إلى أعين البعض.. فيأتينا بحفنة من الأحلام.. نسترد بها أنفاسنا! وذات ليلة قائظة.. إذ اشتدت الحرارة.. بعد أن أغلقت الفتحة الصغيرة التي في الباب.. وذلك عقوبة عاقبنا بها الجلاد على أثر نداء وجهه أحد القابعين في الزنزانات قائلاً: ـ حرس.

ولما جاء الحارس يبحث عن صاحب الصوت لينال منه.. لكن يبدو أن المنادي خانته الشجاعة فلم يستطع إتمام النداء.. وفي الوقت ذاته لم يشِ به أحد..

وأخذ الحارس يسأل غاضباً عن المنادي.. وهو يشتم ويتوعد.. وانطلق يسأل كل الزنزانات.. ولما لم يظفر بصاحب الجريمة الكبرى لجأ إلى عقوبة نكراء.. وهي أن أغلق فتحة الباب الضيقة.. ويبدو أن هذه العقوبة قد نالت الجميع.. فضاقت الأنفاس.. وبلغت القلوب الحناجر. إذ إن الفتحة الصغيرة كانت تسمح بمرور تيار خفيف تسحبه المفرغة.. ولما أغلقت الفتحة اشتدت الحرارة.. فهي حرارة شهر آب في زنزانة خانقة.. ضيقة.. مكتظة بالناس.. وقد أغلقت نافذتها الصغيرة.. فكيف يكون الحال إذن؟!

نهض أحدنا.. وتناول أواني الطعام الفارغة.. إذ كانت تبقى أواني العشاء إلى الصباح. ثم أخذنا نروح بالأواني.. ونحن نحرك أيدينا بالكاد.. وإذا بنا نفيق على أثر صوت فتى انطلق من وسط الزنزانة وهو جالساً القرفصاء.. وكان قد وضع رأسه بين ركبتيه.. فأخذته سِنة.. وهو يردد قائلاً بلهوجة.. وكأنه يحمل بشرى للجميع: ـ أبو زينة.. أبو زينة. ـ نعم.

ـ هسه شفت حلم. ـ خير إن شاء الله.. ما هو الحلم؟

ـ كأنما قالوا لنا كل واحد يجيب صورتين وفايل ويطلع.. شنو تفسيره؟ فأجابه أبو زينة على الفور: ـ تفسيره مبيّن.. يعني كلنه راح نطلع.

ولم يتم أبو زينة التفسير حتى صاح صائح ذعر البعض لصيحته.. وهو يردد:. لك هاي شنو؟ فالتفت الجميع نحو إشارة كفه..فإذا بالحالم قد تبول في مكانه من شدة الحرارة!!

رأفة القيادة القطرية

بعد أن زجّ بنا في سجن أبو غريب وحكم على البعض بالسجن المؤبد.. بعد أن رأفت بنا القيادة القطرية على حد تعبير الملازم (أدور) وسيق جمع غفير إلى الإعدام.. كان من بين المحكومين معنا مفسّر الأحلام.. فجاءه شمس الدين ذات يوم حاملاً إليه حلماً يبتغي تفسيره.. وفسره له.. ولكن بطريقة غير التي كان يتبعها معنا في

زنزانات الأمن العامة.. فلقد كان تفسيره عادة الإفراج.. أما الآن وقد حكم على الجميع بالسجن المؤبد.. فكان تفسيره هو: أكو بصيص أمل.

وفي اليوم الثاني.. أستدعي شمس الدين إلى التحقيق ثانية.. وعاد إلينا بعد فترة دامت شهرين تقريباً.. وقد مرّ بظروف قاسية.. وهو يتذكر تفسير الحلم وقال:

. الحمد لله كان بصيص أمل.. لو كان إفراج لكنت الآن معدوم!

ولم يعد إلينا خالي الوفاض.. إنما عاد إلينا وهو ينوء بأحلام لها متون وهوامش وشروح.. وكلها تؤكد قيام الجمهورية الإسلامية في العراق قريباً جداً.. والفرج قريب جداً.. ومنها أن ثمة فتىً معتقل معهم كانت تأخذه نوبة كالصرع.. وعندما يغيب عن الوعي يجيب على كل سؤال يوجه له.. والاسئلة كلها تدور حول الفرج والخلاص من السجن وقيام جمهورية إسلامية في العراق.. ومما تنبأ به أن سوف تشهد بغداد مظاهرة كبيرة جداً يقودها الشيخ محمدحسن آل ياسين.. وبها تكون نهاية النظام.. وعلق السجناء آمالاً كبيرة على هذه التنبؤات والأحلام.. خصوصاً الآباء ومن كانت له عائلة.. تبين لنا فيما بعد أن رجال السلطة كانوا يدّسون فيما بيننا من يعمل لهم.. ناهيك عمن يستخدمون من السجناء منهم ظاهر ومنهم باطن!!

ملك السيخوي الطيار رعد حكمت عبد العزيز

كذلك استرعى انتباهي شاب ربعة.. متين القوام.. ذو شعر جعد.. أبيض البشرة مشرب بحمرة.. حاد المزاج.. يغرز بصره في الفراغ غاضباً وكأنه يخاطب شخصاً ما.. ثم ينهال عليه بالشتائم.

وأحياناً ينكفئ على نفسه واضعاً رأسه بين ركبتيه ويداه تتدلى.. لا يقوى على حراكها.. ويردد بتوسل: . يا إلهي.. يا سيدي.. يامولاي.

لم أره جالساً إلا ما ندر.. عاقداً كمي ثوبه على عنقه.. تاركاً ثوبه خلف ظهره.. يستعين بعقد الكمين بمن حوله.

عرفت اسمه رعد حكمت عبد العزيز من أهالي الخالص.. ملازم أول طيار.. متزوج ولديه طفلة في الرابعة من عمرها.. كان يتذكرها دائماً.

أحيل على التقاعد بالرغم من مهارته في الطيران.. وكان قد حاز على المرتبة الأولى على بعثة من الطيارين للدراسة في الهند.

أما سبب إحالته على التقاعد فهو إعتقال أبيه الحاج حكمت عبد العزيز في مديرية الأمن العامة سنة 1979م.. إذ كان متديناً ووجيهاً ومحسناً وثرياً.. فلديه ثلاثة عشر بستاناً.. وقد كان ممن يتبرع للمشاريع الخيرية والدينية.. وهو معلم متقاعد.. شاهدته في قاعة المحكمة.. رجلاً وقوراً عليه سيماء الصالحين.. مرتدياً الزي العربي.. حاسر الرأس.

۞ ۞

حاج رعد أو الملازم رعد هكذا ينادى. اشتغل بعد إحالته على التقاعد باستخراج الحصى من النهر بواسطة (كرين).. ويحصل على ثلاثمائة دينار يومياً.. مضت أيام.. فتغير مكاننا.. والتقينا بشباب متدينين.. وقد تمرسوا على هذه الحياة.. وتغلبوا على كثير من الصعاب التي أرهقتنا. فرأيت الحاج رعد ينضح خلقاً رفيعاً.. ودوداً.. يمتنع أحياناً عن تناول حصته من حبات العنب ليناولها إلى رجل كهل بجانبه.. وهو يقول بعاطفة صادقة: . حصتي لعمي.

كنت أدلّك له ذراعيه.. وأحياناً أدلّك له جسده بالماء في التواليت.. فكان يبيح لي بعض أسراره.. ومنها ذكر لي أن (ص...) قد فاتحهم وطلب منهم المشاركة في المحاولة الانقلابية.

وقال لي ذات مرة: ـ عندما أتوا لي الأمن ليلقوا القبض عليّ.. كنت أستطيع الخلاص منهم بسيارتي (كانت لديه سيارة مرسيدس ثمنها أحد عشر ألف ديناراً) كنت أستطيع أن أقاتلهم وأهرب.. بس كنت أخاف على نسوانا!!

والسبب الذي جعله يستسلم حتى يلقوا القبض عليه.. هو السبب ذاته الذي جعل الآلاف من أبناء الشعب العراقي لقمة سائغة في فم صدام وجلاوزته..

وهذا من أبشع صنوف القهر والإستبداد على مر التاريخ.. إذ يعذب الطفل الرضيع بسبب أبيه.. أو يعتدى على شرف امرأة عفيفة بسبب زوجها[79].. لا شك أن القوانين العالمية لم تسن مثل هذه العقوبة.. إلا أن قانون (ابن العوجة) فقد سنّها.

۞ ۞

ذات يوم ظهراً.. أطل الشرطي علينا من خلف فتحة الباب ثم سألنا:

ـ عدكم رعد حكمت؟ فأجابه الملازم رعد: نعم. فتح الشرطي الباب.. خرج رعد وشيّعته نظرات مشفقة متسائلة. وحالما خرج طفق المعتقلون .كعادتهم . يدلون بتوقعاتهم التي غالباً ما تبلغ بالخارج إلى باب داره بسلام. وقال البعض:

. سمعت هورن.. ويبدو أنه أطلق سراحه.

هذه إشارة لنا.. علماً أنه كان بيننا لا يقوى على تحريك يديه.. ويعجز حتى عن عقد كمي ثوبه! واستمرت التوقعات.. واطمئن البعض إلى إطلاق سراحه بعدما طالت غيبته.

وبعد مضي أربع ساعات تقريباً.. عاد إلينا الحاج رعد..وما أن أدخلوه حتى سقط بيننا.. منهك القوى.. منفوش الشعر.. وهو يشكو من الآلام التي ألّمت به من جراء التعذيب.. فيقول شاكياً لمن حوله بمرارة:

. شبعوني چتل.. كل هذه الفترة منذ أن أخذوني حتى هذا الوقت.. كان يعذب بيّ الرائد عامر.

ولما سأله سائل: لماذا؟أجاب قائلاً بامتعاض شديد:

ـ اعترف عليّ (ص...) اعتراف جديد.. وقال لهم: إنني أعرف ملازم طيار في قاعدة الإمام علي وكان يؤكد:

. إن هذه التهمة باطلة وكاذبة.. وأنه لم يعرف أحداً بهذا الاسم[80].

---

79) حصلت مقابلة عنيفة في مدينة البصرة بين أحد المجاهدين وجلاوزة صدام، وقبل أن يخرّ صريعاً برصاصهم فقد قتل منهم عدداً ؛ إذ كان يكمن لهم على سطح الدار، ولم يظفروا به إلا وهو ميتاً، ففجروا بأخته العفيفة إزاؤه تشفياً وانتقاماً؟!

وظل يردد هذا الكلام بإصرار على مسامع مَن حوله.. وهكذا تحمّل أذىً شديداً دون أن يبوح باسم هذا الشخص.. حتى سيق للشهادة هو وأبوه رحمهما الله.. كان يسرد لنا أحياناً حكايات عن أيام دراسته في الهند.. وعن مهاراته في الطيران.. إذ كان يكلف بكتابة بعض الكلمات في الأفق بدخان الطائرة في المناسبات.. مثل 6 كانون أو غيرها.. وكانوا يسمونه ملك (السيخوي) لبراعته في الطيران. حتى لما أحيل على التقاعد.. استدعاه صدام حسين وكرّمه تثميناً لمكانته ومهارته الفائقة كما يقولون له.. وفي حقيقة الأمر.. إن إحالته على التقاعد ليس لذنب إقترفه.. ولكن لأن أباه تعرّض للإعتقال.. وقد أطلق سراح أبيه.. وهكذا هو حكم الدكتاتور صدام حسين.. هو ذات الحكم القبلي والبدوي.. تؤاخذ أسرة أو قبيلة بجريرة شخص واحد!

حسن خلف مزعل البيضاني

لاح لي رجل يبلغ من العمر أربعين عاماً.. جالساً لصق الباب.. واضعاً رأسه على الحائط.. رافعاً رجليه قليلاً ومسندهما على حافة الحائط الذي يحتوي الباب.. فيكون على شكل قوس.. قد أشاح بوجهه عن الجميع.

سمعته أحياناً يئن.. وأحياناً أخرى يعرب عن آلامه وهو يشير إلى قدميه: ـ كأنما تنهش بها چلاب. وذات مرة كان يردد متوسلاً.. ولكن بصوت غير مسموع.. وكأنما يحدث نفسه: ـ أريد طبيب.. أريد طبيب.

كانت كلماته.. كلمات يائس من إتيان الطبيب.. لكنه بحاجة له.

كان رشيق القوام.. متوسط القامة.. في اعتدال رائع.. فاحم الشعر.. سألت عنه.. فعرفت أنه نائب ضابط في وزارة الدفاع.. سائق لرئيس أركان الجيش عبد الجبار شنشل.. ورئيس للسائقين في الوزارة.. ثم تبيّن أنه من أهالي مدينة الثورة.. حي الأكراد.. منحدراً من مدينة العمارة.. وينتسب إلى قبيلة البيضان.. اسمه حسن خلف

---

80) تبيّن لي في المهجر أنه كان يعرف هذا الضابط.. واسمه (وضاح)الملازم الطيّار في قاعدة الإمام علي في الناصرية.. وكان لهم لقاءات مع السيد علي الحسيني.

مزعل.. ويسمّى عادة الحاج حسن.. زوج لامرأتين.. وله عشرة أولاد بين ذكور وإناث.. كبيرهم اسمه علي.. عمره تسعة عشرة عاماً.

قصدته وسلمت عليه.. وعرّفته بنفسي.. فرحب بي كثيراً.. وسرعان ما امتدت الجسور فيما بيننا.. وصرت أبعث الاطمئنان في نفسه.. وأشيع الأمل في وجدانه.. وأحدثه عن الفرج فأقول له: ـ سيفرج عنك قريباً إن شاء الله. وأذكر له حالة إعتقال سابقة انتهت بالإفراج.. ولم تكن سوى كلمات أبتغي منها تهدئة روعه.. وتطييب خاطره. ولشد ما كان مغرماً بالإفراج.. كغيره مَن حوله.. ولكن يزداد الشوق للحرية عند البعض.. وعلى نحو أكبر خاصة عند الآباء.. فصار بين الحين والآخر يناديني بصوت يسمعه الجميع.. إذ كانت الفاصلة فيما بيننا بعيدة جداً.. فبالرغم من جلوسه قرب الباب عادة.. ومكاني الذي أجلس به متكئاً على جدار المرحاض.. بيد أن الضجيج والحشد الهائل من الناس الذي بيننا يجعل المسافة شاسعة فيما بيننا بالنسبة لمقاييس عالم الزنزانة. ونداؤه عبارة عن تساؤل.. يمزجه بين الجد والهزل.. عندما تسحقة الضغوطات.. فيلجأ إلى هذه الدعابة: ـ متى الفرج؟! فأجيبه: ـ قريب إن شاء الله.. وأنت من الناجين.

فيطرق برأسه ويتنهد.. وكأنه يتمنى شيئاً بعيداً صعب المنال.. أو أنه يئس من نيله.. ثم يعود إلى انكفائه.. ويستمر في أنينه.. ويمني نفسه بالطبيب.

مضت ثلاثة أيام وهو على هذه الحال.. وإذا بالشرطي يطل علينا من خلال فتحة الباب.. وكأنه يبحث عن صيد.. فانخلعت القلوب لرؤيته.. فالجميع يدرك أن هذه الإطلالة لا يعقبها إلا التعذيب لمن ينادى باسمه.. عادة ما يكون جديد..أو إستتمام تحقيق.. وإذا به ينادي: ـ حسن خلف.

نهض الحاج حسن فوراً.. فتح الباب.. خرج.. وأوصد الباب دونه.

وانطلقت الألسن تحدد مصيره رجماً بالغيب.. وتكهنات لا تعتمد على شيئ.. وتوقعات ليس فيها إلا الخلاص والنجاة.. حتى صارت أكثر كلمة ترددها

الألسن.. كردّ فعل على كل تصرف يبدر من شرطي أو ضابط سهواً أو عمداً.. كبيراً أو صغيراً.. قائلين: ـ أكو شي.

ويعنون بذلك.. أن ثمة أمر لاحت بوادره.. فيه أمل لنجاتنا وخلاصنا.

وكان هذا التوقع يبلغ حد الإفراط.. فيدعو البعض لترديد هذه الكلمة مستهزئاً: أكو شي.. وذلك عندما يسقط إناء على رأس أحد الجالسين.. أو ينكفأ قدح ماء.. أو يسمع منكراً من دورة المياه.

وتوهجت كلمة أكو شي إلى أقصاها.. عندما أدخلت إلينا جريدة الثورة وفي صفحتها الأولى.. أعيد نشر القرار الذي يحكم بالإعدام على كل من ينتمي إلى حزب الدعوة.. أو يتعاطف معه.. أو يتستر على أحد عناصره.. وفقاً للمادة 156.. والغريب في أمر القابع في الزنزانة أن يفسّر كل شيئ بما يكون سبباً لخلاصه.

فالقرار صريح وواضح لا يحتاج إلى تأويل.. وكل من زجّ به في الزنزانة بعد إجراء التحقيق معه.. قد أمضى على إفادة تنصّ على أنه منتمي إلى حزب الدعوة أو متعاطف... إلخ. وكانت كلمة أكو شي تتردد بلا حدود.. مما حدا بالحاج رعد حكمت أن يصيح غاضباً: كافي.. أكو شي.. أكو شي.. شكو.. كلشي ماكو.. بس إنتم مثل الغرگان ومتعلگ بگشاية.

قال أحدهم: ـ احتمال أدّخل في قضيته رئيس أركان الجيش.. لأن هو يعرفه. وقال آخر: ـ هو كلشي ما عنده.. وراح يطلعونه.

وقال أحد معارفه في وزارة الدفاع.. بنبرة فيها حسد: ـ عنده علاقات واسعة مع كبار الضباط والمسؤولين.. وهكذا بات حديث الساعة.

وفي اليوم الثاني.. عاد الحاج حسن بعد أن فتح الشرطي الباب.. ودفع بظهره بقوة شاتماً.. وأغلق الباب على عجل.

سرعان ما خلع ثوبه.. وجلس على هيئة الأقعاء لضيق المكان.. وقد تجلّت على وجهه إمارات الفزع والرعب. فاشرأبت الأعناق نحوه متطلعة مستفهمة.. وكان أشد الجميع حرصاً هم مَن يشتركون معه بأمر بالغ الأهمية.. وهو أن سبب إعتقالهم

جميعاً هو (ص...) فيخشون أن يذكر عنهم أمراً جديداً يستدعي إعادة التحقيق معهم.

تجلّى صمت مفعم بالقلق والتوتر للحظات.. وقبل أن يسأله سائل بادر هو بالكلام قائلاً باستياء بالغ.. وحرك يده متبرماً.. وكأنه يزيح شيئاً ما عن وجهه: ـ موتوني! ثم راح يتحدث وهو مفعم بالألم.. وكأنه يشكو لمن حوله: ـ ما بقه مكان بجسمي إلا وضربوه. وأشار إلى عجانه[81]: ـ حتى هنا ضربوني.. صار بولي دم!

ثم أشار إلى ناجذه الأيمن المقلوع: ـ حتى سنّي كسروه. كذلك أشار إلى قفاه: ـ هنا كووني بالمكوى.. والآن أشعر مثل حديدة حامية لاصقة في ظهري. شاهدت قطعة سوداء بحجم عقدتي إصبعين مضمومين تحت كتفه الأيسر.. ولعلّ هذا الموضع هو قبالة القلب. ثم أشار إلى راحتي قدميه وقد تقلص وجهه.. وقال وهو يلصق كفه براحة قدمه: ـ وهنا كووني. كانت قدماه قبل عودته إلى التحقيق ثانية قد تورمت من أثر الفلقة.. وملئت بالصديد ثم تقيحت.. وتيبّست.. وتقشرت.. ثم بعد ذلك ألصق على راحتي قدميه المكوى الحامي!! ثم أشار إلى ساقه.. ومسك بعظم الساق.. مبتدئاً بأسفل الركبة.. ومنتهياً إلى وسط الساق.. وذلك بإبهامه وسبابته.. وقال: ـ هكذا مسك الطبيب برجلي؛ وإذا برجلي ترتجف رجفة شديدة. ويصف حركتها بيده.. وهو يهز يده هزاً سريعاً متلاحقاً..

ثم أردف قائلاً باستياء شديد: ـ ما أدري يمكن صار بيها شلل. ثم قال: ـ ولما انتهى التحقيق.. نهض أحد ضباط لجنة التحقيق من كرسيه غاضباً فضربني بعصا ثقيلة وهو يصرخ كالمجنون.. لك اعترف.

ثم يتمم كلامه شاكياً، وهو يرفع يده إلى الأعلى: . رأيت العصا ضربت بسقف الغرفة.. وأخيراً قلت للرائد عامر: بعد ما إتحمل.. خلي طلقة براسي واكتلني.. فقال لي: لاحگ على الطلقة.. لاحگ عليها! ثم أشار إلى ظاهر كفه.. وبان عليه أثر

81) العجان: هي المنطقة ما بين الخاتم، والأعضاء التناسلية للرجل.

حرق مثل لسعة السيكارة وقال:. هنا كواني الشرطي بعد الانتهاء من التحقيق.. وضع كفي على الحائط.. وضغط عليه بالعصا الكهربائية.

وظل يردد: ـ ما بقه مكان بجسمي إلا وضربوني عليه!

وما أن أنهى حديثه.. حتى تسابقت الأفواه متسائلة.. سأله جاسم محمد عبدالكريم وهو يحثه على المزيد من الكلام.. ليطمئن.. خشية أن يعيدوه إلى التحقيق ثانية.. كما فعلوا بصاحبه..فقال بلهوجة:. وبعد.. وبعد شنو عليمن أخذوك؟

فأجابه بأسف: ـ (ص...) اعترف عليّ اعترافاً جديداً.. مؤكداً لهم أنني أعرف ضباطاً في وزارة الدفاع.. وأنني تعهدت باغتيال الفريق عدنان. فسأله من كان بجانبه: ـ يعني وزير الدفاع؟ فأجابه: ـ لا.. الفريق عدنان شخص ثاني غير وزير الدفاع.. وهو مسؤول كبير في وزارة الدفاع.

وكان بين الحين والآخر يعتصره الألم.. وهو يفرك بكفيه.. وكأنه في حالة إختناق ويردد: ـ يا جماعة.. يا جماعة.. ما صايره.. ما صايره.. إمشبگ وياكلون بيك أكل.. أكل.. أكل.. بعرفه.. بعرفه. وظل يردد مثل هذه الكلمات أياماً.. وكان يضيف أحياناً: ـ لا هيه عركه.. وهم أكو حل للإنسان يسويله چاره.

تبيّن لي فيما بعد أنه رجل شجاع.. إقتحامي.. قد عركته مصاعب الحياة.. إذ أنه يتيم الأب منذ صغره.. وقد صنع منه جلد الحياة رجلاً مقداماً غير هيّاب.. وكان يتذكر أمّه فيترحم عليها ويثني عليها فيقول:. كانت مثل الزلمة الزين.

كان مرحاً فكهاً.. وبالرغم مما ألمَّ به من تعذيب وآلام ومعاناة.. لكنه ظل يتلقف الطريفة.. وينثر حولنا الطرائف.. ويتذكر حكايات مضحكة.. فيضحكنا.. وهو غارق في الضحك.. فنضحك معه.. وأحياناً يكرر الحكاية عدة مرات.. ويعيدها بذات الحرارة.

۞ ۞

ومن بين هذه الحكايات المتكررة: ـ ذات يوم جاء رجل قروي إلى المدينة اسمه خلف.. ولما حان وقت الغداء وأراد أن يتغدى قصد فرن الصمون فاشترى

صمونة.. ثم قصد فرن الخبز فاشترى رغيف خبز.. ودسّ الصمونة في الرغيف ولفّها.. فصنع منها سندويچة وتغدى هنيئاً مريئاً.

۞ ۞

وحكاية أخرى أعادها علينا مرّات وطالما أضحكته من أعماقه.. وأضحكتنا معه: ـ لما جاء وفد الاتحاد السوفياتي العسكري إلى العراق.. وأعدّ لهم وزير الدفاع حفلة كبيرة.. فيها رقص وخمور.. وفي أثناء الحفلة شاهدت أحد الضباط السوفيتيين قد لعبت الخمرة برأسه.. فأطرق ولم يلتفت إلى شيئ.. وقد أخذته غفوة.. وكان أمامه إناء فيه لبلبي[82].. فقلت لصاحبي الذي كان بجانبه.. ناولني الإناء.. فأكلت ما فيه.. ثم أرجعت الإناء أمامه دون أن يشعر.

۞ ۞

وأحياناً يحدثنا عن وجاهته في وزارة الدفاع.. وتقدير كبار الضباط له..وسعيه في قضاء حوائج الآخرين.. وتشفّع البعض به لدى المسؤولين.. ويذكر شواهد على ذلك مقارناً بين أمسه ويومه فتنتشر الكآبة في وجهه.. وكأن الندم يقرض قلبه على أمرٍ لم يصرّح به فيصمت.. ثم يدندن بشعر عامي يحكي قصة رجل قام بعمل ما ثم قتل.. وصنع قاتله من جلده طبلاً.. فكان كلما يضرب أحد على الطبل ينبعث صوتاً شجياً فيردد: ـ إشمدريني.. إشمدريني.. يجي علگم ياذيني.. وكنت أعرف هذه الحكاية الشعبية.. كانت تتردد في أواسط جنوب العراق وفيها عبرة وموعظة.. وكلما يدندن بها أشعر أن ثمة أمرٍ قد طواه بين حناياه لم يطفح به المكوى..ولا الكهرباء.. ولا السياط.. ولا... وكان يردد هذه الأهزوجة مدندناً بدلاً من ياذيني.. يكتلني فيدندن:ـ إشمدريني.. إشمدريني.. يجي علگم ويكتلني.

82) اللبلبي: يعني الحمص المسلوق.

غالباً ما يتذكر أولاده وزوجتيه.. والحياة الهانئة التي كانت تغمره وسط عياله.. وعمله بتجارة السيارات مضافاً إلى عمله في الجيش.. وحتى ولده علي استطاع جلبه إلى وزارة الدفاع بدلاً من جبهات القتال..فكان مطمئناً على حاله وحال عياله.

أما الآن فمَن يرعاهم.. ولا يخفى على أحد أن العقوبة في حكم صدام حسين تبدأ بالإعدام ثم تنال عائلة المعدوم فرداً فرداً.. بطرد الموظف من وظيفته.. وبمحاصرة الطفل فى المدرسة والشارع.. وملاحقة المرأة باستفزازات شتى!!

وكان يتذكر كلمة ولده الصغير فزعاً.

يقول: ذات يوم لما عدت إلى البيت من الدوام.. خلعت ثيابي العسكرية.. ووضعت المسدس جانباً.. فأخذه ابني وقال لي: ـ بابا.. هذا شنو؟ فقلت له: مسدس.فقال لي: بابا.. بهذا المسدس يقتلونك الحكومة؟! فاسكتته امه صارخة بفزع.

وكلما يذكر هذه الحكاية.. يأخذه الفزع.. وتنطق قسماته بالدهشة.. فيختمها بكلمة وكأنه يطارد شيئاً دقيقاً بنظراته الحادة.. ويشد الحروف من أسفل حلقه فيقول: إي والله! وكلما تضيق به السبل.. وتعتصره الآلام.. يلجأ إلى متنفسه الوحيد.. ويناديني وهو ينفث حسرة حرّا.. وكأنها لهيب ينبعث من أحشائه: ـ متى الفرج؟ فأجيبه: ـ قريب إن شاء الله.. وأنت من الناجين.

فيطرق برأسه.. ويتنهد قائلاً: ـ ما أظن.

وكان يعدني إن هو أطلق سراحه.. وأنا بقيت.. فسوف يذهب إلى أهلي ليخبرهم عني. ثم يطلب مني.. وقد أكد هذا عليّ مراراً قائلاً:ـ وإذا أنت طلعت وأنا بقيت.. أريد منك أن تذهب إلى أهلي وتخبرهم عني.. فأتعهد له صادقاً.

كان هذا حال جميع المعتقلين.. فبالرغم من كل الظروف القاسية التي تطحنهم.. فهم لا ينسون أهاليهم.. ويتمنون إبلاغهم أي خبر عنهم.. ليطمئنوا على وجودهم.. ولكن أنّى لهم ذلك.. لا سيما أن البعض تم اختطافهم من مكانات بعيدة عن ديارهم.. فإما من محل عمله.. أو من الشارع.. وأما الذين تمّ إعتقالهم من بيوتهم فهم الأقل عدداً.

ثم يردف:ـ وإذا إنسجنه سوية.. فلدي 160 ديناراً.. أخذوها مني في الباب وأودعوها في الأمانات.. فسوف نصرفها أنا وأنت سوية. ثم يختم هذه المحاورة بمزحة تنّم عن ألم وأسف ومشاعر شتى.. وهو يضحك: ـ وإذا إنعدمت وإنت طلعت.. إخذلك وحده من نسواني. فأدعو له بالنجاة.. فيزداد تمسكاً بي.

الجلاد فاضل البراك والحاج حسن خلف

تعاقبت أيام وليال مرة كالعلقم ونحن على هذه الحال.. ذات يوم في هجير الظهيرة.. وإذا بالشرطي يطل علينا من خلال فتحة الباب وقال:

. عدكم حسن خلف؟ فنهض حسن خلف فوراً.. وهذه أول مرة تبدو عليه إمارات الرعب والفزع الشديد.. فقد اصفرّ لونه.. وتقلص وجهه.. وغارت عيناه.. واضطرب إضطراباً شديداً.

خرج ثم عاد إلينا ليلاً بعد فترة العشاء بقليل.. وما أن دخل علينا وخلع ثوبه وجلس جلسته المعتادة كمن يتهيأ للصلاة.. حتى انتحب باكياً.. وهذه أول مرة رأيته فيها وهو يبكي.. وهو يشيح بوجهه عنّا.. ويغطيه بكفّه.. ويردد: . مع الأسف.. مع كل الأسف!

ثم يصمت متأملاً وكأنه يحدق بمشهد مثير.. ثم يقول بأسف شديد:

ـ انتهت وياكم يا علي يا بويه.. انتهت.. انتهت بساع.. بساع مع الأسف.. مع الأسف. ثم ينخرط في بكاء حار.. ويعود ليتماسك قليلاً ويسكت.. ويغالب نفسه ويقول: . هم إذا أبچي يگولون عنّي جبان.

ويصمت قليلاً ثم ينفجر باكياً من جديد.. وهو يردد قائلاً بأسف:

ـ انتهت وياكم يا علي يا بويه.. بعد ما أشوفكم. ولما هدأ روعه.. رفع رأسه وقال وكأنه يخص جماعته.. فأنصتوا له وجلين: ـ لما أخذوني أدخلوني التواليت.. وأمروني أن أغتسل.. وبعد أن خرجت مغتسلاً.. ناولوني ثوباً جديداً. وبعد ساعة

أدخلوني إلى غرفة.. وجدت رجلاً عسكرياً جالساً على كرسي.. فأجلسوني قبالته وسألني: ـ تعرفني؟ ـ لا سيدي ما أعرفك. ـ آني فاضل البراك.. مدير الأمن العام.. وراح أطلعك.. بشرفي.. بمقدساتي اطلعك.. بس تعطينا اسماء الضباط الذين اشتركوا معكم.. وإنت تعرفهم. ثم قال لي:ـ إنت صاحب جهال.. وإحنا ما عدنه حاجة بيك.. وآني مدير الأمن العام.. وأگلك بشرفي أطلعك.. بس تعطينا أسماء الضباط.. وظل الحاج حسن مصراً على الإنكار.. ولا يحتاج إلى مَن يذكّره بأن هؤلاء الجلادين ليس لهم شرف فيقسموا به.. ولا مقدسات يحترمونها!

وقد أقسم قبله وزير الداخلية سعدون شاكر بشرفه ومقدساته لـ (ص...) وأوعده بنجمة وسيارة إن هو أفادهم.

وأفادهم كثيراً.. و حسن خلف ممن أفادهم به! لكن (ص...) لم يحصل على شيئ! وظل حسن خلف مصراً على الإنكار.. وبعد أن يئس منه قال له: ـ أعطيك فرصة.. فكّر ولا تستعجل. وراح يقلب صفحات الجريدة التي بين يديه. قال: ـ وكنت أؤكد له اني برئ.. برئ.. و (ص...) ظلمني وظلم أطفالي وخطيتهم برگبته. فختم حديثه غاضباً وقال لي: ـ إيطبك طوب روح موت[83].

۞ ۞

ولما انتهى من سرد هذه المحاورة.. انخرط في بكاء حار.. ثم صمت.. وبعدها لم يعد للبكاء ثانية.. حتى الفراق الأخير.

ومن اليوم الثاني أخذ يتكلم بكثرة.. ويحكي حكايات من هنا وهناك.. وجلّها عن حياته الشخصية.. وربما ليبعد مشهد المصير الذي ينتظره! أحاديث كانت مزيجاً من مغامرات.. وطرائف.. واقتحامية.. ومفارقات حصلت معه.. ومع غيره. ويبدو أن كل مغامراته أفلحت إلا هذه المغامرة أخفقت! استمررنا سوية مدة شهر.. ثم

83) لا خفاء أن المجرم فاضل البراك أعدم بأمر سيده.. بعد هذه الحادثة بعشر سنوات تقريباً.. وهكذا هم.. كأنما أرواح الناس بأيديهم.. فهم الذين يحيونهم.. وهم الذين يميتونهم.. متى شاؤوا.. وكيفما شاؤوا.

ساقونا سوية مع جمع غفير.. أما هو فإلى حبل المشنقة! وأما أنا فإلى سجن أبو غريب.. محكوماً بالسجن المؤبد.

۞ ۞

مضت سنوات طويلة.. وبعد أن أطلق سراحي.. جبت بلداناً.. وتسلقت جبالاً.. وألقيت بنفسي في أحضان البحر المتوسط.. امتطيت الطائرات.. واستقللت الزوارق.. وصك مسامعي عواء القطارات في منتصف الليل وهي تقطع الفيافي.. والأنفاق بين الجبال.. وعبرت قارات.. ومحيطات.. ومرت بي آلام ومعاناة في المهجر.. محقت آلام ومعاناة السجن. لكن الشيئ الذي التصق بذاكرتي.. وعجزت الأيام عن محوه.. هو ما بدا لي من آثار تعذيب في جسد الحاج حسن خلف وما تعرض له.. وما أن سقط نظري على ثائر.. حركي.. يبتغي تغيير المجتمعات والدول.. إلا وبرز أمامي سؤال: ترى هل يصمد كما صمد الحاج حسن خلف البيضاني(رحمه الله).. ولو تعرض لتعذيب كما تعرض له.. فماذا ستكون النتائج.. كذلك عندما يبرز أمامي هذا الرجل بصموده.. أقول: هل من الممكن أن يتحمل إنسان هكذا تعذيب؟

وصورة أخرى هي مشاهد تعذيب الشهيد المرحوم إسماعيل يوسف.. وقد عايشتها من أول لحظة.. حتى فقد عقله!! وبات يتكلم بلا وعي من جراء التعذيب.. لكنه بعد بضعة أيام ثاب إلى رشده.

سيد فاضل هاشم أحمد

ثمة شاب كان إزائي.. اسمه فاضل هاشم أحمد من مدينة كربلاء.. موظف صحي.. ولدى أبيه محل لبيع الأحذية.. يقع بين مرقد الإمام الحسين ومرقد العباس- عليهما السلام-

كان بديناً.. مفرطاً في السمنة.. وما أن مضت عليه أيام الزنزانة ولياليها القاسية.. حتى هزل وذهب نصف وزنه.. تعوقت يداه من جراء التعذيب.. فلا يقوى على تحريكها إلا حركة بسيطة جداً وبشق الأنفس.. لذا كنت أدس طعامه في فمه بيدي.. وأدلك له جسده بالماء.. ثم أغسل فانيلته.. وبعد عصرها ألبسه إياها.. لتطفئ حرارة جسمه الممتلئ! بان السواد على أطراف أصابع قدميه.. وقد إحتقن إبهامه الأيمن احتقاناً شديداً. وغالباً ما يردد معرباً عن الأذى الذي أصابه من أثر التعذيب.. ويقسم بالله العظيم.. وكمن أصابه الإختناق: ـ كنت مستعداً أن أعطي عن كل ضربة بالكيبل عشرة دنانير.. أليست هي مائة ضربة.. فعن كل ضربة عشرة دنانير يعني ألف دينار. ويتذكر الآلام الأخرى من التعذيب..

ومع كل هذه الآلام.. كان لا ينسى أُمه.. ولا ينسى مداراتها إياه.. ويتحدث عنها كثيراً.. وعن طبخها لأكلته المفضلة مطبگ السمك.. فلقد كان هو وحيدها من بين مجموعة أخوات.. وفي الوقت ذاته يتذكر أباه المقعد متألماً.. وهو الذي كان يوصله كل صباح إلى المحل.. بواسطة الكرسي المتحرك.. وبعد أيام شاهدته في قاعة محكمة الثورة.. قد سيق إلى الإعدام.. وهو يتوسط صفاً طويلاً.

وأمسى حديثه الذي حدثني به عن مجموعة من أصدقائه من مدينة كربلاء.. وقد تم تنفيذ حكم الإعدام بهم.. ثم سلمت جثثهم إلى أهاليهم.. عبرة أعتبر به.. فأقول لنفسي.. وسيأتي اليوم الذي أكون أحدهم.. فيتحدث آخر عني.. وهكذا هي الحياة الدنيا!

۞ ۞

جمع غفير جلّهم من الفتيان والشباب.. ليست بينهم رابطة.. ولا هدف.. ولا تاريخ.. ولا ذكرى مشتركة.. بيد أن بعضاً منهم يشتركون في عمل واحد.. أو يقطنون مدينة واحدة.. ثمة شيئ أطّرهم.. وربط فيما بينهم.. هو زنزانة ظالمة.. كل واحد منهم يؤثر أن يتحدث عن نفسه.. وعما صادفه من مفارقات ومفاجئات في

حياته.. أو عن أكلته المفضلة.. أو عن مهنته.. أو عن هواياته وطموحاته ورغباته.. فيحدث ضجيجاً يطغى على كل صوت في خارج الزنزانة.

۞ ۞

شاب يدرج في العشرينات من عمره.. أسمر البشرة.. جعد الشعر.. من أهالي البصرة.. الغلظة بادية على قسماته.. كما هي بيّنه في طباعه.. لم أتذكر اسمه.. ولكن على الأرجح اسمه علي.. فلم يجمعني معه حديث سوى حديث واحد.. وكان هو الأول والأخير.. وذلك في الليلة الأُولى عندما ألقي بي في الزنزانة.. وكنت مقطّع الأنفاس من هول الصدمة التي داهمتني.. وكان البعض يسألني فأجيبه.. كما يحصل لأيّ غريب يحلّ في مجتمع جديد أو أرض جديدة.. وكان جوابي على سؤال نطق به أحدهم: ـ شنو.. شمسوي.. عليمن جابوك؟

فأجبته.. كما يجيب أي معتقل لا يطمئن لمن حوله.. فيتحرز.. لذا قلت له:

ـ ليس لدي شيئ. فانتفض هذا الشاب صارخاً بوجهي: ـ ما عندي شيئ وأعترف.. وحق الإمام علي.. ما أعترف لو يگطعوني وصلة وصلة. كان من بين المجموعة التي لم تتعرض للتعذيب.. وكل ما عرفته عنه هو أنه سائق سيارة من سيارات الجيش.. وقد إصطحب صديقاً له داخل الأراضي الإيرانية أثناء الحرب.. في السيارة التي يقودها.. وكان صديقه معنا في الزنزانة ذاتها.

۞ ۞

كان يردد بين الحين والآخر.. قائلاً وهو يتنهد: ـ كنت مأذي زوجتي.. دائماً أضربها.. وحارمها من كل شيئ.. والله إذا طلعت إلا أدللها. وبعد أيام أطلق سراحه.. ولست أدري كيف عامل زوجته.. هل دللها.. أم عاد إلى عادته ونسي عهده.. كما ينسى الكثيرون عهودهم التي يعاهدون بها عند النوائب والأزمات.

۞ ۞

فتى من أهالي طويريج اسمه علي حبيب رباط.. يعمل مع أبيه في تصليح السيارات.. طالما سمعته يذكرمفارقة حصلت لهم مع عامل ابتدأ يعمل معهم.. ولما كان هذا العامل حديث عهد في المهنة.. ولم يزل يتعلمها.. فإنه لم يعرف مصطلحات المهنة.. لذا بدرت منه هذه المفارقة.. وكان يرويها وهو غارق في الضحك: ـ قلنا له جيبنه إسبانه خمسين.. ويعني إسبانة رقم خمسين.. فتأخر علينا.. وانتظرناه.. ولما عاد إلينا من داخل المحل.. كان حاملاً بين يديه خمسين إسبانه.

۞ ۞

لكن ثمة شيئ كان يتذكره مندهشاً.. وهو لما كان يحضر الاجتماع الحزبي مع البعثيين.. كان يسمع كلمة تتردد كثيراً على ألسنتهم.. أو عندما يقرأون في كتاب.. والكلمة هي: التيار القومي.. وظل مدة دامت شهور يظن أن التيار القومي هو تيار الكهرباء.. ويؤكد قائلاً باستغراب.. تبيّن له أن التيار القومي ليس تيار الكهرباء! ومع أنه أدرك فيما بعد أن لكل كلمة معنى يختلف عن غيره.. فإنه ظل يجهل معنى التيار القومي.فوجه له كاظم الدليمي سؤالاً.. علي حكم العراق جمهوري لو ملكي؟ فنظر إليه علي بحيرة وقال: ما أعرف.

فأشار كاظم بكفه مستاءاً وقال: هسه هذا عليمن جايبينه هم سجين سياسي؟!

۞ ۞

شاب أبيض البشرة.. طويل القامة.. يبدو في عضلات جسده شيئ من الترهل.. اسمه علي من مدينة البصرة.. لديه محل حلويات.. ومعه أخوه الذي يكبره.

كانا يتيميّ الأب منذ الصغر.. وكافحا.. وعانا من مصاعب الحياة حتى تيسرت أمورهم المعيشية.. حديثه دائماً عن عائلته.. وعن أولاده.. وأولاد أخيه.. ومداراته لهم.. حيث إنه يجلب لهم الفاكهة أول(متنزل بالسوگ).. وهو فخور بذلك.

لهما ميزة عن بقية القابعين في الزنزانة.. وهي أنهم من أهل السنّة.. يشاركهم في هذه الميزة فتى آخر من أهالي البصرة إسمه سلام.. كان مثالاً للأخلاق..

وقد ربطتني به وشائج صداقة فيما بعد.. وفارقته بعد عناق.. وعلى أمل اللقاء به.. لكن انقطعت أخباره عني.. حتى بلغني عنه خبر أخير.. وهو أنه حكم عليه بالإعدام.. وكان هذا الخبر أدهشني كثيراً.. إذ أنه كان من أهل السنّة.. فلم تقسو السلطة عليهم كما تقسو على إخوانهم من الشيعة.

ثم إنه لم يكن متديناً.. لكنه صار يؤدي فرائض الصلاة في الزنزانة بدعوة من الشهيد المرحوم كريم لازم.. فإذا لم يكن شيعياً.. ولم يكن متديناً.. فكيف حكم عليه بالإعدام؟ وما هي التهمة التي وجهت له؟!

۞ ۞

كان علي مولعاً بالأحلام.. وهي متنفسه الوحيد إلى خارج الزنزانة.. فلم يكن مؤدياً لفرائض الصلاة.. وليس ممن يناجي ربه.. فلم يكن محسناً لقراءة الدعاء.. وليس لديه سوى مناجاة واحدة كان يرددها باستمرار.. وهو كمن أصابه مس:

. إلهي فرّج على كل مسلم برئ. وكلما ردد هذه المناجاة.. بادر إليه كريم لازم قائلاً: . عن كل مسلم.. وليس على كل مسلم.

۞ ۞

كان يتلقف أخبار الأحلام.. ثم يستمر في نشرها ما استطاع.. ثمة حلم كبير جعله يتكلم به كلما قام.. وكلما جلس.. وكلما واجهه وجه لم يحدثه بهذا الحلم.. وظل يحكي به أياماً دون انقطاع.. ولما رأيته فيما بعد عودته من التحقيق.. حالما أدخل إلى الزنزانة صار يتحدث به قائلاً: ـ أكو واحد شاف الإمام علي بالحلم وقال له: راح يصير عفو.. قريب!

۞ ۞

كان الجميع يتوقون إلى طعم الحلوى والسكريات.. إذ أنهم لم يذوقوا طعماً سكرياً طيلة وجودهم في التحقيق والموقف.. سوى قليلاً من الشاي لا يبلغ ثلث إستكانة.. يوزع ظهراً كل يوم في الموقف فقط.. وقد حصل المعتقلون على هذه المكرمة بعد زيارة فاضل البراك للموقف.. على أثر الاختناق الذي حصل في شهر حزيران..

ولما طالبه البعض بالشاي استجاب لهم.. ودامت هذه المكرمة لمدة ثلاثة أشهر تقريباً.. ثم انقطعت وإلى الأبد!! فكان البعض يطلب من علي أن يصف لهم صناعة الحلوى.. فلم يجد حديثاً أطيب له من الحديث عن مهنته.. فينطلق مع أنواع الحلوى.. وقد أعدّ لمن حوله أطباقاً شهية من حلاوة الجزر والبرمة.. والبقلاوة.. والزلابية... إلخ. وقد تحلب ريق مّن يصغي إليه!!

۞ ۞

شاب آخر من أهالي طويريج اسمه محسن عبد الكاظم.. طويل.. أسمر البشرة.. جندي مكلف في معسكر الحبانية.. كان قد أعتقل عام 1979م على أثر اشتراكه في المظاهرة الإحتجاجية على إعتقال المرجع الديني السيد الشهيد محمد باقر الصدر رحمه الله.. وأطلق سراحه.. ثم أعتقل ثانية بسبب انتمائه لحزب الدعوة.

كنا نتجاذب أطراف الحديث أحياناً.. ومما حدثني به صناعته لحلوى يحبها كثيراً ويتذكرها بشهية.. وهي أن يترك الحليب الممزوج بالسكر في إناء وعلى نار هادئة.. حتى يفقد الكثير من ماءه.. ليصبح كتلة صلبة.. فعند ذلك تكون حلاوة مدهشة! وعندما كتبت هذه السطور.. وتذكرت حلاوة محسن رحمه الله.. قررت أن أصنعها لأطعم بها مؤمنين.. ولنقرأ على روحه سورة الفاتحة.. ولكن حتى احترق القدر.. وفسد الحليب.. ولم أذق الحلوى المرجوّة.. فقرأت على روحه سورة الفاتحة دون أن أتذوقها.

كان آخر حديث دار بيننا عندما قال لي: ـ لولا الحرب القائمة الآن.. لأقدمت السلطة على إعدامنا جميعاً.. ولكنها لا تجازف بإعدامنا.. وما هي إلا أيام قليلة.. إذ ساقوا العشرات إلى الموت الزؤام من غير محكمة.. وقيل أنهم دفنوا جميعاً في مقابر جماعية.. ثم ساقوا العشرات إلى محكمة الثورة.. وتمّ تنفيذ حكم الإعدام بهم.. وكان محسن من بينهم.. شاهدته في قاعة المحكمة.. وهي المرة الأخيرة التي رأيته فيها.. ومع طول قامته.. وشدة سمرته.. كانت دشداشته التي يرتديها مقطعة عند الركبتين من جهة الأمام.. وذلك لأنه كان يقتطع منها قطعاً لكتم الدماء السائلة من الجروح..

والقروح المنبعثة من جسده وأجساد مَن حوله.. وفي اليوم الثاني سيق مع جمع غفير إلى حبل المنشقة.

۞ ۞

كنت جالساً القرفصاء.. وقد شعرت بالاختناق.. لم أر أحداً أغمض عينه سوى غانم.. لأنه كان مريضاً.. ولما أفاق لم يستطع العودة إلى النوم لضيق المكان بالرغم من أن الحمى قد صهرته. مضت ساعات ثقيلة.. ولا أدري ماذا أصنع؟ كنت أشعر أن القيد كان يقيّد يدي.. أما الآن فقد قيدت أنفاسي.. الضوء الخافت ينسكب من المصباح الدائري.. همهمة من هنا وهناك.. وهمس.. ولغط.. وتجتمع هذه الاصوات الهادئة لتؤلف ضجة عالية.. تضيق بها الزنزانة.

۞ ۞

ضرب الجدار ثلاث ضربات متتالية تشبه ضرب المطرقة.. قال أحدهم:

. حان وقت أذان الفجر.. ثم تناهى إلى مسامعي أذان خافت يسري إلينا من الخارج. سألت عن مغزى الضرب على الجدار.. ومن أين أتى؟

قالوا لي: ـ هذه إشارة تأتينا من الزنزانة التي بجوارنا.. تشير إلى أن وقت الصلاة قد حان.. ونحن بدورنا نضرب على الجدار لننبئ مَن في الزنزانة الأخرى.. وهكذا حتى يعلم جميع مَن في الموقف. . ولكن من أين لكم علم بوقت الصلاة. قالوا لي: . توجد في إحدى الزنزانات ساعة لأحد المعتقلين لم يجردوه منها. . لكن الأذان من أين يأتي؟!

ـ الأذان يأتي من إحدى الزنزانات.. وكل الذي فيها هم محكومون بالإعدام.

. والأذان.. هل يسمحوا به؟!. كلا هو ممنوع.. ويعاقبون عليه.. لكن هؤلاء لا يخشون شيئاً.. فهم محكومون بالإعدام.

۞ ۞

عجيب أمر الأخبار والتصورات والتحليلات.. كيف تسري في عالم السجن.. تلتقط الآذان والعيون صوراً.. وكلمات من هنا وهناك.. فتجتمع لتؤلف حكاية.. أو خبراً أو تصوّراً.. فكل مَن حولي جئ بهم مباشرة من الخارج أو من التحقيق إلى هذه الزنزانة.. فكيف استطاعوا تفسير هذه الظواهر التي تحيط بهم!

وتبيّن لي فيما بعد أن الأذان لم يأت من زنزانة واحدة.. وأن هؤلاء الذين يبعثون إلينا نبأ وقت الصلاة ما زالوا كغيرهم ينتظرون المحكمة.. والذي يحكم عليه بالإعدام أو بالسجن لا يعود إلى موقف مديرية الأمن العامة. لكن أمر الساعة كان صحيحاً.. كما أن البعض لم يجرد من ثيابه أو من ماله.

۞ ۞

انتظرت أن ينهض أحد لأداء الصلاة.. فلم أر أحداً.. فسألتهم قائلاً:. ألا تصلون؟! أجابني أحدهم بلهجة جافة: . تريد إتصلي.. إنت صلي.

أردت أن أتوضأ.. نادى أحدهم.. وهو يوجه نداءه إلى مَن في المرحاض:

ـ الأخ يريد يدخل المرافق. فتح الباب.. فبدا لي رجلان نائمان.. كانا مستلقيين على أرض المرحاض.. تبيّن لي فيما بعد.. أن هذين الرجلين.. هما أخوان.. من إحدى قرى البصرة.. وهما خالان (لعبود). لم يعرف أحد منهما إلا بكلمة السيد خال عبود.. لأن عبود متميزاً عن جميع مَن في الزنزانة.. ولم تند عن أحدهما كلمة واحدة.. كانا منعزلين تماماً.. وتبدو عليهما بساطة القروي العراقي وسذاجته!

۞ ۞

نهضا.. ولما دخلت المرحاض.. قال لي أحدهم:ـ إرفع الأحذية من السيفون.

وجدت السيفون مملوءاً بأحذية بالية عتيقة.. هي من تركات معتقلين سابقين سيقوا إلى الإعدام حفاة.. أو لبعض الذين جئ بهم إلى الزنزانة دون المرور بالشعبة الخامسة.. فهم ما زالوا بانتظار التحقيق.

والفائدة من دسّ الأحذية في السيفون هي لكي يتم التخلص منها.. فيتسع مكان الزنزانة.. وعندما يمتلئ السيفون تتسع أرض المرحاض.

أما هذان الرجلان.. فقد ترك المرحاض لهما إكراماً لهما لكبر سنهما.. فهما يدرجان في سني الكهولة.. ولأنهما سيدان ينتسبان إلى سلالة الرسول(ص)! ولأن هذا المكان هو أفضل مكان في الزنزانة وذلك لسعته.. فهو يتيح المجال للإستلقاء.. بعد رفع الأرجل وإسنادها على الحائط.. أو النوم على هيئة الانطواء.. حتى وصفه البعض بالمكان السياحي.. ويتوسد كل واحد منهما حذاءً.. وهذا ما لا يتهيأ لأحد!

۞ ۞

ولما أسبغت وضوئي وحاولت العودة إلى أرض الزنزانة لم أستطيع.. إذ أن الآلام اشتدت أكثر عند الساعات الأولى التي أعقبت التعذيب.. وراعني إذ لم يصلِّ أحد.. سوى ثلاثة أو أربعة.تبيّن لي فيما بعد أن بعضاً منهم ليس من المصلين.. وأما البعض الآخر يصعب عليه أداء الصلاة للحال الذي هو فيه.

ولما تغيّر مكاننا.. وتذللت بعض الصعاب.. رأيت البعض يؤدي الصلاة جالساً.. لأنه لا يقوى على السجود.. فيداه لا تسعفانه.. ويقرأ في القنوت: ـ اللهم إنا نرغب إليك في دولة كريمة تعزّ بها الإسلام وأهله وتذلّ بها النفاق وأهله.

۞ ۞

كان فاضل أحمد يضرب الحائط بكفيه بصعوبة بالغة.. إذ كان لا يقوى على تحريك يديه.. ثم يرفعها إلى جبهته بصعوبة أشد.. وكنا نؤدي الصلاة وقوفاً وبالإيماء.. فالمكان لا يتسع لغير هذا.

۞ ۞

عندما أتذكر الزنزانة.. أتذكر كلمة الكاتب الروسي دستويفسكي في رائعته ذكريات من منزل الأموات.. إذ يقول: الإنسان.. يمكن أن نعرفه بقولنا الإنسان كائن قادر على أن يتعود كل شيئ.

۞ ۞

عجيب أمر هذا الكائن.. تكمن في زوايا عقله وقلبه خبايا مدهشة.. تحليها الصعاب.. وتبرزها المصائب.. وكلما أتأمل مَن حولي.. أتمنى لو أن كاتباً روائياً متمكناً.. أو باحثاً نفسانياً أو اجتماعياً.. ينهل من هذا الرافد الذي لا ينضب.. كنت أتأمل كثيراً.. وأصمت طويلاً.. وأحرص على التقاط الغرائب والمفارقات من حولي.. ما أدهشني هو طاقة الإنسان الهائلة وقدرته على التحمّل والتكيّف.. لكن سلوك الناس وسبل حياتهم.. تبلّد كثيراً من مشاعرهم وتضمر طاقاتهم.. حتى لا تتجاوز مداركهم عن نداءات الجسد البدائية الساذجة.

۞ ۞

مضت أيام وليالٍ صعبة.. خانقة.. ونحن على هذه الحال.. بين الحرارة الخانقة والأجساد المتكدسة التي يلزق بعضها ببعض.. والروائح الكريهة المنبعثة من القيح والصديد الذي يتصبب من أقدام المعذبين وأياديهم. شاهدنا ذبابة دخلت إلى الزنزانة.. ودارت دورتين أو ثلاث في الهواء ثم سقطت ميتة!

قال البعض: إن جو الزنزانة قتلها.

۞ ۞

ذات يوم أطل علينا أحد المسؤولين وسألنا: ـ إتشبعون؟ فأجابه أكثر من صوت: ـ نعم.. نشبع.. واستمر في سيره ليسأل الآخرين في الزنزانات الأخرى.. وبين السؤال والجواب خالجني شعور غريب.. وكأنما لاح لي طيف جبران خليل جبران إزاءنا وهو يرثي حال الإنسانية في عراق البعث.. وتساءلت في سري:

ـ هل إن الشبع بات غاية قصوى في حياة الإنسان العراقي أو انه مكرمة من لدن القائد الملهم!

ثم تأكد لي ذلك عندما صار بين الحين والاخر يعيّر الشعب العراقي بالجوع والعري ولو لاه لما شبع عراقي ولما لبس نعال! على حد تعبيره لأن العراقي كان يمشي بنص نعال!!

۞ ۞

ومن المحقق أن هذا السؤال عن الشبع والجوع لا حباً لنا ولا رأفة بنا.. بل لكي تقوى الأجساد وتحافظ على حيويتها فتتحمل التعذيب.. ليتسنى للجلادين انتزاع الاعتراف قبل انهيارها أو موتها تحت وطأة التعذيب!

بالرغم من أن أيامنا ولياليا كانت عسيرة كالولادة الميتة.. لكننا كنا نمارس حياتنا وكأنها تشبه الحياة الاعتيادية.. نتحدث أحياناً.. ونتبادل وجهات النظر حول مسألة ثقافية.. دينية أو تاريخية أو اجتماعية.

وغالباً ما كان الحديث يدور بيني وبين فاضل.. فيشاركنا كاظم من أقصى الزنزانة.. وحين يسخن الحديث ينهض من مكانه.

والبعض يرفدنا بطريفة.. وآخر لم يزل يتذكر أيامه الهانئة فيحدثنا عن طبخه لأكلته المفضلة.. والقدح المعلّى في شتى الأحاديث العذبة النافعة هي أحاديث المرحوم الشهيد كاظم الدليمي.. طالما كان يردد بعض الكلمات عن مسرحية الممثل السوري دريد لحام كاسك يا وطن.. حيث أنها عرضت على المسرح في بغداد.. ولم تعرض في التلفاز ؛ لذا لم يتسنّ للكثيرين أن يشاهدوها وكنت من بينهم.. ويبدو أن الوحيد الذي شاهدها من بيننا هو كاظم.. وبعد سنين طويلة وفي لبنان شاهدتها في التلفاز.. فتذكرته وتذكرت أسلوبه الساحر في طرحه لأي حديث يتحدث به بنبرة هادئة.. وإشارة رشيقة وابتسامة عذبة.

۞ ۞

كنا نتناول الطعام في أوقات ثابتة..وذلك عندما ينادينا الشرطي: ـ إشگد عددكم؟ فيجيبه من كان في جنب الباب: ـ خمسة وعشرين.

فيبدأ يناولنا الصمون.. وكان يناول ويعد.. ويشتم الذي يستلم.. وكان ثمة شرطي يأتينا بين الحين والأخر.. قمئ.. قبيح الوجه.. أحمر البشرة.. فهو ضمن مجموعة من الشرطة الأغبياء يتناوبون فيما بينهم على توزيع الطعام.. كان إذا وقف إزاء الباب وهو يتطلع الينا.. يزبد ويرعد.. ويتوعد ويحذّر من التجرؤ على النظر إلى

وجهه.. ثم يبدأ برمي الصمون وهو يصرخ: ـ دير وجهك.. دير وجهك.. لا تباوع.. لا تباوع. فيضطر الذي يتناول الصمون أن يميل بوجهه نحونا.. ويمد يده نحو الشرطي.. فيبدو مشهداً غريباً ومضحكاً.. ويستمر هكذا.. حتى إذا أتمّ العدد المقرر لنا ختمها بشتيمة نابية انهمرت علينا كالمطر النجس.. ثم ينصرف.. فيتنفس الجميع الصعداء.. إعتدنا على ما نسمع وما نرى.. وأمثال هذه الحكايات والمشاهد عديدة ومتكررة.

ثم بعد أن نستلم الصمون يأتي (شغاتي).. وهو رجل كهل.. بدين.. قصير القامة.. تبدو عليه سيماء الغباوة والجهل. لم يتكلم معنا وكان يناولنا الطعام لثلاث وجبات.. ثم إذا طلب منا النفايات.. وقف جانباً ونادى من فتحة الباب قائلاً بطريقة غريبة ومضحكة: ـ هه.. هه.. الزبل.. الزبل. فنناوله إناء فيه بقايا من نفايات الوجبة السابقة مع الأواني الفارغة.

كنا نتعجب.. إذ أنه لم يبدأ بشتيمة.. ولم يختم بشتيمة.. حتى تبيّن لنا أنه ليس من رجال الأمن.. ولكنه متعهد في إرفاد الموقوفين بالطعام.. فهو يخشى من رجال الأمن كأي مواطن عراقي.. وعندما يكلمنا لم يتطلع إلينا ؛ لأنه يخشى أن تلصق به تهمة التعاطف معنا.. حتى حصل ذات يوم أمر خطير جعله يجري على غير هدى.. قاصداً العريف كاظم.. بعد أن همس بأذنه الذي يناوله النفايات فقال له:

ـ شغاتي.. جيب النه صورتين ودينار.. ونسجلك ويانا بحزب الدعوة.

فجن جنونه.. وقصد العريف مسرعاً ليبرئ ذمته أمام الجلادين.. فما كان من العريف كاظم إلا أن يأتينا مصطحباً شغاتي وهو ينادي صائحاً ومصطنعاً الغضب.. وكأنه يكتم ضحكة: ـ ولكم حتى شغاتي تريدون إتسوونه بحزب الدعوة؟

ذات ليلة.. والضجيج يملأ الزنزانة.. إذ سمعنا اً لإطلاقات مدفع.. فندت من حناجر متعددة صيحة خافتة. ـ آه.. باچر عيد!! وفي الصباح.. سمعنا الشرطي يقول لنا:ـ عيدكم مبارك وأيامكم سعيدة.

لم يبتغ الشرطي أن يهنئنا بمناسبة العيد.. ولكن لينكأ الجراح.. وليقول لنا إنّ هذا اليوم هو يوم العيد.. وأنتم بعيدون عن أهاليكم.. بل وفي زنزانة.

لما سرت هذه الكلمات إلى آذان القابعين في الزنزانة.. مد البعض بصره إلى البعض الآخر وهو صامت.. وكانت النظرات أبلغ من النطق.

۞ ۞

ذات صباح انقطع الماء.. فنادى رعد حكمت الشرطي: ـ صباح الخير.

فأجابه الشرطي بأسلوب غريب أدهشنا.. إذ أجابه بأدب: ـ أهلاً.. صباح الخير.. شتريد؟

ـ المي مگطوع عدنا.

ـ بسيطة.. هسه راح أفتحه.

فما كان من رعد حكمت إلا أن يشكره؛ قائلاً:

ـ شكراً.. رحم الله والديك.

فأجابه الشرطية على الفور:

ـ نعله على والديك.

وهكذا هو مسك الختام عندهم.. الكلمة النابية.

۞ ۞

في وسط الضجيج واللغط..أطلق خال عبود سؤالاً وبصوت عالٍ.. وبلا مناسبة.. فالكلام ليس له بداية ولا نهاية.. وقد يتحوّل من موضوع إلى موضوع آخر دون أن يعرف من هو المتكلم.. ومن هو الصامت. فقال: ـ هسه إحنا هنا بهذا العذاب.. ربما بسبب إذنوب عملناها والله عاقبنا. فأجابه صوت: ـ طبعاً.. إحنا لوما مذنبين.. الله ما عاقبنه وجابنه هنا.

وهكذا تنطلق مثل هذه الحوارات الفلسفية وسط التأوهات والأنين.. كلٌّ يدلي بدلوه.. وباعث كلامه أوجاعه ويأسه من الحال التي هو فيها. فأجابهم كاظم

قائلاً بهدوء وبطريقته الساحرة: ـ إحنا هنا مو بذنب مع الله.. لو كان سبب السجن هو عقوبة على ذنب.. ما كان إنسجن الإمام موسى بن جعفر(ع)، وكان في الزنزانة 15 سنة لا يعرف ليله من نهاره.. وهو الإمام المعصوم.

وهنا حسم كاظم هذا الحوار.. وانتهى.

۞ ۞

علا صوت آخر يتحدث: ـ أكو واحد شاف حلم بالإمام الصادق(ع) وطلب منه الفرج.. فقال له الإمام: إحنا ما ناسينكم.. ندعو لكم.. بس الله ميستجيب.

وقال آخر: ـ مرة واحد شاف حلم.. كأن مكتوب على الموقف: مدرسة الإمام الصادق(ع). فأجابه آخر: ـ طبعاً.. هاي أعظم مدرسة للصبر.. والتحمل.. و...

فقلت له: ـ يقول أحد المفكرين: إذا أردت أن تكون عظيماً فيجب أن تمرّ بألم عظيم. وثمة قول للإمام علي(ع) وهو: «من شب على شيئ شاب عليه».. فمن يتحمل هذه الصعاب والمحن تهون عليه كل مصائب الدنيا.

۞ ۞

قال آخر:ـ فد مرة حكم على مجموعة بالإعدام.. بيوم التنفيذ جاء القائد العسكري وكان في زيارة خاطفة فسأل عنهم.. فقالوا له: ـ إنهم محكومون بالإعدام. فقال لهم: ـ طلعوهم.. إعتبروهم چلاب وطلعوهم.

وكان من بين هؤلاء شاب.. بين يوم وليلة انقلب شعره من الأسود إلى الأبيض. فتنهد آخر وقال: ـ هسه بس يطلعونا.. خل شيعتبرونا چلاب.. بزازين...

الشهداء الخمسة

ولما انتهت الحكاية علا صوت آخر يترنم:. يا للي نسيتونه يمته تذكرونه..
. يا للي سجنتونه يمته تطلعونه..

ومن بين الضجيج.. سمع كل من في الزنزانة صوت فاضل أحمد وهو يتحدث: الشهداء الخمسة هم: الشيخ عارف البصري.. وعماد التبريزي.. ونوري آل طعمة.. والقبنچي.. وحسين جلوخان. وهو يردد هذه الأسماء.. وحكاية إعدامهم.. وكأن شيئاً لم يكن. فنادى كاظم الدليمي قائلاً بطريقة غير جارحة.. يبتغي إسكاته: ـ يمعود لا تحبسنا. فارتفع صوت جاسم محمد: هسه بس يجي الحرس أوصل له هذا الحچي. ثم يؤكد على مسامع الجميع هذا الوعيد.

فيسكت فاضل.. وبعد قليل تعلو نبرته.. وهو غير مبال.. فيعدد أسماء أولاد السيد محسن الحكيم.. مبتدئاً بالسيد يوسف.. ومنتهياً بالسيد عبدالعزيز.. مفرقاً بين الإخوة والأشقاء.. فيرتفع صوت جاسم بفزع ليؤكد للجميع كلامه: ـ هسه بس يجي الحرس أوصل له هذا الحچي.. وآني هسه منتظر الحرس.

فيصمت فاضل.. ويعلو صوت جاسم ليعيد حكايته التي سمعتها ربما أكثر من عشر مرات: ـ الرائد گلي وآني معلگ راح أجيب أهلك لو تعترف.. گتله جيبهم عرضي عرضك.. وكان لهذه الكلمات والوعيد الذي يصدر من جاسم غاية لديه.. وهي أنه يخشى أن يكون فيما بيننا مندساً.. يسترق السمع.. ثم يشي بنا للحارس.. وكان هو من أشدّ القابعين في الزنزانة خوفاً وحذراً.. فيجعل من هذه الكلمات ذريعة يتذرع بها أمام الجلادين ابتغاء نجاته.

مرت الليلة بسلام.. وفي اليوم الثاني أتى الشرطي وتبعه شرطي.. ولم يوش بنا أحد.. فيطمئن جاسم.. أن احداً من المندسين غير موجود فيما بيننا.. فيتنفس الصعداء.. وبعد حين يعود فاضل إلى أحاديثه.. فيعود جاسم إلى وعيده وتهديده.

وفي غير مناسبة يسرد حكايته.. وهي أنه اعترف للرائد بكل ما لديه.. وقال له:

. صحيح أن (ص...) قال لي: إن السلطة مسيطرين عليها التكارته.. بس آني نصحته أن يتجنب مثل هذا الحديث.. ثم أنني لم أخبر عنه لأن ليس لدي شاهد.. ولما گلي الرائد وآني معلگ راح أجيب أهلك.. كتله جيبهم عرضي عرضك!

وهكذا انتهت حكاية أبو زينة.. جاسم محمد بالسجن المؤبد مع مصادرة أمواله المنقولة وغير المنقولة.. من أجل كلمة قالها (ص...) ولم يخبر عنها..فاعتبر متستراً على أحد أفراد حزب الدعوة.

۞ ۞

ورأيته في سجن أبو غريب قد صنع سجادة للصلاة من بطانية بالية.. وجعلها طبقات لكي تدرأ الوجع عن ركبتيه. وطفق يصلي قضاء عما فاته.. فكان يكثر من الصلاة.. ويتلقف الدعاء والأوراد من هنا وهناك.. ولديه قابلية لأن يجعل من كل شيئ حوله سبباً لتفائله.. ثم أطلق سراحه بقرار العفو العام عام1986..!

وبعد أن يتوعد أبو زينة يتجلى صمت.. فينطلق صوت رعد حكمت ليقول:

ـ يمعودين خلّونا من هالحچي.. سولفونه على حلاوة الجزر. فيكون هذا النداء مفتاحاً لصناعة أنواع من الحلوى.

وبين الحديث عن صناعة الحلوى.. يعلو صوت كاظم:ـ إحنا العسكريين.. راح يحيلونا إلى سجن رقم واحد.. وبعدين أما يحكمون علينا بالسجن فيبعثون بنا إلى سجن أبو غريب أو يطلعونه. فسأل أحدهم عن السجن وكيفيته.. فأجابه آخر:

. هناك ساحة للطوبة.. وحانوت.. ومكتبة.

فقلت:آه ..ومكتبة؟

فقال، مؤكداً:نعم،

آني شايف السجن مرة.. واجهت ابن عمي هناك. فسأل آخر.. وهو يضحك بحياء: ـ إحنا إذا أنسجنه.. وجتنه نسوانه.. عاد يخلونا.. يو لا؟!

فأجابه آخر: ـ مرة عثروا على سجين مخبئ زوجته تحت القريوله.. ونافق عليه واحد.. ودمّروه السجانين. فندت عن آخر كلمة: ـ بس والله فضيحة.. بين السجناء والسجانين إتصير هيچ مشكلة.

فاستدرك آخر:ـ هسه هذوله المنافقين شيحصلون.. أشو حالهم حالنه.. ومصيبتهم مصيبتنا. فأجابه آخر: ـ هذوله يظنون الأمن يرضون عليهم ويطلعونهم.

وقال آخر: ـ والله مرة طلعوا 15 واحد بسبب واحد.. كلب ابن كلب.. مزقهم عريف كاظم بالكيبلات.. گله هذوله يحچون على الحكومة.

فقال آخر: ـ بس هذوله ميخلصون من الناس.. كلها تطلبهم بثار.

وهنا يعلو صوت رعد حكمت طالباً إنهاء هذا الحديث: ـ يمعودين.. خلّونه من سيرة هذولة.. سولفونه عن حلاوة الجزر. فيؤيده فاضل ليؤكد له روعتها.. وأن أمّه كانت تصنعها له.

فيتنهد آخر ويردد بيتاً من شعر الأبوذيه:

روحي من السجن ذابت وعتبه
وحگ اللي شطر مرحب وعتبه
أنا گاصد لعد حيدر وعتبه
وسولف له إشجره واشصار بيه

عبود

لعله أول شخص استرعى انتباهي.. ومنذ اللحظات الأولى لدخولي إلى الزنزانة.. وشغلني عن الآخرين.. وحتى عن نفسي هو عبود.

شاب قصير القامة.. ممتلئ الجسم.. متين البنيان.. مشاكس.. فوضوي.. كثير الصياح والعراك.. يبلغ عمرة خمسة وعشرين عاماً.

يتصرف مثل طفل.. فهو على العكس من خاليه.. فهما في تمام الهدوء والسكينة.. وهو في تمام الصخب والفوضى! كان شاغلاً مَن حوله.. وأول تصرف لفت نظري عندما أعلن قائلاً: ـ راح أنام بالوسط. فسأله أكثر من واحد: ـ وإحنا وين إنروح؟ فأجابهم: ـ خلو رجليكم عليّه.

وبهذا ينحل جزء من المشكلة ؛ لأن عبود يشغل حيزاً كبيراً في الفراغ.. فيلقي بجسده في منتصف الزنزانة.. ثم نلقي بأرجلنا عليه.. وهو مستلقياً على ظهره.

وربما تأخذه إغفاءة قصيرة.. ولم نكد نصدق أننا تخلصنا من عبود وصخبه حتى ينهض بلا سابق إنذار.. فينهض عدد كبير معه ويطوي آخرون اجسادهم.. وفي مثل هذه الحالات كنت أشعر بوجع يزداد في قدمي تارة.. وتارة أخرى يدب الخدر فيها.

ذات مرة ـ ولسوء الحظ ـ جلس إزائي.. ثم دفعني بذراعه قائلاً: ـ ابتعد عني.

فسألته غاضباً: ـ وين أروح؟!

أجابني وقد مال بوجهه عني: ـ روح دبّر حالك.

كانت كلمته دبّر حالك تتردد دائماً على لسانه.. المهم هو أن تتوفر له الراحة.

۞ ۞

كان أحياناً ينام مع خاليه في المرحاض.. فتمضي ساعتان أو ثلاث ساعات وكأن هماً ثقيلاً أزيح عن صدورنا.. ونشعر بقليل من الهدوء.. وما أن يعود إلينا وقد شبع نوماً راح يعربد.. مبتدءاً بسيد فاضل أحمد حيث يبدأ معه بالشجار من غير سبب.. إذ كان فاضل مشغولاً بآلامه.. فهو يعجز عن تحريك يديه.. وقد نهشت

جسده الطري أنواع من الأمراض الجلدية.. فالحبّ والجروح قد غزت جلده وأطراف يديه وقدميه.

ولما لم يجد مبرراً للشجار معه لوجود فاصلة مكانية بينهما.. إذ كان فاضل في ركن الزنزانة وعبود في وسطها فيختلق سبباً لذلك.. ذات مرة كان عبود مولياً ظهره لنا وقد طوق ركبتيه بذراعيه.. مطأطأً رأسه.. وفاضل كان إزائي أطعمه طعامه تارة.. أو أدلّك له ذراعيه المعوقتين.. أو أفقأ له بعض الدمامل التي تناثرت على أصابع كفيه.. وهو يتأوه من الآلام.. كان مسالماً فلم يخدش مشاعر أحد بكلمة.. ولم يسيئ إلى أحد. وإذا بعبود يلتفت نحو فاضل ساخطاً مهاجماً.. حتى أفقد فاضل صوابه.. وأخرجه عن طوره.. ولما حاول البعض تهدئة الموقف.. أخذ فاضل يتسائل مستنجداً بمن حوله قائلاً بغضب: ـ هسه آني حاچي ويّاه؟!

فبادر عبود مدافعاً عن نفسه مصطنعاً الغضب وقد أشاح بوجهه: ـ هو يحچي عليّه.. وحتى بصلاته أسمعه يدعي عليّه.

وغالباً ما كان يرد على عبود بكلمات رقيقة متوخياً الخلاص منه.. ومن هجوماته المباغتة.. وأحياناً كان يرد على هجوم عبود بقصة خلاصتها أن الرحمة لا تنزل على قوم حتى يسودهم الوئام وتفشي بينهم المحبة والأخوّة.. مستشهداً بحكايات حصلت لبعض الأنبياء (ع) مع أقوامهم.. ولبعض الأولياء الصالحين.

وكل ما يتفوّه به فاضل يذهب أدراج الرياح.. فما أن تمضي ساعات حتى يعود عبود بدوره إلى فاضل فيشاكسه.

صرخ عبود ذات ليلة بفتىً كان واقفاً إزاءه ورجلاه تلامس ظهره ؛ لضيق المكان.. وقد كان عبود جالساً... فصاح به: ـ وخّر رجلك.

ولما لم يستجب لندائه.. سرعان ما نهض عبود وقد انهال عليه بلكمات متتالية.. فأسرع البعض لإنقاذ الموقف.

ذات يوم ظهراً.. وقد اشتدت الحرارة.. خرج عبود من المنتجع .كما سمّاه البعض . جلس في وسط الزنزانة مطوقاً رجليه بذراعيه..ورأسه يتدلى على صدره.. ثم رفع رأسه وكأنه مصاب بالغثيان.. وكل من حوله انتبه له.. واستغرب حاله.

ثم فجأة وقف وراح يطلق صيحات هستيرية.. ويبكي مثل طفل مرعوب.. يمد يديه إلى أقصاها.. ورأسه يتدلى إلى الوراء.. أمسكت برأسه وقلت له:

ـ عبود.. عبود.. عدّل راسك. فكان يصرخ باكياً: ـ وينه راسي؟! وينه راسي؟!

واستمر بالصراخ.. نادى أحد القابعين في الزنزانة بالحرس.. وما أن مدّ بصره نحوه.. حتى أدار المفتاح في قفل الباب وأخرجه.. وأذن له أن ينام تحت التيار المنبعث من المبردة.. فغط في نوم عميق.. وبعد مضي أربع ساعات تقريباً.. أعاده الحرس إلى الزنزانة وقد هدأ روعه.

وفي ذات يوم هبطت من المرحاض إلى أرض الزنزانة.. ولما كان يتعذر عليّ سحق الأرض بقدمي المتورمتين.. وما بين المرحاض وأرض الزنزانة فاصلة ارتفاعها قدم تقريباً.. فكنت أقدم قدماً وأرجع أخرى.. وبين هذه المحاولات هويت على وجهي.. فأمسكني من كان واقفاً حتى استويت قائماً.. وإذا بعبود يطلق ضحكة مجلجلة.. وكان يشير بكفه وهو غارق في الضحك: . شوف.. شوف..

فقلت له بلهجة المتوعد: . عبود.. بعدك ما شايفها.

وكنت أقصد التعذيب الذي سيلاقيه.. إذ كان هو من بين المجموعة التي لم تتعرض للتعذيب.

لم يجرِ بيني وبينه حديث.. ولا حتى كلمة واحدة.. فهو لا يجيد حديثاً سوى الشجار.. فكنت أتحاشاه.. ولكن ذات صباح وقد غلبني النوم بعد أن ألقيت بجسدي بين أقدام الواقفين.. وظل فاضل واقفاً ليهيئ لي مكاناً لشدّ ما أصابني من إرهاق..وقد تمّ توزيع الفطور ولم أستيقظ.. ولما أفقت قصدت المرحاض.. فغسلت يدي ووجهي.. وعدت إلى مكاني.. فناولني مسؤول الأكل قطعة من جبن احتفظ بها

لي.. فدستتها في صمونة.. وما أن قضمتها ومضغت اللقمة الأولى منها.. وإذا بعبود يلتفت نحوي بوجه ممتعض.. ويرفع يده أمام وجهي كأنه يبعد شيئاً ما يحوم حوله.. وقال لي بذات اللهجة الجافة التي يتكلم بها عادة: ـ يا الله خلّص بسرعة.

نظرت إليه نظرة غاضبة فيها تساؤل ودهشة.. فأشاح بوجهه عني وسكت.. لم يسلم أحد من لسانه.. والبعض لم يسلم من لسانه ويده.. كان نهماً في الأكل.. إذ يأكل طعامه المخصص له والطعام الزائد الذي يتركه البعض. وعندما يبلغ به الضجر إلى أقصاه.. كان ينادي قائلاً بصوت يسمعه كل من في الزنزانة: ـ يا الله بس خلّ يطلعونه.. مال لحم.. مال باغة.. مو مشكلة.. المهم نطلع.

ويقصد الخازوق.. فيضحك البعض.. ويستاء البعض الآخر.

۞ ۞

مضى أسبوع على هذه الحال.. وذات صباح أطل العريف أبو جواد علينا من خلال نافذة الباب الصغيرة.. ثم تلا أسماء لثلاثة عشر شخصاً.. كان من بينهم عبود.. ثم فتح الباب وأخرجهم واحداً تلو الآخر.. وظنّ البعض أنه أطلق سراحهم.. فراح ينثر التوقعات على غير هدى.. وبعد مضي أربعة أيام عاد إلينا عبود.. وكأن فيه مسّ من جنون.. ممزق القدمين وقد لفتا بخرقة سوداء.. تبيّن لنا فيما بعد أنها قطعة من عمامة السيد عباس الشوكي.. وقد بدا عليه الإرهاق والذهول والفزع.. وما أن أغلق الباب دونه حتى خلع دشداشته وقد جردوه من سرواله كغيره.

وظل يتحدث عن يمينه وعن شماله.. ويلتفت إلى الوراء ليجيب من سأله.. وهو يقف عارياً حتى من ورقة التوت.. والبعض يسأله بإلحاح عن مصير الذين رافقوه.. فكان يصغي أحياناً فيجيب.. وأحياناً يتكرر السؤال مرتين أو ثلاث مرات حتى يجيب.. ثم طلب أن يغتسل في المرحاض.

ومضت دقائق وهو كالمتطاير.. فيلفت البعض إنتباهه إلى حاله.. فيجيبهم بتودد: ـ لا.. إحنا إخوان.. إحنا إخوان.. ماكو شي.. إحنا إخوان.

وكان فاضل أحمد يمدّ نحوه يده المعوّقة.. وقد غرق في الضحك.. وتقطعت الكلمات في فمه من شدة الضحك.. فيبدو كأنه يتأفف.. وهو ينادي عبود: ـ لك بابا استر نفسك. فيلتفت عبود نحوه قائلاً بنبرة طفولية وبمودة صادقة: ـ لا.. إحنا إخوان.. إحنا إخوان.. ماكو شي.. إحنا إخوان. ثم يمسح وجوه من حوله بنظرة بائسة.. وقد تقلص وجهه فيقول مستعبراً: ـ والله لو أظل خمسين سنة هنا.. ولا دقيقة هناك. ثم يردف قائلاً بندم وأسف: ـ چنت أضحك على (سامي) من يوگع.. گلي.. گلي (سامي): بعدك ما شايفها.. والله لو أظل خمسين سنة هنا ولا دقيقة هناك.

۞ ۞

ولما استحم وعاد.. صار يتكلم شاكياً من التعذيب.. وثمة رائحة كريهة للغاية تنبعث من قدميه. وأحياناً يجري نحو المرحاض.. فيضع رأسه قبالة السيفون.. ويعلو صوته وكأنه يتقيأ.. ثم ينادي مستنجداً:ـ حجي رعد إلحگلي. فيسرع رعد حكمت نحوه.. وهو لا يستطيع تحريك يديه.. فيحاول أن يسعفه.. ويبقى واقفاً إلى جنبه.. فيتكلم معه حتى يهدأ.. ثم يتركه.. ثم ينادي عبود مستنجداً.. ويعود إلى مكانه.. وبعد ساعات.. يجري نحو المرحاض.. فينادي مستنجداً.

آثار التعذيب بالخازوق

الذين عذّبوا بالخازوق يشعرون بحاجة إلى القيء.. لكنهم لا يتقيئون! ثم تظل تلازمهم حالة إمساك شديد وحتى بعد سنين طويلة.

وعندما يهدأ قليلاً يحدثنا عما جرى له في التعذيب.. حيث وضعوا الكهرباء في أذنيه.. وفي شفتيه.. وفي عضو ذكورته.. ودقوا فيه الخازوق.. ومزقوا قدميه بالسياط.. ثم تركه المحقق مشدوداً إلى السقف من يديه المقيدتين إلى الخلف.

واستمر الجلاد يطالبه باعترافات عن أمور لا يعرفها ولم تحدث له.. فيظنه صامداً فيستمر في تعذيبه.. ويظل يستغيث فلا يغاث!

هدده المحقق بفض بكارته!! إذ كان الجلادون يستخدمون هذا الأسلوب الوحشي مع بعض الصامدين.. وأحياناً يكتفون بالوعيد فقط.. وأحياناً أخرى يوفون بوعدهم.. كما فعلوا مع بعض العذارى.

وبعد أن هدّده الجلاد.. تركه مشدوداً إلى السقف.. فما كان من عبود إلا أن يذكره صارخاً.. وهو مقطع الأنفاس.. فيقول:ـ إنت مو گلت راح (...ك).. ديالّه شوفلك زوية بسرعة.

وهكذا راح يسرد مثل هذه الحكايات.. وهو في حال يرثى لها.. فقد كان يبكي وكأنه يضحك.. أو يضحك وكأنه يبكي.. أو مزيجاً من البكاء والضحك! ثم يتساءل مستغرباً عن السبب الذي دعا الجلادين ليعذّبوه كل هذا التعذيب.. ويقسوا عليه كل هذه القسوة! وهو يهمس للبعض قائلاً وبصدق: ـ آني كل شيئ ممسوي.. بس سرقت كم قطعة سلاح من المشجب[84] وبعتها!!

ثم يعود فيتساءل مذعوراً: ـ إيه ليش يعذبوني هذا التعذيب؟!

ولم يستطع أحد أن يوضح له الأمر.. فهو يسرق أسلحة ويبيعها.. وربما كان أحد زبائنه من الحركيين الذين يستهدفون عناصر السلطة وذيولهم.. ويظن أنه لم يأت بمحذور.. في بلدٍ حكم فيه بالإعدام على من رأى فيما يرى النائم أنه قتل صدام حسين.. فقيل له: ـ لو أنك لم تفكر في قتله لما رأيت هذا الحلم؟!

۞ ۞

مضت أيام.. ولم نزل في الزنزانة رقم 15.. إذ أعادوا إلينا المجموعة التي كانت معنا. كنا نتناول طعام العشاء.. وفجأة فتح الباب.. وإذا بالسيد خال عبود.. هكذا عرفناه.. لذا لم أتذكر اسمه ولا إسم أخيه . يحمله شرطيان وقد شبكا أيديهما تحته.. ليقعد كما يقعد على كرسي.. فقد كان عاجزاً عن المشي.. ولما بلغا به الباب..

84) يقصد أنه سرق الأسلحة من مخزن الجيش.

استقبلته الأيادي من داخل الزنزانة. باتت قدماه كقطعتين سوداوين.. والقيح يسيل منهما.. وقد لفتا بخرقة.. ورائحة كريهة جداً تنبعث منهما.

أجلسه مَن حمله.. وكان مرعوباً فزعاً.. كأنما يريد أن يتكلم.. فتشرد الكلمات من بين شفتيه.. فتبدو كلماته مثل همهمة نائم. وبعد قليل جئ بأخيه.. ولم يكن حاله بأحسن من حال أخيه. ولما أدخلا إلى الزنزانة.. شاهدت كاظم الدليمي وهو يتطلع إليهما.. ويلوك لقمته.. ودموعه تنحدر على خديه بصمت.

ثم جئ بمن تبقى تباعاً.. فاحتشدت الزنزانة ثانية.. وقد تعوّق الجميع.. وانبعثت الروائح الكريهة وازداد الشاكون.

البثور والدمامل في كل المعتقلين

كثيرة هي الآلام والمعاناة الشديدة التي لاقيناها في الزنزانة.. ولكن من أشدها أذى هو مرض الحبّ (أي البثور) الذي لم يسلم منه أحد.. وقد كان غريباً وقاسياً.. فهو يغزو مناطق حساسة وصلبة في الجسم.. في الحاجبين.. في الظهر....وفي أسفل الكتف غالباً. وأما الجراحة فهي صلبة.. حتى لكأنها حجارة يابسة.. وعندما تستخرج من الجلد فكأنما تنتزع الروح معها.. ثم تترك آثاراً في الجسم لا تمحى وإن طالت السنون.. كذكرى الزنزانة.

ولشدة أذاه.. فقد كان البعض يغتنم نوم المصاب بهذا الحبّ.. ولما كان الإرهاق قد أخذ منه مأخذاً كبيراً فتخرج الجراحة.. ولم يفق حتى إذا ما وصلت إلى سطح الجلد وتوشك أن تنتهي عملية الاستخراج.. يفيق النائم فزعاً.. وكأنما غرزت في لحمه سكينة حادة.. فيسمع نداء من حوله يدعوه للصبر.. فيتمالك نفسه على مضض حتى يفرج الله عنه.

وتسيل الدماء.. فيضطر البعض لقطع قطعة من دشداشته لكتمها.. ويستمر القطع حتى يذهب ربع الدشداشة أحياناً.

نقلونا الى الزنزانة رقم21

ضحى الليلة التي امتلأت بها الزنزانة.. وقف العريف كاظم إزاء الباب وصاح:

ـ تهيأوا.. تهيأوا. تهيأنا نفسياً فقط.. إذ ليس لدينا شيئاً نهيئه.. فبعضنا يرتدي دشداشة وسروالاً.. والبعض الآخر يرتدي دشداشة فقط.

فتح الباب وأمرنا بالخروج من الزنزانة.. خرجنا.. أمرنا أن نقف صفاً.. فوقفنا.. لفحتنا برودة الدهليز.. ثم فرقنا بين الزنزانات.. وكنت مع من زج بهم في زنزانة تقع في ركن الموقف.. أخبرنا القابعين فيها.. فقالوا لنا: ـ هذه زنزانة رقم واحد وعشرين.

وبعد أن أغلق الباب.. واستقر بنا المقام.. وجدنا مجموعة من المعتقلين ومع إضافتنا لهم.. بلغ عددنا 24 فرداً.

وحالما التقينا بهم.. أدركنا أن الذين كانوا في الزنزانة السابقة ليست لديهم تجربة في الموقف.. وكلهم حديثو عهد.. لذا لم يعرفوا كيف يعالجوا مشاكلهم.. وما زاد الطين بلّه أن ثمة مجموعة فيما بيننا غير ملتزمة دينياً.. ولا أخلاقياً.. فكان بعضهم يردد: ـ إحنا هنا شريعة غاب!

۞ ۞

أما الذين التقينا بهم فقد مضت عليهم شهور.. والبعض تجاوز السنة بشهور..

كانت أجسادهم نظيفة.. وقد رتبوا نظاماً يهيئ لهم الراحة النسبية.. إذ كان عدد القاطنين في الزنزانة ينقسم إلى قسمين.. يتناوبون فيما بينهم على أرض الزنزانة ليستلقوا طلباً للنوم.. وعندما تمضي فترة أربع ساعات تقريباً.. ينهض النائمون بعد أن يعلن الواقفون: ـ انتهى شفتكم.. وإجه شفتنا.

كان يطلق على هذا التناوب كلمة شفتات.. فتنهض هذه المجموعة لتتكدس في المساحة الصغيرة التي بين آخر الزنزانة وبين باب المرحاض.

ويظل البعض واقفاً.. والبعض الآخر يجلس القرفصاء.. ويتناوبون فيما بينهم على المرحاض لغرض الإستحمام.. أو قضاء حاجة.. أو غسل ثوب.. وبعد أن يتم غسل الثوب.. يعطى لمن في خارج المرحاض.. ويظل صاحبه يستحم.. وأما الثوب.. فيأخذه اثنان.. كل يمسك بطرف.. ويتقابلان حتى يلتصق كل منهما بالجدار.. بعد أن يدسّ قدميه بين النائمين.. ثم يروحان بالثوب جيئة وذهاباً على النائمين.. طلباً لتحريك الهواء.. وليستمتع النائمون ولكي يجف الثوب.. فما أن ينتهي صاحبه من الاستحمام حتى يجد ثوبه قد جف.. ويرتديه نظيفاً وبجسد نظيف. والبعض كان يقف على قدمٍ واحدة.. ويطلق المعتقلون على هذه الوقفة ساخرين اسم (الوقفة اللقلقية في السجون العفلقية)!

ولقد اعتادوا هذه الحياة.. حتى بات الأمر كأنه طبيعي لديهم.. وقد ذللوا كثيراً من الصعاب.. وتعلمنا منهم.. وصرنا نجاريهم.. وشعرنا بشيئ من الراحة.

ولاحظت البعض قد تحسن سلوكه ولم يعد متوتراً.. أو مزعجاً.. أو شاتماً للآخرين.. وعاد البعض إلى أداء الصلاة.

كريم لازم ومحمد حنون..و...

وسرعان ما امتدت جسور المودة فيما بيننا.. وتعرف البعض على أسماء البعض.. ومهنهم.. وسكناهم... إلخ.

ولم نمكث بينهم طويلاً.. لذا فلم أتذكر أسماء الجميع.. ولكن بعض هؤلاء علقت أسماؤهم وأحاديثهم في ذاكرتي. وهم: المرحوم الشهيد كريم لازم والمرحوم الشهيد محمد حنون من أهالي الهوير من محافظة البصرة.. موظفان في مستشفى المنطقة، والحاج عبدالزهراء من أهالي العمارة.. مهنته خياط وكان لصيقاً بهما وقد تعرض لتعذيب

شديد.. وأعيد معه التحقيق عدة مرات حتى كسرت رجله.. لكنه صمد ومكث في الزنزانات سنتين تقريباً، ثم أطلق سراحه.

۞ ۞

موقع الزنزانة رقم 21 موقع مهم.. إذ أنه يرتكن الموقف.. وبهذا تكون لمن يقف إزاء فتحة الباب الصغيرة إطلالة على فسحة ينتشر فيها النور.. وعلى اليمين زنزانات متعددة.. وعلى الشمال الزنزانة رقم 22 والزنزانة رقم 23.

شعرت براحة نسبية في هذه الزنزانة.. إذ كان مَن فيها قد برمجوا برنامجاً يستوعب كل ساعات الليل والنهار.

هذا البرنامج يبدأ من الصباح الباكر.. فعندما يوزع طعام الفطور.. يستيقظ الجميع ويتناولون فطورهم.. وعندما ينتهي الجميع.. يستلقي الذين جاء دورهم للنوم.. ويستيقظون عند اقتراب صلاة الظهر.. ثم يبدأون بالدخول إلى التواليت ليسبغوا وضوءهم.. وبعد أن يتوضأ مَن كان مستيقظاً ليفسح المجال لهم.

وما أن يضرب الجدار معلناً وقت الصلاة.. حتى يبدأ الجميع بأداء الصلاة.. بعد أن يقف البعض لصق الحائط لإخلاء فسحة صغيرة في وسط الزنزانة.. ليؤدي البعض صلاته.. وعندما ينهي المصلي صلاته.. يقف إزاء الحائط ليأتي آخر فيصلي. فالتناوب هو الأسلوب الأمثل لحل مشاكل الزنزانة وصعوباتها.. لذا كان التناوب في كل شيئ.. في النوم.. في الإستحمام وقضاء الحاجة.. وأداء الصلاة.

وبعد أداء الصلاة يتم تناول الغداء.. ثم يبقى الجميع جالسين لضيق المكان.. ثم تبدأ دورة النوم.

وبعد مرور كل يومين أو ثلاثة أيام.. ينهض محمد حنون لتنظيف أرض الزنزانة.. وكان قد نذر نفسه لخدمة الجميع.. فإدارة شؤون الزنزانة بيده.. وهذه عادة متبعة في كل زنزانة.. إذ يتبرع شخص لخدمة الجميع عن طيب خاطر.. رغبةً في ثواب

الله.. فهو الذي يتابع أوقات الصلاة.. وأوقات النوم واليقظة.. وسير الإستحمام.. ويقرر تنظيف الزنزانة.

كذلك هو الذي يستلم وجبات الطعام ويوزعها.. ويسلّم الأواني الفارغة.. ويستلم بعد الفطور قليلاً من الفاكهة.. وتسمّى هذه الفترة فترة الفاكهة.. وهذه الفترة هي ضحى اليوم.. في الصيف العنب أو الگوجة.. وتكون حصة كل فرد خمس حبات من العنب أو ثلاث حبات من الگوجة.

وبعد تناول الغداء يتم توزيع قليلاً من الشاي.. إذ نضع (دولكة) إزاء فتحة الباب.. ونتلقى ما يسكبه الحرس من شاي.. ويتركها تطلب المزيد.

ولما كان العدد كثير.. فيتم توزيع الشاي بكوب صغير يدور على الجميع.. وكمية الشاى لا تزيد على الجرعتين عادة.

وإذا أخطأ الموزع فزاد قليلاً في حصتين أو ثلاث.. فيكون قد حُرم شخص أو شخصان.. وبعد مرور أسابيع انتهى ذكر الشاي في الموقف.. ولم يعد أحد يتذوق طعم السكريات.. وكان الجميع يتشوقون لذكر السكريات.. ويبدو أن هذا من ضمن الحرب النفسية للمعتقل.. ولكن المعتقلين لديهم حل لهذه المشكلة.. فصناعة الحلوى على قدم وساق.. وألوان الحلويات ما تثير شهوة البطن.. وكل هذا لا يتجاوز حدود الكلام طبعاً.

وأما أبناء مدينة البصرة.. فلم يبخلوا علينا بالحديث عن صناعة المعسل والدبس.. وهكذا كانت الأحاديث من هنا وهناك.. وحسب ما يحتاجه المعتقل أو يتمناه أو يتشوق إليه.

۞ ۞

وفي أوقات يتحول الحديث من هزل إلى جد.. فيلقي أحد القاطنين في الزنزانة محاضرة عن الفكر الإسلامي.. أو يقرأ خطيب مجلس عزاء عن الإمام الحسين(ع).. وذلك بعد أن يقف شخص إزاء فتحة الباب يراقب الحرس.. خشية أن يحظى بهم فتكون العواقب وخيمة.

۞ ۞

وكان البعض يشغل وقته بحفظ سور قرآنية.. أو أحاديث شريفة.. أو خطب من نهج البلاغة.. أو دعاء مأثور عن النبي الأكرم وأهل بيته صلوات الله عليهم أجمعين.. أو قصائد شعرية. وكل هذا يجري بطريقة التلقين.. إذ لا يوجد لدينا مصحف أو كتاب.. فهذا أمر مستحيل.

فعندما يزجّ بمعتقل يحفظ من القرآن أو الحديث أو الشعر أو الدعاء...إلخ. يكون حلوله بيننا مغنمة.. وتكون أهميته بحسب حفظه وعلمه.. فعادة ما يكون المعتقلون في شوق للعلم والمعرفة.. فهم غالباً ما يكونون من طلبة الجامعات أو الثانويات.. والبعض الآخر من أنصاف المثقفين وحتى الأميين.. فهم قريبون من أهل العلم.. فهم يرتادون المساجد ويستمعون للخطباء والمثقفين... وما إلى هنالك.

وأما الحفظ فهو بطريقة التلقين.. فيأخذ المتلقي من الحافظ.. ويكرر ما يحفظه فيما بينه وبين نفسه.. ثم يردده مع من لقنه النص.. حتى إذا ما أتقنه جيداً لقّنه لآخر.. وهلّم جرّا...

۞ ۞

وهكذا تمر الأيام تلو الأيام.. والشهور تلو الشهور.. والبعض باقون على هذه الحال.. تمر عليه أفواج وقوافل من الفتيان والشباب والكهول.. من التحقيق إلى المحكمة.. وغالباً ما يكون إلى حبل المشنقة.. والبعض الآخر إلى القتل الجماعي.. دون المرور في المحكمة. وقليل من هذه الجموع الغفيرة يكون مصيرها إلى سجن أبو غريب.. وعادة ما يكون للّقاء في السجن مذاق خاص لمن كانوا يشتركون في ذكريات جمعتهم.. مفارقة أو طريفة.. أو سوط على أثر مباغتة من العريف كاظم.. أو بعد وشاية مخبر!

ونادراً جداً أن يكون مصير معتقل إطلاق السراح! وبهذا يكون القابع في زنزانات موقف الأمن العامة لفترة طويلة لديه خزين من الذكريات المضرجة بالدماء..

وقد غدا أرشيفاً.. يحدث الآتين عن حكايات الماضين.. فهو محطة يلتقي فيها كل معتقل في مديريات أمن البلد.. عندما يهيأ إلى محكمة الثورة.

ما أن استقر بي المكان في الزنزانة الجديدة.. حتى استرعى انتباهي وانتباه غيري ذلك الشاب الوسيم الطلعة.. الرشيق القوام.. ذو أخلاق عالية.. هادئ الطبع.. مهذب.. واسع الثقافة.. ذو صوت رخيم.. تخرج الكلمات من بين شفتيه هادئة عميقة.. رزينة.. مؤثرة.. فيسحر السامع بأسلوبه.. وبجمال إيماءته.. إسمه كريم لازم.. وكنيته أبو غسان.. موظف صحي في مستشفى الهوير المنطقة التابعة للقرنة.

تبيّن لي أنه كان منتمياً إلى حزب الدعوة[85] منذ فترة بعيدة.. وقد تعرض للإعتقال في أوائل السبعينات.. وهو من سجناء سجن الفضيلية.

كنت قابعاً بجواره وجوار محمد حنون و الحاج عبد الزهراء. فكنت أصغي إلى حديثه وأسأله.. وأحاوره وأناقشه في بعض مسائل الفكر الإسلامي.. وإذا تعرّض لكتاب لم يتسنّ لي الاطلاع عليه أسأله عنه.

لديه طريقة مثلى بالدعوة إلى الله تعالى.. وكأنه ذو صنعة أجاد مراسها وأحبّها.. فباتت هاجساً لديه. يشخّص أولاً.. ثم يمدّ جسور المودة.. ثم يفتح الحديث بطريقة انسيابية.. حتى يستحوذ على سامعه.

بعض من كان معنا.. وهم قلة قليلة لم يكونوا من المصلين.. فاختار من بينهم فتى.. سمعته يتحدث إليه.. ويدعوه إلى أداء الصلاة بأسلوب الداعية المهذب. فسرعان ما استجاب الفتى سلام وهو من أهل البصرة.. لكنه استدرك قائلاً؛ وكأنه يريد أن يكشف سراً يخشى عواقبه.. لذا قال هامساً: ـ بس آني مو شيعي.. آني سنّي.. فبادره الى الفور بجواب مفعم باللياقة.. مؤكداً له أن الجميع إخوة.. وأما

85) تبين لي في المهجر أنه كان منتمياً إلى حزب الدعوة الاسلامية منذ عام 1964.. وكان مسئوله الحزبي المرحوم عبد الأمير المنصوري الذي ظهر على شاشة التلفاز عام 1980م بصفته أحد قيادي حزب الدعوة ثم نفذوا به حكم الأعدام وقيل مات مسموماً.

الخلافات فهي أقل مما يصوّرها أعداء الإسلام.. وسرد له حكايات مستشهداً بها على ذلك.. وذكّره بما يحدق بنا.. لعل الموت هنا أقرب إلينا من أي مكان.

۞ ۞

كنا نقف للصلاة وسلام فيما بيننا يؤدي الصلاة متكتفاً.. وبالرغم من أدب سلام وأخلاقه الرفيعة.. كأنه ظفر بشيئ كان بحاجة إليه ولم يدركه.. وصار يلازمني كثيراً.. وأحدثه بما ينفعه.. واشتدت أواصر المودة فيما بيننا.

ترك المرحوم كريم لازم ذكرى طيبة في نفسي.. ولما فارقته إلى سجن أبو غريب كنت آمل أن ألتقي به.. وبعد أن مضت شهور.. زجّ معنا في قسم الأحكام الخاصة.. من سجن أبو غريب الأخ عبدالرحمن المالكي.. وكنيته أبو طاهر.. وهو ضمن المجموعة التي فيها كريم لازم.. ويعمل مضمداً في المستشفى ذاته.. وقد حكم عليهم جمعياً بالإعدام. ولكن استثني منهم فيما بعد عبدالرحمن وابن أخيه.. بعد أن تشفع لهم أحد المسؤولين.. وسألته عن كريم لازم ومحمد حنون.. فكان يذكرهم بأسف شديد.. ويذكر لي أنهم لما كانوا ينتظرون الإعدام.. صاروا يطلبون من كريم لازم أن يحدثهم عن الجنّة.. كما يصورها القرآن الكريم والأحاديث الشريفة.. فكان يلقي لهم محاضرات في زنزانة في قسم الإعدام.

وأحياناً يحدثني عنه قبل الإعتقال.. وذكر لي أنه كان مشتركاً مع أحد المؤلفين في كتاب حاز جائزة[86].. وعن دروسه القرآنية التي كان يرفد بها الشباب. كذلك كان يتذكر وسامته وأناقته عندما يرتدي القاط في العمل.

رحمه الله ورحم الشهداء جميعاً وعلى الدنيا بعدهم العفا.. ولعن الله قاتليهم.

ناموا گاز!

86) تبين لي في المهجر إنه المرحوم الشهيد عز الدين سليم.. (أبو ياسين).. وهو ابن عمه.

لم أكد أصدق عندما جاء دوري إلى النوم.. إذ مضت أيام طويلة وليالٍ ليلاء جاوزت الشهر.. لم أستطع الجلوس المريح فيها ناهيك عن النوم. وكانت طريقة النوم عسيرة.. تحتاج إلى أيام حتى يتعوّد المعتقل.. فعلّمونا الذين كانوا قبلنا قائلين: ـ ناموا گاز. وهذا المصطلح لم نسمعه من قبل.. ثم بات من مفردات السجن التي لازمتنا لمدة سنين طويلة.. زادت على ثماني سنين تقريباً.. ابتداءً من مواقف مديريات الأمن وانتهاءً بسجن أبو غريب سألناهم: كيف يكون الگاز.

فوصفوا لنا الطريقة.. مستعينين بأكفهم.. وعرفنا أن النوم (گاز) يعني النوم على الجنب.. لأن المكان لا يتسع للإستلقاء على الظهر.. ثم أن على الجميع أن يناموا في اتجاه واحد.. وعكس ذلك سوف يضيق المكان.. ولكن بعد مضي الوقت المحدد.. يطلب من الجميع أن يناموا على الجنب الآخر إبتغاءً للراحة.. ثم إن الشفت ينقسم إلى قسمين.. كل قسم يضع رأسه على جهة.. وأما الأرجل فتتداخل.. فيكون بين كل اثنين من جهة واحدة.. بينهما شخص من الجهة الثانية.. ثم أن المكان قرب الباب أكثر برودة من الأماكن الأخرى.. وذلك بتأثير المبردة التي تضخ هواءها في الممر الذي لا يصلنا منه سوى تيار خفيف.. تختلسه المفرغة لنا إختلاساً.. ولكن ما أن يلج في الزنزانة حتى يتحوّل إلى أبخرة متصاعدة.

ولأجل التقسيم العادل.. أمسى المكان من حصة الجميع.. إذ يطوفون عليه بالتناوب في كل (شفت) ينام شخص.. وهكذا تمر أيام عديدة حتى يصل الدور إلى أحد المنتظرين.

تهالكت على أرض الزنزانة طالباً للنوم.. ضغطتني الأجساد المحتشدة.. ودسست رجلاي بين اثنين ممن يقابلونني.. صعوبة أخرى واجهتني.. وهي النوم بلا وسادة.. وكان لدى بعض الأشخاص الذين سبقونا قطعة أو قطعتان من الثياب.. وهي من مخلفات الذين سيقوا إلى الإعدام.

وبعد مرور أشهر طويلة.. يتمّ توزيع دشداشة أو ملابس داخلية لكل شخص.. فبهذا يرتدي قسماً ويطوي البعض الآخر فيصنع منه وسادة.. أما نحن

الـذين لا نملـك سـوى دشداشـة واحـدة نرتـديها.. والـبعض لا يملـك حـتى الملابـس الداخلية.. فكان يحيط وسطه بدشداشة.. فلا يملك شيئاً يتوسده.. فإنه يلقي برأسه في الفراغ.. ثم لا يستطيع أن يتوسد كفه.. فمرفقه يضغط في ظهر من أمامه!

وهكذا مضت ليالٍ وأنا على هذه الحال.. إذ تمضي الساعة أو الساعتان وأنا أعالج وضع رأسي.. حتى نفحني محمد حنون بوسادة ناعمة.. وتفضل عليّ بفضل كبير.. وذلك عندما ناولني حذاءً بالٍ كان من ممتلكاته الشخصية.. فدسسته تحت رأسي.. وسرعان ما عقد النعاس عيني، وبهذا استرددت بعض أنفاسي.. فقد نمت ساعات.. وبعضها كان نوماً عميقاً.. إذ مضى أكثر من شهر لم أذق طعم النوم إلا لماظاً.

ذات ليلة وقد اشتدت الحرارة.. غزت جسدي حساسية نهشت جلدي.. حتى غدا كأنه متقرناً.. وكنت أحك جلدي حكاً شدياً.. فناولني محمد حنون قطعة صغيرة من الصابون الرقي.. كما أملى عليّ التعليمات اللازمة.. بعد أن دخلت المرحاض دهنت جسدي بها.. وتركت الصابون حتى يجف ثم استحممت.. وسرعان ما زالت الحساسية.. وهدأ روعي.. وتبين أن لمثل هذه الحالات لديهم خبرة في علاجها حسب إمكانياتهم البسيطة.. وكنت ألاحظه يأخذ عصارة ثم يدخل إلى المرحاض.. وعندما يخرج تنبعث رائحة غريبة تملأ الزنزانة.. فسألته.. قال: إن بين أفخاذه (المنطقة الداخلية) فطريات.. وهذا علاج لها.. ويبدو أن الذين سبقونا قد غزتهم أمراض جلدية كثيرة.. فإذن نحن سوف نصاب بها.. وما هذه الحساسية التي انتشرت في جلدي إلا من بوادرها.. وكثرة انتشار مثل هذه الأمراض وغيرها لأسباب عديدة.. ولكن أهمها حرمان المعتقل من الشمس ومن الهواء الطلق.. كذلك تعفن الزنزانة لحرمانها الأبدي من الشمس.

لاحظت أن محمد حنون ذات يوم ناول شخصاً قليلاً من الملح.. وأشار باشارة خفية إلى فمه الذي تنبعث منه رائحة كريهة.. إذ مضت أيام طويلة ولم يلامس

أفواهنا قليل من الصابون.. وما أن فرك أسنانه بالملح القليل.. حتى استراح الذي يدنو منه.

تجلت لي حقائق كثيرة في هذه الزنزانة وفي غيرها..أدركت أن ثمة أشياء خطيرة وممنوعة لم نكتشفها إلا بعد أن اطمأنوا لنا.. إذ كانوا يحتفظون بمقص صغير.. ولست أدري من أين حصلوا عليه.. وقد علّق ذات يوم العريف أبو جواد.. عندما نادى مَن في الزنزانات إذا كان لديهم فلوس ويريدون بعض الإحتياجات كالصابون والملح.. وطلب البعض أن يجلب لهم ذلك.. بعد أن ناولوه مبلغاً من المال.. فقال لهم متعجباً: . ولكم منين إلكم هالفلوس.. مو حتى لبسانكم أنذبها؟! مشيراً إلى تجريدهم من آخر قطعة من الثياب أثناء التعذيب.

ودهشت لأول وهلة عندما رأيت صاحبنا.. وهو يطلب من العريف كاظم أربع صابونات وكيس ملح.. ثم ناوله مبلغاً من المال.. فتبيّن لي أن مصدر هذه الأموال هي عندما يرد أحد المعتقلين ويزجّ به في الزنزانة مباشرة بلا تفتيش دقيق او انهم يغضون نظرهم قليلاً ليتسنى للمعتقل شراء بعض ما يحتاجه.. أو انه يستطيع إخفاء أمواله.. فيضع ما لديه تحت تصرف الجميع.. وغالباً ما كان يجري معهم التحقيق.. فيتركون أموالهم في ذات الزنزانة.. ثم إذا عاد إليها.. فلا يتصرف بشيئ أكثر مما يتصرف الباقون.. أي أن ماله يكون للجميع.. وكل هذا يجري عن طيب نفس.. بل وسرور في أغلب الأحيان.. إذ أنه وفّر لبعض المعتقلين بعض الإحتياجات.. وكنا نتصرف بمبلغ قدره 80 ديناراً.. تركه أحد الشباب الذين سيقوا إلى الإعدام(رحمه الله) .. وكانوايتذكرونه بألم وأسف لحسن خلقه وإيثاره.

يستخدم هذا المقص الصغير لتقليم الشوارب.. وحلق الشعر الداخلي.. كما يستخدم أحياناً لعلاج الأقدام المملوءة بالصديد عندما يعود أحد المعذّبين.. وفي حال وجود طبيب معتقل يفقأ التورم بالمقص.. ثم يقص الجلد الذي يختزن الصديد.. وأما التعقيم والعلاج فلا يزيد على ماء قليل مذاب فيه قليل من الملح.

ثم إن هذا المقص هو من الممنوعات الخطيرة.. إذ أن كل شيئ ممنوع.. ولو لم تكن به خطورة.. أما مثل هذه الأدوات فعليها عقاب شديد.. ولما كانت الزنزانات معرضة للتفتيش بين الحين والآخر.. وبصورة مباغتة.. ابتكرنا طريقة لتخبئة المقص في مكان لا يعثر عليه الحرس ولا يتوقعه أحد.. إذ نخفيه في داخل صمونة.. وبعد أن تفتح بطريقة سريعة وفنية يوضع المقص فيها.. ثم يضعونها في وسط الصمون الموضوع في الكيس.. وكان هناك ممنوع آخر خطير جداً.. ألا وهو الإبرة!

صناعة الإبرة في السجن!

أما صناعة الإبرة فتحتاج إلى مهارة عالية ودقة متناهية.. وصبر على إنجازها.. وفي هذه الزنزانة كانت من اختصاص شاب في كلية العلوم قسم الرياضيات من أهالي الكاظمية.. كان يشير أحياناً إلى باطن ركبتيه وفخذيه.. ويتابع بسبابته إطاراً كبيراً.. كأنه يشير إلى خارطة.. ويقول هذا كله أثر الحرق الذي أحرقوني به وأنا مشدود إلى السقف.. بعد أن رشوا السبريه هنا.. ثم يقول: كنت أشاهد اللهب المنبعث من رجلي! لاحظته منهمكاً في صقل عظم صغير بيده.. يحكه بحركة سريعة في عظم آخر يبلغ حجمه مقدار إبهام اليد.. فسألته عما يفعل.. فأجابني: إنه يصنع إبرة خياطة.. ودهشت لما عرفت أن هذا العظم الدقيق بيده.. سيكون إبرة خياطة! فعندما توزع وجبة العشاء.. ويكون الطعام لحم بقر.. فإنه يبحث وينقب ويتفحص العظام بعين الحاذق عن عظم يصلح لأن يكون إبرة.. ومواصفات العظم أن يكون صلباً ودقيقاً وناعماً.. ثم يتناول عظماً خشناً ويتم غسلهما.. ثم يبدأ بصقل العظم الصغير ويستمر أياماً في ذلك.. إذ يشتغل الساعات التي يجلس فيها الجميع.. وهي عادة بعد صلاة الظهر حتى الساعة التاسعة ليلاً تقريباً.. ثم يبدأ النوم، ويستمر بصقله حتى

يكون على شكل إبرة الخياطة.. وبعد ذلك تكون المرحلة الأخيرة.. إذ يحدث في رأسه ثقباً بواسطة دبوس احتفظ به وكان يعتز به.. ويخفيه في أماكن خفية عندما يباغتوننا للتفتيش.. وهكذا بعد أيام تم إنجاز عمل ضخم.. وهو إبرة خياطة لا تختلف عن الإبرة الحقيقة إلا قليلاً.

أما كيفية استخدام الإبرة.. فنستخرج الخيط القطني المحيط بالبطانية التي تحتنا.. أو إذا ظفرنا بقطعة قماش فنستخرج خيوطها.. ثم نخيط بها ما فتق من ثيابنا البالية.. أو أحياناً نجعل من الفانيلة.. أو البلوز مثلاً لباساً داخلياً.. فيسر به من خلعت ملابسه الداخلية في التحقيق.. وخاصة الذين لا ينتزع منهم اعترافاً فلا يرجع إليهم الشورت وإنما يخلع منهم.. ثم بعد التحقيق يلقى مع النفايات.

ولما كان معنا خياط.. وكان أحد المعتقلين قد خلع سرواله في التحقيق ولم يعيدوه إليه.. وبعد أن تمّ إنجاز الإبرة.. رأى بلوزاً في الزنزانة لأحد المعتقلين.. فأفشى رغبته في خياطة شورت.. وسرعان ما أمسك الخياط زواياه بأصابع ماهرة.. ثم شرع في قص جوانبه.. ثم ناوله لصاحب الإبرة.. وبعد ساعات تمّ الشورت.. ولما كان الجو حار وخانق ورطب.. فتكون للشورت أهمية كبرى.. لأنه باستطاعته أن يخلع ثيابه.

وهكذا يتضح ما للإبرة من أهمية عظيمة.. وعند إنجازها يكاد الجميع يحتفل بميلاد مولود منتظر.. ويبدو الأسف على وجوه الجميع عندما تتعرض لكسر أو خدش.. ثم تبدأ المحاولات من جديد لإنقاذ الموقف.

ولكن هذه الإبرة بقدر ما تمنحنا من فائدة.. فإنها كانت تسبب لنا كوارث.. وذلك عندما تداهم الزنزانة لغرض التفتيش.. وهذه حالة مستمرة في جميع الزنزانات.. خصوصاً إذا كان في الزنزانة مخبر.. وكنا نطلق عليه اسم منافق.. ويكون عادة أحد المعتقلين.. ومن ذوي النفوس الضعيفة الخائنة.. فيتطوع في التقاط أي شيئ ممنوع.. إذا كان كلاماً يمسّ السلطة.. أو ذكر شخص أمراً لم يعترف به.. أو تداول اثنان آيات من القرآن الكريم أو الدعاء بطريقة التلقين فيما بينهما..وهكذا سرعان ما تملأ الموقف صيحة تنادي الحرس.. وعندما يأتي الحرس.. يخبره هذا المخبر عن كل

صغيرة وكبيرة.. ولم ينل شيئاً سوى كلمة عفية (87) من الحرس.. أو أحياناً ينساها الحرس ثم يفتح الباب.. ويأمر المخبّر عنه بالخروج من الزنزانة.. وغالباً ما يكون أكثر من واحد.. ثم تنهال عليه (السياط) والهراوات.. فيعيدونه إلى الزنزانة مصبوغاً بدمه!

ذات مرة كان أحد المعتقلين يتسلى بحديث خيالي.. ويصف عملية اقتحامية لإنقاذ كل الموقوفين.. فانتهت الحكاية إلى الجهات العليا في الأمن العامة.. وجاء الملازم حازم وبيده هراوة وأخرجه من الزنزانة.. فضربه ثلاث ضربات على رأسه.. وفي مواضع معينة.. ففارق الحياة على أثرها.. ثم أخرج المخبر.. وكان ينتظر كلمة ثناء تثميناً لصنيعه ؛ لأنه خدم الحزب والثورة.. لكنه لم ينل إلا ما ناله الذي أخبر عنه.. فضربه الملازم حازم على رأسه عدة ضربات وهو يردد: ـ تريد إتصير وطني بروسنا؟! ولم يتركه إلا وهو جثة هامدة بين يديه.. وانتهت الحكاية بموت المخبر والمخبَر عنه.. وهكذا هو عراق صدام حسين لم يسلم منه أحد.. القاتل اليوم سيكون قتيلاً بعد أيام!

المخبرون في الزنازين

كنا نسمي المخبرين (المنافقين).. وأحياناً يسيطرون علينا ويزداد عددهم.. فيجرعوننا ما هو أمرّ من العلقم.. وتكون الساعات معهم شديدة صعبة.. بل وتكون سماؤنا متلبدة دائماً بالخوف والهلع.. والقلق والإضطراب والفزع.. وهؤلاء يرافقوننا من مواقف مديريات الأمن في المحافظات.. ثم موقف مديرية الأمن العامة.. وحتى سجن أبو غريب.. والأنكى من هذا كله أن يكون أمثال هؤلاء في زنزانات قاطع الإعدام.. ولكن بطريقة ما نتمكن من الأخذ بأعناقهم وإذلالهم والسيطرة عليهم.. فيصبحون أذلّ من العبيد.. ويبقى هذا المدّ والجزر بيننا وبين المنافقين على مدى سنين طويلة.

87) كلمة باللهجة العراقية الدارجة تقال للثناء.

وهناك نوع من المخبرين شياطين ماكرين يتمكنون من التستر بسلوكيات معينة.. كخدمة السجناء مثلاً.. أو كثرة التعبّد.. والمواظبة على صلاة الليل.. ويجهل الكثيرون أمرهم ولا يعرفهم إلا القلة من السجناء.. وهؤلاء كانوا حقاً منافقين!!

عثروا على الإبرة!

الإبرة إذن بقدر ما تسرنا.. كانت تبعث فينا القلق والتوجس.. خاصة والعريف كاظم والحرس اكتشفوا مثل هذه الممنوعات.. والإبرة على وجه الخصوص.. ولذلك كان بين فترة وأخرى يأمر جميع مَن في الزنزانة بالخروج إلى الممر لغرض التفتيش.. فإذا عثر على شيئ ممنوع عند انتهاء التفتيش يكون مصير الجميع الضرب الشديد.. وإذا لم يقرّ أحد ينظر في ثيابهم.. واحداً إثر واحد.. والويل لمن يجد في ثوبه أثر من إبرة العظم.. إذ أن الخياطة بها تكون متميزة.

وذات يوم عثر على ثوب مخيط بهذه الإبرة.. كان أحدنا قد ارتداه.. والخياطة التي يكتشفها غالباً ما تكون في جوانب الدشداشة البارزة.. وإذا بالعريف أبو جواد يصيح به كمن ظفر بصيد ثمين: ـ ولك هاي منيلك الإبرة؟! فأجابه على الفور قائلاً له.. وكأنه بين يدي وحش يبتغي إفتراسه: ـ هذي الدشداشة لواحد ذهب إلى المحكمة ولم يعد. فأجابه متهكماً.. وكأن الجواب يعرفه مسبقاً.. لكثرة ما سمعه:

. ولك هاي إتمشيها عليّه؟! ثم انهال عليه بسوطه الآثم.. وضربه كثيراً على كفيه حتى تورمتا. فالمعتقلون يحفظون أمثال هذا الجواب عن ظهر قلب.. لأن جميعهم يمرون بمثل هذه الحالات.

موت المعتقلين خنقاً

ضحى يوم 14 حزيران 1981،كان يوماً مشهوداً.. وبات تاريخاً في موقف مديرية الأمن العامة.. إذ انقطع التيار الكهربائي.. ولسبب ما لم يعرفه أحد

حتى بعد السنين الطويلة[88].. ولما كانت الزنزانة صغيرة وضيقة ونتنة.. ولم يدخل إليها هواء نقي إلا الذي يتسلل من خلال الفتحة الصغيرة التي في الباب.. بعد أن تسحبه المفرغة.. وبالرغم من أننا لم نشعر به.. ولكن نطمئن إلى وجود هذا التيار.. عندما نلاحظ أن المفرغة تتحرك.

ولما انقطع التيار الكهربائي توقفت المفرغة ولم تعد تتحرك.. وبعد دقائق إمتلأت الزنزانة بالأبخرة لكثافة الزفير فصار كالضباب.. أحس البعض بصعوبة في التنفس.. فطلب أحدهم صائحاً من الواقفين أن يجلسوا.. فتجاوبت معه صيحات مؤيدة تطلب من الجميع الجلوس.. لكي يفسح المجال لتحرك الهواء.. جلس الجميع.. لم يتغير شيئ نحو الأحسن.. وبعد دقائق إزدادت كثافة الضباب.. أحسّ الجميع بالإختناق.. إزداد الإختناق.. إذ أن الزنزانة ضيقة جداً.. والعدد يدنو من الثلاثين فرداً.. والشهر هو شهر حزيران.. وتيار الكهرباء مقطوع.. إذن ماذا سيكون.

انطلقت صيحات استغاثة منادية الحرس.. ولكن دون جدوى.. إزداد الصراخ.. تعالت صيحات مدوية.. صيحات هستيرية.. مزقت الآذان.. تمزقت الحناجر.. تشققت الجدران.. إلا أنها لم تمزق غلف القلوب الفظة الغليظة الحاقدة.

بدأ الإغماء يتسلل إلى البعض.. وتساقط البعض مغشياً عليه.. وراح البعض يصرخ كالمجنون يسقط صدام.. يسقط صدام.. كانوا يفضلون الموت بالرصاص على الموت إختناقاً.. أحدهم كان ماسكاً (دولكة) الماء وكان يملأها.. ثم يسكبها على رأسه.. وهو لا يدري ماذا يصنع.. ويصيح كالمجنون:. يا علي.. يا علي.. يا علي بوتو! صيحات هستيرية صاخبة.. وضلّ الجميع على هذه الحال خمس ساعات تقريباً.. فما انجلت الغبرة إلا ومجموعة من المعتقلين صرعى.. جروهم إلى الممر.. بعضهم زهقت أرواحهم وفارقوا الحياة.. وعدد هؤلاء يقارب عشرة أفراد.. من بينهم

[88]) قيل إن المعتقلين سمعوا صوت إطلاق عيارات نارية.. وهم في الزنزانات.. فكبّروا بأعلى أصواتهم.. ظناً منهم أن المجاهدين اقتحموا مديرية الأمن لإنقاذهم.. أو أن جيش إيران دخل لتحرير العراق!

فتى من أهالي الدجيل عمرة 17 سنة تقريباً.. لا أتذكر أسمه.. ولكن أخبرني عنه أخوه حسن مجبل في سجن أبو غريب.

والبعض الآخر قد أغمي عليه لساعات.. ومنهم لم يفق إلا بعد يوم أو يومين وحتى ثلاثة أيام.. كان من بينهم كريم لازم (رجمه الله).. حدثنا عن حالته وعن الغيبوبة التي أصابته.. وكيف أنه اطمئن إلى موته واستسلم له.. وقرأ الشهادتين.. وأما الباقون فقد تساقطوا منهكين خائري القوى.. وبقيت ذكرى حزيران عالقة في أذهانهم يتذكرونها بمرارة.. وكأن مرارتها لم تزل في حلوقهم.

تعذيب المعتقلين بدواء مسهل!

حالات كثيرة غريبة وصعبة ومريرة ترافق المعتقل منذ ساعة اعتقاله وحتى ساعة إعدامه أو الإفراج عنه.. وكل هذا لم يكن إعتباطياً أو عفوياً.. إنما بدراسة متقنة.. وجهود تبذل لأجل تحطيم شخصيته.. ولما قرأت كتاب صلاح نصر[89] (الحرب النفسية) فيما بعد تبيّن لي أن مدرسة تدمير الإنسان العقائدي وحامل الرسالة هي مدرسة واحدة.. والأساليب الأخرى مع الجميع هي واحدة.. ساعات حرجة وعسيرة عندما يصاب جميع مَن في الزنزانة بإسهال شديد.. وهذه الحالة سببها دسّ مادة في الطعام.. ولما كان العدد كبير.. ودورة المياه واحدة.. والجميع يبتغون الدخول إليها.. وآلام حادة تنهش أمعاءهم.. فلم يجدوا حلاً غير أن يدخل كل اثنين سوية.. ويجلسان على السيفون وظهراهما متلاصقان.. ثم تأتيهما الصيحات من الخارج طالبة منهما الاستعجال وبإلحاح.. وبعضهم يمسك بطنه.. ويعضّ على ناجذيه.. ويناديهما بغضب.. والجالس على السيفون لم يكن هادئ البال بل كأنه ينتزع أمعاءه.. ولما يرى أحدهم الآخر على هذا الحال.. والآلام تنهشه من داخله وخارجه.. يلتفت أحدهما إلى الآخر ساخراً من القدر.. ومن الجلادين.. ومن بطل التحرير القومي.. ومن الحال

[89]) رئيس المخابرات المصرية في عهد جمال عبدالناصر.

التي هو فيها ومن معه.. ومن كل شيئ.. فيقول لصاحبه وهو غارق في ضحك هستيري: ـ مساكم الله بالخير. فيجيبه صاحبه بالشعور ذاته: ـ مساكم الله بالخير.

أحياناً في مثل هذه الحالات ينقطع التيار الكهربائي.. الذي يرفد المصباح.. فيضطر الكثيرون أن يقضوا حاجتهم على أرض الزنزانة.

عداء الجلادين للدين!

كان عداؤهم للدين لا يخفى على أحد.. ولكنهم لا يصرحون بذلك.. ذات ليلة عندما كنت في أيام التحقيق.. وموثق إلى قنينة الغاز.. دخل الملازم حازم وبيده حقيبة.. ويبدو أنه متهيئ لمغادرة دائرة الأمن العامة إلى بيته.. فأوصى الشرطة أن يعطوا الصائمين مي بارد.. ثم سأل عن عدد الصائمين.. فأجابه: عدد قليل الذين يصومون في النهار.. ولم نسمع أحداً أعطي ماء بارداً.. بل كانت معاملته خاصة.. ومن طراز خاص! لذلك كان البعض يصوم ويكتم صومه بل يتظاهر بالإفطار خشية أن يعامل معاملة خاصة.

وقت أذان الفجر يكون الحرس عادة نائمين.. فيغتنم غفلتهم البعض فيؤذن معلناً وقت أذان الفجر.. أما في وقت صلاة الظهرين والعشائين.. فيكتفون بالتنبيه بالضرب على الجدران.

ذات يوم.. فاجأ العريف أبو جواد أحدهم وهو يؤذن.. فصاح غاضباً: ـ ولك أنت هنا عدنا وتأذن.. ولك جامع اگبالنا عزل! ثم أخرجه من الزنزانة.. فأذاقه حر السياط.. فعاد إلى الزنزانة متورم الجسد.. كانوا يفصحون أحياناً عن طائفيتهم.. وعن حقدهم على المقدسات.. ذلك عندما يدور حوار بيننا وبين الجلادين.. وتتخلله فكاهة وفيها تجريح.. قال أحد المعتقلين للعريف كاظم من خلال فتحة باب الزنزانة.. مغتنماً بشاشته: ـ أبو جواد.. تره إحنا مو بحزب الدعوة.. ليش تعاملونا هالمعاملة؟!

فأجابه العريف كاظم بصوته العالي: ـ ولك شلون إنت مو بحزب الدعوة.. إنت مو تصلي على تربه؟!

فأجابه: ـ آني ما صلي.

ـ وحبوبتك[90] مو تصلي على تربة؟!. نعم.

ـ خلص.. معناها أنتم كلكم بحزب الدعوة.

علماً أن هذا الجلاد.. العريف كاظم هو شيعي من أهالي الناصرية..فهم يتهمون الشيعة أنّ جلّهم في حزب الدعوة.. وفي قراراتهم.. إن كل متهم بالانتماء إلى حزب الدعوة يحكم الإعدام!

السيد حسن شناوة والجلاد علي الخاقاني

اعتقل سيد حسن شناوه من مدينة الشعلة.. وأبوه سيد شناوه رجل وجيه في قومه.. وتمّ التحقيق معه في مديرية أمن الثورة على يد الجلاد المجرم علي الخاقاني وزمرته.. وتعرض لتعذيب شرس لارغامه على الاعتراف بأنه ينتمي إلى حزب الدعوة.. وصمد صموداً أجهد الجلادين.. وظل مصراً على عدم انتمائه إلى حزب الدعوة.. فما كان من الجلاد علي الخاقاني إلا أن اتبع أسلوباً ليبوح بالحقيقة.. فقال له: ـ إنت مو ابن سيد شناوه؟! ـ نعم. ـ الناس مو تتبرك إبيتكم.. وتضع الحناء على الباب والجدران؟ ـ نعم. فقال علي الخاقاني ببرودة كاوية:ـ هو هذا حزب الدعوة. فرد عليه سيد حسن بدهشة ممزوجة بغضب.. وقال متسائلاً: ـ هو هذا حزب الدعوة؟! فأجابه على الخاقاني باللهجة ذاتها: ـ نعم.. هو هذا حزب الدعوة. فما كان من سيد حسن إلا أن صرخ غاضباً: ـ جيبوا الورقة أوقع أنا بحزب الدعوة. وحكم عليه بالسجن المؤبد..

ومكثنا سوية في سجن أبو غريب سنين عدداً!!

---

90) حبوبتك يعني جدتك.. بلهجة بعض أهل جنوب العراق.. و التربة هي قطعة الحجر التي يصلي عليها الشيعة.

السيد علاء الحكيم

هكذا لبثت هذه الفترة في الزنزانة رقم 21.. وعلمت فيما بعد أن جميع الزنزانات الأخرى لها برامجها الثابتة.. ويؤدي البعض صلاة الجماعة في عدد من الزنزانات.. وبعضهم يلقي محاضرات فكرية.. وكذلك لم ينقطعوا عن حفظ القرآن والأدعية المأثورة.. كذلك عرفت أن سيد علاء الحكيم نجل المرجع الديني آية الله العظمى السيد محسن الحكيم(رحمه الله)كان في زنزانة قريبة من زنزانتنا.. وكل من عاشره كان متأثراً بأخلاقه الرفيعة.. وتواضعه.. وتسامحه.. وحرصه على الألفة والأخوة.. وقد تعرض لتعذيب شديد.. وأجري معه التحقيق مراراً.. حتى رزق الشهادة.. رمياً بالرصاص.

ثم تبين لي أن الزنزانات وإن حجب بعضها عن البعض الآخر.. ولكن الحاجة أم الاختراع كما يقال.. إذ كان الجميع على اتصال فيما بينهم.. ويتمكن أن يتصل شخص في الزنزانة رقم21 مثلاً بشخص في الزنزانة رقم20.. أو 19.. أو حتى آخر زنزانة في الصف الذي في الطابق الأعلى.. ولكن كلما ابتعدت الزنزانة كان الاتصال يحتاج إلى جهد أكبر.. والطريقة المتبعة التي يمارسها الكثيرون هي طريقة المورس[91].

إذ كان ثمة أنبوب طويل يتغلغل في جميع الزنزانات يرفدها بالماء.. وقد إستخدمه المعتقلون بريداً فيما بينهم.. وذلك بأن ينقر شخص ما على الأنبوب بقطعة حديد صغيرة أو عظم.. فيجيبه أحدهم من الزنزانة المجاورة.. ثم يطلب الشخص الذي يخصه.. ولما كان البعض يمكث شهوراً طويلة.. فيكون له في كل زنزانة صديق أو صديقان.. أو ربما البعض له أخ أو رحم في إحدى الزنزانات... وهكذا.. وأما طريقة المورس المتبعة فهي تتسلسل مع الحروف الأبجدية.. ولكل حرف رمز.. فالألف نقرة واحدة.. والباء نقرتان.. والجيم ثلاث نقرات.. والدال أربع نقرات.. ثم تتحوّل إلى رمز

---

91) شيفرة الاتصال البحري.

آخر.. فعندما تصل إلى حرف الهاء يكون الرمز خطاً.. أما حرف الواو فرمزه خط زائد نقطة.. وحرف الزاي خط زائد نقطتان... إلخ. والملتقط لجميع هذه الحروف تتكون لديه كلمة.. وبعد الإنتهاء من كل كلمة.. تنقر نقرة مميزة.. تعني الفاصلة.

وبهذه الطريقة يصل المرء إلى حاجته.. فيبعث أشواقه.. واستفساراته... إلخ. أو يطلب من شخص ما أن يحمل رسالته.. ثم يوصلها إلى صديقه في الزنزانة المجاورة لهم.. أو أن يطلب من هذا أيضاً أن يوصل هذه الرسالة إلى شخص ما في زنزانة مجاورة لهم.. وهكذا تستمر الرسالة في سيرها.. حتى تصل إلى الغاية المطلوبة.. ثم يبقى المرسل منتظراً الجواب حتى يأتيه عبر الأنبوب.. فيجمع أصداء النقرات على الأنبوب نقرة نقرة.. فتجتمع لديه كلمات.. ومن مجموع الكلمات تجتمع لديه رسالة مفعمة بالأشواق والحنين والشكوى... إلخ.

وأما للمورس فهناك شبه متخصصين.. إذ أن أياديهم تنقر كما ينقر الطباع على آلة الطابعة.. وبسرعة محكمة.. والمستلم يستلم بالسرعة نفسها.. وهكذا. وهناك كثيرون أيضاً يتداولون ما يريدونه بطريقة المورس وبطريقة بطيئة.

والمورس من الممنوعات الخطيرة التي لا تغتفر.. وكان العريف كاظم يعاقب عليها عقوبة شديدة.. وكان دائماً يصرخ مستنكراً: . ولكم حتى الحديد حچّيتوه؟!

ثم إذا سمع أحد الحراس صوت نقر ينبعث من إحدى الزنزانات.. فإنه يأمر جميع مَن في الزنزانة بالخروج إلى الممر.. ثم يعود الجميع وقد أثقلوا بالسياط!

وذات يوم أخرج مَن كان في إحدى الزنزانات.. ولم يشعر بإخراجهم مَن كان في الزنزانات الأخرى.. ثم دخل العريف كاظم إلى الزنزانة ونقر على الأنبوب.. فأجابه شخص كان في الزنزانة المجاورة.. واستمر الحديث فيما بينهما.. ثم سأله العريف كاظم عن اسمه ومعلومات تخصه... إلخ.

وبعد قليل.. أطل العريف كاظم على الزنزانة منادياً اسم الشخص الذي كان يتصل معه قبل قليل.. فأخرجه إلى الممر.. ثم انهالت عليه السياط.. وعاد إلى زنزانته مصبوغاً بدمه!

من آثار التعذيب بالكهرباء

استيقظ أحد الفتيان.. ونهض من مكانه قاصداً المرحاض.. وبعد قليل عاد مغتسلاً وعليه إمارات الحياء. فجاءه رعد حكمت وهمس في أذنه.. وكأنه يبحث عن حقيقة غابت لم يعرف سر ضياعها.. فسأله: ـ كنت مجنباً؟!

فأجابه وهو يداري حياءه.. مستعيناً بإشارة تأييد برأسه: ـ نعم.

فعاد سؤاله ثانية.. وهو يستزيده: ـ شنو الحلم اللي شفته؟!

ـ لا شيئ.. كأنني كنت أنظر إلى صورة الفتاة التي تزين غلاف باكيت التايد.. ثم شعرت بالجنابة.. واستيقظت.

وما أن انتهى الحوار.. حتى عاد إلى مكانه.. وتبيّن أنه يتساءل عن سبب انقطاع الإحتلامات في هذه الأيام! ثم دار حديث.. وكان بعضهم يسأل الآخر: ـ أنا متعجب إذ أنني لم أرَ مجنباً.. والكل شباب! ـ صحيح.. ولكن ما هو السبب؟

ـ قيل إنهم يدسّون مادة في الطعام.. تضعف العامل الجنسي.

فأجابهم رعد حكمت بجواب قاطع:. أنتم اشتحچون؟! هي هاي الكهرباء اللي يعذبون بيها إتخلي شيطان[92] بعد؟! فمدّ بعضهم بصره نحو الآخر.. ونظرته تنطق بهول عذاب الكهرباء.. مؤيداً هذه النظرية.. من أن الشيطان لا يقترب من أحد مسّته كهرباء مديريات أمن الجلاد الدكتاتور الأرعن صدام حسين.

الإنجازت الوطنية لصدام وجلاديه

التقطت من الأحاديث معلومات مهمة، كشفت لي بعض أسرار هذا الشبح الرهيب الذي أسكننا أحشاءه! ثمة أساليب وحشية أخرى لم أعرف عنها شيئاً.. غير الأساليب التي عرفتها في الشعبة الخامسة من مديرية الأمن العامة، كان

92) يعتقد البعض أن سبب الأحتلام هو مس من الشيطان.

البعض قد تعرض لها.. والبعض الآخر شاهدها أو كان شاهداً عليها.. وعرفها من خلال الذين تعرضوا لها.. ثم سيقوا إلى حبل المشنقة.. أو إلى القتل الجماعي. إضافة إلى التعذيب بالشد الى السقف والفلقة والجلد بالسياط والكهرباء والضرب بالهراوة الثقيلة التي تستهدف السيقان والأذرع والاكتاف والرأس والخازوق والقعود على قنينة البيبسي كولا والمكوى والوقوق أياماً طويلة بشد المعذّب على المشجب من يديه واطفاء اعقاب السكائر في جسده حتى يفقد صوابه ويظل يتكلم بغير وعي [93].

هناك أساليب وحشية أخرى.. منها:

. قلع الأظافر.

. قلع الأسنان.

. قلع العين.

. التيزاب.. بأن يلقى على مواضع معينة من الجسم.

. قطع الأذن.

. وضع محلول حارق في العينين.. وللمرأة في أغمض مكان في جسدها.

ـ بعد أن يعلّق المعتقل إلى سقف الغرفة.. يشد خيط متين بعضو ذكورته منتهياً بطابوقة تتدلى.

ـ وضع خوذة في الرأس يُحكم شدها على رأس المعذّب.. ثم توصل إليها الكهرباء.. كما حصل لشاب بعد أن ظل يضرب رأسه في الجدران.. حتى اختل عقله.. ومضت عليه سنون طويلة.. وهو في حالة غير اعتيادية.. إذ أنه عندما يتحدث حديثاً ما فجأة يقطع حديثه ثم يسترسل في حديث آخر ليس له علاقة بحديثه الأول.. ثم يظل يهذي في كلامه متنقلاً من هنا وهناك!

ـ البرينة: تستخدم لحفر المواضع الصلبة في الجسم.. كالركبتين والقدم والساق ومواضع أخرى.

93) ربما ستكشف الأيام أساليب وحشية أخرى.. خصوصاً بعد سقوط الدكتاتور المجرم صدام حسين.

ـ المنشار لقطع الأطراف.. تبدأ بالرجلين ثم اليدين.

ـ وضع المعتقل على الأرض مباشرة مجرداً من ثيابه.. ثم فتح الهواء البارد المنبعث من المبردة أيام الشتاء القارس.

ـ استخدام الطبر مع المعذّب! شاهدت رجلاً من أهالي الديوانية.. وهو أحد السجناء معي في سجن أبوغريب.. كانت أصابع قدميه مضطربة التكوين.. فحدثنا ذات يوم: ـ بعد أن استمر الرائد عامر أياماً طويلة في تعذيبي.. أخيراً لجأ إلى استخدام الطبر معي.. فكان يضربني بقوة على غير هدى.. لكنه ظلّ يركز على أقدامي!

وكذلك حدثني الأخ جبار وكنيته أبو عقيل من محافظة البصرة.. وهو يشير إلى أثر جرح كبير في فمه: ـ بينما كنت مشدوداً إلى السقف.. وضع الرائد عامر السكينة في فمي ثم شقّه.. حتى حصل هذا الجرح الكبير.. إذ كان يطالبني بالاعتراف عن أسلحة لم أكن أعرف عنها شيئاً.

هناك أساليب وحشية أخرى سمعت بها.. منها إلقاء بعض المعتقلين في زنزانات صغيرة.. وسقفها متدني جداً.. حتى لا يتيح للمعتقل الوقوف.. بل الجلوس والإستلقاء فقط.. ولفترة طويلة تبلغ الشهور.

۞ ۞

شاهدت أقدام بعض السجناء فيها آثار ثقب كبيرة فسألتهم عنه.. ومن هؤلاء الذين أتذكرهم: حسين سلمان الدبي من أهالي العمارة قضاء الكحلاء.. وعبدالرحمن من القرنة وغيرهم كثيرون.. فتبيّن لي أن هذا الجرح يحصل من جراء الفلقة.. ولما تتورم الأقدام.. تمتلئ بالصديد.. ثم يبدأ القيح يسيل من الجروح! ويبقى المعذّب مشدوداً إلى المشجب أياماً طويلة من غير علاج.. فيستمر الجرح بالاتساع.. حتى يبرز من أعلى القدم على شكل دائرة كبيرة تملأ نصف القدم.

كذلك يستخدمون السكاكين الحادة لتمزيق الرجل والساق.. فيبدأون بغرز السكين في أسفل الركبة وصولاً إلى القدمين.

يستخدمون (البرينة) في مواضع غير التي ذكرتها كما حصل لأحد المعذّبين وهو رجل دين.. إذ حفروا مواضع جنب فتحة المخرج.. ولما أغمي عليه عالجوه.. ولما شفي عادوا إليه بالأسلوب الشنيع ذاته.. وهكذا ثلاث مرات.

۞ ۞

شاهدت في كتف أحد السجناء آثاراً تشبه آثار الجدري.. ولما سألته عنه قال لي: . إنه آثار التيزاب.. الذي ألقوه على كتفي في التحقيق.

تعرض الكثيرون من المعتقلين للحرق.. وعادة يكون في باطن الركبتين وينتشر على الفخذين.. وذلك بعد رشها بالسبريه.. ثم قدحه بالنار.

۞ ۞

أول حرق رأيته من هذا النوع.. وقد راعني كثيراً.. هو ما حصل لابن عمي عائد.. وذلك في خريف عام1980.. أي قبل اعتقالي بعشرة شهور تقريباً.

وقد حدثني عن وسائل التعذيب الرهيبة.. وكانت أشدها عليه الكهرباء.. حيث أنها ترج الإنسان رجاً بلا رحمة.. فتجعله يصيح بلا وعي.

كذلك هناك حرق آخر.. وهو أن يقعدوا المعذّب على المدفأة النفطية.. بعد ربطه وشدّه شداً وثيقاً.. فلا يستطيع الحركة.. والنار تلتهم إليته وأفخاذه حتى يسيل الدهن من جسده.

۞ ۞

ومن أساليبهم الوحشية هي أن يقعدوا المعذّب على قنينة البيبسي كولا.. ويضغطون على كتفيه حتى تغوص في أحشائه.. والدماء تسيل من تحته.

لكن ذات مرة أقعدوا إحدى المعتقلات على قنينة عنبة.. إذ يبلغ قطر فوهتها 6سم تقريباً.. ثم تستمر في الاتساع حتى يبلغ قطرها من الأسفل ربما أكثر من 10سم.. وهكذا غاصت القنينة في أحشائها حتى فارقت الحياة!!

ثم أدخلوا رجلاً من أهالي البصرة.. وقد اعتقلوا معه أخاه وزوجته وأخته وابنته.. وبعد أن استمروا بتعذيبه أياماً طويلة.. ولم يعترف لهم بالرغم من أنهم عثروا على مستمسكات تدينه.. كالهويات المزورة.. وأسلحة.. وبرميل مملوء بالتيزاب لصناعة أسلحة قاتلة. ولما أدخل إلى غرفة التحقيق.. قالوا له: ـ انظر.

وهم يشيرون إلى مكان ما في الغرفة. قال لي: ـ نظرت فشاهدت امرأة ميتة.. مجردة من ثيابها.. وقد أقعدها الجلادون على قنينة عنبة ووجهها مغطىً بقطعة قماش.. ثم سألوه قائلين باستفزاز: ـ هل عرفتها؟! ـ لا. ـ هذه زوجتك.

وظنها زوجته.. ثم تبيّن له بعد أيام طويلة أنها ليست زوجته.. ثم أتوا بابنته وهي فتاة دون العشرين من عمرها.. فجردوها من ثيابها عن آخر قطعة من ثيابها بمرأى منه ومن أخيه.. فأما أخوه فأصيب بالجنون.. وبسبب جنونه لاقى أذىً شديداً في سجن أبو غريب.. ظناً منهم أنه يتصنع الجنون.. فلا يمتثل لأوامرهم!

وأما الأب ففقد ذاكرته. وقال لي بعد سنوات في سجن أبو غريب: ـ إن صوت ابنتي وهي تستغيث.. عندما كان الجلادون يجردونها من ثيابها لم يفارق ذهني أبداً.. وكأنني أسمعه تواً.

أبو الهيل

أبو الهيل.. معلم من مدينة الناصرية.. استخدموا معه شتى أساليب التعذيب لكنه ظل صامداً كالجبل الأشم.. تبلغ بي الدهشة إلى أقصاها عندما يلوح لي إنسان بهذه الصلابة.. وبهذا الصبر! إذ أنهم يلقون به أرضاً بعد إجراء أقسى أنواع التعذيب معه.. حتى أنه لا يقوى على الحركة.. بيد أنهم يعجزون عن إسكات لسانه عن الحركة. فلقد كان يطلق عليهم كلمات نارية دون وجل.. غير هيّاب منهم بالرغم من كل أساليبهم الوحشية التعسفية.

ذات مرة ألقوا به في الممر من الشعبة الخامسة.. وقد كسروا يديه ورجليه في غرفة التعذيب لكنه ازداد صلابة.. وكان بجانبه السيد علاء ابن السيد محسن الحكيم رحمهما الله مسجىً إزاءه وهو يئن من جرّاء التعذيب.. وقد مضت عليه سنتان وهو عرضة لأبشع صنوف التعذيب.. وظل صامداً (رحمه الله).

وفي هذه الأثناء وقف الجلاد الملازم حازم على رأسه ليسأله سؤالاً يبدو أنه فقهي لكنه يبتغي منه النيل من السيد علاء الحكيم.. إذ كان يستخدم الألفاظ السوقية البذيئة جداً.. فما كان من (أبو الهيل) إلا أن ردّ عليه رداً موجعاً.. وقال له: لك لو ما إنت سرسري ما سألت هذا السيد الجليل هذا السؤال.

وشتمه شتماً بهت له.. فأمر الشرطة أن يضربوه بالنعال على فمه.

۞ ۞

وبعد مضي أيام قطعوا جميع أطرافه بالمنشار.. وظل ساعات ينزف.. ويتبول ويتغوط في مكانه.. ثم جاء المجرم فاضل البراك مدير الأمن العام.. وأمر جميع المعتقلين أن يرفعوا العصابة عن عيونهم.. ثم قال موجهاً كلامه إلى جميع المعتقلين: ـ أنظروا ماذا سأفعل به.. وهذا الفعل جزاء لكل واحد منكم لم يعترف.

ثم وضع البرينة في صدغه حتى ثقبت رأسه.. ثم أدار الشرطة وجه أبو الهيل فوضعها في الصدغ الثاني.. حتى فاضت روحه(رحمه الله) تحت وطأة برينة المجرم المقبور فاضل البراك!

۞ ۞

وأما أساليبهم في التعذيب النفسي فغالباً ما تكون ممزوجة بالتعذيب الجسدي.. كما حصل ذات مرة أن علقوا امرأة حامل في شهرها التاسع في السقف.. بعد أن شدوا كفيها إلى الخلف وتركت تتدلى في الفراغ وأجهضت.. ولم يكن لها ذنب سوى أن تكون إحدى وسائل التعذيب النفسي لزوجها!

واستخدموا هذا الأسلوب النفسي معه بعد أن عجزوا عن أساليبهم الوحشية في التعذيب الجسدي! وكل هذا بمرأى ومسمع من زوجها وهو مقيّد ينظر إليها.. وهي تستغيث فلا تغاث!

۞ ۞

كانوا يضغطون نفسياً على بعض المعتقلين وذلك بالإعتداء على أعراضهم.. ذات مرة أدخلوا أحد المعتقلين إلى غرفة التحقيق.. وما أن أدخلوه ورفعوا العصابة عن عينيه حتى فوجئ.. إذ رأى زوجته وقد وضعوها بوضع معين.. وثمة رجل كان متهيئاً لفعل الفاحشة معها.. وهدده المحقق فقال له: إما الاعتراف وإما!

فما كان منه إلا أن ضرب الجدار برأسه ضربة عنيفة فارق على أثرها الحياة!

۞ ۞

وهناك أسلوب نفسي آخر.. هو قتل الأطفال الرضع بمرأى ومسمع من أمهاتهم وآبائهم.. وذلك بإمساك الطفل من قدميه ثم ضرب رأسه الطري بالحائط.. فيتناثر مخه أمام ناظري أمه وأبيه! ذات مرة أمسك الملازم حازم طفلاً رضيعاً أمام ناظري أبيه.. إذ كان معتقلاً هو وعائلته.. وكان يجادل الملازم حازم جدالاً حاداً.. ويستنكر أفعالهم الإجرامية بلا أدنى خوف ولا وجل.. بالرغم من وجود عائلته معه وهي معرضة للهتك والقتل فلم يكن من الملازم حازم إلا أن هدده بقتل رضيعه.. فأجابه هذا الرجل الشجاع قائلاً له بغضب: ـ أقتله.. أقتله.. وهل هو أفضل من الآلاف الذين قتلتموهم؟! فما كان من الملازم حازم إلا أن جذب الرضيع وأمسك برجليه.. ثم ضرب رأسه بالجدار ضربة عنيفة فتناثر مخه على أثرها أمام ناظري أبيه! ولكن هذا الرجل الشجاع أدهش الجميع بصلابته!

۞ ۞

هناك أساليب وحشية أخرى.. كإلقاء المعتقل في غرفة الرعب[94] كما حصل لفتىً من أهالي مدينة الثورة لم يتجاوز عمره السابعة عشر.. كان شجاعاً صلباً حتى أنه أنهك الجلادين دون أن يدلي باعتراف.. ولما مارسوا معه أساليب متنوعة من التعذيب ولم يحصلوا على ا منه..

قال له الرائد عامر: الآن لا نريد منك اعترافاً.. فقط نريد منك أن تسبّ الخميني. فأبى ذلك وقال للجلاد الرهيب عامر التكريتي بلا مبالاة: . إشلون أسبّ هذا السيد ابن رسول الله؟! وهنا جن جنون الرائد عامر وزمرته.. فألقوا به في داخل غرفة الرعب.. وبعد دقائق أخرجوه وقد أصيب بالجنون!

وكان هذا الفتى رياضياً قد حصل على أحزمة متقدمة في لعبة الكاراتيه.. ولما زجّ به في داخل الزنزانة.. كان مصدراً للأذى الشديد لمن في الزنزانة.. إذ كان يمارس مع من حوله ألعاب الكاراتيه.. وأحياناً يتبول ويتغوط في داخل الزنزانة بالرغم من ضيق المكان والإزدحام الشديد.

وفيما بعد سيق مع جماعات القتل الجماعي من موقف الأمن العامة!

۞ ۞

ومن أساليب التعذيب النفسي السجن الانفرادي.. كما حصل للدكتورقاسم[95] مهاوي الذي كان ضابطاً في الجيش برتبة مقدّم.. ويحمل شهادة الدكتوراه في الهندسة الإلكترونية.. إذ أُلقي في زنزانة لوحده لمدة شهر دون أن يكلّم بكلمة واحدة.. سألته فيما بعد: .كيف قضيت تلك الأيام؟!

---

94) غرفة الرعب.. يبدو أنها درجات.. أتلمس ذلك من خلال ما سمعته من البعض الذين خرجوا منها غير مجانين.. تبدأ بأصوات عالية وصراخ.. ثم تستمر حتى تتساقط أطراف مقطعة من الأموات على رأس المعذّب ترافقها أصوات مرعبة.. ثم تهجم عليه حيوانات مفترسة.. وهي بالطبع حيوانات مديرية الأمن العامة من الجلادين.. يدسون أجسادهم في جلود هذه الحيوانات المفترسة.. إلى ما هنالك من وسائل مرعبة تفقد البعض عقله.. ذات مرة هجم اسد مفترس على أحد المعتقلين.. فما كان من المعتقل إلا أن يرد عليه بهجوم.. وعضّه في كتفه حتى ظل يصرخ.. فتبين أنه أحد رجال الشرطة!

95) هو الشهيد المقدم د. قاسم مهاوي حسين وكيل وزير الاتصالات.. استشهد في عام 2004م. بعد ان اتم 20 عاما في السجن

قال لي: ـ كانت صعبة للغاية.. ولكن كنت أتغلب عليها بذكر الله.. ولم أشتق إلى شيئ كما كنت أشتاق إلى قراءة القرآن الكريم.

ـ وما هي آثارها عليك؟!

ـ عندما عادوا بي إلى الموقف والتقيت بالمعتقلين.. شعرت أنني قد نسيت الكلام.

۞ ۞

قال لي الأخ عباس من أهالي النجف قضاء الحيرة: ـ استخدموا معي أساليب وحشية كثيرة.. ثم وضعوني في زنزانة فيها مجنون جنّ من جراء التعذيب.. كنت جالساً وأرنو إليه.. كان يتحرك في الزنزانة جيئة وذهاباً بتوجس وكأنه يترقب.. وبين الحين والآخر يقف إزاء الباب وينادي بصوت عالي: أبرياء.. والله أبرياء.. كلهم أبرياء.. ولكن ليس بالتواثي[96].. بالتفاهم وليس بالتواثي.

يقول: ـ عرفت فيما بعد أنه ذكر أسماء لمجموعة من الشباب تحت وطأة التعذيب.. واعتقلوا جميعاً وتعرضوا للتعذيب الوحشي.. كان يجمع طعامه في إناء ولا يتناول منه شيئاً.. وعندما يمضي عليه ثلاثة أيام أو أربعة أيام يلتهمه التهاماً ولا يبقي منه شيئاً.

۞ ۞

وضعوا أحد المعتقلين أياماً في زنزانة فيها مجموعة من مجانين التعذيب.. قال:

ـ كنت أراقبهم.. كان أحدهم يضع رأس صاحبه في حجره.. ثم يشرّع يفلّيه(97).. وتمضي ساعات وبعضهم يغمر بعضاً بالحنان والمودة.. وهم يتبادلون القبل فيما بينهم.. وفجأة ينهضون جميعاً وكأنهم سمعوا صافرة تأمرهم بابتداء شوط جديد.. فيبدأون بالعراك.. بعضهم يهرش بعضاً.. عراك يستمر لمدة ساعة تقريباً..

96) التواثي: جميع توثية.. وتعني الهراوة الثقيلة.
97) فلّى الشعر: بحث عمّا قد يكون فيه من قمل.

يستخدمون فيما بينهم الأيدي والأرجل والرؤوس والأسنان.. حتى يسقطوا متهالكين.. فيعودون إلى ما كانوا عليه من ودّ ووئام ورحمة وحنان فيما بينهم.. وتمضي الساعات ثم يعودون إلى العراك والتخاصم... وهكذا.

قال: مضت عليّ أيام عسيرة وأنا فيما بينهم.. وكنت أجاريهم بذات الأسلوب حتى كأنني صرت أحدهم.. وذلك لأنني لا أريد أن أتميّز عنهم فيجتمعوا كلهم ضدي.. ويقول كاتب السطور: كلما أتذكر هذه الحكاية أقول لنفسي: كم فيها من عبرة بليغة تنفع في الحياة الملأى بالمجانين!!

۞ ۞

ذات يوم أطلّ علينا مدير الأمن العام فاضل البراك.. وهذه حالة اعتيادية.. إذ أن المسؤولين كانوا دائماً يتابعون المعتقلين ويتأملونهم.. ويسألونهم عما إذا بقي شخص لم يستدع إلى التحقيق... إلخ.

ولما أطل مدير الأمن العام لزم الجميع أماكنهم.. وكأن على رؤوسهم الطير.. إلا شخصاً واحداً نهض ليبدي له الإحترام بصفته مسؤول الزنزانة[98].. وإذا به ينظر إليه بوجه مكفهر عبوس ويزجره: ـ اگعد خفت هالطول. عاد إلى جلسته خجلاً.. ثم تأمل المدير العام جميع المعتقلين وولى ظهره.

كانت الشتيمة النابية والكلمة الجارحة والأسلوب الوقح والمعاملة اللاإنسانية هي ديدنهم.. من كبيرهم إلى صغيرهم!

۞ ۞

دخل أحد المسؤولين إلى الموقف في وقت توزيع الطعام.. فسأل الحرس الذي أشرف على التوزيع قائلاً بانزعاج: ـ هذا الأكل لهذوله. ـ نعم سيدي.

فصاح بصوت ملؤه الحقد والكراهية: ـ ياكلون سم.

98) عادة لكل زنزانة مسؤول يتابع شؤون الزنزانة.. ويجيب على أسئلة رجال الأمن.. بخصوص العدد أو المرض أو ما شابه ذلك.. وغالباً ما يكون أقدم شخص فيها.

بيد أنهم بين الفينة والفينة يطلق أحدهم كلمات رقيقة.. والغاية منها التلاعب بمشاعر المعتقل.. وكأنهم يحددون الوقت الذي يستخدمون فيه نوع الأسلوب.. وكذلك الشخص الذي يسخّرونه لمثل هذه المهمة.. وعادة ما يكون أحد المسؤولين من بينهم.

۞ ۞

دخل أحد المسؤولين الى الموقف وتطلع الى الوجوه البائسة.. وكانت بيده قطعة كلينكس.. ولما تملى النظر الى الوجوه التي رسم الالم والبؤس بريشته عليها.. هز رأسه وقال: احنا ننقهر عليكم.. ننقهر عليكم .. لأن انتم ابناء الوطن ثم نكت قطعة الكلينكس وكأنه يضرب بها الهواء.. ومسح بها انفه وهز رأسه وولى ظهره..

وفي اليوم التالي أطل الشرطي الذي رافق المسؤول بالامس.. وكان هذا الشرطي متميزاً بغبائه وبلادته ووحشيته وقسوته.. ألقى نظرة في الزنزانة وكأنما يتأمل الوجوه.. وكانت بيده اليمنى قطعة كلينكس.. هز رأسه ثم قال بلهجة باردة: احنا ننقهر عليكم.. ننقهر عليكم.. لان انتم ابناء هذا الوطن.

وكان مخرج حرف الهاء من كلمة (ننقهر) قريبة من حرف الحاء.. ثم نكت قطعة الكلينكس وكأنه يضرب بها الهواء.. وبينما كانت بيده اليمنى ويحركها مسح انفه بسبابته وابهامه من اليد اليسرى.. ثم هز رأسه وولى ظهره.

۞ ۞

كثيرة هي الأحلام والأمنيات التي يتمناها المعتقل وهو داخل الزنزانة.. ولم تمض لحظة إلا وهو يحلم بالحرية.. ولكن هناك أحلام أخرى وأماني خاصة بعالم الزنزانة..ولعلّ من أعظم الأماني هناك التي يتمناها المعتقل هي أن يستلقي ويمدّ رجليه ويتمطى متى يشاء.

تمضي الأيام والشهور.. وأحياناً السنتان أو الثلاث على بعض المعتقلين.. وهو جالس القرفصاء.. أو يراوح بين الوقوف وجلوس القرفصاء.. وفي فترة النوم التي يدس فيها جسده بين الأجساد الدبقة.. يمسي الحشد الضاغط كأنه علبة سردين.

إطلاق سراحه يعني إعدامه!

ذات يوم الساعة الثانية ظهراً تقريباً انطلق صوت يؤذن بالخطر.. إذ كان أحد المسؤولين ينادي بأسماء ويأمر كل من ينادى باسمه أن يتهيأ.. وبيده ورقة دوّن فيها الأسماء وكتب في أعلاها إطلاق سراح.. وبلغ عدد الأسماء التي نودي بها يزيد على المائة إسم.. ثم حشدوا أصحاب الأسماء المطلوبة وساقوهم إلى خارج الموقف.. وبعد قليل عاد إلينا شخص وقد أخذ منه الفزع مأخذاً عظيماً وبان على معصميه آثار القيد وقد حزّ فيهما حزاً شديداً.. وما إن دخل الزنزانة حتى تسابقت الأعناق إليه متطلعة والأفواه متسائلة.. والقلق بادٍ على الوجوه: ـ إلى أين أخذوكم؟

ـ فرقونا على سيارات عديدة.. بعد أن أوثقوا أكفنا بالكلبچة.. ثم شدوها بحبل متين شداً وثيقاً.. حتى انحبس الدم بكفي ثم عصبوا عيوننا.

ـ وأنت كيف رجعت؟

ـ كانوا قد اشتبهوا بين اسمي واسم أخي لما عادوا يدققون الأسماء.. تبيّن أن المطلوب هو أخي الذي يكبرني.. الذي كان في إحدى الزنزانات.. ولتقارب الاسمين حسن وحسين اشتبهوا فيما بيننا.. ثم أمروني أن أنزل من السيارة.. ولما نزلت رفعوا العصابة عن عيني.. ثم رفعوا الكلبچة و الحبل عن كفي.. وعادوا بي إلى هنا.. ـ ماذا تتوقع؟ أين أخذوهم؟.

ـ بعد الذي شاهدته.. لا أتوقع لهم سوى الموت!

فقال أحد القدماء الذين كانوا بيننا: ـ كثيرون أخذوهم من هنا وجبات.. سمعنا فيما بعد أنهم أخذوا للقتل الجماعي[99].

الحب الغريب والباذنجان والإضراب عن الطعام!

99) وبعد السنين الطويلة تبين أنه لم يطلق سراح أحدهم، ومن بينهم ابن عمي ماجد قاسم سالم، وجاري حامد النجار (ابو ماجد).

انتشر الحبّ الغريب في أجسادنا.. واعتقد البعض أن ما يساعد على انتشار هذا الحب هو الباذنجان.. ولذلك قرر الجميع ألا يستلموا طعام العشاء لهذه الليلة لأنه مكوّن من الباذنجان.. فتح الباب.. وبدت الجلبة التي ترافق توزيع الطعام.. ولما بلغنا الشرطي.. ناولنا الإناء المملوء بالباذنجان واللحم.. فقال له من كان واقفاً قرب الباب: ـ لا نريد.. بعد لحظات جاء أحد المسؤولين يسعى ومعه الشرطي يرافقه وهو يشير نحونا: ـ سيدي هؤلاء.

أطل المسؤول برأسه.. وعليه إمارات الاهتمام قائلاً بلهجة فيها حدّة: ـ لماذا لا تأكلون؟ أجابه أحدنا بهدوء: ـ لا نريد. فسألنا.. قائلاً بلهجة فيها غلظة:ـ إمسوين إضراب عن الطعام؟ فأجابه أكثر من صوت.. وكأنهم يدفعون تهمة وجهت إليهم:

ـ لا.. لا أبداً.. محد مسوي إضراب عن الطعام.

ـ ليش متاكلون؟! ـ لأن عدنا حب.. والباذنجان يزيد الحبّ! فهدأ روعه.. ثم نظر إلينا نظرة من اطمأنت نفسه.. والتفت إلى الشرطي: ـ أعطهم اللحم فقط.

وناولنا إناء فيه لحم.. وفرّق على الجميع بعد وضعه في الصمونة.

۞ ۞

كان يفزعهم الإضراب عن الطعام، بل كانوا في فترة التحقيق يطعمون المعتقل طعاماً لا بأس به ليحافظ على صحته.. فهو عرضة للتحقيق.. والكثيرون ممن هم في الزنزانات قيد التحقيق.. لذلك لا يريدون أحداً أن يموت باختياره.. إنما يبتغون موت المعتقلين بأيديهم هم.. إما تحت التعذيب.. أو بحبل المشنقة.. أو القتل الجماعي.. أو دفن البعض وهم أحياء[100]!

[100] وبعد سقوط الطاغية صدام عثر على وثيقة تذكر وفاة المرحوم ماجد قاسم سالم (قُبر حياً).

وتساءل البعض مستغرباً.. عما أبداه هذا المسؤول من ذعر من كلمة لا نريد أكل. قال الحاج حسن خلف: ـ لما عادوا بي من غرفة التحقيق وألقوا بي في الممر.. كنت في حالة شبه غيبوبة.. وكان ذلك أثناء توزيع الطعام.. ولما وضعوا الإناء قربي لم أجد رغبة في الطعام.. فوقف الشرطي على رأسي كالحارس وهو يأمرني بالأكل.. وعندما أتوسل إليه أن يتركني.. كان يصفعني ويقول: شنو مسوي إضراب عن الطعام؟ ولكي أطمئنه أنني لم أضرب عن الطعام.. أتناول شيئاً قليلاً من الطعام وأضعه في فمي وأقول له: أنا غير مضرب عن الطعام.. ولكني لا أشتهي.

وقال أحد المعتقلين القدماء: ـ كل شيئ ممكن يتساهلون به إلا الإضراب عن الطعام.. وقد يفزعهم جميعاً.

ثم استرسل في حديثه: ـ قبل أشهر قطعوا عنّا الماء.. وأخبرناهم بحاجتنا إلى الماء.. وتوسلنا إليهم ولكن دون جدوى.. فقررنا الإضراب عن الطعام.. واتفق جميع مَن في الزنزانات.. واستمر التبليغ بواسطة المورس والإشارات من فتحات الأبواب الضيقة.. وقرر الجميع أن يعلنوا الإضراب منذ صباح الغد.. واتفق الجميع إذا تعرضوا للضرب لأجل تناول الطعام أن يصمد كل واحد حتى إتمام مائة سوط يجلد به.. ثم بعد المائة هو مخير بين أن يتناول الطعام أو يستمر في إضرابه عن الطعام.

ولملم الظلام أطرافه.. وانتشر النور في الأفق.. ثم تسلل ضوء الشمس إلى داخل الموقف.. والجميع مستعدون ليوم ليس كالأيام.. إذ هم قادمون على أمر لا يدركون عواقبه.. وربما أقل العواقب شراً الجلد بالسياط.. وفتح الباب وتمّ توزيع طعام الفطور.. وفوجئ الجميع.. إذ إن طعام فطور هذا اليوم ليس كبقية الأيام.. الكثيرون كانوا بانتظاره لأنه (الزبد).. ولما كان الكثيرون يستهويهم هذ الطعام سرت محاورة سريعة وخاطفة.. واتفق الجميع على أن يؤكل من كل علبة ربعها ويوضع ما تبقى من (الزبد) في إناء ويرفع إلى المكان المخصص للطعام.. واستعد الجميع إلى إعلان الإضراب عن الطعام في وقت وجبة الغداء.. وتمّ توزيع وجبة الغداء.. وكان جواب الجميع أنهم لا يريدون طعاماً.. وأشاروا بأيديهم قائلين: وذلك طعام الفطور.. وتطلع

الشرطي بتوجس إلى الإناء المملوء بعلب (الزبد).. ثم نظر إليهم بفزع وقال: ـ شنو مسوين إضراب عن الطعام؟

وكان جواب الجميع: نعم.

وبعد دقائق إمتلأ الموقف بالضباط والشرطة وهم يحذرون وينذرون الجميع.. ثم سألوا عن السبب الذي جعلهم يضربون عن الطعام.. وكان الجواب: نريد ماء.

فقالوا: إذا جبنا لكم مي تاكلون؟ فقال الجميع: نعم.

وطفق أفراد الشرطة والحرس يجلبون الماء إلى الموقف بواسطة السطولة.. وبهذا انتهى ذلك اليوم بسلام.. وانتهى الإضراب عن الطعام.

قمل صدام والبعثيين!

سأل أحدهم الآخر: كم واحدة هذا اليوم؟ أجابه: أربعة. فسأله بدهشة وهو يضحك: بس؟ ـ وأنت؟ أجابه: سبعة. قال آخر: اصطدت هذا اليوم ثلاثة.

إنه اصطياد القمل.. فللقابعين في الزنزانات رحلات مع القمل.. وأحياناً تستخدم للتسلية.. وذلك لشحة الماء والصابون.. وبسبب الرطوبة والقذارة والهواء الفاسد وانعدام أشعة الشمس.

وهكذا يلجأ القابع في الزنزانة إلى الحرب الدائمة مع القمل.. أما المقيدون فهم لا يستطيعون الذود عن أجسادهم.. وخصوصاً المواضع التي يرتع ويلعب فيها القمل.. فتسفو زرافات ووحداناً على أجسادهم.. ويعبث القمل كيف يشاء دون أن يلاقي أية مقاومة!

ذكر لي حيدر جواد جاسم من أهالي الناصرية بإمتعاض شديد وقال: ـ كنت في موقف السماوة مقيداً من الخلف.. وفي أيام صيف قائظ.. وزرافات القمل

تسفو على جسدي. ثم قال: ـ إذن كيف يكون عذاب الآخرة.. لو كان مثل هذا العذاب لكفى!

۞ ۞

بعد أداء صلاة العشائين تناولنا طعام العشاء.. وقبل أن تبدأ (شفتات) النوم انبعث صوت العريف كاظم ينادي بأسماء بعض المعتقلين.. وبينما كنت أصغي للصوت المنبعث كما يصنع الآخرون.. خيّم القلق والإضطراب على الجميع.. سمعت العريف كاظم ينادي باسمي.. نداء الأسماء كان يثير القلق والخوف في نفوس الجميع.. وكان أحد المعتقلين عندما يسمع مجرد نداء.. حتى لو لم يكن النداء باسمه.. يسقط مغشياً عليه.. وتكررت هذه الحالة.. وكان من حوله يعانون من حالة صاحبهم؛ إذ كان يحتاج إلى إسعافات لكي يفيق.

وذات مرة لما سمع نداءً.. وقد تغيّر لونه وارتعدت فرائصه.. وسرت في أوصاله هذه الحالة الغريبة.. وصار مركزاً لأنظار الجميع.. وهم بين مستنكر ومشفق.. قال له أحد المعتقلين وهو غارق في الضحك:. هسه إحنا هم مثلك خايفين.. بس مو الهدرجة.

تصديق القاضي على إفادات المعتقلين!

ثم أمر العريف كاظم كل من نودي باسمه أن يقف إزاء الباب ويخرج يده من فتحة باب الزنزانة.. التي كان يصر العريف كاظم على تسميتها بالغرفة!

وفعلت ما أمرت به.. وبعد قليل فتح الباب وأمرت بالخروج من الزنزانة.. إلى أين؟! ترى هل هي عودة إلى التحقيق ثانية؟ فقد أوعدني الملازم عدنان التكريتي بذلك حين قال لي: ـ روح هسه للموقف وبعدين أدز عليك.

ترى هل إشتاق لي هذه المرة سوط عدنان التكريتي أم الرائد عامر التكريتي أم الملازم حازم؟ كنت قلقاً غاية القلق.. أحياناً يستدعى المعتقل إلى التحقيق ثانية

لأمر غير متوقع.. ربما حصل اعتراف جديد من أحد المعتقلين.. أو إخبارية.. أو... إلخ.

اقتادني الشرطي إلى غرفة قرب الباب المفضي إلى الساحة الواقعة بين الموقف والشعبة الخامسة.. ثم أمرني بالدخول وتركني.. فدخلت.. فوجدت مجموعة من الرجال الغلاظ جالسين يتزيون ببدلة عسكرية مرقطة كزيّ القوات الخاصة.. وجوه حاقدة.. شرسة.. تطلعوا إليّ كما يتطلع الذئب إلى فريسته.. سألني أحدهم قائلاً بغلظة: ـ لك إنت شسمك؟. فأجبته على الفور.. ذاكراً اسمي الثلاثي.

ـ المذكور بإفادتك صحيح؟ فسألته:ـ وما هي إفادتي؟! فقرأ لي مقدار سطرين أو ثلاثة سطور.. وكأنها عن لساني أو كأنما كتبتها بيدي! فراعني أن أسمع ما لم أتفوّه به.. وما لم يدل به من إعترف عليّ. فقلت له: ـ إن هذا الكلام لم أذكره.

فنهرني أحدهم.. وأمرني بالانصراف: ـ إمشي لك.. إمشي.

وابتلعت لساني على عجل.. ولما خرجت من الغرفة وجدت الشرطي ينتظرني إزاء الباب.. وبجانبه يقف معتقلون آخرون.. وأيادٍ تطل من نوافذ الزنزانات على الممر.. وكل ينتظر دوره.

وعادوا بي إلى الزنزانة.. ورجعت إلى مأواي.. وكانت رحلة شاقة.. إذ أن الخارج من الزنزانة لا يرجع إلا بكسر.. أو شدخ.. أو نزف! وما أن استقر بي المكان.. حتى تسابقت الاسئلة نحوي.. ولما أخبرتهم بما حصل.. قال بعض القدماء في الزنزانة بلهجة المعتاد على أمر: ـ إنه القاضي.. وقد صادق على إفادتك.. وسوف يستدعونك إلى المحكمة.

ثم نودي باسم حسن خلف.. وبعد قليل عاد إلينا.. وما أن ولج الزنزانة وأوصد الباب دونه.. انفجر ضاحكاً وهو يردد قائلاً باستياء: سألوني عن أسمي وأجبتهم.. فقال لي أحدهم: لك إنت اشگد راتبك؟ فقلت له: ـ 260 ديناراً.

فقال لي: كلب ابن الكلب بعد شتريد؟وظل يكررها ويضحك قائلاً: بهذا السؤال صادقوا على إفادتي.. وربما شر البلية ما يضحك.

وهكذا صادقوا على إفادته.. بعد أن قالوا له كلب ابن الكلب بعد شتريد! ولم يسألوه.. ولم ينتظروا منه جواباً!

ثم نودي بأسماء آخرين كانوا معي في الزنزانة نفسها.. وهم: رعد حكمت وكاظم الدليمي وفاضل أحمد وجاسم محمد ومحسن عبد الكاظم وعلي حبيب رباط. وما أن عدنا إلى الزنزانة واستقر بنا المقام.. حتى عادت الكلمات والتوقعات والتحليلات والتمنيات ذاتها.. فقال النائب الضابط كاظم جواد كاظم الدليمي: ـ سوف يجمعون كل العسكرين.. ثم ينقلوننا إلى سجن رقم واحد.

وقال آخر: لا سوف يأخذوننا للمحكمة.. ثم بعد ذلك للسجن.

وبدأ الحديث عن السجن.. إذ أن الجميع كان يتوقع أن يحكم عليه بالسجن.. وراح بعض الذين عرفوا شيئاً عن السجن من خلال زيارة سجين يخصهم في سجن أبو غريب يحدثنا عن المواجهة ولقاء الأهل.. وكيف أن كل سجين يقيم له خيمة. وعاد آخر إلى سؤاله القديم.. فقال وهو يضحك بحياء: ـ إذا إجت نسوانا شلون؟ وقبل أن يكمل كلامه.. عرف الجميع ما يرمي إليه.. وشاركوه في ضحكه. وحدثنا آخر عن الحانوت.. وعن ساحة كرة القدم وعن الرياضة.. فسألتهم بلهفة:

. وهل توجد مكتبة؟. نعم.

آه ما أشد شوقي إلى الكتاب في هذه الأيام الطويلة والليالي الأطول.. سمعت أحاديث من هنا وهناك.. وكلمات كثيرة بعضها معاد وبعضها لا يستحق الإصغاء.. وكثير منه يشبه الهذيان.

ترى.. هل حقيقة سألتقي بالكتاب وجهاً لوجه؟

وقيل: إن في السجن علماء كثيرين.. وأساتذة ومفكرين.. وبهذا سوف أجعل لنفسي برنامجاً في السجن بين المطالعة والاستفادة من المفكرين والعلماء

والرياضة.. كثيرة هي الطموحات التي لم أستطع تحقيقها.. وكثيرة هي الرغبات المشروعة التي حرمت منها.. لا لسبب.. إلا لأنني لم أنتم لحزب البعث!

۞ ۞

ثم إن الكتاب الذي تتوق له نفسي غالباً ما يكون ممنوعاً.. وبعض الكتب الممنوعة شاهدتها موضوعة في واجهة المكتبات في شارع المتبني وشارع السعدون وشارع الرشيد.. وأكد الكثيرون إنما وضعت هذه الكتب لاصطياد بعض الناس.. إذ أن مؤلفي هذه الكتب بعضهم نفذ به حكم الإعدام.. وبعضهم حكم عليه بالإعدام غيابياً.

ترى.. هل حقاً سأجد المكتبة.. وألتقي بالعلماء والمفكرين.. فنفسي متطلعة للعلم والمعرفة دائماً.. في بلد حرّم حاكمه كل شيئ.. ولم يحلل إلا الحرام.. وما فيه من خير فهو له ولعائلته ولعصابته وللمخبرين.. وللعبيد الأذلاء من غير ديرته[101].

۞ ۞

101) روي عن وطبان التكريتي.. الأخ غير الشقيق لصدام حسين.. أنه صرح أمام حشد من العشائر التي لها رابطة مع عشيرته من بعيد.. وذلك عندما كان وزيراً للداخلية.. قال متوعداً: هاي الديرة . يقصد العراق . ديرة البوناصر . وهي عشيرته . الما يدبج ويانا ما هو منا.. فانظر وتأمل!! كذلك تحدث أحد العسكريين قائلاً: ذات يوم دخل خير الله طلفاح إلى وزارة الدفاع وهاجم بعض الضباط.. وقرّعهم تقريعاً شديداً.. ثم ختم كلامه قائلاً: مو صوچكم صوچ عدنان . ويقصد ابنه . مشغلكم! وسمعت طارق عزيز من قناة **LBC** اللبنانية سنة 2000م أو قبلها بعام واحد.. عندما سئل عن المرحوم الشاعر العراقي عبدالوهاب البياتي فقال: اشتغل عندي عشرين سنة.. وأجريت له راتب.

كذلك عام 1982 أخرجونا الى الساحة الصغيرة وكان اليوم ربيعي والنقيب غالب مسؤول الاحكام الخاصة يبدو عليه الارتياح وبيده جهاز راديو يصغي الى أغنية فاغتنم الفرصة السيد صالح مهدي السويج ليشتكي على السجين المجرم يقظان من أهالي الحلة اذ كان هذا السجين مؤذياً للسجناء حتى ان الجلاد المفوض فلاح عاكولة، كان يوبخه احياناً لشد ما يؤذي السجناء فيقول له: لا تلح بالزلاطة بل كان يقترح على الجلادين اقتراحات مدمرة لنا فيستجيبون له لما لديه من مكر وظلم، وكان هو السجين الذي خولوه مسؤولية القسم، ولما اشتكى السيد صالح عند النقيب وشكى له مما ألم بنا واذا بالمفوض حاتم ينادي السيد صالح متوعداً فيقول: آني ألك فعاد السيد صالح السويج الى النقيب يستنجد به وقال له: تره بس تطلع يكتلوني.. فقال النقيب ذلك اليوم باريحية بالغة لم نره قبل ذلك اليوم ولا بعده على هذه الحال.. أي واحد يحجي وياك قلي حتى لو من ربعنا!!

وهنا بيت القصيد (حتى لو من ربعنا!) مع ذلك المكسب العظيم الذي اكتسبناه، ومع ذلك الانجاز الذي نلناه لكن ظلت كلمة (حتى لو من ربعنا!)... اترك التعليق لك عزيزي القارئ.

وفي الليلة الثانية.. وفي الوقت ذاته نودي بأسمائنا ثانية.. وأخرجونا من الزنزانات ودفعوا بنا إلى زنزانات أخرى.. بعد أن أفرغوها ممَن فيها.. تمّ تفريقهم على زنزانات أخرى.

فوجدتني بين حشد ضاغط من المعتقلين يبلغ عددهم ثلاثين شخصاً.. وتزاحم الحشد وضاقت الأنفاس ولم نذق طعم النوم إطلاقاً.. واستمرت الأحاديث من هنا وهناك.. وكانت هذه فرصة لأن يلتقي البعض بصديقه أو بأخيه أو بأبيه.. وتبادل الشكوى.. إذ كان البعض لم ير الآخر إلا أثناء التحقيق.. وبعدها غاب عنه.. أو أنه لم يره ولم يعلم بإعتقاله.

۞ ۞

شاهدت رجلاً كهلاً ألقى بنفسه على صاحبه حسن خلف وانخرط في بكاء حار.. ثم وهو واضع رأسه جنب منكب صاحبه.. راح يردد وهو يشهق:ـ أولادي وزوجتي وين يروحون؟ منو إلهم؟ حتى البيت اللي أبني بيه بعده ما كمل.

وكان صاحبه الحاج حسن خلف البيضاني.. يشاطره ذات الشعور والمرارة والألم.. ولكنه ظل يبعث الإطمئنان في نفسه ويواسيه.. فيتجلد أمامه ويردد قائلاً:

ـ الله كريم.. الله كريم.

تسنى لي أن ألتقي ببعض الأصدقاء مثل السيد عباس الشوكي (إمام جامع الجوادين في مدينة الشعلة) وحسن علي كماش وغيرهم.. ممن كنت أسمع بأسمائهم دون أن ألتقي بهم.. فقد كانوا أصدقاء أخي الشهيد.

أبو فراس طلال علي أحمد

كنت جالساً القرفصاء.. صار وجهي قبالة شاب.. نظر إليّ شاكياً وقال:ـ صار لي أسبوع من أزوجت وجابوني. فسألته: من أين أنت؟. من بغداد الجديدة.

ثم أعاد كلامه والحسرة تقرض قلبه:ـ صار أسبوع واحد بس من إزوجت وجابوني. ثم حكم عليه بالإعدام.. ولم يزل في شهر العسل(رحمه الله).

ثم عرفت أشخاصاً آخرين.. كنت أسمع بأسمائهم فقط.. إذ كثيراً ما ينادي العريف كاظم والشرطة بأسمائهم وهم يعيدونهم إلى التحقيق.

وأكثر هذه الأسماء ترددت على مسامعنا هو اسم النائب الضابط في مركز التدريب المهني في الحبانية طلال علي أحمد.. من أهالي الخالص.. وكنيته أبو فراس.. كان شاعراً.. وقد كناه بهذه الكنية الشاعر محمدحسين آل ياسين.. نجل العلامة الشيخ محمدحسن آل ياسين.. كما ذكر لنا هو ذلك.. واختيار هذه الكنية تيمناً بكنية شاعر آل حمدان أبي فراس.

طويل القامة.. ضخم الجثة.. أبيض البشرة مشرب بحمرة.. كانت قدماه متورمتين من جراء السياط.. وقد تعرض لتعذيب هائل.. إذ كان هو مسؤول الخط العسكري في المحاولة الإنقلابية.. كما كان يقال في تلك الأيام.

كنت واقفاً إزاء التواليت.. فناولني فانيلته لأغسلها.. فهو لا يقوى على تحريك أصابعه.. غسلتها وناولتها له.. أخذها مني وهو يجاوب صاحبه باطمئنان ومتحدياً الجلادين: . إشيردون يسوون؟؟ غير يعدمونه!! خل يعدمون.

وفي اليوم الذي أعقب نهار هذه الليلة.. شاهدته واقفاً بين حشد من الشباب في قاعة محكمة الثورة.. وقد سيق إلى حبل المشنقة(رحمه الله).

۞ ۞

الى محكمة الثورة!

سمعنا طرقات على الجدار متتابعة.. فعلمنا أن صلاة الفجر قد حان وقتها.. وتتابعنا إلى دورة المياه فأسبغنا الوضوء.. ثم أدينا صلاة الفجر بالتناوب لضيق المكان.. وبعد الإنتهاء راح أحد المعتقلين[102] يرتل آيات قرآنية.. وقرأ دعاء الصباح.. وهو الدعاء المأثور عن الإمام علي بن أبي طالب(ع).. ثم عاد الدوي.. وكلمة من هنا وكلمة من هناك.. وبقينا على هذه الحال حتى الساعة السابعة صباحاً تقريباً. فتحوا باب الزنزانة.. ونودي بأسمائنا فرداً فرداً.. وكان على كل من ينادى باسمه أن يخرج من الزنزانة.. ثم يشيرون له إلى مكان معين فيجلس.. وهكذا وجدت العشرات جالسين في الممر.. وأجلسوني في أحد الصفوف.. ومن حولنا عدد هائل من رجال الأمن.. وجلّهم يرتدي ملابس رياضية.. والبعض كان شاهراً سلاحه بوجوهنا.. وبعد أن غص الممر بنا حين بلغ عددنا مائة وستة أشخاص.. جلهم من الشباب الذين لم يزالوا يدرجون بين العقد الثاني والثالث من أعمارهم.. وقليل من الفتيان.. وأقل منهم الشيوخ. ثم أمرونا بالنهوض فنهضنا.. وانطلقت صيحات متتالية كلها تأمرنا بأن نطأطئ رؤوسنا: . دنگ راسك.. لحد يرفع راسه.

ثم أمرونا بالسير.. إلى أين؟! لا أحد يعلم!

ولكن خرجنا إلى الساحة الموصلة بين الموقف والشعبة الخامسة.. وشملنا فضاء الساحة.. وغمرنا هواء نقي ممزوج بأشعة الشمس.. ولاحت لي مجموعة سيارات.. وقد زجّ بها المعتقلون!

---

102) شاب أبيض البشرة.. متوسط القامة.. اسمه صباح.. ولعله هو صباح راضي خوين.. تبين ذلك بعد عقدين ونيف من الزمن.

ولما تأملت السيارات عن كثب.. وجدت مكتوباً عليها [تب توب] [103].. وهي السيارات المعدّة لنقل (الآيس كريم) عادة لا البشر!! فهي مغلقة بإحكام.. وقد قطع عنها التبريد.. فباتت صندوقاً مقفلاً شديد الإحكام.

۞ ۞

السيد علي الحسيني من الخالص

انطلق صوت رجل من غرفة التحقيق يتأوه صارخاً.. ويردد كلمة:ـ أويلي يمه.. أويلي يمه.. دنزلوني هسه.. دنزلوني.. أويلي يمه! كانت نداءاته وتوسلاته تشبه توسلات طفل يبكي وهو يطلب قطعة من الحلوى.

قال أحد المعتقلين: إن هذا الرجل صاحب فندق في بغداد.. وليست له علاقة مع الحركة.. إلا أنه حصل إعتراف على السيد علي.. وذُكر في الإعتراف أنه كان ماكثاً في فندقه بتنسيق مع بعض رجال حزب الدعوة.

فسالته: مَن هو السيد علي؟أجابني أحد المعتقلين قائلاً: هو الذي يجمع بين الخط المدني والخط العسكري.. ثم صار يتردد اسمه كثيراً بين المعتقلين في مديرية الأمن العامة.وأكد الجميع أن رجال الأمن ما زالوا يبحثون عنه.. ولم يستطيعوا أن يظفروا به بالرغم من محاولاتهم الجادة لإنتزاع أي اعتراف عنه.وقال آخر: الأمن هسه گالبين الدنية عليه. فعقّب آخر: الظاهر سيد علي خطر كلش!فأكد آخر ذلك.

۞ ۞

وفي اليوم الذي ساقونا الى محكمة الثورة لإصدار الحكم.. ما إن ترجلت من سيارة الـ [تب توب] حتى قبض على ذراعي أحد رجال الامن وطوّقه بالقيد الذي

103) تعارف عند العراقيين أن هذه السيارات تحمل الموطة وهي سيارة (آيس كريم).. لذا فهي تجوب شوارع بغداد دون أن يدرك أحد من أبناء الشعب العراقي أن هذه السيارات تحمل أبناءهم إلى الموت الزؤام!!

كان مقيداُ به ذراع فتىً نحيف.. وديع.. رقيق.. تبادلنا بعض كلمات همساً على حين غفلة من الجلادين.. وكان ختامها أن قال لي: أسألك الدعاء.. وسكتنا.

عرفت اسمه إبراهيم من الخالص.. وهو أخ السيد علي.. وله أخ كان معنا إسمه سيد جعفر.. مدرس للغة العربية وشاعر.. حكم عليه بالإعدام.

وله أيضاً أخ آخر اسمه سيد كاظم.. مدرس للغة العربية أيضاً.. وقد توفي في الزنزانة على أثر تعذيب شديد تلقاه من يد الجلادين.. ويبدو أن ثمة ضربة عنيفة جاءت على رأسه.. أدرك منها الجلادون أنها ستقضي عليه.. مما حدا بالشرطي أن يقول للسيد إبراهيم: ـ ودّع أخاك.. إحتمال راح يموت.. وهذا أمر غريب أن يصدر من شرطي في تلك الأيام الرهيبة!!وما ان دنا منه حتى قال له بصوت ضعيف.. لكنه بلغ مسامع الشرطي:ـ ابراهيم.. لا تعترف على أحد.. دير بالك تعترف! تره تدّمر ناس.. وآني أبد ما اعترفت.

ثم أردف.. وقد أخذته الشفقه عليه والرفق به:ـ على نفسك ميخالف.. بس دير بالك تعترف على واحد.حينها جذبه الشرطي ساخطاً غاضباً.

ثم دفعوا به في الزنزانة.. وظل بضعة أيام وهو في وضع صحي يتردّى يوماً بعد يوم.. الى أن إنتكست صحته إنتكاسة شديدة حتى صعب عليه التنفس.. وكان الأخ جبار عبود يطوّقه بذراعه ويقرّب وجهه من فتحة الباب الصغيرة علّه يتنفس.. حتى تعذّر عليه ذلك.. ففاضت روحه الطاهرة بين يديه.

۞ ۞

وحكم على السيد إبراهيم بالسجن المؤبد.. وقد زجّوا به معنا في ذات السيارة التي حملتنا الى سجن أبو غريب.

وظل اسم السيد علي يطوف في ذاكرتي.. مقترناً بصراخ الشهيد إسماعيل يوسف.. وآثار تعذيب الحاج حسن خلف البيضاني.. والملازم الطيار رعد حكمت.. وغيرها من الذكريات الدامية.

حتى جمعتني الأقدار بعد أكثر من عقدين ونصف من الزمن بالسيد صادق نجل الشهيد السيد جعفر الحسيني.. وما أن سقط نظري على صورة أبيه (رحمه الله) معلقة على أحد جدران بيته.. حتى بدأنا بأحاديث لها بداية وليس لها نهاية!!

فطفق يحدثني عما جرى لأسرتهم الكبيرة بعد إعتقال أبيه وأعمامه.. حيث أُلقي القبض عليهم جميعاً بما فيهم الرجال والنساء والأطفال وحتى الرضّع منهم.. وحملوهم الى سجن [نقرة السلمان] .. وهناك ذاقوا المرارات لمدة سنة تقريباً..وقد وضعت زوجة عمه في ذلك السجن إذ كانت حاملاً حينما إعتقلوهم.

وقد حصلت مفارقة كادت أن تقضي عليهم جميعاً.. حيث وضع السجانون صورة الإمام الخميني أمامه..وكان عمره خمس سنوات.. فقبّلها ظناً منه أنها صورة جده السيد عبدالله الحسيني، فجن جنونهم.. وطلب بعضهم أن تقتل هذه العائلة جميعاً.. لأنها عائلة (خمينية) وحتى طفلهم (خميني)!

وكانت ساعات عصيبة حتى فتح الله على عمّته وحسمت الأمر.. إذ قالت لهم:

ـ اسألوا الطفل وقولوا له: صورة من هذا الذي قبلته.. فإذا عرفه اقتلونا.. وإذا لم يعرفه فلماذا تقتلوننا؟فسأله السجان: هذه صورة مَنْ؟

فقال الطفل ببراءة: هذا جدو سيد عبدالله. وهكذا دفع الله عنهم.. ووقاهم شر الأشرار.. وسلمهم من موت محتم.

۞ ۞

واغتنمتها فرصة لأسأله عن عمه السيد علي.. أين هو الآن؟فما أن أخبرني عنه.. ووصفه لي.. حتى أخذتني الدهشة من كل جانب! فقد رأيته وعرفته.. ولكن لم أدرك أنه هو السيد علي الحسيني.. ذلك الرجل الذي أبحث عنه.. وأتساءل عن مصيره.. وأتذكر تلك الأيام الرهيبة التي جمعتني بإخوانه، وأصدقائه، وأعوانه.. ولديه

أسرار عن المحاولة الإنقلابية التي عُرفت بقضية (جيزاني الچول).. نسبة الى إحدى قرى الخالص.

وفي حقيقة الأمر أن القرية التي تعرضت للحصار والخناق بالطائرات والدبابات والجيش ورجال الأمن هي قرية (السندية) وليست (جيزاني الچول).. وأكد سماحة السيد علي الحسيني الخالصي ؛ إنّ المحاولة الانقلابية لم تكن خاصة بحزب الدعوة.. إنما كانت عامة.. وفيها ضباط ومجاهدون من مختلف محافظات العراق.. ليس لديهم إنتماء الى أي حزب!!

وحتى إشترك معهم ضباط من أهل السنة.

۞ ۞

الفصل الخامس

محكمة الثورة الصدامية

صديقي الشهيد فاضل رحمة[104]

104) فاضل صدام رحمة الدهناوي الساعدي كان رحمه الله يسر بعض أصدقائه فيقول متأسفاً: والله استحي من اسمي عندما يذكر اسم ابي (صدام) كم كان يكره الطاغية صدام على صغر سنه! وظل الكلام خاصاً فيما بيننا دون ان يحدث به أهله.

وبعد ان اطلق سراحي من السجن ألتقيت بابيه، فحدثني قائلاً: في ايام صدام رأيت الامام الخميني (رحمه الله) في المنام وكأنه دخل بيتي وكان يشير الى مكان في غرفة الاستقبال وعن يمينه السيد الجليل والمجاهد الصابر السيد كرم بن السيد طاهر وهو من وجهاء العمارة عن يمينه، فقال لي السيد الخميني وهو يبسط ذراعيه ويؤكد لي قائلاً هكذا كان يحرك يديه: ليش اسمك صدام؟ فقلت له باسف: مولاي هذا اسمي شسوي فقال لي: اعطني جنسيتك وأخرج من جيبه قلماً، وقال للسيد كرم رحمه الله ناولني ورقة فناوله ورقة صعيرة، ثم قال وهو يكتب ويرددها بلهجة اعجمية: انت اسمك عبدالهادي ولما استيقظ أعلن ان اسمه عبدالهادي بدلاً من صدام حتى صار يطلب من الناس ان يسمونه عبدالهادي بالرغم من بطش الطاغية صدام... بل وينفح البعض مالاً جزاء ذلك! وهكذا اضحى صدام رحمة الدهناوي الساعدي، عبد الهادي رحمة الدهناوي الساعدي.

وسط الرعب.. الخوف.. الصفعات.. الركلات.. الشتائم.. والمصير المجهول الذي يحدق بنا.. كنا نرسف بالقيود سائرين نحو السيارات بأمر الجلادين.. وأوامرهم الصارمة تنطلق نحونا ونداء: دنگ راسك.. دنگ راسك.. دنگ راسك.. نداء لا ينقطع..

سبقتني أقدام كثيرة نحو السيارات.. حتى بلغت السيارة التي فتحت أبوابها من خلفها.. وأفراد الشرطة يقفون على جانبيها.. وإذا بأيدٍ غليظة تدفع بي نحوها.. وما أن وضعت قدمي على حافتها حتى لاح لي أحد أصدقائي الذي لم أكن أعلم بإعتقاله..

إنه فاضل صدام رحمة..!! أحد أصدقائي الذين طالما جمعتنا الليالي الصيفية في حديقة منزلهم.. والليالي الشتائية ونحن نحتسي الشاي الساخن.. ونتجاذب أطراف الحديث حول الفكر والأدب والفن والسياسة وآخر نكتة عن البعثيين.. حيث كان يجلبها لنا صديق آخر لديه قدرة على التقاط المفارقات في اجتماعاتهم الحزبية.. وقد انتمى إلى حزب البعث درءاً لشرهم كما كان يقول لي دائماً.. كنا مجموعة من الأصدقاء تجمعنا هواية واحدة.. وهي المطالعة والكتابة.. فنكتب القصة والمقال والخاطرة والقصيدة.. ثم يقرؤها بعضنا لبعض.. ويعقب عليها البعض.. كنا ننفق الساعات الطويلة وحتى بعد منتصف الليل ونحن تارة نتمشى وتارة تستوقفنا مقهى أو مكتبة أو محل لبيع الحلوى والمرطبات.. وما إلى هنالك.. بعضنا يسكن للآخر كما يسكن الظمآن للماء البارد.. وبعضنا يشحذ ذهن البعض.. والأحلام والطموحات ترفرف فوق رؤوسنا.. وروح الفتوة المتوثبة تخض دماءنا نحو الذرى خضاً.. بل تفكيرنا

ثم أكد السيد الخوئي (قدس سره) والسيد الشهيد الصدر الثاني (قدس سره) وغيرهم نسبه بعد ان كان العارفون بالانساب يؤكدون ان عشيرتهم تعود الى سلالة الرسول الاكرم (ص) وعليه بات اسم الشهيد العزيز.... السيد فاضل عبدالهادي رحمة الدهناوي الموسوي!!

ولما حدثت اباه بما كان يسرنا به فقال متألماً: راح مظلوم حتى بالاسم!

وأحلامنا أكبر من أعمارنا.. وأوسع من أن تستوعبها دائرة الحكم الدكتاتوري الشحيحة!

كان آخر حديث جمعنا هو تعليقنا على ثلاثية نجيب محفوظ.. وكل يبدي إنطباعه عنها وعن رواية بيروت 75 لغادة السمان.. ثم أهدى لي ديوان الشاعر التونسي أبو القاسم الشابي فقد كنت أعشق شعره كما أعشق شعر إيليا أبو ماضي والسياب وإفترقنا على أمل لقاء آخر.

فاجأني هذا اللقاء.. رميته بطرفي.. فافترّ ثغره عن إبتسامة عذبة رقيقة.. وارتسمت على وجهه إمارات الدهشة.. ولم يتسنّ لأحدنا أن يكلم الآخر.. لكن أدرك كل منا ما يجيش في خاطر الآخر.. كان طموحاً.. مهذباً.. عذباً.. وسيماً.. جميلاً.. ذو إهتمام بأناقته.

وجدتني داخل السيارة التي تشبه صندوقاً محكماً لا يدخله هواء.. تحيط بها مصطبة في حافتها حديدة ثقيلة تمتد بإمتدادها.. زج فيها عدد غفير.. ثم قيدونا على الحديدة وأغلقوا الباب.. وجلس شرطيان مسلحان متقابلان.. وبعد الشرطيين باب آخر أيضاً.. وليس بيننا وبينهم سوى نافذة صغيرة جداً.. ربما تبلغ مساحتها شبراً مربعاً.

كانت الأجساد متراصة حتى لكأن الهواء تلاشى ولم نعد نتنفس الاوكسجين.. وامتلأ فضاء السيارة بطبقة كثيفة من الضباب.. ثم رسم أخاديد تسيل على الجدر الملساء.. وباتت ثيابنا تقطر عرقاً غزيراً.. وكأنها غمست في الماء حتى تشربت كل مسامة فيها.. اعتصرت بعض أطراف ثوبي عدة مرات.. وفي كل مرة كانت تلقي ماءً غزيراً على أرض السيارة.

لاح لي حسن علي كماش وقد فغر فاه.. وغارت عيناه.. وكأنه عجز عن التنفس.. فراح أحدهم وكان جالساً قبالته ينفخ في فمه.

كل هذا شغلني عن صاحبي.. فصرنا نتبادل نظرات خاطفة من بين الحشد.. إذ كان مكانه في الجانب الآخر من السيارة.. وكل ينتزع إبتسامة عسيرة يرسمها على شفتيه بالكاد.

ولما انتهت المحاكمة.. وعادوا بنا إلى القاعة الكبيرة.. حرصنا على أن نجلس سوية.. وأسرع ليجلس إلى جنبي.. وسرعان ما دار الحديث فيما بيننا.. وصرنا نتبادل الحديث همساً.. وحدثني على عجل عن حال أهلي.. ووقع هول إعتقالي عليهم.. إذ أنهم بينما ينتظرون إطلاق سراح أخويّ.. صرت ثالثهم!

وحدثني عن وقع نبأ إعتقالي عليه.. وحدثني عن أصدقائنا.. وكنا نتبادل الحديث على عجل وحذر شديد لإعتقادنا بأن هذه آخر لحظات تجمعنا.. لكن لما عادوا بنا إلى مديرية الأمن العامة زجّ بنا في سيارة واحدة.. ولم يوثقوا أيدينا على الحديدة اللصيقة بالمصطبة ولم يرافقنا شرطي.. فأتيحت لنا الحركة.. وتعانقنا طويلاً.. وكنت حريصاً لأن أسمع منه كل شيئ.

حدثني عن أصدقائي.. وعن نتائج الامتحانات النهائية من الإعدادية.. وعن معدلات البعض العالية. وبين الحين والآخر يؤكد لي وبلهجة مفعمة بالشجاعة والطمأنينة: ـ أنا مطمئن.. ولا أبالي حتى لو أعدموني! ولما بلغت بنا السيارة مديرية الأمن العام افترقنا.. بعد أن عادوا بنا كلاً إلى زنزانته.

وفي اليوم الثاني.. وفي قاعة المحكمة.. نودي باسمه مع المجموعة الثالثة.. وهي الأخيرة التي سيقت للإعدام.. وكان اسمه آخر الأسماء.. وأصغرهم جميعاً.. إذ يبلغ من العمر عشرين عاماً فقط. وبهذا انتهت صلتي به.. حتى زرته بعد أحد عشر عاماً في مقبرة النجف الأشرف.. وقرأت سورة الفاتحة مهدياً ثوابها إلى روحه الطيبة.

۞ ۞

لم يجزم أحد منا جميعاً بمقصد مسيرنا؟! ربما القتل في صحراء نائية.. أو ربما تمّ نقلنا إلى مكان آخر! لكن احتمل البعض قائلاً: ـ ربما إلى محكمة الثورة!!

وبعد مدة من الزمن بلغت ساعة أو أكثر من الساعة بقليل.. توقفت السيارة وفتح الباب.. ترجّل الشرطيان المسلحان.. وفتح الباب الذي يفصلنا عن الشرطيين المسلحين.. ثم فكّوا القيود التي شدّت أيدينا إلى الحديدة اللصيقة بالسيارة.. وبقينا مكبلين بالجامعة فقط.. أمرونا أن نترجل من السيارة.. فترجلنا جميعاً.. لفحتني نسمة باردة خلتها من أنسام الجنة.. وكأن اليوم لم يكن يوم 25 آب1981 في بغداد.. ولكن لسوء الحال التي كنا فيها تصورنا أن الأنسام التي تأتينا أنسام فجر ربيعي.. وبعد ساعات تبيّن أنها سموم تحرق الوجوه!

استقبلتنا بنادق مشهورة بوجوهنا ومن كل مكان.. ونحن نرسف بالأغلال.. وانكشف لنا فضاء المكان الذي نحن فيه.. ثم قصدوا بنا نحو قاعة كبيرة.. وجدت حشداً كبيراً من الشباب والفتيان.. وقليل من الشيوخ والكهول.. بعضهم يجلسون على قنفات.. وكثير منهم يجلسون على الأرض.. فقد ضاق بهم المكان.. وصار مكاني أرض القاعة.. الجميع أياديهم مكبلة بالحديد.. وكثير منهم قد تقرحت أياديه وأقدامه.. والقيح يسيل منها.. وبعضها لفّ بقماش طبي.. وآخرون كانت أقدامهم ممتلئة بالصديد.. وآخرون لا يستطيعون تحريك أياديهم.

همست بأذن شخص إزائي.. وجدته جالساً قبلي.. ولم أكن أعرف متى قدم إلى هذا المكان:. منذ متى أنتم هنا؟ أجابني هامساً: . الآن جئنا.

فسألته مستغرباً: .كل هؤلاء جئ بهم الآن من الأمن العامة؟!

. نعم.. وهذه محكمة الثورة!

قاعة كبيرة.. طولها لا يقل عن50م وعرضها لا يقل عن30م.. تتوسطها أعمدة.. عن اليمين باب يدخل من خلاله المتهم إلى المحكمة.. وعن الشمال دورة المياه. أحسست بوجع في بطني.. فشكوته للملازم أدور.. وهو شاب ربعة.. أحمر البشرة..مسيحي.. وكان يتابع حركاتنا وسكناتنا.. واستأذنته في أن استلقي قليلاً. فقال لي: لا.. ممنوع.

الجميع صامتون.. والضباط والشرطة يجوبون القاعة جيئة وذهاباً.. وينهرون كل من يسمعونه يتكلم.. ولو همساً.. وثمة شرطي يقف إزاء الباب.. شاهراً بندقيته فوق رؤوسنا.. والجميع واجمون.. يجترون آلامهم والإرهاق بادٍ عليهم.. إذ مضت ساعات دون أن نذوق طعم النوم أو الراحة النسبية.. ثم الحالة العسيرة التي تعرضنا لها ونحن نساق إلى المحكمة.

وكان من بين الجلادين ضابط ربما لم يبلغ عمره العشرين.. يرتدي بذلة عسكرية ذات لون أخضر.. يمشي بخيلاء وغطرسة عجيبة.. فهو يضرب الهواء برجله اليمنى ثم يعود فيضرب الهواء برجله اليسرى.. وأما يداه فيرفعهما إلى الأعلى وكأنما يرمي شيئاً ما! كان يمشي ويسحق أقدام المعذبين.. وكثيراً ما كان يسحق قدمي شاب كانتا تنزّان قيحاً.. تبيّن لي أن هذا الشاب[105] كان قد حمل خريطة لهجوم القوات العراقية على القوات الإيرانية.. ظفر بها الشباب الحركيون عن طريق المقدم عبد الرضا.. وهو ضابط في دائرة التوجيه السياسي.. وتسلل هذا الشاب إلى تركيا ليلتقي بالسفارة الإيرانية وأبلغها الأمانة.. وقيل إن هذه المبادرة أفشلت مخططاً كبيراً لقوات صدام حسين بدعم قوات غربية!

ولما كنا نرنو إلى هذا الفتى الطائش النزق.. وجميع الجلادين يسيرون خلفه صاغرين وحتى الضباط.. كنا نتعجب من هذه الظاهرة.. وحتى الضباط المعتقلون معنا من دائرة التوجية السياسي كانوا يستغربون هذا الأمر.. ويستهجنونه كثيراً.. وحتى وصفه البعض (بالطاير) لكن الجميع قالوا عنه: ـ لم يكن هذا عادياً.. فلا احتمال إلا أن يكون تكريتياً.. ومن خاصة العائلة الحاكمة!

محاولة قلب النظام

105) لم أتذكر اسمه.. لكنه معروف لدى بعض السجناء.. لذا سوف أذكر اسمه في طبعة آتية إن شاء الله.. لأنني أدون هذه السطور في المنفى.

تبـيّن لي فيمـا بعـد أن عـددنا بلـغ106 فـرداً.. جمعونـا كلنـا في قضـية واحدة.. هي محاولة لقلب النظام.. وقد ربطت خطوط تنظيمية بعضها مع بعض.. وأغلبها تنتمي إلى حزب الدعوة الإسلامية.. وقد إشترك فيها ضباط من الجيش منهم المقدم حمزة.. والمقدم عبدالرضا وغيرهم.. وكذلك بعض علماء الدين.

وهكـذا أصبحنا جماعـة واحـدة.. أو كمـا تسـمّى في عـرف السـجون قضـية واحـدة.. والكثـيرون منّـا لم يعـرف الآخـرين.. والأغلـب لم يعـرف أن هنـاك محاولـة انقلابيـة.. وقـد صـار أحـد عناصـرها.. وتمّـت محاكمتـه بأقسـى العقوبـات.. كمـا كـان الجميع ينادون بها من الحاكم والمدعي العام والمحامي.

وأصـبح لهـذه القضـية صـدىً واسـعاً فيمـا بعـد.. وعرفـت بقضـية (جيـزاني الچول) نسبة إلى قرية في منطقة الخالص.. وقد حصلت مقاومة مسلحة من قبل أهـالي هـذه القريـة ضـد أزلام النظـام.. بعـد أن اختفـى أحـد المطـاردين فيمـا بيـنهم.. وقـد تعرضـت هـذه القريـة إلى أذىً شـديد.. ولم يسـلم منهـا لا البشـر.. ولا الحيـوان.. ولا النبات.

كان جلّ المعتقلين من مدينة الخالص ومن مدينة الثورة ومن مدينة الشعلة.. وقليلـون مـنهم مـن مدينـة الديوانيـة والحلّـة وكـربلاء ومدينـة طـويريج التابعـة إلى محافظـة كربلاء.. وغيرها.

وبـالرغم مـن كثـرة العـدد.. فهـو يمثـل أقـل مـن نصـف المعتقلـين في هـذه القضية.. وأما الآخرون فقد سيقوا إلى أماكن مجهولة.. وحسب تعليمات حزب البعث ومعلمه ميشيل عفلق! وربيبه صدام حسين التكريتي! فإن اساليب البطش والموت قد تلونت! وسمعنا فيما بعد أنهم قتلوا قتلاً جماعياً.. ودفنوا في مقابر جماعية.. وانقطعت أخبارهم.. وغابت آثارهم! وكذلك الأحلام والطموحات لتخليص الشعب، تغتال في عراق البعث، عراق صدام.

۞ ۞

لبثنا ساعة في القاعة الكبيرة.. وشاهدت فيها شباباً بعمر الزهور.. بعضهم شاهدته أثناء التحقيق في الشعبة الخامسة.. وبينما كنت أمسح ما حولي بنظري.. إذ لاحت لي لوحة على الجدار مرسوم عليها جمجمة وحولها عبارة تقول: إن النظام الإيراني لا يعير أية أهمية للإنسان.. وتساءلت سراً.. لماذا اختيرت هذه العبارة دون غيرها في مكان لا يعير أية أهمية للإنسان؟!

وبينما الصمت يخيّم علينا.. والأخطار تحدق بنا.. وبعضنا يرنو إلى بعض مرسلاً رسالة أشواق وشكوى.. إذ انطلق صوت مزق السكون.. التفتنا نحو مصدره.. بان لنا رجل يرتدي زي الشرطة.. وتزيّن أكتافه نجمات فضية وبيده ورقة طويلة.. راح ينظر فيها ويتلو أسماء بلغ عددها ثلث أسماء الموجودين في القاعة تقريباً.

ثم أمر الذين نودي بأسمائهم أن ينهضوا.. فنهضوا جميعاً.. وساقهم الجلادون إلى المحكمة.. جلّهم من الشباب.. ثيابهم قصيرة ممزقة.. تقتحمها العين.. شعورهم منفوشة.. أجسادهم متسخة.. حتى خلت نفسي كأنني أراهم لأول مرة!وبينما كانوا يقفون صفاً.. أحاط بهم الزبانية من كل جانب.. بعضهم كان مسلحاً.. وبعضهم ارتدى الملابس الرياضية.. وكأنهم على أهبة الإستعداد لخوض معركة دامية معنا.

۞ ۞

بعد ساعة تقريباً.. عاد الرجل العسكري وعلى ذات الهيئة.. وولجت مجموعة أخرى باب المحكمة.. وبعد مضي ساعتين تقريباً جئ لنا بطعام وجبة الغداء.. وتبيّن لي فيما بعد أن هذه فترة إستراحة للجميع.. وزجّ بالذين تمت محاكمتهم في قاعة أخرى.. وقد بلغ ثلثي العدد تقريباً.. وفرّق الشرطة علينا (السندويج) المحشي بالكباب الحار.. وهذه أول مرة نتناول الكباب في فترة الإعتقال.. وتبيّن أن هذا الطعام في المحكمة لا يتغير.

ويشرف على الجميع الملازم أدور[106].. وهو يمازح البعض.. ويطلق دعابات هنا وهناك.. ولما شكوت له عضّ القيد في معصمي.. جاءني مسرعاً.. ووضع المفتاح في القيد وسألني عن إسمي.. فأجبته: سامي.. فكان يدير المفتاح.. ويوسع حلقات القيد..ويردد: يا ابن عمي يا سامي.. بلهجة غير واضحة مشوبة بالإستهزاء والتوبيخ أو بشعور آخر!

في هذه الفترة جفت ثيابنا من العرق الغزير.. وتبيّن لنا أن الهواء حار.. وكأننا في مكان ألقي في خلاء واسع ناءٍ عن المدينة! ثم بعد ساعة تقريباً عاد العسكري ذاته ليتلو أسماء من تبقى.. كنت أحدهم.. ووقفنا صفاً واحداً.. وسيق الجميع نحو المحكمة.. وارتقينا بضع درجات حتى بلغنا الباب.. وولجنا الباب المفضي إلى المحكمة..وما أن إجتزناه حتى لاح لنا شباب كثيرون منتشرون حولنا.. بعضهم شهر سلاحه نحونا.. وبعضهم كان مجرداً من السلاح لكنه يرتدي الملابس الرياضية ويقف متوثباً!!

وأخيرا.....ها أنا في محكمة الثورة!

وأخيراً.. محكمة الثورة.. مبعث الظلم.. والفزع.. والإستبداد! سمعت بها من خلال الراديو..وأنا في السابعة من عمري.. ورددناها لاعبين أنا وأترابي.. ونحن نجاري حاكم محكمة الثورة.. فنقول: حكمت المحكمة على المتهم جيته وعزرة ناجي زلخة.. بالإعدام شنقاً حتى الموت. ثم نشد على رقبة العصفور بخيط نايلون وهو يزقزق حتى نقطع عنقه!!

106) قال لي أحد المعتقلين بعد ان ساقنا ملازم ادور الى دورة المياه وطلبت منه أن أستخدم المغسلة لأغسل يدي ووجهي فسمح لي بذلك فشكرته ودعوت له، فقال لي: أدعو لي الله يخلصني من هالشغله!

ولم يَدُر في خلدي أني سأقف يوماً ما في قفص الإتهام في محكمة الثورة.. ويحيط بي جمع من أنبل ما في الشعب العراقي.. وحبل المشنقة يتدلى فوق رؤوسنا.. والبعض لم يزل بعمر العصافير التي تزقزق.

اجتزنا باباً.. ثم انعطفوا بنا نحو اليسار.. وسرنا بضعة أذرع.. ثم دلفنا نحو قاعة المحكمة.. وضعونا واحداً جنب الآخر.. وأمامنا صف طويل.

هكذا وجدتني في قفص الإتهام في محكمة صورية جائرة..وقد رفع القيد عن معصمي.. كما رفع عن غيري.. ونحن ندخل قفص الإتهام.. إتماماً لفصل مسرحي مقرف.. فماذا يعني رفع القيد.. وما جدواه في وقت يمنع فيه المتهم من الدفاع عن نفسه.. وإذا دافع عن نفسه إستقبلته شتائم وكلمات فاحشة بذيئة.. ويسرع المحامي الذي عيّنته المحكمة ليطالب بمعاقبته بالإعدام شنقاً حتى الموت!

۞ ۞

سبقتني جموع.. وتبعتني جموع.. ليس لهم ذنب إلا أنهم وحّدوا الله تعالى.. أو أنهم أرادوا أن يعيشوا أحراراً. كان الوقت ساعة الأصيل.. وصفرة الشمس تبعث شجىً في النفس.. وأزيحت الستائر عن نوافذ كبيرة.. فبدت قاعة المحكمة عالية.. فلقد كانت مشرفة على الشارع العام.. الذي يبعد عن المحكمة مسافة مرمى حجر.. ويبدو أنه الخط السريع.. كنت ألاحظ السيارات تسير بسرعة فائقة من اليسار إلى اليمين.. من أين؟! وإلى أين؟! لست أدري؟!

أمامنا منضدة كبيرة عالية.. يشرف علينا الحاكم من خلالها.. وعلى الجدار فوق رأسه لوحة مرسوم فيها ميزان ومكتوب فيها بخط جميل الآية الكريمة: **{وإذا حكمتم بين الناس فاحكموا بالعدل}**.

۞ ۞

كان الحاكم محمد الشماع ممتلئ الجسم كبرمة هائلة يعلوها رأس كبير.. ذا خدين منتفخين.. فيبدو فمه صغيراً جداً.. عن يمينه ضابط عسكري ضخم الجثة.. وعن شماله ضابط آخر نحيف وقصير.. تزيّن أكتافه نجمات فضية..

الفاصلة بين قفص الإتهام والحاكم لا تقل عن عشرة أمتار.. وفي هذه الفاصلة جلس شاب أسمر البشرة.. يميل إلى السمنة قليلاً.. وأمامه منضدة.. يرتدي قميصاً نصف كم.. وفي يده اليسرى ساعة كبيرة فيها صورة صدام حسين.. وقد نثر أمامه أوراقاً.. يدوّن فيها بسرعة.. وهو يلقي نظرات خاطفة نحو المتهم عندما يتكلم.

يتقابل في هذه الفاصلة عن يمين الحاكم المدعي العام.. مقتعداً كرسياً وأمامه منضدة.. وعن شمال الحاكم مكان المحامي الذي لم نره! وانتشر في هذه الفاصلة عدد كبير من المسلحين ورجال الأمن.. وهم يرتدون الملابس الرياضية.

۞ ۞

وشرع المدعي العام يتحدث وكأنه يخطب.. ناظراً في ورقة لم ألتفت إلى كلامه.. ربما لأنني لم أعرف شيئاً عن أصول المحاكم.. أو لأن ثمة شعور تكلس في وجداني.. أن كل ما حولي لا يعني شيئاً لأنني في ولاية بلا قانون!

الشيئ الوحيد الذي لفت انتباهي هو عندما قال: ـ أرجو من رئاسة المحكمة أن تحكم على كل من المتهمين (سامي) وفاضل.. وشخص ثالث لم أتذكر اسمه بالمادة 247. ثم ختم حديثه مطالباً عدالة المحكمة أن تمارس بحق المتهمين أقسى العقوبات!

۞ ۞

كنت أتمتم ببعض الأدعية والأوراد.. وكنت أسائل نفسي هل حقاً هذه محكمة الثورة! إذ كنت مطمئناً هادئ البال.. ومستعداً لأقسى العقوبات التي

تصدر منهم تجاهي.. وقرأت دعاء يوم الثلاثاء من أدعية الصحيفة السجادية للإمام زين العابدين(ع).. بصوت لا يسمعه من كان واقفاً إزائي.وعندها تذكرت قول الإمام علي(ع)إذ يقول: «إذا هبت شيئاً فقع فيه».

لم يتكلم الحاكم سوى كلمات مقتضبة وكأنه يقطعها قطعاً حاداً.. فتنزلق حروف الكلمات من بين أسنانه كأنه يعتصر أذنابها.. وكلماته لا تتجاوز أسئلته للمتهم:

. اسمك؟.. عمرك؟.. شغلك؟.. سكناك؟

وأما الذي يحاور المتهمين فهو العسكري الذي يجلس عن يمين الحاكم.. وكان يتكلم مع المتهم على عجل.. وكأنه لا يريد أن يسمع منه شيئاً.. وكأنما قرار الحكم قد اتخذ سلفاً قبل المجئ بنا إلى المحكمة.. وكان يحاور ويشتم ويستهزىء. وسأل صاحبي فأكد قائلاً: اتصلت بجميل عبود، وهو اتصل بصالح حميد وماجد قاسم لكنه ظل مصراً على انه لا يعرف اسم صاحب المسدس الذي إشتراه منه وبعد سنين طويلة تأكدت أنه يعرف اسمه.. فردَّ عليه الضابط بتوبيخ: ليش هو طماطة وكان يؤكد له عدم معرفته لاسمه فرفع طرفه نحوه وقال: إنت كان عندك تنظيم ومكشفته.. فأجابه: نعم.

رأيته وهو يحرك القلم ببرودة وهذه الكلمات كانت قاتلة.. حتى جاء دوري.. وهكذا وجدتني وجهاً لوجه مع حاكم[107] محكمة الثورة سيئة الصيت. وسألني محمد الشماع بطريقته الغريبة: . اسمك؟. (سامي حمادي علي).

. عمرك؟. 19 سنة.

. شغلك؟. طالب.

. سكناك؟. بغداد....

---

107) محمد الشماع هو رئيس محكمة الثورة وكالة والحاكم المجرم مسلم الجبوري.. الذي ينفث لسانه بذاءة وشتائما مقذعة يرجم بها المتهمين.. ثم خلفه المجرم عواد البندر.. وغيرهما.. وأشد هؤلاء قسوة على المتهمين هو مسلم الجبوري. وقيل: إن المحاكم معطلة في شهر آب.. ولكن كانت محاكمتنا استثنائية لأهميتها.. ولعلها أكبر وأخطر قضية شهدتها محكمة الثورة.

وما أن أنهى الحاكم أسئلته.. حتى بادرني العسكري وبلهجة من يريد إنهاء الحديث على عجل.. فقال لي: ـ يا الله.. إتكلم. فسألته:ـ شتكلم.ـ شنو علاقتك بـ(هـ)؟ فأجبته:ـ علاقة طالب بمدرس.. ثم إننا في منطقة واحدة. فخرج العسكري الذي عن شمال الحاكم عن صمته وقال: ـ شنو كان يدرسكم دين؟ فأجبته على الفور:ـ لا.. لغة عربية. وهنا خرج الحاكم عن صمته، وهذه أول مرة.. وسألني:ـ إنت انتميت إلى حزب الدعوة لأن إخوانك وأقاربك معتقلين؟! فأجبته بالجواب الذي كان يجيب به كل المتهمين:ـ أنا لم أنتم إلى حزب الدعوة.. وحتى هو لم يفاتحني بالإنتساب إلى حزب الدعوة. ويبدو أن الجواب أزعجه كثيراً.. لأنني لاحظته قد أخذ القلم من أمامه بإنفعال واضح.. ثم كتب على الورقة التي أمامه كلمات قليلة ربما لا تتجاوز السطر.. وختم الحديث فوراً..

وتحوّل العسكري إلى المتهم الذي عن شمالي.. وبهذه الكلمات النزرة.. ختم على مصيري ومصير أمثالي!

بعد الإنتهاء من محاكمة هذه المجموعة الأخيرة[108] التي كنت أحدهم.. أعادونا إلى القاعة الكبيرة.. فوجدنا الذين سبقونا إلى المحكمة أعيدوا أيضاً إلى المكان نفسه.. وبعد قليل نودي بأسمائنا جميعاً.. وقد بلغ عددنا 106 أشخاص.. وأوقفونا صفاً طويلاً.. ثم أعادونا إلى المحكمة، فوجدنا المسلحين والرياضيين يحيطون بنا.. والحاكم ومَن حوله يجلسون في أماكنهم.. وقد حشد المتهمون حشداً.. بعضهم في قفص الإتهام وآخرون خارج القفص.. وجميعهم صامتون واجمون.. وكأنما على رؤوسهم الطير! سوى رجل أعرج..

---

108) كثيرون من حولي لا أعرفهم ولكن سمعت حوارات دارت بينهم وبين العسكري أختزنتها ذاكرتي، ومن هذه الحورات سأل العسكري أحد المتهمين فقال له: شنو علاقتك به؟ فاجابه قائلاً: كانت لدي حالة نفسية ونصحني بالصلاة والصوم فرد عليه العسكري؛ قائلاً بإستهزاء: وشنو هي الصلاة حبوب ابر؟.
وجاء الدور الى السيد عباس الشوكي، فكانت أحدى التهم التي وجهت له هي بيع دار عمه المرحوم السيد عبدالرحيم الشوكي وارساله المبلغ لعمه إلى إيران، وكذلك إنتمائه الى حزب الدعوة الاسلاميه عام 1974 وجمعه التبرعات.

خطا بضع خطوات.. ثم وقف عن يمين المتهمين.. وهو يتزيّا بزي المحامين.. وبهذا عرفناه إنه هو المحامي.. وهذه أول مرة نشاهده!!

وقف المحامي الأعرج ليمثل دوره.. فيتم آخر فصل من هذه المسرحية اللاإنسانية.. وانطلق يتكلم.. وجميع مَن في قاعة المحكمة صامتون.. فقال وهو يتنهد.. مصطنعاً الألم أو الأسف قال: ـ لا أدري من أين أبدأ وإلى أين أنتهي.. وإن الدفاع عن الأعداء لأمر عسير. وفي الحقيقة هو لم يدافع عن أحد.. فكأنه يردد كلمات لقن بها تلقيناً. ثم قال بلهجة غاضبة:ـ إني أطالب رئاسة المحكمة الموقرة باتخاذ أقسى العقوبات بحق هؤلاء الخونة المجرمين. وازدادت لهجته حدة:ـ إني أطالب رئاسة المحكمة بقطع هذه الرؤوس العفنة!!

وهكذا كلهم يطالبون أن تمارس بحقنا أقسى العقوبات.. لكن أشدهم لهجة هو المحامي.. فانظر وتأمل!!

واستدرك أخيراً:ـ ولكن أرجو من المحكمة الموقرة الرأفة بكل من أحمد كاظم كرم ومحمد كاظم كرم وشمس الدين عبد النبي محمود لصغر سنهم.

فقد كان عمر أحمد ومحمد ثماني عشرة سنة فهما توأمان.. وأما عمر شمس الدين فهو سبع عشرة سنة. لكن شفاعته كانت حبراً على ورق! وقد حكم عليهم بالسجن المؤبد.. وكان أفراد الشرطة يضربونهم وهم يرددون قائلين بإستنكار:

ـ لك إشگد الواحد ومحكوم مؤبد؟!

كما حكم على كاتب السطور بالسجن المؤبد.. بعد أن استثني من قبل المدعي العام الذي طالب بحكمه وفقاً للمادة247[109] وحكم عليه بالمادة156 التي تحكم بالإعدام أو السجن المؤبد. كما حكم على فاضل

109) تبيّن لي فيما بعد أن المادة 247 تحكم من 7 سنوات فما دون.

بالإعدام.. وأما الثالث فلست أدري من بين الذين حكم عليهم بالإعدام أو بالسجن.

وقد حكم علينا جميعاً ولم نعرف المادة القانونية التي حكمنا بها إلا بعد سنوات طويلة.. لأن الجميع يعرف أن الحكم الذي حكمنا به هو ليس إلا حكم قرقوش القرن العشرين!

۞ ۞

وهكذا تمّت محاكمة عدد يبلغ106 أشخاص خلال خمس ساعات تقريباً.. تخللتها استراحة زادت على الساعة.. والمتهم يسمع ولا يتكلم ولا يحق له أن يدافع عن نفسه! ثم عادوا بنا إلى قاعة الإنتظار الكبيرة.. ودفعوا بنا بشكل عشوائي.. ولم يعيّنوا مكاناً لكل واحد منّا.. فأتيحت فرصة لمن يريد الجلوس جنب صاحبه أو أخيه أو أبيه.. إذ كان البعض قد جئ به وبأبيه والبعض الآخر مع إخوانه.. وأسرعت لأجلس على القنفة التي ترتكن إزاء الباب المفضي إلى قاعة المحكمة.. ليتسنى لي الحديث مع صديقي المرحوم فاضل وأصدقاء آخرين.

وكانت جلسة مريحة.. إذ احتمينا بأقرب عمود من أعمدة القاعة.. لكن شغلني ما لاح لي على العمود.. حتى عن أصدقائي لبرهة قصيرة.. ثم عدت إليهم وظل ما رأيته لغزاً محيراً لي. برزت أمام ناظري كلمات متناثرة ومحفورة على العمود.. وكلها لا تدل على معنى وهي: (محمد رسول الله مؤبد) و (تونس 5 سنوات).. ومثل هذه الكلمات كلمات أخرى أشدّ غرابة.. مما أثارت عجبي وتركتني في حيرة.. إذ أن الكتابة بهذه الطريقة وفي هذا المكان ليس أمراً يسيراً.. ولابدّ أن كاتبها كان مصراً على كتابتها ومتحيناً غفلة الشرطي ومجازفاً.. إذن لماذا حصل هذا.. والأغرب من هذا كله أنها لا تعني شيئاً!

وبعد قليل ساقونا جميعاً إلى ذات السيارة التي جلبونا بها صباحاً.. وتركنا أفراد الشرطة دون مراقبة.. ولم يقيدونا على الحديدة اللصيقة بها.. وانطلقت تغذي السير فعانق بعضنا بعضاً.. وتحدث بعضنا إلى بعض.. وكنا نتحدث على عجل خشية أن نفترق على غير أمل اللقاء.

۞ ۞

التقيت بصاحبي.. وكان مستحياً مني وخجلاً لما سببه لي من أذىً.. فهوى على قدمي ليقبلها.. وهو يمد نحوي عينيه متوسلاً: ـ اغفر لي.. اغفر لي.. إبرئني الذمة.. احتمال أنعدم. فأمسكت به ورفعت رأسه ومسحت العرق الذي تفصدت به جبهته خجلاً.. وقبّلته فيها.. وطيّبت خاطره ببعض الكلمات المناسبة.. وأكدت له: ـ إن نفسي مطمئنة لكل ما يصيبني في هذا الطريق.. فأنا الذي إخترته.ثم أخذ يعرض عليّ آثار القروح العميقة في يديه.. وهو يردد بألم وشكوى: ـ ظروف صعبة.. ظروف صعبة.. أذوني.. أذوني.وتبيّن لي أنه قد مرّ بظروف قاسية جداً.. حتى بالقياس إلى كل المعتقلين.. فقد استمروا بتعذيبه أياماً.. وبعد كل جولة يتركونه واقفاً على المشجب.. وفي اليوم الثاني يعيدونه إلى التعذيب.. ومارسوا معه أساليب وحشية متعددة حتى خلعت يداه وقدماه.. ودقوا الخازوق فيه مرتين.. وكان آخرها أن علقوه في السقف بعد أن شدوا يديه من خلفه بالكتاف وتركوه يتدلى.. وربطوا في كل أذن من أذنيه خيطاً وفي نهايته تتدلى طابوقة.. ثم ربطوا في عضو ذكورته خيطاً منتهياً بطابوقة..وتركوه حتى أصابه الإعياء وفقد السيطرة على نفسه!

۞ ۞

توقفت السيارة وفتح بابها.. وأمرونا بأن نترجل منها.. فلاحت لي السيارات الأخرى.. وانتشر المعتقلون الذين كانوا معنا في المحكمة.. وأحاط بنا المسلحون والرياضيون.. فتبيّن لنا أننا قد عدنا إلى موقف مديرية الأمن

العام.. وأعادونا كلاً إلى زنزانته بعد أن سألنا العريف كاظم: ـ ولك إنت وين بيا غرفة؟!

فعلينا أن نجيبه على عجل ذاكراً رقم الزنزانة.. ولم يرض الجلادين ذكر اسم الزنزانة.. فنقول غرفة. فلما سألني أجبته على عجل: ـ غرفة 21.فقال لي آمراً: ـ قف بجانبها. ثم سأل آخراً فأجابه: ـ زنزانة رقم 21. فأجابه العريف كاظم بغضب: ـ إنچب لك گول غرفة.. إنت تعرف الزنزانة شنو؟! ويبدو أن هذه الزنزانة التي نقطنها هي بمنزلة المنتزه قياساً لتلك الزنزانة التي يعرفها العريف كاظم..

فتح الباب.. ودفعني الجلاد.. ثم دفع الذين معي إلى الزنزانة رقم 21.. وأغلق الباب دوننا.. فاستقبلونا بحرارة ولهفة.. ثم راح كل منا يسرد الحوار الذي دار معه في المحكمة.. وكانوا يطمئنوننا.. وكلما نستفسر عن شيئ نجد له توقعاً أو احتمالاً.. وكلها كانت في صالحنا.. لكن محمد حنون همس بأذني قائلاً: إذا تساهلوا مع أحدكم فسوف يحكمون عليه بسبع سنوات.. لأنه ألقي القبض عليكم في وقت مؤامرة. وصدقت نبوءته.. وحتى الذين يطمئنوننا كانوا يائسين من نجاتنا جميعاً.. وذلك لما عرفوه من خلال ما مرّ بهم من قضايا.. وما آلت إليه من نتائج!

۞ ۞

دخلنا دورة المياه تباعاً.. لنغسل آثار التعرق الغزير الذي علق في أجسادنا.. ثم ناولني البعض ثوبه لأغسله لأنه عاجز عن تحريك يديه.. ورحت أدلك ثوبي وما اجتمع لدي من ثياب بالماء دون صابون.. لأنه غير متوفر لدينا.

أحاديث العائدين من المحكمة

انطلق الجميع يتحدث عمّا لاقاه.. وعمّا فاجئه.. وعن مشاعر ومفارقات شتىّ.

وكان أبرزها حديث رعد حكمت.. إذ إنه التقى بأبيه في المحكمة.. ثم تساءل قائلاً: شفت كتابات كثيرة على أعمدة القاعة محفورة حفراً.. والغريب أنها لا تدل على معنى! وهنا قفزت إلى ذهني بعض الكلمات التي حيرتني.

فأجابه محمد حنون: ـ هذه رموز يتفق عليها البعض ليذكر مدة حكمه.. لمن تربطه به رابطة ما.. لأنه يخشى من كتابة اسمه الصريح.. فيكتب الكلمة التي اتفقوا عليها وبجانبها يكتب مدة الحكم.

فسأله آخر: ـ وكيف يعرفون هيكل المحكمة وأعمدتها؟! فأجابه: ـ نعرف مواصفاتها من خلال الذين يتم استدعاؤهم للمحكمة.. ثم تؤجل محكمته فيعاد إلى الزنزانة.. ثم طفق يتحدث عن بعض الذين فارقوهم إلى المحكمة.. ولم يعرفوا عن مصيرهم شيئاً.. وما زالوا يتحرقون شوقاً لمعرفة مصيرهم.. فقد تركوا في نفوسهم أثراً طيباً.. وفي الزنزانة تتوثق عرى المودة كما لم تتوثق في مكان آخر.. ثم ذكر أحد المعتقلين معهم في هذه الزنزانة سابقاً.. وكان عزيزاً على قلوبهم جميعاً، وسيق إلى المحكمة، واتفق معهم أنه سيكتب رمزاً وهو كلمة.. وبجانبها مدة الحكم.. والكلمة هي تونس.

وما أن سمعته نطق بهذه الكلمة حتى سألته بدهشة: ـ تونس؟! فقال لي مؤكداً: ـ نعم تونس. قلت له.. كمن يزف له بشرى: ـ رأيتها وقد كتب بجانبها 5 سنوات.

فسألني في أي عمود من أعمدة قاعة المحكمة؟ فذكرته له. وهنا بدت عليه بهجة..وغمره سرور عظيم وهو يردد:ـ الحمد لله.. الحمد لله.. يعني مَنعدم!

فشاركه الفرحة كريم لازم وعبد الزهراء، وآخرون.

۞ ۞

وما إن تنفس الصباح وانتشر الضياء.. وتسللت شمس آب المحرقة إلى دهليز الموقف.. حتى عادوا إلينا منادين بأسمائنا جميعاً.. وفتحت أبواب الزنزانات.. واجتمعنا ثانية في الممر وتكدست الأجساد.. وأحاطت بنا البنادق من كل جانب.. وانتشر من حولنا أفراد الشرطة.. وهم يرتدون الملابس الرياضية.. ووضعوا القيود في أيدينا.. وأمرونا بالنهوض والسير نحو السيارات.. وقصدناها ونحن مكبلون بالحديد.. وانطلقت السيارة دون أن نرى شيئاً من حولنا.. وبعد فترة توقفت السيارة وترجل الجميع وسط الإرهاب والشتائم والصفعات والوعيد! وارتقينا بضع درجات.. فبلغنا القاعة الكبيرة.. وغصت بالجمع الغفير مرة أخرى.

وما أن استقر بنا المكان.. حتى عاد العسكري واقفاً إزاء الباب المفضي إلى قاعة المحكمة وبيده ورقة طويلة.. وراح يتلو أسماءنا.. وكان فاتحة الأسماء المرحوم الشهيد إسماعيل يوسف.. وتبعه عدد يبلغ ربع العدد الإجمالي تقريباً.

ثم عاد فتلا أسماء أخرى.. بلغ عددهم العدد السابق نفسه تقريباً.. ثم المجموعة الثالثة.. وكان آخرهم صديقي المرحوم الشهيد فاضل صدام رحمه.. وكان هؤلاء ولجوا باب المحكمة ولم يعودوا.

ثم نودي بأسماء من تبقى.. وكان عددنا27 فرداً.. منهم12 فرداً كلهم دون العشرين من أعمارهم وكنت من بينهم.. وأما الباقون فشباب. وارتقينا السلم الصغير.. ثم انعطفنا بضع خطوات نحو اليسار.. فدفعوا بنا نحو قاعة المحكمة.. والتقينا بالحاكم المجرم محمد الشماع ومن حوله كل الذين رأيناهم بالأمس.

وما أن اصطففنا.. حتى راح ينظر بورقة أمامه ويقرأ.. وكأنه يعتصر الكلمات من بين أسنانه وشفتيه:ـ حكمت المحكمة على المدانين.. وتلا أسماءنا جميعاً.. باستثناء أربعة أشخاص.. حيث خصهم بحكم آخر: ـ حكمت المحكمة على المدانين بالسجن المؤبد مع مصادرة أموالهم المنقولة

وغير المنقولة.. على أن تحسب مدة الموقوفية.. أما الباقون فحكم على اثنين منهم بسبع سنوات.. واثنين منهم بعشر سنوات.

وهكذا غدت الكلمات المقتضبة الرخوة الخالية من الروح والإنسانية تسيل لزجة من شدقيه.. فتقرر مصير أناس.. تيتم أطفالاً.. ترمّل نساءً.. بل وتبدأ العقوبة في عراق صدام بالإعدام.. ثم تستمر ملاحقة ذوي المعدوم.. بين طرد من عمل ومراقبة.. وأمر الجيران بمقاطعتهم والتأليب عليهم...إلخ.

وما إن أتم الحاكم قراءته ورفعت الجلسة.. أرجعونا إلى قاعة الإنتظار الكبيرة.. وما أن هبطنا السلم الصغير لتلامس أقدامنا الحافية أرض القاعة.. حتى استقبلنا الملازم أدور بدهشة كبيرة.. وقال لنا متسائلاً: ـ ها أنتم شنو؟!

أجابه أكثر من صوت: ـ حكمنا بالسجن المؤبد.

فغر فاه متعجباً.. وقال: ـ مؤبد؟! ـ نعم مؤبد.

فقال باستغراب: ـ بابا.. أنتم كلكم محكومين بالإعدام! ودهشت لهذا النبأ.. إذ أنهم جميعاً يعرفون الأحكام الصادرة بحقنا قبل محاكمتنا. وتبيّن لنا جميعاً.. أن جميع من سبقونا حكم عليهم بالإعدام.. لذلك لم يعودوا بهم إلى القاعة الكبيرة.. إذ لا يعود إلى القاعة الكبيرة إلا من حكم عليه بالسجن.. وأما الذي يحكم بالإعدام فيؤخذ إلى قاعة أخرى..ثم يحمل إلى قاطع الإعدام في سجن أبو غريب.

وتذكرت مزاح أدور ومداعبته لنا.. لأنه مطمئن إلى حكمنا بالإعدام.. فربما كان يسخر أو يتوعد.. أو...؟! وما أن ثاب إلى رشده واطمئن إلى حكمنا بالسجن المؤبد.. والجلادون يرافقوننا.. حتى أخذ يعيد القيد إلى معاصمنا وهو يردد:

ـ هذي القيادة القطرية رأفت بيكم.. وانكتب إلكم عمر جديد.. وإذا طلعتوا إذبحوا ذبايح.

ولست أدري لماذا اختار القيادة القطرية من بين القيادات الكثيرة في عراق الدكتاتور المجرم صدام حسين.. والتي كلها تصوغ قراراتها بإشارة من إصبع القائد الضرورة.. وباني مجد العراق.. وعز العرب.. ومحرر فلسطين.. وحفيد حمورابي ونبوخذ...نصر والخلفاء الراشدين!

حياتي الجديدة بعد حكم المؤبد!

وبهذا أكون قد ابتدأت حياة جديدة.. منذ ضحى يوم 26 آب 1981م.. محكوماً بالسجن المؤبد. وهذا الحكم.. بعد رأفة القيادة القطرية! فالأحكام في عراق أبناء العوجة هي كما وصفها أحد المصريين المقيمين في العراق.. عندما قال ساخراً: الإعدام عندكم زي السلام عليكم!

ساقونا إلى خارج القاعة الكبيرة.. وكانت بانتظارنا سيارة واحدة.. فعددنا سبعة وعشرون فرداً فقط. أما العدد الآخر.. وهو تسعة وسبعون فرداً فقد حكم عليهم بالإعدام شنقاً حتى الموت في يوم دموي آخر شهدته بغداد!

وتبيّن فيما بعد.. أن الجميع نفذ بهم حكم الإعدام في غضون أيام قليلة لا تتجاوز الأسبوع.. ومن حسن حظ أهاليهم أنهم تسلّموا جثث أبنائهم.. وهذا يعد مكسباً كبيراً للشعب العراقي في عصر الدكتاتور الأرعن صدام حسين.

۞ ۞

الفصل السادس

سجن أبو غريب

زجّ بنا في ذات السيارة الخانقة التي حملتنا صباح اليوم.. وتحركت السيارة.. إلى أين؟! لا أحد يعلم. لكن توقع الجميع أنها تسير بنا إلى السجن.. ولكن أي سجن؟! لا أحد يعلم!

الجو خانق.. والعرق يتصبب من أجسادنا بغزارة.. والجوع ينهش أحشاءنا.. والعطش جفف حلوقنا.. والإرهاق بادٍ على الجميع.. والحزن خيّم على بعض الذين فارقهم إخوانهم إلى الموت الزؤام.. واطلق البعض الاخر كلمات ساخرة من كلمة (مؤبد) والمجاهدون على الابواب لينتزعوا الحكم من الزمرة الباغية وما هي الا ايام أو اسابيع أو شهوراً كما يظنون!! والبعض كان مسروراً لنجاته من الإعدام لا لجرم كبير اقترفه.. ولكن لتعسف الحكم الجائر واستبداده وبطشه.. والبعض الآخر كان مستاءً لأنه لم يرزق الشهادة وبينما تتجاذبنا مشاعر شتى انطلق صوت الاخ (جبار عبود) مردداً (يحسين بضمايرنا) فلقد كان يحفظها عن ظهر قلب ورددنا معه وروح التحدي للظالمين تستعر في قلوبنا.

السيارة تغذ السير.. إلى أين؟! بعد مضي ساعة تقريباً.. توقفت قليلاً.. لم نر شيئاً ولم نعلم لماذا توقفت.. ولم نسمع صوتاً أو نداءً ليعيننا على فهم ما نجهله.

انطلقت ثانية تغذ السير.. بعد مضي ساعة تقريباً توقفت.. وفتح بابها الخلفي.. أمرونا بالترجل.. فترجل الجميع.. انبسط أمامنا خلاء فسيح.. وكأننا في تيه.. وكان الوقت ظهراً.. سحقنا إسفلت الشارع حفاة.. فبدا لنا موحشاً حزيناً.. كل شيئ من حولنا يثير في النفس حزناً ووحشة.. وإنذاراً بالغربة.

بدا للجميع أن المكان ناءٍ عن بغداد.. والشارع كأنه خالٍ من السيارات.. أما الشارع العام فيبدو أنه طريق الخط السريع.. أمرونا بالسير.. بعد أن قيّدوا كل اثنين في قيد واحد.. كنا نسير والسكون يخيم على الجميع.. وحتى على الأرض التي تقلنا.. سوى الاصوات المنبعثة من وقع أقدامنا الحافية.. والحديد الذي نرسف به.

جلادون يسوقوننا.. وآخرون يقودوننا.. ونحن نتبادل فيما بيننا همسات بحذر.

حفاة.. شبه عراة.. نرسف بالأغلال.. وكأن ثمة لحناً جنائزياً يشيّعنا!

وبينما نحن نحث الخطى نحو المجهول.. إذ برزت لنا لافتة كبيرة فوق بابٍ عالٍ وعريض في منتصف السور الشاهق الذي يحيط بالمباني.. تطلعت الإنظار نحو اللافتة.. فبدت كتابة بخط عريض وواضح وقد كتب عليها: الإصلاح الاجتماعي.. قسم الكبار. وكأن الجميع قال: . نحن لسنا بحاجة إلى إصلاح.. إن من يحتاج إلى إصلاح هم جلادونا.. وجلاد الشعب وعصابته.

وسرت همهمة بين الجميع: . إنه سجن أبو غريب!

اجتزنا الباب الكبير.. فابتلعنا دهليز طويل مظلم كئيب رطب.. تنبعث منه روائح كريهة.. لاحت لنا أبواب مفتوحة عن الجانب الأيمن.. وبان من وراء الأبواب رجال يتطلعون إلينا صامتين.. وكأنهم يتأملوننا.. ونتأملهم..

هيئتهم توحي بأنهم سجناء.. وكل شيئ من حولنا يوحي بالإرهاب والبطش والاستبداد.

مشينا قرابة الربع ساعة.. فأوقفنا الجلادون إزاء باب مقفل.. ارتفاعه أعلى من قامة رجل متوسط القامة بذراع تقريباً.. ويزيد عرضه على المتر بقليل.. تعلوه لائحة صغيرة كتب عليها مخزن!!

فتح الباب.. زجّ بنا جميعاً.. انبسط أمامنا دهليز شبه مظلم.. طوله 30م تقريباً.. وعرضه 5م تقريباً.. بعد اجتياز 5م تقريباً.. تبدو عن جانبيه قضبان على طول الدهليز وكذلك في الطابق الأعلى.. يبدأ بالباب الذي ولجنا منه.. وفي نهايته منضدة ترتفع عن الأرض حوالي مترين.. تحمل تلفزيون.. استقر فيه هواء فاسد.. وانعقدت فيه روائح كريهة منكرة.. تكاد تمزق الخياشيم تمزيقاً بلا رحمة!

أيادٍ كثيرة تمسك بالقضبان.. ووجوه شاحبة.. تعلوها رؤوس ذات شعور قصيرة.. تتأملنا من وراء القضبان بصمت.

بدأ الجلادون يفكّون القيد.. ويرفعونه عن أيدينا.. لم أر سجناً من قبل لا زائراً ولا سجيناً.. أجلت طرفي في فضائه وأرضه وجوانبه.. ذكرني بما شاهدته ذات مرة في فيلم مصري يحكي قصة سياسي أودع السجن.. في عهد سيطرة الإنجليز على مصر.. وكأن التصميم هو ذاته.

ولما أزيح القيد عن آخرنا.. فتح باب أول زنزانة عن جهة اليمين.. وأشاروا لنا أن ندخلها.. كان الباب صغيراً يتسع لدخول شخص واحد فقط.. ويعلو الرأس قليلاً.. وكأنه مقتطع من القضبان التي تملأ جانب الزنزانة المطل على الدهليز.

ولما دخلنا جميعاً.. أوصد الباب دوننا.. وخرج رجال الأمن من القسم وأغلقوا الباب، فأسرع نحونا بعض الشباب.. وقفوا قبالتنا.. وليس بيننا وبينهم

سوى القضبان.. سلموا علينا بمودة صادقة.. وأخوّة حميمة.. وعرفونا بما غاب عنّا بعد أن صافحونا.. وقبّلونا من خلال فجوات القضبان.. تبيّن لنا أنهم سجناء مثلنا.. بعضهم قد سبقنا بعام.. وبعضهم أقل من ذلك أو أكثر بقليل.

وهم الذين يقومون بخدمة السجناء.. بتبرع منهم وبموافقة رجال الأمن.. والإسم الذي عرفوا به هو (الخدمات)[110] ولهم غرفة خاصة صغيرة في بداية القسم مقابل الزنزانة التي اكتنفتنا.. كنا نسألهم فيجيبوننا عن كل ما خفي عنا.. وعرفنا أسماءهم.. أبو سليم التركماني.. وعباس التركماني.. وحيدر من الدغارة التابعة لمدينة الديوانية.. وكاظم من أهالي النعمانية... وآخرون.

وسرعان ما جلبوا لنا الصمون واللبن والخيار.. وبعد أن أكلنا هنيئاً وشربنا مريئاً.. علمنا أن هذا الطعام هو طعام السجناء.. فقد بعثوه إلينا بكل سخاء. وكل واحدٍ منهم بعث لنا من حصته المقررة له.. والتي تسمى في عرف السجون التعيين.

ثم جلبوا لنا علبتي سكائر.. فراح المدخنون يعبّون دخاناً ثقيلاً.. ويلتهمون السكائر بنهم.. فقد مضت عليهم أيام دون أن تلامس شفاههم سيكارة.. ولم تتحسس حناجرهم دخاناً.. وراحوا يترددون علينا بين الفينة والأخرى.. يسألوننا عن حاجتنا لشيئ ما.. وهم يلبون طلباتنا بقدر استطاعتهم وبرحابة صدر.. جلبوا لنا (خاوليات) وقطع ثياب تبرّع لنا بها السجناء.

وتبيّن لنا أن بعض الأشياء الممنوعة في موقف الأمن العامة كالإبرة.. المقص.. المقراضة.. موسى الحلاقة وما إلى هنالك.. مسموح بها في هذا السجن.. وما أحوجنا لمثل هذه الأشياء.

---

110) ظل هذا الاسم يلازمنا.. وبات مفردة ثابتة من مفردات السجن.. وتعاقبت وجوه ومسمّيات متباينة.. منهم المؤمن المضحي.. ومنهم الفاسق المجرم.. الذي صار معلماً للجلادين.

تناولنا اللبن والخيار والحليب السائل والصمون.. وانتشر الدخان في فضاء الزنزانة.. استطاع بعضنا أن يستلقي.. والبعض الآخر أن يتمشي.. وآخرون تحلقوا فيما بينهم وانطلقوا في أحاديث وضحك.. وبان السرور على البعض.

أصدقاء جدد في سجن أبو غريب

كنت من بين الذين شعروا بالراحة.. فمساحة الزنزانة كبيرة قياساً لما كنّا فيه! طولها 6 أمتار وعرضها 5 أمتار.. يملأ واجهتها كلها قضبان حديدية.. وعددنا 27 فرداً.. لم أعرف من هذا العدد سوى نفراً قليلاً جداً.. كانت فيما بيننا معرفة سابقة.. وهم حامد عزيز ومهدي جمعه سلمان كما عرفت علي ناصر عندما كان مقيداً إزائي في الشعبة الخامسة في مديرية الأمن العامة.. وثمة وجوه كأنها مألوفة لدي!

وسرعان ما امتدت الجسور فيما بيننا.. وتبيّن لنا أن بعضنا قريب من بعض.. وكان من بين هؤلاء الأخ جبار عبود.. إذ كنت ألمحه في المدرسة ذاتها التي كنت أدرس فيها.. وكان يلفت نظري بوقفته المتوثبة المتحفزة.. وهو غارق يتأمل.

وما أن تجاذبنا أطراف الحديث حتى تبيّن لي أن بعض أصدقائي هم أصدقاء له.. واستعار بعض الكتب من أصدقائه وكانت لي.. واستعرت بعض الكتب من أصدقائي وكانت له.. ثم صرنا نقارن بين حكاياتنا المأساوية وحكايات بعض من كتب سيرته الذاتية من مفكرين وأدباء.. ونقارن بين حياتهم التي فيها الكثير غير الجدير بالتدوين.. وبين حياتنا التي كانت كل لحظة فيها جديرة بالتدوين. وكنا نؤكد أننا سنكتب ما مررنا به وسوف ننشره.. فهو أجدر بالقراءة من كثير مما قرأنا.

۞ ۞

من بين هؤلاء أحمد كاظم كرم وشقيقه محمد كاظم كرم.. ما أن تبادلنا بضع كلمات حتى تبيّن لي أن أخي الشهيد(رحمه الله) كان صديقاً لأخيهم.. وكان يحدثنا عن بعض العوائل المجاهدة.. أو التي هي على استعداد للجهاد

وقد حمل ذات يوم مجموعة من الكاسيتات وهي محاضرات للسيد الشهيد محمد باقر الصدر (قدس سره) لأحد الأصدقاء.. فتبيّن أن العائلة هي عائلتهم.. وأحد الأصدقاء هو أخوهم الشهيد حيدر كاظم كرم.. ومعنا شقيقهم الأكبر ناصر.

۞ ۞

ومن بين هؤلاء الذين جمعتنا مناسبة واحدة.. وموقف واحد.. هو كريم حسين النوري ومحمد حسن عبدالله وشمس الدين عبد النبي محمود وعلي مجبل وياسين قاسم وحسين كاظم وقاسم عليوي وعلي حسين نصيف وابراهيم عبدالله وسعدون ابراهيم وفيصل شلال وآخرون.

وسرعان ما التقينا كما تلتقي السواقي.. فغمرنا جو من المودة والسعادة.. واشتركنا بكل شيئ.. بالطعام والثياب والمناديل، وكل حاجة دخلت إلينا.

۞ ۞

أدينا جميعاً صلاة الظهرين.. باستثناء خمسة شباب لم يكونوا من المصلين.. جنديان في وزارة الدفاع.. أحدهم اسمه صافي وكان أسود البشرة مترهل الجسم سفيه العقل.. وصديقه طالب چلوب وكان نحيف الجسم متوسط القامة أبيض البشرة لئيم خبيث.. وسرعان ما انخرطا في سلك المنافقين.. وبات طالب جلاداً ناقماً.. ينقب عن كل ما يؤدي بنا إلى المهالك.. وكان بالنسبة إليّ من أشد بلاءات السجن!

وضابطان في التوجيه السياسي.. هما النقيب جاسم صخر.. وكنيته أبو رعد من بغداد.. والرائد حسن وكنيته أبو خالد من الحلّة. وحكم عليهما بالسجن المؤبد.. وذلك لأن أحد الضباط الذين حكم عليهم بالإعدام قال

لهما سراً: أتوقع راح يصير شي بالعراق هذه الأيام.. ولم يخبرهما عن هذا الشيئ.

وسمعت جاسم صخر يتكلم بلباقة مع الضابط العسكري.. وقال له: لم أكن أعلم أنه جاد بكلامه.. فردّ عليه العسكري قائلاً:ـ ليش أنتم مو عدكم بالتوجيه السياسي (الإشاعات المغرضة).

في الليالي الأولى للقائنا بهم.. كانوا ينكفئون في أحد أركان الزنزانة.. ونحن نؤدي الصلاة ثم الأدعية المستحبة. وفي أول ليلة جمعة.. قرأنا دعاء كميل وزيارة الحسين(ع) عقب صلاة العشاءين.

كان الجميع يصغي.. ولما انتهينا همس بأذني الرائد حسن قائلاً: ـ دلني على زيارة الإمام علي. وكان بين أيدينا كتاب ضياء الصالحين. فقلت له: ـ إن هذه الليلة يستحب فيها زيارة الحسين(ع). فقال لي وهو يتنهد:ـ لا.. أريد زيارة الإمام علي(ع). فوضعت بين يديه الكتاب بعد أن أبرزت له الصفحات التي فيها زيارة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(ع). فراح يقرأ ويتوسل.. وما أن مضت أيام حتى انخرطا مع المصلين.. وكانا يؤديان الصلاة، ويصومان شهر رمضان.

بعد مضي أيام قليلة شاهدنا في الجريدة صوراً لأطفال وهم ذاهبون إلى المدرسة..فلقد بدأ العام الدراسي الجديد.. وما أن نظر ابو رعد إلى الصورة حتى قال بصوت باكٍ:ـ يا رعودي يا بابا هاي السنة إنت بصف الأول.. وسكت.

وفارقاننا بعد أن نقلا إلى قسم آخر مع ثلاثة آخرين بينهم الرائد سعدون من أهالي الخالص وهو خال النائب الضابط طلال.. ومهدي جمعة وجاسم محمد.

۞ ۞

وبعد مضي سنة وبضعة شهور عادوا إلينا.. والتقيت بجاسم صخر في زنزانة واحدة فرأيته منهمكاً في الصلاة وهو صائم.. إذ يقضي ما فاته من صلاة وصيام.. وطالما كان يردد: ـ أنا غير آسف.. بل ويشكر الله على نعمة الهداية.

وأما خامسهم.. وهو علي حبيب من أهالي طويريج.. فسرعان ما أدى الصلاة والصيام.. وصار يردد كلمات الحركيين.. وهو متحمس للتنظيم الإسلامي والجهاد. وأمسى سداً بيننا وبين رجال الأمن.. ولديه قابلية على خداع الجلادين وخدمة السجناء ودرأ بعض المخاطر عنا.

تأملات خلف القضبان

نهضت وصرت أخطو بضعة خطوات جيئة وذهاباً أتأمل ما حولي.. جدران صفراء موحشة.. يتسلل هواء حار إلى داخل الزنزانة من خلال نافذتين متجاورتين.. ترتفع كل واحدة عن الأرض مسافة متر تقريباً.. ومساحة كل نافذة قدمان طولاً وقدم ونصف عرضاً.. ويعلو هاتين النافذتين نافذتان بذات الحجم وذات الشكل.. وتغطي كل نافذة من هذه النوافذ زجاجة كبيرة يمسك بجوانبها الأربع شريط حديدي.. تغلق النوافذ شتاءً بهذه الزجاجة اتقاءً للبرد القارس.. أما في الصيف فتستخدم على هيئة رف.. لوضع بعض اللوازم الخفيفة.

أما أرض الزنزانة فهي كونكريتية ملساء لا يغطيها شيئ.. يرتكن في أحد أركان الزنزانة حمام صغير.. يبلغ ارتفاعه عن الأرض مسافة ثلاثة أقدام تقريباً.. أما فتحة الباب فإنها فاغرة فاهها بلا غطاء.. سوى قطعة قماش يضعها السجناء ساتراً.

رميت ببصري من خلال النافذة فوجدتها تطل على ساحة صغيرة تمتد طولاً مع القسم.. عرضها عشرة أمتار تقريباً تنتهي بشبكة حديدية.. ومن وراء الشبكة بناية من طابق واحد.. تبيّن فيما بعد أنها مستوصف الأحكام الخاصة وتسمّى المستشفى.. مددت بصري بعيداً فلاح لي سور عالٍ يحيط بالجميع.. يبعث الحزن في النفس والشعور بالغربة.. لملمت بصري فتراءت لي الزنزانة كخيمة تتوسط صحراء نائية.

عدت إلى القضبان ومسكت به.. وأجلت ببصري في جوانب القسم.. فلاحت لي أيادٍ كثيرة تمسك بالقضبان.. وعيون مفعمة بالتساؤل.. كانت الوجوه شاحبة.. والنظرات خامدة لا توحي بحياة.. مختلطة تنحدر من علٍ وتصعد من أسفل وتنبعث من اليمين ومن شمال.. وتلتقي جميعها في فضاء القسم فتحدث دوياً يملأ أركان القسم.. يشبه دوي ماكينة طحن من بعيد.

رميت ببصري إلى الأعلى.. فشاهدت جمعاً آخراً يرنو إلينا.. ماسكين بالقضبان.. يتأملوننا من داخل الزنزانات المقفلة الأبواب.

لم يدر في خلدي أني سأمكث سنيناً عجافاً طويلة.. وسأكون شاهداً على حياة دامية ظالمة في هذا المكان.

لم يدر في خلدي أني سوف أُذبح مراراً وتكراراً في هذا المكان.. وأني ستتقاذفني أمواج من الفتن.. متلونة مدلهمة حالكة! وأني سأقلب رماد أحلامي المحترقة في هذا المكان.. حيث كنت أنوء بالأحلام الوردية الوهاجة.

لم يدر في خلدي أني سأسلخ أجمل سنين عمري في هذا الدهليز الأجرب!

وسيمتص السجن رحيق شبابي.. فأغدو عليلاً فاقداً لنصف سمعي ونصف بصري.

۞ ۞

عادوا إلينا الخدمات ليحدّثونا عن كل شيئ من حولنا.. وبدأت تتقشع آكام الضباب التي تلفنا.. فتبيّن لنا أننا الآن في الأقسام المغلقة.. وقسمنا يسمّى قاف واحد.. وهو اختصار لكلمة قسم رقم واحد. وأقسام الأحكام الخاصة هي الأقسام التي تجمع السجناء السياسيين والجواسيس.

أما السجناء السياسيون فهم: الشيوعيون والقوميون والإخوان المسلمون والوهابيون والأحزاب الكردية... وبعض الحركات الأخرى. وهؤلاء في الأقسام المفتوحة.. يتمتعون بلقاء شهري مع أهاليهم.. ولديهم ساحة واسعة يتجولون ويلعبون فيها كرة القدم.. وحانوت ومكتبة ومستوصف.

أما السجناء السياسيون في الأقسام المغلقة فهم: حزب الدعوة ومنظمة العمل الإسلامي.. وبعض الحركات الشيعية[111]الأخرى ومَن تعاطف معهم أو تستر عليهم وهؤلاء في الأقسام المغلقة.. وهم محرومون من لقاء أهاليهم.. ومحرومون من التجوال في ساحة أو حتى في القسم.. فهم محجورون في زنزانات مغلقة.. ومحرومون من الشمس إلا ساعة واحدة أو أقل في كل شهر.. كما أنهم محرومون من الكتاب.. أما القلم فممنوع منعاً باتاً وعليه عقاب شديد!

وأما الجواسيس.. فبعضهم متهم بالتجسس لصالح إيران في عهد الشاه[112] أو لصالح إسرائيل أو السعودية أو سوريا... إلخ.. وبعضهم كان يعمل بالتهريب (القچق) بين العراق وبين البلدان المجاورة فيحكم عليهم بتهمة التجسس.

وكل هذه الأقسام تابعة لجهاز الأمن.. وهي منتشرة على جانبي هذا الممر الطويل المؤدي إليه باب قاف واحد.

---

111) هنا تبرز ظاهرة طائفية السلطة وعنصريتها.. فهم يميّزون بين أبناء الشعب العراقي حتى في السجن.. فللأحزاب السنية المعارضة امتيازات حرمت منها الأحزاب الشيعية.

112) أما في عهد الثورة الإسلامية.. فيتهم كل من يتعامل مع إيران بتهمة الانتماء إلى حزب الدعوة.. فيحكم بالمادة 156.

وهناك أقسام في الجهة المقابلة من الممر تابعة لجهاز المخابرات.. وكثير من القابعين فيها لم يزالوا قيد التحقيق. ولا يجرؤ أحد من سجناء الأقسام المفتوحة الدنو منها.. بل وحتى رجال الأمن كانوا يخشون من رجال المخابرات ولا يتدخلون في شؤون القابعين في زنزاناتها.

۞ ۞

وعلى مسافة غير قريبة هناك أقسام الأحكام الجنائية.. وبين الأحكام الخاصة والأحكام الجنائية سور شاهق. وهم يتمتعون بامتيازات كثيرة.. ويمارسون فعاليات تجعلهم أقرب للحياة الاعتيادية.. فلديهم مصانع صغيرة وسوق ويمارسون الأعمال اليدوية التي تجعلهم يسدون بعضاً من نفقات عوائلهم أو نفقاتهم الخاصة.. وهؤلاء جلّهم من القتلة والزناة وفجار المجتمع.. لذا فهم ينعمون ببركات الحزب والثورة!

وكل هذه الأقسام يؤطرها السجن المسمى سجن أبو غريب[113].. لأنه يقع في أطراف منطقة أبو غريب الواقعة جنوب غربي بغداد.. وهي منطقة ذات مناخ صحراوي. كذلك تبيّن لنا أن هذه الزنزانة التي اكتنفتنا هي غرفة خاصة لرجال الأمن.. لذا فهي خالية من التواليت.. وقبل عام كان يستقر فيها أحد رجال الأمن برتبة مفوّض.. يعاونه بعض أفراد الشرطة.. فهم يتناوبون فيما بينهم.. وكان أبرز هؤلاء جميعاً هو المفوض فلاح عاگوله.

وهذه الزنزانة هي الرقم واحد وبجانبها أربع زنزانات ويقابلها خمس زنزانات.. وفوق كل زنزانة زنزانة أخرى.. فيكون عدد الزنزانات جميعاً عشرين زنزانة..

ولما سألناهم عن عدد الأقسام المغلقة.. أجابونا:ـ الآن فقط هذا القسم.. أما قبل عام فكان القسم الثاني بجوار قسمنا من الجهة الثانية..

113) يعدّ هذا السجن من أكبر سجون الشرق الأوسط.

وهناك أقسام أخرى.. وتسمّى التأهيلي والمحجر والمطعم.. كلها أقسام مغلقة وقد غصت بالسجناء.. ثم سيقوا دفعات.. وكانوا يسمونها (الوجبات) إلى أماكن مجهولة.. وقيل إنهم سيقوا للقتل الجماعي.. وذكرت لنا أسماء كنا نتمنى اللقاء بأصحابها.. منهم أقارب وبعضهم أصدقاء وبعضهم لم يبلغ العشرين من عمره.

العنقرچي

عندما دخلت الى سجن أبو غريب، ألقيت بجسدي على أرض الزنزانة متهالكاً.. وقد اعتدت على ذلك من خلال الفترة التي قضيتها في زنزانات الأمن العامة.. وكل من حولي أنصاف عراة.

غططت في نوم عميق.. وبعد ساعات أفقت على أثر صوت متكلم ثرثار.. ولاحت لي أشعة الشمس الصفراء منتشرة في ساحة القسم.. وتغلغل بعضها إلى القسم بمشقة من خلال ثقوب صغيرة.. ألقيت نظرة مثقلة بالتعب نحو المتكلم.. لاح لي شاب قصير يرتدي دشداشة بيضاء قد تغيّر بعض لونها.. وبيده حلقه فيها عدة مفاتيح طويلة.. ويبدو أنه قد مضى عليه وقت غير قليل في ثرثرته.. سألت مَن كان بجواري هامساً:ـ مَن هذا؟ فأجابني: ـ أحد سجناء الأقسام المفتوحة.. ويسمونه العنقرچي. وكان لهذه الكلمة وقع غريب على مسامعنا.. ثم ألفناها فيما بعد.. وباتت من مفردات السجن اليومية.

كان منهمكاً في حديثه عن ذكائه وبهلوانياته.. وعن قابليته الفذّة في كشف المخالفين.. وبين فقرة وأخرى يعود ليثني على عدالة السيد الرئيس.. حيث أنه أمر بتوقيف ابنه عدي وذلك لأنه ضرب نقيب في الحبانية.. ثم يعود ليؤكد أنه سجن بلا ذنب وهو برئ! وردد كثيراً كلمة (طگوه بالدهن)

عندما يكني عن الإعدام والقتل.. فيؤكد قائلاً: هاي كلمة مصلاوية. كذلك ذكر لنا نضالاته في حزب البعث.. وكان يبتسم بزهو عندما يذكر أنه مصلاوي[114].

وتحدث بافتخار عن حادثة حصلت له في ثورة1963 عندما سقط مضرجاً بدمه مع مجموعة من رفاقه المناضلين.. فكتبوا على الجدران بالدم بعد أن غمسوا أصابعهم في جراحاتهم: وحدة.. حرية.. اشتراكية.

خمنت سنة ميلاده فرأيتها لا تتجاوز سنة1953.. فيكون عمره في تلك السنة التي أدى فيها هذه البطولات عشر سنوات!!

ثم عاد ليذكر عدالة صدام حسين.. وأمره بتوقيف ابنه عدي لأنه ضرب نقيباً في الحبانية.. وختم حديثه مؤكداً براءته.. وأنه دخل السجن بلا ذنب!

ثم تركنا وولى بعد أن أودع المفاتيح بيد مسؤول الخدمات.. وأمره بفتح الباب لنا.. والسماح لنا بالذهاب إلى المرحاض.. وما أن ولانا ظهره حتى قلت لمن حولي:ـ هل لاحظتم تناقضه.. إذ هو يذكر عدالة صدام ثم يذكر براءته وأنه سجن بلا ذنب.. ثم كتب (وحدة.. حرية.. اشتراكية) عام1963.. فكم كان عمره؟ وهو لا يبلغ الثلاثين عاماً. فالتفت إليّ الأخ جبار عبود وهو ينظر إليّ بثناء قائلاً: ـ خوش ملاحظة.. وقد كنا نتبارى بالتقاط الملاحظات السلبية من الحكومة وأزلامها أو من المخبرين.

وما أن خرج من القسم وأغلق الباب دونه.. أقبل إلينا أحد العاملين في الخدمات ليعرفنا بهذا الشخص. إنه العنقرچي ويعني (المراسل) بين رجال الأمن وبيننا.. وخوّلوه بعض الصلاحيات.. كجلب الطعام ونقل مريض إلى المستوصف وإبلاغ الأمن عن المخالفين وضربهم بإيعاز منهم.. وما إلى ذلك.

114) أي من محافظة الموصل.

اسمه عدنان مسجون بسبب تجسسه على العراق لصالح إسرائيل.. لذلك كان البعض يعيّره بكلمة (صهيوه) مشيراً إلى الصهاينة.. وهو كذّاب.. وكلامه كله (گص). ثم علمنا سبيلاً للتعامل معه.. وهو ألا نتجاوز عليه.. ونظهر له تطبيق الأوامر ونحذر منه.. وبذلك نأمن شره.

فتح لنا باب الزنزانة وقصدنا المرحاض واحداً بعد واحد.. وكانت حقاً سياحة عظيمة.. إذ أن بين الزنزانة و المرحاض عدة خطوات.. فنمشي بلا رقيب يحصي علينا أنفاسنا.. ثم إن المرحاض منزوي وفي عزلة.. فبينه وبين الدهليز باب.. ثم فسحة صغيرة كأنها غرفة صغيرة.. وهو يرتكن أحد أركانها.. وفيه نافذة صغيرة تطل على الفضاء الخارجي.. تتيح الفرصة لمن يسرح ناظريه بضع دقائق.. ثم نعود وقد أسبغنا وضوءنا.. وهكذا عاد آخرنا بعض مضي ساعتين تقريباً.. وكلنا في هدوء بال وشبه استرخاء! وأوصد الباب دوننا.

۞ ۞

غابت الشمس وبدأ الظلام بالإنتشار.. تهيئنا لصلاة العشاءين.. فأقبل نحونا فتىً هادئ.. مؤدب.. من مدينة النجف.. وهو الأخ محمد العادلي.. وهو أحد أفراد الخدمات حاملاً بيده المصحف الشريف وكتاب الأدعية والزيارات ضياء الصالحين.. وأخبرنا أن المدة المقررة لنا ثلاث ساعات فقط.. وتبيّن لنا أن هذه المجموعة قليلة من المصاحف وكتب الأدعية والزيارات من مفاتيح الجنان وضياء الصالحين والصحيفة السجادية.. قد سمحت بدخولها دائرة السجن.. ولقلة عددها وكثرة عدد السجناء.. ورغبة الجميع في التلاوة وقراءة الدعاء والزيارة.. فقد ارتأى السجناء بأن تدور حول الجميع.. وينهض أحد أفراد الخدمات لهذه المهمة.. وينسق مع جميع الزنزانات.. وبهذا تلقفنا المصحف الشريف وكتب الأدعية بلهفة كبيرة. وظلت هذه الكتب بين أيدينا

ونحن نتداولها باعتزاز.. حتى الليلة الليلاء التي صادفت يوم25 كانون الثاني1982.

فقد انهالت دائرة السجن بقيادة المجرم النقيب غالب الدوري على مجموعة من السجناء بالضرب الشديد.. فكسرت أيادٍ وأرجل.. وشجت رؤوس.. على أثر اضطراب حصل في القسم.. وذلك بعد أن لكم أحد السجناء شرطياً وهتف الجميع بصيحة (الله أكبر). وفي فورة الغضب.. جاء سعيد أبو علي[115] نحو غالب الدوري مسرعاً.. مثل جرو ينبح قائلاً بلؤم: . سيدي.. سيدي.. ناخذ الكتب منهم؟!

فما كان من النقيب غالب الدوري.. وهو يبحث عن كل شيئ يؤذينا إلا أن قال بحدة: . إخذوهن. فأسرع المنافقون مسرورين ليجمعوا المصاحف الشريفة وكتب الأدعية ليلقوا بها مع النفايات.. وبهذا يكون سعيد أبو علي قد أتى على آخر سلوى لنا ليضيف إلى جرائمه الكبرى جريمة أخرى!

۞ ۞

وبينما أخذ الجميع أهبته للصلاة.. إذ انبعث صوت المؤذن من داخل القسم.. وكان الصوت طفولياً.. فتبيّن لنا أن المؤذن هو محمد كاظم من أهالي البصرة.. عمره ثلاث عشرة سنة.. محكوم عليه بالسجن لمدة ثلاث سنوات. ثم تبيّن لنا أن الأذان مستمر في كل أوقات الصلاة.. وهناك شاب من أهالي[116] كربلاء مسؤول عن متابعة أوقات الصلاة والإمساك قبل صلاة الفجر.. فهو يعلنه بنداء يسمعه جلّ مَن في القسم: . إمساك. فالصوم مستمر.. وخصوصاً يومي الاثنين والخميس.

---

115) ذكر عنه أنه كان سبباً لإعدام بعض المعتقلين في السجن رقم واحد.. لكنني لم أكن شاهداً على ذلك وغير متأكد.

116) لا أتذكر اسمه.. ولكنني رأيته بعد بضعة شهور في الزنزانة رقم 12.. حيث كنت في الزنزانة رقم 9.. وكان النقيب غالب الدوري ينادي بأسماء بعض السجناء ويسأل كل منهم عن عنوانه.. ولما نادى باسمه.. وقف إزاء القضبان وأجابهه: كربلاء.. شارع الإمام الحسن عليه السلام.. وما أن قال عليه السلام حتى رفع النقيب غالب رأسه بسرعة ونظر إليه طويلاً.. والغضب يتفجّر من عينيه!

۞ ۞

جثى الليل بكلكله.. وانتشر ظلام دامس من حولنا.. وبعد قليل فتح الباب المؤدي إلى الممر الطويل.. وأدخلت قدور كبيرة.. فسمعت الخدمات يرددون:

ـ أخذ القزان.. أو طلّع القزان. وصارت كلمة قزان إحدى مفردات السجن الثابتة! وما أن تناهت إلى مسامعي كلمة قزان حتى بعثت في نفسي ذكرى عزيزة مدفونة في أعماق قلبي.. عادت بي إلى أيام الطفولة البريئة.. إذ كانت تزورنا عجوز بالية.. قد هدمت السنون أسنانها.. وكانت تروي لنا حكايات أخاذة.. وبعد أن تجتمع النسوة والأطفال من الأقارب والجيران.. تستحوذ على كل حواسنا بأسلوب حكواتي مقتدر.. وكان أشدها وقعاً في نفوسنا حكاية فاطمة الماكرة التي تنتهي حكايتها بأن تضع أربعين رجلاً.. كلاً في قزان فتذيب جسده بالماء المغلي.

وعرفت فيما بعد أن أغلب حكاياتها.. التي طالما رفرفنا بأجنحة الخيال في سمائها.. هي من حكايات ألف ليلة وليلة ترويها لنا بتصرف.. وكانت تلك الأيام عذبة جميلة.. فالعراق لم يزل بخير.. فعود البعثيين لم يشتد وصدام وقادسيته لم تحلّ بعد.. وسجونه لم تزل عذراء.

۞ ۞

تم توزيع طعام العشاء على جميع القسم.. وهذه أول وجبة طعام نشاهد طريقة توزيعها.. كان أحد أفراد الخدمات يجر القزان.. وقد وضعه على صندوق بلاستيكي.. يطوف على كل الزنزانات.. فيغترف من القزان المرق بواسطة (دولكة) ثم يضعه في إناء وقد دفع به من في الزنزانة من أسفل الباب.. وبعد أن يمتلئ يسحبه مَن في الزنزانة.. ليوزعه على مَن فيها.. وقد تبرع أحدهم لهذه المهمة ليكون مسؤول الأكل.. كما أن هناك مسؤول

الماء.. وظلت هذه الحالة ثابتة لسنين طويلة.. وهكذا هي الأقسام المغلقة.. فهي مغلقة من كل شيئ إلا من رحمة الله تعالى!!

تناولنا طعام العشاء.. ونهض الخفر وهو أحدنا ليجمع الأواني ويغسلها.. وهذه مهمة تلقى على الجميع بالتناوب.. ويستثنى منها المريض أو الرجل المسن.. وغسل الجميع أياديهم.. وانزوى كل اثنين أو ثلاث ليتحدثوا فيما بينهم.

السيد حسين الشهرستاني والسيد عبد الرحيم الياسري والشيخ عبد العظيم

وقف إزاءنا أحد أفراد الخدمات وصار يتحدث معنا أحاديث من هنا وهناك.. وكنا نستزيده ونسأله عن أسماء نبحث عن أصحابها.. فذكر لنا أسماء بعض الشخصيات الذين تأثر بهم كل السجناء.. وهم العالم النووي السيد حسين الشهرستاني والسيد عبد الرحيم الياسري والشيخ عبدالعظيم.. وهما وكيلان شرعيان للسيد الشهيد محمد باقر الصدر (قدس سره).. وقد سيقوا جميعاً مع الوجبات.. وكان اسم السيد حسين الشهرستاني يتكرر على ألسنة جميع السجناء بإستمرار.. والجميع حين يذكره يتحسر على فقده.. وكانوا يذكرونه متأثرين بتواضعه للسجناء.. حتى أنه كان يغسل معهم الأواني والثياب.. لكنه كان شديداً مع الجلادين.. وبعد تعاقب السنين.. التقيت به في ذات الأقسام المغلقة بعد أن عاد إلينا.. وتبيّن لنا أنه قد قضى فترة طويلة

في زنزانة إنفرادية.. لكنه لم يزل ممتلئاً حيوية ونشاطاً.. وكان باعثاً لهمم السجناء.. وحتى لبعض العلماء.. وحصلت حركة علمية في السجن كان له الفضل فيها وللسادة من أسرة آل الحكيم. ومما أثار إعجابي أنه بالرغم من إختصاصه العلمي الدقيق.. فإنه كان على وفرة من العلوم الأخرى والجوانب الحياتية العامة.. وما إن مضت بضعة شهور حتى إستطاع الهرب من السجن مع السيد جعفر الحكيم بمساعدة أحد السجناء وهو علي عريان.

أموال الشعب العراقي للذين مدحوا صداماً!

بينما كنا نتجاذب أطراف الحديث.. وإذا بأحد أفراد الخدمات ناولنا جريدة الثورة.. وتبيّن أن لكل زنزانة جريدة.. وما أن تصفحناها حتى برز لنا خبر إسترعى إنتباهنا جميعاً وهو: إن النظام الإيراني نفذ حكم الإعدام بثمانين شخصاً.وندت من البعض كلمة.. فقال:ـ إنظروا ماذا يقولون.. يعني هذا إن جماعتنا الذين سبقونا إلى المحكمة كلهم حكم عليهم بالإعدام.

ولما جاء دوري لأتصفح الجريدة.. لاح لي في الصفحة الأولى صورة عن كتاب: صدام حسين.. إنساناً وقائداً ومفكّراً.. للكاتب أمير إسكندر.. فتساءلت مستاءً.. وبصوت عالٍ: ـ هل إن هذا الكاتب يعتقد حقاً بما يقول؟! فسألني أحدهم:

. أي كاتب؟! . أمير إسكندر[117].

. وهل تعرفه؟! . قرأت له مقالات عديدة في مجلة الوطن العربي.

117) قرأت فيما بعد أنه أعطي شقة مفروشة في باريس.. ثمناً لهذا الكتاب.. وتأكدت أنه صحفي مصري.

. وما هي جنسيته؟! . أتوقع إنه مصري.

. مصري؟! يعني أنه غير مجبور مثل الكتّاب العراقيين؟!

فقال آخر: . هؤلاء الكتّاب من غير العراقيين.. تنفق لهم أموال طائلة لشراء أقلامهم.. وهناك شعبة خاصة في المخابرات للتنقيب عن مثل هؤلاء وشراء ضمائرهم. فقلت بإزدراء شديد: ـ إذن ما قيمة الحبر الذي يريقه على الورق؟! وما جدوى ما يكتب؟! وأين هم من ذلك الشاعر الذي منعوا عليه الكتابة.. وعجزوا عن إسكات لسانه.. فقطعوه.. فصار يعلن عن ثورته بحاجبيه؟!

فقال آخر: . هؤلاء كما وصفهم الشيخ الوائلي.. وهو يخطب على المنبر فقال عنهم: هؤلاء مثل التاكسيات.. إلى أيهم تشير يأتيك مسرعاً.

فقال آخر بامتعاض شديد: ـ إنما مثلهم كمثل العاهر.. أي واحد يلقي بنفسه عليها تقول له: إنت الحلو.. وإنت الزين.

الدعاء في سكون الليل

فجر اليوم الثاني أدينا صلاة الفجر.. وبينما نحن منهمكون في تعقيبات الصلاة.. إذ انبعث صوت شجي ساحر يتلو دعاء الصباح.. وهو الدعاء المنسوب لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب(ع): «اللهم يا من دلع لسان الصباح بنطق تبلجه.. وسرّح قطع الليل المظلم بغياهب تلجلجه.. وأتقن صنع الفلك الدوار في مقادير تبرجه...». فكان الدعاء يشدني بحلاوة بيانه.. وسمو معانيه.. وصوت مقرئه..

كنت أغتنم نوم السجناء.. لأن السكون العميق يعمّنا في جوف الليل.. وهذه الساعات كنت أستأنس بها كثيراً.. فأختلي فيها للصلاة وقراءة القرآن. كان الصوت نفسه ينبعث من زنزانة لا أدرك مكانها. الصوت ينبعث هادئاً

مراعـاة للنـائمين.. فيـزداد حـلاوة وجاذبيـة.. فيتغلغـل في أعمـاق روحـي ويسحرني. استمرت هذه الحالة بضع ليالٍ.. حتى تم نقلنا إلى الزنزانة رقم 9.

فأمسى صاحب الصوت قبالتي.. وسرعان ما امتدت جسور المودة والصداقة فيما بيننا.. وعرفته. اسمه رعد من أهالي البصرة من منطقة الحيانية.. محكوم بالسجن لمدة ثلاث سنوات.

وكنا نتجاذب أطراف الحديث من وراء القضبان.. وكل في زنزانته.. وبعد مضي بضعة شهور سكت الصوت.. وتغيرت أحوالنا حيث منعنا من الكلام فيما بيننا.. حتى تبادل السلام.

وفي هذه الأيام.. أبلغه الجلادون أن أطلق سراحه.. وصادف أن فتحت أبواب الزنزانات مدة ساعة.. فتسنى لنا أن نودعه.. فودعته بعناق حار.. ودعوت له بحياة هانئة.. وسألناه ضاحكين وساخرين ممن زجّ بنا في قسم الإصلاح الإجتماعي: ـ هل إنصلحت؟! فكان يجيبنا ضاحكاً: ـ الحمد لله.. أصلحني الإسلام.

وأطلق سراحه ومعه فتىً اسمه (يحيى).. وبعد مضي سنوات طويلة التقيت بأحد السجناء من أبناء محلته إسمه سالم فسألته عنه فأخبرني: لم يطلق سراحه.. وقد سلّمت جثته لأهله.. بعد أن نفذ به حكم الإعدام.

وبعد تعاقب السنين.. وتقدم العمر.. ونضوج التجربة.. وتجلي حقائق مؤلمة كثيرة.. تذكرت ذلك الرجل الذي كان يدّعي العلم والمعرفة.. وينظر اليه الفتيان الأغرار بتعظيم وتقديس.. وهو يلقي محاضرات ويصدر فتاوى غريبة.. ويدّعي أنه درس على يد كبار المراجع. ولما تعرضنا لظروف قاسية.. وصار الجلادون ينقبون عن كل من تكلم بكلمة ضد الحكومة.. أو قرأ قصيدة حسينية.. أو تلا أو علم شيئا من القرآن.. وصاروا يطاردون كل شاردة وواردة.. مستعينين علينا بسجناء فجّار ومجرمين.. لكن ما حصل له من الجلادين كان عكس ذلك.. فقد كان له كامل الاحترام.. وغض النظر عن

كل ما أتى به ذلك المدعي العلم وبين الحين والآخر يطلب الذهاب الى المستوصف الذي يسمونه المستشفى بالرغم من ان صحته جيدة!

سمعته وهو ينادي يحيى قائلاً بصوت مسموع وبلهجة علمائية: (يا يحيى).. ثم اختلى به.. وقيل إنه أوصاه ببعض الوصايا والتوجيهات.. وأدركت أن حتى فتح أبواب الزنزانات كان مؤقتاً مع إطلاق سراحهم.. فليس من عادتهم أن يفتحوا لنا الأبواب..

عندما سمعت نبأ إعدامهم.. عادت إليّ تلك الذكرى.. وصوت المنادي: (يا يحيى)!! وبرزت لي رؤوس كأنها رؤوس الشياطين ظلت خافية ربما على الجميع!

ثم سمعنا بأن حيدراً من منطقة الدغارة وهو أحد أفراد الخدمات.. وكان محكوماً مدة سنة واحدة فقط.. وقد أتمّها وأطلق سراحه أيضاً.. هو الآخر نفذ به حكم الإعدام! وآخرون حصل لهم ما حصل لرعد وحيدر!

وقيل لنا فيما بعد إن المجرم النقيب غالب الدوري قد أبدلهم بآخرين حكموا بالإعدام.. ومقابل رشوة كبيرة أطلق سراح أولئك.. وأعدم هؤلاء الذين أتموا مدة سجنهم.. وهكذا هي الأحكام في عراق صدام.. كل شيئ جائز لأبناء ديرة صدام!!

ما زلت أتذكر حيدر.. ذلك الفتى الوسيم.. أبيض البشرة.. مؤدباً.. هادئ الطبع.. عرفنا أنه مسؤول الخدمات.. اسمه حيدر دغارة.. هكذا كان يسمّى في السجن.. فيعرف السجين بإضافة اسم منطقته لاسمه وليس لقبه.

وذات يوم كنا نجوب الساحة الصغيرة ونحن حفاة.. والنقيب غالب وزمرته يراقبوننا ويتابعون حركاتنا وسكناتنا.

وأمر غالب الدوري أحد السجناء.. وكان حلاقاً.. أن يحلق رؤوس جميع السجناء. فأسرع نحوه حيدر دغارة وقال له: . آني بعد أسبوع أكمل

محكوميتي.. فأرجو أن تعفيني من الحلاقة. فنظر إليه غالب بدهشة مصطنعة وقال له متسائلاً:

ـ ها.. إنت بعد إسبوع تطلع؟! يالله لا تحلق شعرك. فاطمئن حيدر لإطلاق سراحه.. ولم يعلم أن النقيب غالب الدوري قد أعدّ به صفقة دسمة!

السنون العجاف

تسرحت قطع الليالي المظلمة.. وتصرمت الأيام والشهور الثقيلة المرة التي لا يكاد يساغ شرابها.. وتعاقبت السنون ونحن قابعون وراء قضبان خرساء لا تنطق إلا بالويل والثبور.. ولا يفتح بابها إلا لمن اشتاق السوط إلى جلده.. أو لمن ساءت حالته الصحية إلى حد الصفر.. أو مَن فارقت روحه سجن أبوغريب!

مرت وجوه متعددة إزاء القضبان.. ونحن قابعون وراءها.. مرت وجوه مكفهرة حاقدة.. تلقي إلينا بنظرات شامتة ناقمة.. كبيرهم النقيب غالب الدوري[118].. ربعة.. متين القوام.. أحمر البشرة.. شعره أصفر كشعر الثعالب. ضابط أمن الكاظمية.. والمسؤول الحزبي لمنطقة أبو غريب.. والمسؤول الأمني لسجن أبو غريب..والمسؤول المباشر لقسم الأحكام الخاصة.. والمشرف على لجنة الإعدامات!

جلاد رهيب.. وكان يؤكد أحياناً قائلاً:ـ آني ظالم.كان يعمل معه ضباط ومفوضون وشرطة.. وبعد مضي سنة تقريباً يجري تبديل المجموعة كلها التي تعمل بين يديه.. إلا هو ظل ثابتاً لا يتزحزح إلا بعد مضي سنوات طويلة.

عمل بين يديه المفوض فلاح عاگوله المجرم من أهالي مدينة الحرية.. ولهذا المجرم ميزة عن كل العاملين.. لما لديه من قسوة ووحشية.. لأنه ينحدر من

118) قيل إنه ابن اخت عزت الدوري؛نائب رئيس مجلس قيادة الثورة في حكومة صدام.

عائلة شيعية.. كذلك يتمتع بذاكرة قوية تجعله يرصد كل صغيرة وكبيرة تخصّ السجناء.. ولديه قابلية في الإستفزازوالتشخيص والحيل.. كذلك لديه خبرة طويلة مع سجناء الأحكام الخاصة.. لأنه اشتغل فيها سنوات طويلة ربما تبلغ عقداً ونصف العقد من السنين..وواكب شخصيات معروفة أمثال السيد محمدباقر الحكيم والسيد عبدالرحيم الشوكي والصيمري وغيرهم.

وممن اشتغل بين يدي المجرم النقيب غالب الدوري المفوض حسين.. وفاضل.. ورائد.. وخليل.. وخالد.. وميثم.. و إبراهيم.. والأرعن حاتم.. مفوض من أهالي الزعفرانية.. كان أشد هؤلاء علينا.. وغير هؤلاء مروا بنا مرور غير الكرام.. لكنهم تركوا ذكرى سيئة واضحة.. كذلك بعض العاملين في الأمور الإدارية.. لا تجعلهم يحتكون بنا فتبرز لنا مساوئهم.

۞ ۞

تلونت الفتن.. ومرت بنا كقطع الليل المظلم.. لم تترك أخضرَ إلا وأيبسته.. ولا صحيحاً إلا وأسقمته.. ولا واقفاً إلا وسحقته!

وما زاد الطين بلة والنار أواراً.. زجّ سفلة المجتمع وفجّاره فيما بيننا.. وسرعان ما تحولوا إلى مخبرين وجلادين.. وكنا نسميهم منافقين.. بل صار البعض معلماً لرجال الأمن في إيذائنا.. مثل يقظان من أهالي الحلّة.. ومجموعة معه من ذات المدينة وذات القضية التي عرفت بقضية الحلة.. وأبرز هؤلاء هو سيد جواد وكنيته أبو حيدر.. وطالما ردّ غاضباً على من يخطأ فيسميه بسيد قائلاً: ـ آني سيد بس تبرأت من محمد. كذلك حمزة.. وعبود.. وباسل وكنيته أبو وسيم.. وغير هؤلاء..

۞ ۞

ومن هؤلاء: معمر حسين ناصر من أهالي الفضل في بغداد.. وحسين زغير.. ومال الله من أهالي الناصرية.. وفوزي وسعيد أبو علي من أهالي العمارة.. وعلي گيوه.. وطالب چلوب علوكي.. وصافي من أهالي مدينة

الثورة.. وصباح المكنى بأبي هشام.. وقيل إنه من أهالي ديالي.. وقيل غير ذلك.. وعلي چفچير.. ومحمد الدفان من أهالي مدينة النجف.. ونور الدين.. وحسن من أهالي مدينة كركوك.. وغير هؤلاء وبعضهم من تاب إلى الله تعالى وصلحت سيرته.. لذا لم أذكره.

كذلك هنالك من كان يتظاهر بالصلاح وهو أشد الخصام.. وأحجم عن ذكره لأنه خفي عن الأعم الأغلب من السجناء.. بل وظنه البعض من الأخيار.. وهو من المنافقين حقاً!

۞ ۞

وبعد تعاقب الأيام.. تغلغل فيما بينهم شباب متدينون.. يمتازون بشجاعة وروح إقتحامية.. وذكاء واغتنام الفرص.. حتى إستطاعوا الأخذ بأعناقهم والسيطرة عليهم.. وباتوا أذلاء محتقرين.. وجلدوا بأيدي الشرطة جلداً شديداً..وهكذا بتوفيق الله تعالى ورعايته لنا وجهود الأخوة المضحّين.. وقد نذروا أنفسهم للذود عنا.. فتقشعت عنا بعض سحب القهر والإستبداد. وهؤلاء هم.. سعد علي التميمي.. وكريم جاسم.. وعلي خلف شاه.. من أهالي مدينة الثورة.. وعقيل من مدينة الكوفة.. ووسام ناجي من مدينة الكوفة أيضاً.. وصباح وكنيته أبو سارة[119] من أهالي الكاظمية.. وسيد حسن شناوة من أهالي مدينة الشعلة.. والحاج رحيم الساعدي وسيد كريم من أهالي العمارة.. وعلاء من الحلّة.. ومؤيد عبدالحسين هادي من الزعفرانية.. وثمة إخوة آخرون أيضاً خدموا إخوانهم.. ولكن والحق يقال.. إن ثلاثة كان لهم الدور الكبير في إنقاذنا هم: سعد التميمي والمرحوم الشهيد عقيل الكوفي الذي إستشهد في السجن عقب إنتفاضة شعبان/ آذار.. والشهيد المرحوم كريم جاسم.

۞ ۞

119) ذكرت كنيته تمييزاً له عن صباح المجرم.. المكنى أبو هشام.

وهكذا مضت السنون العجاف[120].. ونحن والأيام في صراع دائم.. ومع المنافقين والمخبرين في شدّ وجذب.. ومدّ وجزر. لكنا كنا نتغلب على الصعاب والشدائد.. بذكر الله والدعاء وقراءة القرآن.. والتعامل الأخوي الذي قلّ نظيره!

أمراض وموت في سجن أبو غريب

في هذه السنين العجاف.. حرمنا من الشمس والهواء النقي.. وتعرضنا للجوع الشديد.. وتعرضنا للبرد القارس شتاءً وللحر الشديد والعطش الشديد صيفاً.

انتشرت أمراض غريبة ابتدأت بالحكة الشديدة.. التي لا يستراح منها إلا بإسالة الدم من الموضع الذي فيه الحكّة.. ثم تفاقم الأمر إلى انتشار الحبّ الذي يشبه الجرب.. وقد عوّق البعض عن الحركة كما حصل لفارس من الحلّة.. حتى بان عظم ركبته.. وعجز عن الحركة.. لذا كان يحمل على أيدي السجناء إذا لزم الأمر.

واطمأن الجميع إلى أن إدارة السجن هي المسؤولة عما حصل.. وذلك بإلقاء جرثومة في الأقسام المغلقة[121]. وأصيب الكثيرون بمرض السل.. السلّ الرئوي.. وسلّ الغدد والعظام.. وسلّ الخصيتين. وأصيب البعض بالعمى.. وأصيب البعض بالكآبة.. والكآبة الحادة. وأصيب البعض بالسرطان فمات.. منهم المرحوم ضياء عبد الأمير من بغداد منطقة الكرادة.. ومحمد من الناصرية.. وكنيته أبو رشا. وتوفي عبد الحسين ثامر وكنيته أبو فرقان من مدينة

120) هناك أحاديث طويلة وقصص وحكايات عن هذه الفترة لم تزل متناثرة بين أوراقي،ويومياتي،وخواطري عن عالم السدود والقيود.. سوف تدون وتبرز إلى النور إن شاء الله.

121) في هذه الفترة نشرت جريدة الثورة البعثية تقول: إن الحكة والحب منتشرة في سجون النظام السوري بشكل فظيع.. بسبب الأساليب التعسفية التي يلاقيها السجناء من السجانين!! وحرمانهم من الشمس وسوء التغذية.

البصرة.. وعبد الرزاق من السماوة.. بعد أن تعرضا لضرب شديد. وتوفي حسن صكّب من أهالي الكوت بمرض شديد وإهمال شديد من قبل دائرة السجن. وتوفي أحمد كاظم كرم من مدينة الشعلة بعد أن تعرض لمرض غريب.. ولم يلق أية عناية صحية حتى تقيأ دماً وتوفي. وتوفي السيد علي حمادي من أهالي البصرة. وتوفي حيدر التركماني بعد أن تعرض لضرب شديد جداً.. وصار الجلادون يضربونه بالهراوات والسياط.. وصباح يرفسه في أعضاءه التناسلية.. حتى أغمي عليه.. وكان ذلك صباحاً عندما جلبوا لنا الشوربة والشاي.. وهو طعام الفطور عادة.. وأوعز لهم النقيب غالب أن يميتوه. وفي المساء نزف نزفاً شديداً.. وهو في المحجر وفارق الحياة.. وغير هؤلاء[122].

كذلك في هذه السنين تكسرت أيادٍ وشجت رؤوس ورضّت مفاصل وأضلاع.. من جراء الضرب الشديد بالهراوات الثقيلة والكيبلات وقضبان الحديد.

وكم من هراوة ثقيلة كسرت على رأس أو كتف أو رجل أحدنا.. وشاهدت سياطاً متينة تقطعت على أجساد البعض.

لقاءالمسجونين في أبو غريب مع أهليهم!

وفي هذه السنين العجاف حرم الجميع من مواجهة أهله.. سوى نفر قليل[123] جداً سمح لأهلهم بزيارتهم.. وذلك لتوفر (واسطة) لديهم.. وبعد نفحه بمبالغ كبيرة من المال.. وكان هؤلاء يمررون بواسطة الثقة من الخدمات المال أو الحليب الجاف وما يستطيعون تمريره لنا.. وهم أمام خطر عظيم..

122) هذا ما علق بالذاكرة.. لأنني دونت هذه السطور على بعد المسافات والأيام.. وربما في طبعة لاحقة سوف يسعفني بعض أصدقائي السجناء بما خفي عني من أسماء الموتى رحمهم الله.
123) من بين هؤلاء المعلم من أهالي العمارة كنا نناديه (أبو مناف).. واسمه فالح.

لأن الجلادين يعاقبون على مثل هذه الأعمال الخيرية.. بحجة أنها تبرعات لحزب الدعوة!

وبعد مضي سنين طويلة وعسيرة.. وبعد عدة مصادمات انتحارية بين السجناء ودائرة السجن.. ألقيت فيها القنابل المسيلة للدموع حتى أصابنا الإختناق.. وخيّم علينا شبح الموت مراراً وتكراراً.. حتى عجز الجلادون أمام إصرار الجميع على تحسين المعاملة. ولما كان الجلادون يهددوننا بالإعدام.. غدا الكثيرون يبدؤون كلامهم مع الجلادين بقول: إعدمونا.. الموت أفضل من هذه الحياة.. حتى قال المرحوم الشهيد راضي وكنيته أبو سيف لهم بصوت عالٍ سمعوه كلهم: ـ والله لولا الدين مانعنا من الانتحار لانتحرنا. لذا لم يعودوا يهددوننا بالإعدام.

۞ ۞

ذات صباح نودي بأسماء جمع كبير من بيننا..وفتح الباب وخرجوا من القسم.. ثم عادوا إلينا ظهراً وهم مسرورون ويحملون أكياس الفاكهة والحلوى والكيك وقدور الرز والمرق.. وكلّ يتحدث عن المفاجئات التي واجهته في لقائه الأول مع أهله.. بعد فراق طال سنوات.. والبعض أنكره أهله.. وحتى أمه صارت تتفرس به طويلاً.. وتبحث عن علامات فارقة في جسده.. حتى اطمأنت أنه ولدها!

فالفراق دام ثماني سنوات أوتسعاً.. وأغلب السجناء هم بعمر الفتوة والنمو.. وكم من أمردٍ دخل السجن والتقى بأهله وقد تناثرت شعرات بيضاء في فوديه ولحيته! وكان أحياناً يغمى على أب أو أم من أثر الدهشة.. وهم يلتقون بولدهم الضائع.. فيضج الجلادون ضاحكين!

ومضت أسابيع وشهور.. والبعض يلتقي بأهله مرة في كل شهر.. وظل البعض دون مواجهة من بينهم كاتب السطور.

وذات صباح نودي بأسمائهم.. لكنهم عادوا إلينا بعد دقائق ولما دخلوا إلينا نطقت وجوههم بإمتعاض شديد.. وتبيّن لنا أنهم شاهدوا أهلهم وهم يلوحون لهم بأكفهم منتظرين اللقاء الذي إنتظروه سنين طويلة بفارغ الصبر. لكن الشرطي حال بينهم وبين أهاليهم طالباً جواز العبور.. وهو ما قاله لكل واحد منهم: ـ سب الخميني وقابل أهلك! فما كان من السجناء إلا أن إمتنعوا عن سب الإمام الخميني.. فحرموا من مقابلة أهاليهم.. وعادوا وسط الركلات والصفعات والشتائم تنثر من حولهم..وقال البعض:

-إن الأمام على –ع- يقول فأما السب فسبّوني؛فأنه لي زكاة ولكم نجاة.وقال البعض : لانستطيع سبّ الأمام الخميني ؛ حتى لو جاز شرعاً.ولما عاد شخص آخر قول علي بن أبي طالب-ع- فردّ عليه آخر متسائلاً، وقال:

-إنت تقدر تسبه؟

فأجابه قائلاً:

- كلا.

ودخل الكتاب الإسلامي الى سجن أبو غريب

سمح لنا بجلب بعض الكتب.. ومرر أهلونا بعض الكتب الممنوعة.. وتناولت يداي كتباً خطيرة سراً. فقرأت الحكومة الإسلامية للإمام الخميني- رحمه الله- وبعضاً من كتب السيد الشهيد محمد باقر الصدر- رحمه الله- ...وموسوعة الإمام المهدي(ع) للسيد محمد محمدصادق الصدر- رحمه الله- ... وكتب السيد عبدالحسين شرف الدين-رحمه الله، وأعدت قراءة كتابيه المراجعات والنص والإجتهاد مرات. وقرأت فلسفة الصلاة للشيخ علي الكوراني.. ودور الدين في حياة الإنسان للشيخ الآصفي.. وغير هذه من

كتب الفكر الإسلامي القيّمة. كذلك أعدت قراءة بعض المؤلفات التي كنت قد قرأتها قبل إعتقالي.. منها التكامل في الإسلام.. فلمست بوناً شاسعاً بين ما قرأته وما أعدت قراءته.. وذلك بعد نضوج تجارب كبيرة في الحياة حصلت لي وراء القضبان.

كما تسنى لي أن أقرأ كتباً أدبية وتاريخية وروايات عربية وعالمية. ومن أهم ما قرأته من روايات.. رواية الكاتب السوداني الطيب صالح: موسم الهجرة إلى الشمال.. ثم أعدت قراءتها في لبنان.. وأعدت قراءتها في كندا.. فازددت لها إعجاباً.. وكلما أعدت قراءتها تجلّت لي فيها مفاهيم قيمة.. وكلما تباعدت المسافة الزمانية والمكانية أزدت شوقاً لأن أعيد قراءتها.. ومن عجائب الصدف أن الكتاب الذي وقع عليه إختياري في هجرتي إلى كندا لأتسلى به في الطائرة هو هذه الرواية.. ولم أنتبه إلى هذه المفارقة إلا وأنا أنفذ ببصري من خلال الزجاجة إلى أديم المحيط الأطلسي.. وناثراً صفحاتها بين يدي! كذلك عدت إلى الكتابة.. فكتبت خواطري في السجن في دفتر إحتفظت به.. وأسميته همسات في ليل بهيم.

ومارس بعض العلماء والخطباء والأساتذة دورهم في التعليم والتثقيف.. وكان من أنشط هؤلاء جميعاً.. المرحوم الشهيد والأخ العزيز الذي ترك في القلب لوعة لفقده: حسن ميرزا.. وقد تمّ تنفيذ حكم الإعدام به على يد المجرم صدام كامل.. وذلك عقب الإنتفاضة الشعبانية.. فكان من بين خيرة السجناء الذين سيقوا إلى الإعدام.. وكان من أنشط الخطباء المرحوم السيد هادي الشوكي.. وقد تعلمت منه الدروس الأولى في الخطابة الحسينية.. كما تعلّم منه الكثيرون.

وأستطيع القول إن أفضل مكان للدراسة وللتأمل وللإستفادة هو السجن. وما درسته وتعلمته في السجن علق في ذهني واستفدت منه.. كما لم أستفده

في أي مكـان غـيره. واسـتطعت أن أدرس مقـدمات الحـوزة العلميـة في هـذه الفترة.

آل السيد الحكيم

لم يعلّق السـجناء آمـالهم في إطـلاق سـراحهم بشـيئ كمـا علقوهـا علـى انتصار إيران على العراق.. ثم إقامة جمهورية إسلامية فيه. وكـان البعض يحفظ روايـات عـن النبي وآلـه(ص) تؤكـد دخـول إيـران محررة للكوفـة عاصـمة الإمـام المنتظر(ع).

والبعض يذكر لنا تأويل العلماء لبعض الآيات القرآنية عن الحرب العراقية الإيرانيـة.. منتهيـة بانتصـار الإسـلام المتمثـل في إيـران علـى الكفـر المتمثـل في العراق! ومـا كـان يرويـه أحـد رجـال الـدين وبإصـرار عـن قولـه تعـالى: {**ألـم. غُلِبَتِ الرُّومُ. فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُـمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ.فِي بِضْعِ سِنِينَ للهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ**}[124]. كـان يؤكـد أن البضـع هـو ربمـا أربـع أو خمـس أو تسـع سـنوات، وأن تأويـل الآيـة الكريمة هـو عـن الحـرب العراقيـة الإيرانيـة.. ولكـن النهايـة الحتميـة هـي انتصـار إيران.. لـذا عنـدما يحصـل هجـوم إيراني علـى العراق تتوهج البهجة في نفوسنا إلى أقصاها.. بالرغـم ممـا نلاقيه من هجـوم دائرة السـجن بقيادة النقيـب غالـب الدوري وزبانيته.. وما ينالنا من سياط وهراوات. والبعض منا يردد دعـاء أهـل الثغـور للإمـام زيـن العابـدين(ع) عـن ظهـر قلـب..وبصـوت خافـت.. ونصـغي إليه بكـل جوارحنـا.. وقلوبنـا تـرقص طربـاً للأخبـار التي نسـمعها مـن التلفـاز.. وكل خبر نعكسه أو نضيف إليه أو نحذف منه.. لتكون نهايته انتصار الجيش الإيراني وانكسار الجيش العراقي.. حتى هـمّ بعض الشباب أن يبطشوا بشـاب

124) الروم: 2 ـ 4.

متدين فيما بيننا.. إذ قال: ـ يبدو أن الهجومات الإيرانية فاشلة ولم تحقق شيئاً. وحال البعض بينه وبينهم.. وظلت قلوب البعض مستعرة على من اتهم الجيش الإيراني بالفشل.. وقائد حملاته الإمام صاحب الزمان! كما هو الإعتقاد السائد آنذاك!

وبات حب إيران وبغض إيران.. أو نصرة إيران وعدم نصرتها.. هو المقياس بين الصح والخطأ.. أو الدخول إلى الجنة أو إلى الجحيم.. حتى لما توقفت الحرب العراقية الإيرانية ثم أدار صدام مدافعه نحو الكويت.. وأوفدت الجمهورية الإسلامية مساعداتها إلى الشعب العراقي.. وكنا نجعل من كل شيئ إيراني يقع بين أيدينا مصدراً للبركة.. إلا أن ضحى ذات يوم كادت أن تحصل معركة دامية في المطبخ.. إذ صرح أحد السجناء تصريحاً خطيراً فقال:ـ يبدو أن المعجون الإيراني لا يصبغ (المرگ) جيداً. فصرخ من كان بجانبه قائلاً: تأدب.. لا تتجاوز على الجمهورية الإسلامية.. وهمّ به آخرون ليبطشوا به.. وحال البعض بينهم فأنقذوه. وأكدوا للمؤمنين.. وأخذوا عهداً عليه ألا يكرر هذه الإساءة الكبيرة التي وجهها للإسلام.. وألا يسئ إلى (معجون الإسلام) بتاتاً!

وقال البعض همساً وبوجل: إنه صحيح أننا نحب الجمهورية الإسلامية وقائدها وحكومتها.. ولكن ممكن أن يحصل ضعف في بعض الصناعات.. وما شابه.. فهذا لا يؤثر على قدسية الدولة وعظمتها... الخ.

وفي اليوم الثاني تلقف السجناء طريفة مفادها: إن إيران بعثت بخروف إلى العراق مع المساعدات.. وكانت أخلاقه جداً عالية.

الأمر الذي لم يكن فيه أدنى شك.. هو دخول جيش التحرير بقيادة رجل حسني.. ووجهه أبيض مشرب بحمرة.. وتفسير هذه الرواية في السيد محمد باقر الحكيم(رحمه الله) كما كان يؤكد ذلك أحد رجال الدين.

وفي خضم هذه العواطف اللاهبة تجاه إيران وعلمائها وشعبها.. ونحن نعد الأيام والساعات لدخول قوات التحرير القادمة من إيران.. فتح الباب.. وإذا بمجموعة من رجال الدين بزيّهم الحوزوي واللحى الطويلة.. إلا العمامة لم يعتمرها أحد. وهذا ما أكد لبعض السجناء أن المجاهدين اقتحموا السجن.. فندت عن البعض صيحة: (اللهم صلِ على محمد وآل محمد) لكنه لم يكملها.. إذ أمسك به الآخر فزعاً فأسكته.. عندما لاح له بعض رجال الأمن.. ومن بينهم الملازم حازم.. والأيادي مثقلة بالحديد!

ثم تجلى الأمر للجميع بعد أن زجّ بالقادمين في الزنزانة رقم 14 والزنزانة رقم 15.. من القسم الثاني من الأقسام المغلقة. فتبين أن القادمين هم أسرة آل الحكيم.. جئ بهذه المجموعة بعد أن نفذ حكم الإعدام بكوكبة[125] من أبناء المرجع الديني السيد محسن الحكيم وأحفاده وأبناء أسرته.

وأما هؤلاء فمنهم أحفاده ومنهم أسباطه.. وأبرزهم آية الله العظمى السيد محمد سعيد الحكيم دام ظله.. وإخوانه المرحوم السيد عبد الرزاق والسيد محمدتقي والسيد صالح.. وأبناؤه السيد رياض والسيد محمدحسين والسيد علاء والسيد عزالدين. وعدد من أحفاد السيد محسن الحكيم – رحمه الله– وهم: السيد صادق ابن السيد يوسف الحكيم.. والسيد جعفر بن السيد عبد الصاحب الحكيم والسيد حسين بن السيد علاء الحكيم.. وغيرهم ممن ينتسبون لهذه الأسرة الكريمة.

وكان وجودهم فيما بيننا حلولاً للبركة علينا.. إذ صححوا مفاهيم،وفتاوى خاطئة قد أربكتنا وأجهدتنا.. وأحدثت نزاعات أدت بالبعض إلى الشجار

125) ذكرت تقارير منظمة العفو الدولية ومنظمات حقوق الإنسان الأخرى.. إن السلطة الحاكمة في العراق اعتقلت 96 نفراً من أسرة آل الحكيم.. فيهم الشيخ الكبير والصغير.. وتمّ تنفيذ حكم الإعدام في كل من: السيد عبدالصاحب الحكيم والسيد علاء الدين الحكيم والسيد محمدحسين الحكيم والسيد كمال الحكيم والسيد عبد الوهاب الحكيم... وعدد آخر.

المستمر أو إلى العراك، أو إلى الإتهامات الباطلة.. كما حصل للبعض جرح في يده أو شج في رأسه.. وأدى بالبعض إلى الجنون.

كل ذلك حصل من جراء حماس الشباب المتدين الذين لم يهضم المفاهيم فيسلك طريقاً مستقيماً.. حتى وضّحه العلماء وبيّنوه.. فارتدّ البعض مستغفراً.. وندم البعض على ما مضى من سلوكه.. وكاد البعض أن يكفر بالدين كله! ولهذا صرت أدرك خطورة المفهوم الخاطئ والنتائج الوخيمة التي يؤدي إليها.. وحاجة الأمة إلى المرجعية الرشيدة.. وما هي البركة التي تنفح الأمة بوجود العلماء الربانيين،كذلك أدركت خطورة إلقاء المفهوم، في وعاء لايتحمله، ولايطيقه ...ولهذا نرى مايتكرر من الأئمة الأطهار ، أو الأولياء والصالحين كلمة(لاأجد حملة)، وهم يشيرون إلى مفاهيم عالية.

۞ ۞

كان للسيد رياض الحكيم نجل السيد محمد سعيد الحكيم الدور الأكبر في توجيه السجناء وتعليمهم وحلّ مشاكلهم.. إذ كان اللولب في حركته.. نشطاً صبوراً.. يجيب على كل سؤال يعرض عليه بأدب وتواضع جمّ.. حتى ملك قلوب الجميع.. أصابع يديه خالية من الحلي والخواتم.. لكن لسانه مزين بكل حلية.. وبالكلمة الطيبة المؤثرة والنافعة.. على عكس شريحة كبيرة من رجال الحوزة التي تتزين بكل حلية.. وألسنتهم خالية من كل حلية!

لم ينتظر أن يأتيه الناس بل كان هو الذي يقصدهم.. ليعرف همومهم ومشاكلهم.. واسع الإطلاع.. فإذا أثير بين يديه حديث فقهي.. مسكه من ناصيته.. أو تاريخي كانت الكلمة الحاسمة له.. وحتى ما يخص علوم أخرى.

ولم أزل أتذكر الموضوع الذي تلقفناه في السجن سراً وبحرص شديد واعتزاز شديد.. والموضوع هو عصر الفتنة.. وكان من وضعه وتبويبه.

وقد استفدت منه كثيراً في السجن وخارج السجن.. وعلى وجازته فهو أفضل من قراءة مكتبة.. فيه عصارة علوم وتجارب.. وكلما تأملته وتأملت نصائح العلماء الربانيين.. أدركت أن ثمة بوناً شاسعاً بين ما ينبع من العقل ونور القرآن وسيرة محمد وآل محمد(ص)، وبين ما ينبع من الحماس والإنفعالات التي لا نكسب منها إلا الويلات والانتكاسات والجراحات التي يتعذر ضمادها!

عايشته في السجن.. والتقيته في المهجر.. فقلت حبذا لو أن العلماء وأبناء العلماء يكونون كهذا السيد الجليل.. ولا يكونون قاطعي طريق بين العبد وربّه.. يأكلون مال الله.. ويظلمون عباد الله باسم الله.. ويمنون عليهم بالسلامة من أذاهم!!

۞ ۞

تعاقبت الأيام والليالي.. وتغيرت بعض أحوالنا.. وأحس الجميع برعاية الله تعالى لنا. وتغيرت دائرة السجن.. ورفعت الهراوات والسياط عنّا.. وفتحت الأبواب.. وامتلأت ساحة السجن بلاعبي كرة القدم ولاعبي الكاراتيه..إذ كان فيما بيننا رياضيون. واغتنم البعض هذه الفرصة لينهل علماً ومعرفة.. ولم يبخل بعض العلماء علينا.. وتمكن البعض من دراسة مقدمات الحوزة العلمية.. من فقه ومنطق وأصول الفقه واللغة العربية. كما تمكّن البعض من تمرير بعض الكتب الإسلامية والأدبية.. وتحوّلت الأقسام المغلقة إلى مدرسة إسلامية يدرس فيها.. إضافة لما ذكرت.. درس الأخلاق والتفسير.

وصرنا نحيي المناسبات الدينية.. مواليد النبي(ص) وأهل بيته(ع) ووفياتهم.. وذكرى استشهاد السيد محمد باقر الصدروبعض العلماء. وكان لوجود السيد محمد سعيد الحكيم فيما بيننا مذاق خاص.. واعتاد السجناء

أن يذكروه بالسيد المجتهد.. كان متواضعاً شديد التواضع.. وأباً رحيماً للجميع.. شاهدته مراراً يقصد بعض رجال الدين الذين لايزيدون على كونهم تلامذة له.. يتابع المرضى ويحثّهم على تناول طعامهم ودوائهم.. ولم يتوقف عن إجابة سؤال مهما كان بسيطاً.. حتى التقيته ذات صباح في الساحة وكانت خالية.. إذ فتحت الأبواب تواً ولم يزل السجناء نائمين.. وهو يتمشى ويسبّح كعادته ولم يفتر لسانه عن ذكر الله.. فسلمت عليه وقبّلت يده.. وسألته سؤالاً فقهياً.. فانقطع عن ورده وأجابني ثم قال لي برقة: مثل هذه الاسئلة الأولى أن تسألوا عنها الشباب.. ويعني بهم أبناءه أو بقية الشباب من أسرته.. كان صبوراً صلباً.. بالرغم مما ألمّ به وبأسرته من محن وآلام.. فلم يُرَ إلا ذاكراً لله ومذكّراً به.. حاثاً على الصبر والتحمّل.. رافداً مَن حوله بالمعرفة والعلم والنصيحة.. كل من رآه امتلأ طمأنينة واستقراراً.. يغتنم الفرصة للتأليف والكتابة.. ولما كان يتعذر الحصول على الورق.. كان الأخ سعد علي التميمي يجلب إليه سراً علب السكائر الفارغة.. وما فيها من ورق يحيط بالسكائر[126].

وعندما كنا نتعرض لمداهمات رجال الأمن بين الحين والآخر.. كنا نضطر إلى إتلاف كل شيئ ممنوع من قبل السجانين.. وكان أشد هذه الممنوعات هو القرطاس والقلم.. وطالما نالنا عذاب شديد من جراء ذلك.. لذا أتلف ما خطه قلم السيد محمد سعيد الحكيم في سجن أبو غريب، وكان ذلك خسارة كبيرة.

رؤيا بالبلاء والنجاة

126) كان السجانون لا يسمحون لنا بإدخال السكائر بعد شرائها إلا بتفريغ العلب وأخذ السكائر فقط.. ثم إلقاء العلب في النفايات.. فيوهم بعض الإخوة من الخدمات رجال الأمن بأنهم ألقوها في النفايات.. ويخبئونها عنهم.. ويدسونها سراً بيد عالم أو مثقف من السجناء ليدوّن فيها.. أما القلم فيجلب سراً من بعض السجناء في الأقسام المفتوحة.. وذلك عند اللقاء بأحدهم في مستشفى السجن أو في حالات مشابهة.

تلك الفترة سماها البعض (الفترة الذهبية) إذ كان باستطاعة السجين أن يجوب الأقسام والساحات الصغيرة والكبيرة.. دون رقيب أو شرطي يحصي عليه أنفاسه.. رائحة الشواء تملأ أنفه.. وأضواء المصابيح تتداخل بين الدخان المتصاعد من (كباب نوري عمارة) في أول الليل وقبل التعداد.. وتمت الخطوبات والزيجات.. وكان البعض يطوف بصورة ولده الذي أنجبه توّاً.. حتى نسي البعض أنه سجين.

وطفح كل شيئ.. حتى الخطيب صار يختم مجلسه بدعاء: (اللهم احفظ الجمهورية الإسلامية وقائدها.. واحفظ السيد الباقر، قاصداً بذلك السيد محمد باقر الحكيم (رحمه الله)).. والجميع يؤمّن على الدعاء. وعندما يحذّر البعض مذكراً أننا ما زلنا في الأقسام المغلقة.. وما زلنا في سجن أبي غريب، يجيبه أكثر من صوت قائلاً وهو يتطير (ماكو شي) الوضع تغير! فينكفئ على نفسه ليحدثها.. وما الذي تغير.. صدام لم يزل صداماً.. والحكومة والأمن.. لم يتغير منها شيئ!

في ذلك الوقت وقد نسي الكثيرون ما مسّنا من ضرّ.إنتشر خبر مفاده: أن السيد المجتهد رأى رؤيا كأنما أحاط بنا ماء غزير حتى كدنا أن نغرق جميعاً.. وإذا بنا نرى السيد الخميني(رحمه الله) ضرب الماء بعصاه فانفلق كما انفلق البحر لموسى(ع).. ثم أشار إلينا يأمرنا بالمسير. يقول السيد المجتهد: ثم خرجنا قاصداً بذلك هو وأسرته ومن حوله من آل الحكيم رضوان الله عليه، ثم خرجتم من بعدنا بسلام.

انتشر خبر الرؤيا، ولم أسمع بها من السيد المرجع دام ظله فهو لايتكلم بمثل هذه الاحاديث علناً، وعندما سألناهم عن التأويل قالوا: يقول السيد المجتهد: سوف نمر ببلاء وفتنة شديدة.. وبعدها ننجو.. فأكثروا من الدعاء.. وادعوا

الله سبحانه وتعالى بالإستقامة وحسن العاقبة.. وأكثروا من قوله: (يا الله يا رحمن يا رحيم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك).

وتعاقبت الأيام والليالي.. وتقلبت الأحوال.. وعادت الدنيا مكشرة عن أنيابها عقب الانتفاضة الشعبية المباركة التي قامت في شعبان والمصادف في شهر آذار عام1991. وضُيق علينا الخناق.. وبلغت القلوب الحناجر.. واشد الرعب والخوف.. وعزل السجانون أسرة آل الحكيم عنّا.. وحرمونا من اللقاء بهم. وسيق بعض إخواننا إلى سجن الرضوانية.. وكان يتردد اسم السيد المجتهد على ألسنة البعض.

فلقد تمّ استدعاؤه وألقي به كما ألقي ببقية السجناء، معصوب العينين مقيد اليدين.. يعبث بعض صبيان من أمن صدام الأوباش بلحيته الشريفة!

وعاد إلينا البعض، ونفذ حكم الإعدام بالبعض[127].. بأمر المقبور صدام كامل.

ومن بين ثقوب السور العالي الذي يفصل بين ساحة الأقسام المغلقة والأقسام المفتوحة.. لاح لي سماحة السيد الحكيم.. كان جالساً وحده في مكان يتيح له الخلوة.. ماسكاً مسبحته بيد.. ويلهج بذكر الله تعالى.. واليد الأخرى مشدودة إلى عنقه.. فقد خلعت من جراء التعليق في صنارة السقف!

وبعد هذه الأحداث الموجعة ببضعة أسابيع أطلق سراحهم.. وبعدهم ببضعة أشهر أطلق سراحنا.

غزو صدام للكويت

127) منهم السيد جاسم الشوكي.. من مدينة العمارة.. والسيد حسين الشوكي من الكوفة والاستاذ حسن ميرزا من البصرة وعقيل من الكوفة.. وصباح من الكاظمية.. وراضي من الديوانية.. وعلاء من الحلة.. وغيرهم.

تسارعت الأحداث.. بينما نحن نصغي لحديث صدام حسين من خلال التلفاز ليلاً الذي وجهته دائرة السجن على أقسامنا المغلقة والمفتوحة ظهراً.. ثم سمعناه وشاهدناه وهو يكيل الشتائم لحكام الغرب.. واصفاً تاتشر بالمعقدة والعجوز الشمطاء.. ثم قال كلمة قيل إن تاتشر تعذر عليها فهمها بالرغم من محاولة المترجمين توضيح المعنى لها والكلمة هي عندما قال غاضباً:ـ هاي العجوز ما استحت على شيباتها! واستمر متوعداً إسرائيل أنه سيحرق نصفها بالكيماوي المزدوج إذا ما هددت بالقنبلة الذرية! ثم تمّ إعدام الصحفي البريطاني بازوفت.

وكنا نصغي للأخبار بين مصدقين ومكذبين.. والكلمة التي يرددها الجميع من غير وعي: هذا كله مسرحية.. حتى رد عليهم سلام عدنان الكاظمي قائلاً بحدة: مسرحية.. مسرحية.. الإعدام جرى.. والعلاقات تأزمت.. بعد شنو هالمسرحية.

فقلت له: كان ثمة رجل قروي ساذج تمكّن من الحصول على ساعة يدوية زيّن بها معصمه.. لكنه لا يعرف عنها شيئ سوى أنه سمع أحدهم يقول الساعة بالستة ونص.. فظن أن الجواب على كل سؤال: بيش الساعة؟ وفي أي وقت كان هو بالستة ونص. فأدرك ما أرمي إليه.. وضحك مسروراً عندما التقى بمن يشاطره الرأي.. فقال وهو يشير بكفه وكأنه يلتقط شيئاً: ـ عفيه بالضبط.

وما هي إلا أيام حتى راعنا الخبر.. ونزل علينا كالصاعقة عندما سمعنا أن صدام وعصابته قد غزوا الكويت! وما هي إلا بضعة أيام حتى جاءنا خبر همس به العنقرچي الذي يجلب لنا الطعام: ـ جئ بأسرى كويتيين.. وبينهم عوائل وزجّ بهم في أحد أقسام المخابرات.. وبعد أيام أكد لنا بعض السجناء أنهم رأوهم من خلال ثقوب الجدار.. وبعضهم لم يزل بزيّه الكويتي.

وبعد بضعة أيام خرجت من القسم مع مجموعة من السجناء قاصدين المستشفى.. وكالعادة.. إذا ما أخرجوا سجيناً من الأقسام المغلقة لأمر ما.. يخلون الممر المفضي إلى الأقسام المفتوحة وإلى أقسام المخابرات.. ثم يأمرونه بأن يلقي خاولي على رأسه ليغطي أغلب وجهه.. ونحن نسير في الممر.. إذ فتح باب لأحد أقسام المخابرات عن طريق الخطأ ربما.. فشاهدت رجلاً مقيد اليدين إلى أعلى على شجرة.. وهو مجرّد من ثيابه إلا من السروال.. وبان ظهره كقطعة سوداء.. وجلاداً مقتعداً كرسياً إزاءه.. وهو ملقي ساقه الأيمن على ركبة رجله اليسرى وماسكاً بيده الكيبل.

وبعد حين سمعت البعض يقولون: . إن هذا الرجل من الأسرى الكويتيين.. وقد تعرض بعضهم للتعذيب.. ثم نقلوا إلى أماكن مجهولة.

واحتدم الصراع بين رافض للغزو.. ومؤيد لعبد الله المؤمن صدام حسين! وهو يؤكد على أن نتيجة الصراع مع أميركا في أول جولة هو تحرير فلسطين.. وكنا نصغي لأحاديث حكّام العرب المخزي من خلال اجهزة الراديو التي مررها أهلونا سراً! ولعل أكثر الأحاديث أضحكتنا وتلقيناها باستياء بالغ.. ونحن نطلع على بعض ما خفي عنّا من مهازل الحكّام.. هو حديث الرئيس المصري عندما قال: ـ أقول لصدام[128]: إسحب جيشك من الكويت قبل أن تحل الكارثة.. يقول لي أنا جدي الحسين وأنت أمك رقاصة. ثم يردف بانفعال شديد: أنا أمي رقاصة يا صدام؟! بأي عرس من أعراس أمّك رقصت؟! ثم قال: ـ عندما ذهبت إلى العراق لأتأكد من صدام عن سبب انتشار الجيش العراقي على الحدود الكويتية.. أقسم لي بشرفه أن الأمر لا يتعدى الإستعراض العسكري. ثم قال: ـ اتصلت بصدام وقلت له: ألم تفكر بجيشك وبشعبك؟! فقال لي: إيطبهم طوب يعني طز.

128) وكأنه يلفظه صطام.

ثم توجه إلى أمير البحرين عيسى وقال: ـ عيسى يقول نحن العرب نحلّ مشاكلنا.. يا عيسى.. يا عيسى.. عايز تحلّها بخنجرك النووي؟! ثم عاد إلى صدام وقال:. حيخرجوك من الكويت.. يعني حيخرجوك! فكنا نستقبل مثل هذا الكلام بأسف شديد.. والجميع يقول بازدراء: ـ هذوله همه حكام العرب؟!

۞ ۞

انقطع التيار الكهربائي.. وشملتنا عتمة خانقة بعد أن أغلقنا النوافذ بالطابوق والإسمنت إغلاقاً محكماً؟! بإشارة من العالم النووي الدكتور السيد حسين الشهرستاني وذلك اتقاءً لما توقعناه من استخدام الكيماوي في الحرب المتوقعة بعد أيام.. وفزع البعض من الموت المحدق بهم.. واستسلم البعض الآخر. وكنا نستعين على تبديد الظلام الخانق بإضاءة يدوية بدائية.. وذلك بواسطة الشموع.. أو نعبئ قناني صغيرة بالنفط.. وندس فيها خيوط مفتولة.. ونسدّ فوهتها بعجين.

عصر يوم شتائي شديد البرودة.. كنا مجتمعين في باحة القسم منتظرين السيد حسين الشهرستاني ليعلمنا كيفية صناعة القناع الواقي.. بعد أن جلبنا قليلاً من الفحم وصونده صغيرة وكيس نايلون بواسطة أهالينا في المواجهة.

بعضنا جالس وبعضنا واقف..وأحاديث من هنا وهناك حول الحرب المتوقعة.. وقد اسودت السماء بدخان! فتناهى إلى مسامعي صوت الحاج شنشول النجفي يقول وكأنه يخاطب صدام حسين:

. شجاك انهمشت مرة على إيران.. ومرة على الكويت؟!

وقال أبو عامر التركماني: ـ هذي حرب صدام مثل ما يقول الكردي: لو هرا لو ورا.فندت عن آخر كلمة.. وقال باستياء: . والله راح ياكل خره.

وقال سيد محسن البطاط: . صدام مسودن وبيده فاله.

وقال شاب بغدادي: . صدام عبالك مخبل وبيده مسدس.

وسكت الجميع عندما أقبل السيد حسين الشهرستاني.. بعد أن أنهى محاضراته في الأقسام التي سبقتنا.. ثم بدأ يوضح لنا أنواع الغازات المستخدمة في الحروب.. وما يتوقع استخدامه في سمائنا وكيفية الوقاية منه.. ودلنا على طريقة لكشفه وذلك بربط خيط في رجل عصفور وإطلاقه في فضاء السجن والإنتباه لحركته..إلخ.

وبينما هو يتحدث ونحن نصغي له ويسأله البعض فيجيب.. كان هناك رجل دين في سني الشيخوخة يحدق في السماء ساهماً.. وقد أعطى نصف سمعه للدكتور الشهرستاني.. فلم يتضح له كل ما قاله.. فيبدو أنه أخذ فكرة غير مكتملة.

ولما كان مغرماً بالروايات والأخبار عن النبي وأهل بيته(ع) عن الفتن والحروب القادمة.. فانتبهنا له على أثر كلمة ندت منه بصوت مسموع.. إذ قال وهو ينظر إلى السماء وقد انتشر فيها دخان.. ويشير بسبابته نحو السماء.. وكأنه يغرزها في شيئ لدن: ـ صدق أمير المؤمنين(ع). ودلف نحو القسم مسرعاً.. وكله ثقة بأن الحرب قائمة لا محالة.. وهذه الحرب إحدى مصاديق الروايات المروية عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(ع).. وكعادته يفسّر كل غريب في الكون أو في الحياة على أنه من المقدمات لظهور صاحب الزمان!

وأسرع إلى وضع الفحم و الصونده وكان يسميها الخرطوم.. ورأس بصل كبير ليتقي به شر القنابل المسيلة للدموع.. وتلفع بالكيس الكبير كما أوعز لنا بذلك السيد الشهرستاني.. وبدأ بخياطة الكيس.. لكنه لم ينتبه إلى نهايته..فاستمر بخياطته حتى دس فيه رأسه فشعر بالإختناق.. وكاد أن يلفظ أنفاسه لولا أن تداركه السيد جعفر الحكيم وسعد التميمي، ليأخذ واحد برجليه والآخر برأسه وينقذانه.. وقد بدا عليه الإنهاك فنادى سعد قائلاً وهو

مقطع الأنفاس: ناولني الخرموط. يقصد الخرطوم الذي هو الصونده.. ثم قال وهو يكلم نفسه: أموت بالكيماوي أحسن لي!

۞ ۞

الفصل السابع

حكايات زنزانة

الحكاية الأُولى

في قسم الإعدام.. نادى الجلادون باسم اثنين من القابعين في الزنزانات.. المنتظرين دورهم للإعدام. وما أن أخرجوهما من الزنزانة.. حتى وضع القيد في أيديهما وعصّبت عيونهما.. وحملتهما سيارة إلى حيث لا يعلمان! حتى بلغوا بهما مقصدهم. وإذا به.. أرشد ياسين مرافق صدام حسين سابقاً.. وبين يديه مجموعة يدربهم.. فأمر بأحدهما أن يوقفوه قبالته مولياً له ظهره.. فقفز أرشد ياسين نحوه وصفعه على قذاله.. فأسقطه ميتاً.. والتفت إلى من بين يديه قائلاً ببرودة: ـ هكذا تكون الضربة التي علمتكم عليها. ثم التفت إلى الثاني.. قائلاً بذات البرودة: ـ هذا رجعوه.. كافي. وعادوا به إلى قسم الإعدام فحدّث من حوله.. وعندما خفض حكم أحد المحكومين بالإعدام إلى السجن المؤبد وزجّ معنا.. سمعت منه هذه الحكاية!

الحكاية الثانية

الحاج غالب من أهالي مدينة البصرة.. اعتقل متهماً بأنه وكيل الشيخ حسن فرج الله على بيع بيته الذي تركه عندما هاجر إلى إيران. وبعد أن عذّبه الملازم ماجد التكريتي الجلاد في مديرية أمن البصرة تعذيباً شديداً.. وعجز عن أن ينتزع منه إعترافاً.. أو لأنه يطلب منه معلومات لا علم له بها.. أخرجه من غرفة التحقيق.. وأمر المعتقلين برفع العصابة عن أعينهم ليروا ما

سيصنع به. ثم أدخل عصا الماسحة في دبره وصار يدس بها بكل ما أوتي من قوة.. وفي وسط الصراخ والدماء السائلة.. فاضت روحه(رحمه الله)!!

الحكاية الثالثة

ما زلت أتذكر ذلك الرجل القروي وهو يتحدث عن إعدام الكثيرين من أبناء الشعب العراقي.. ولما تعددت ألوان الإعدامات إختلطت عليه التسميات.. فكان يسمع كلمة شنقاً حتى الموت تارة.. وتارة أخرى يسمع كلمة رمياً بالرصاص.. ولما كان متفاعلاً مع الأخبار الآتية من السجون والمعتقلات.. فإذا أراد أن يذكر شخصاً تمّ تنفيذ حكم الإعدام به يردد قائلاً بإستياء بالغ: عدموه شنقاً بالرصاص!

ولا غرابة.. فللموت في عراق صدام فنون وأساليب متنوعة.. ولكن أبشعها لوناً وأشرسها وأقبحها أسلوباً وطريقة.. هو ما حصل في ليلة ليلاء من شتاء عام1981 في مديرية أمن البصرة.. وذلك بدق قنينة السينالكو في أست المعذّب.. ويبقى على هذه الحال مدة حتى يحتقن وجهه.. وتتفجر الدماء من عينيه.. ويختنق.. ثم يشهق شهقة وبها تفيض روحه.. وبهذه الطريقة قتل سبعة شباب في ليلة واحدة!

عجيب أمر هؤلاء، وقائدهم يقول بإستياء،من قلة غيرة حكام العرب،(شوكت تهتز الشوارب).

كان الأخ ستار هاشم من مدينة البصرة، يشكو آلاماً فظيعة في بطنه،وأوراماً، وجراحة...، وحدثنا عن السبب ذات يوم؛ قائلاً:

– كنت معلقاً في السقف ودسّ الملازم عدنان التكريتي حديدة (القزمة) فيّ!!.

الحكاية الرابعة

في ذلك الجو الخانق في زنزانات مديرية الأمن العامة.. يتوسل المعتقل إلى أي شيئ يعود به إلى عالم ما وراء الزنزانة..وهل أجمل وأعذب من ذكريات الطفولة.. عندما يقصد الطفل مدرسته.. مفارقاً أمّه وهي تطبع على جبينه قبلة ليس أنقى منها شيئاً ولا أدفأ.. حتى يعود فتستقبله ثانية بقبلة أخرى.. وهو بين ذلك يتلقى الحروف الأبجدية للغة والحياة.

لذا أخذ يردد مجموعة من الطلاب الجامعيين.. ما في القراءة الخلدونية للصف الأول الابتدائي.. وبينهم أستاذ في الأدب الإنكليزي.. يحمل شهادة الدكتوراه كنيته أبوغزوان من أهالي البصرة.. وهكذا ضج الجميع ابتداءً من (دار دور داران.. حتى قطتي صغيرة).

الحكاية الخامسة

في إحدى زنزانات موقف مديرية الأمن العامة.. أصيب أحد القابعين بمرض شديد أنهك قواه وارتفعت درجة حرارته.. وعزفت نفسه عن تناول الطعام.. ودبّ في جسده هزال شديد.. وتفاقم المرض حتى تقيأ دماً.. فعرض على الطبيب فأكد أنه مصاب بمرض السل الرئوي.

أخليت الزنزانة من جميع القابعين فيها.. وأمرهم الشرطة بخلع ثيابهم حتى من آخر قطعة.. وظل الجميع واقفاً في دهليز الموقف زهاء ساعة.. وبعضهم يلوذ ببعض خجلاً مغطياً سوأته بكفيه.. ولما كان عدد العراة يزيد على العشرين.. همس أحد الظرفاء بصوت لا يبلغ مسامع الشرطي الشاهر سوطه.. وقال متهكماً من الحال التي هم فيها: ـ أتدرون أي عنوان ينطبق على حالنا هذا؟!

فأجابه أكثر من واحد متسائلاً: ـ ما هو؟!

قال: ـ كشف العورة في ظل الثورة. فابتلع البعض ضحكه حتى جئ لهم بثياب.. وأعادوهم إلى الزنزانة فانفجر الجميع ضاحكين! وظل هذا المصطلح خالداً.. مضافاً إلى الوقفة اللقلقية في السجون العفلقية.

وهناك مصطلحات كثيرة تفرزها حالات الضجر والإستياء.. وتنتهي في حينها.

الحكاية السادسة

مجموعة من الفتيان زجّ بهم فيما بيننا.. وكانت حكايتهم أغرب الحكايات في تاريخ الإستبداد.. لا يجمعهم سوى زقاق واحد في محلة واحدة.. وفريق رياضي لكرة القدم.. لكن رأى أحدهم فيما يرى النائم أنه قاد إنقلاباً على السلطة وصار رئيساً للجمهورية وعيّن أصحابه وزراء.. ولما التقى بهم نهاراً حدثهم برؤياه ضاحكاً.. فشاركوه الضحك لأجل هذه الطريفة الغريبة.. وانطلقت سيقانهم تجري وراء الكرة التي لا يرغبون سواها.. وظلت الحكاية تتنامى حتى التقطتها آذان المخبرين فألقي القبض عليهم وسيقوا إلى إحدى مديريات الأمن.. وأجري معهم تحقيقاً.. وبعد الإمضاء على الإفادات سيقوا إلى محكمة الثورة، وحكم الحاكم المجرم مسلم الجبوري على أعضاء الفريق بالسجن المؤبد.. أما الحالم فحكم عليه بالإعدام! ولما أحتج أحدهم صارخاً: ـ سيدي هو اللي تحلم آني شعليه؟! فرد عليه مسلم الجبوري شاتماً كعادته: ـ إنچب لك.. (16) مليون عراقي ليش متحلم بيهم وتحلم بيكم.. أنتم هم مجرمين مثله.

الحكاية السابعة:

مكافحة إخواننا المصريين!

حقاً أن الطغاة وحكام الجور أفسدوا كل شيئ.. عندما بدأ المصريون يتوافدون على العراق.. كان العراقي يستقبلهم بالمودة والاحترام، فهو يرى فيهم الأديب القدير والفنان وصاحب الآثار العظيمة... وما إلى ذلك.

لكن الدكتاتور صداماً أبى إلا أن يفسد هذه المودة والإحترام.. وخاصة عندما إندلعت الحرب العراقية الإيرانية، وانشغل العراقيون بالحرب.. وزجّ عدد كبير من أبناء الشعب في السجون. ولكي يملأ ما شغر في البلاد.. فتح الأبواب للمصريين على مصراعيها.. ومنح المصري حصانة وحماية لم يمنحها للعراقيين.. حتى أن بعض المصريين ذوي النفوس الضعيفة عاثوا في الأرض فساداً.. سرقوا ونهبوا واغتصبوا! وبعضهم ممن سخرته السلطة لأن يكون مخبراً لرجال الأمن والمخابرات.. وإمتهان المهنة الذليلة.

في ربيع عام 1981 كنت أشرب العصير داخل محل في شارع الرشيد.. وقد وضعت لوحة في واجهة المحل كتب عليها بخط عريض: على كيفك.. لتسترعي انتباه المشاة فيدلفوا إلى المحل. دخل شاب مصري واستقبله صاحب المحل بحفاوة.. وجرى حديث فيما بينهما.. ثم سأله عن صديق.. فأجابه هامساً وكأنه يناجيه: ـ صارت عنده ارتباطات مع الأمن والمخابرات.

وهكذا صار ابن البلد يخشى من ابن البلد والضيف! وتفاقم الأمر.. حتى إذا حصل شجار بين مصري وعراقي على بيع أو شراء أو تصليح سيارة أو جهاز ما.. يبادره المصري صائحاً: ـ ليه بتسب اللي گابني؟! وسرعان ما يضيع أثره.

وإذا شتم مصري عراقياً وردّ عليه العراقي، يبطش أزلام صدام بالعراقي ويسجن أسابيع أو شهوراً.. هذا عندما كانوا بحاجة إلى المصريين ليملؤوا بهم

الفراغ الذي تركه أبناء الشعب العراقي.. لكن لما انتهت الحاجة إليهم سيئت معاملتهم بين غضب الناس وإهمال السلطة لهم.. حتى تعرض بعضهم للقتل!

۞ ۞

من البديهي أن معاملة الحكومة هذه لأبناء الشعب العراقي تقتصر على مناطق ومدن محددة من العراق.. ولا تشمل المناطق التي يرعاها صدام التكريتي رعاية خاصة.. فعلى سبيل المثال:

كان في شارع الشيخ عمر في بغداد.. شاب مصري يدّعي أنه (يعرف كل حاجة).. وكان يحاول إصلاح سيارة آخر موديل.. دون أن يعرف هوية صاحبها.. فأتلف غطاء السيارة.. ولم يدرك أن لهذه النوعية من السيارات مراعاة خاصة يعرفها الحدادون الماهرون.. ويجهلها هو. وما أن عاد صاحب السيارة.. وألقى نظرة على سيارته حتى راعه الأمر.. فصاح غاضباً ليُسمع كل من حوله من العمال والمشاة.. وهو يبرز هويته ويهزها في الهواء هزاً عنيفاً: ـ آني ضابط مخابرات تكريتي! محذراً كل مَن يحول بينه وبين هذا العامل المصري.. ثم إنهال عليه بقضيب حديدي ثقيل.. والعامل يستغيث.. فلا يجرؤ أحد على إغاثته!

وهكذا صار الفرد العراقي محاصراً من جميع الجهات.. من السلطة ومن الحرب القائمة بين العراق وإيران ومن الأمن والمخابرات والإستخبارات والأجهزة الأمنية الأخرى. ثم من الوافدين على البلد.. لذا إحتقن الفرد العراقي غيظاً.. وجاهد البعض بماله ونفسه.. وكان البعض يريد أن يعبّر عن غضبه فقط.. دون تخطيط أو دراية في العمل التنظيمي. فكوّن مجموعة من الشباب (منظمة) يقودهم بعض الشقاوات من مدينة الثورة.. وأطلقوا على منظمتهم اسم مكافحة إخوانا المصريين.. ومهمتهم هي إيذاء المصريين.. وكلما ظفروا بمصري أوسعوه ضرباً.. وقد ألقي القبض على بعضهم في مديرية

أمن الثورة! وهكذا لم يترك الطاغية المجرم صدام شيئاً إلا وأفسده.. ومما أفسده علاقات الأخوّة العربية!

ليلة الحرية

يوم السبت عصراً.. الموافق يوم21 كانون الأول1991م.. نادى السجانون باسمي مع جمع يبلغ الخمسين فرداً. أمرونا بأن نتجمع في ساحة القسم رقم واحد.. وكانت هذه المجموعة الثانية بعد أن أخرجوا مجموعة بالعدد نفسه تقريباً من الأقسام المغلقة صباحاً.. وأكدوا لنا أن الجميع سيتمّ إطلاق سراحهم باستثناء عدد قليل منهم: حسن عطية والدكتور قاسم مهاوي والسيد محمد الطباطبائي... وآخرون.

ودّعت مَن حولي إخوة أعزاء قد شاركوني حياة إستثنائية من حياة البشر.. ومن بينهم هاشم عبد الحسن العوادي من أهالي البصرة.. وبعضنا يطلب براءة الذمة من الآخر خشية أن يكون قد ضيّع حقاً من حقوق الأخوّة.

ودعتهم على عجل داعياً لهم.. وودعوني داعين لي. طويت سريري.. ودسست بين ثيابي القرآن الكريم ومفاتيح الجنان ومنهاج الصالحين.. وبعض الكتب الأخرى في النحو والمنطق والأدب.. ومفكرة صغيرة ودفتراً كنت أدوّن فيه خواطري في ليالي أبو غريب.. ودسست ثيابي في أكياس.. ووضعتها في صندوق.. وشددت الصندوق بحبل.. وصرت أجرّ الحبل.

هبطت السلم.. إذ كنت أقطن القاعة العليا من القسم الرابع من الأقسام المغلقة.. فوجدت بعضاً من أصدقائي فتعانقنا.. بعضنا يودّع بعضاً.. وكان آخر من ودعته هو الأخ سرتيب.. كردي من أهالي أربيل.. مصيف صلاح الدين. وتبادلنا بعض الكلمات المناسبة.. وعلى أمل اللقاء خارج السجن.

ووليت القسم الرابع ظهري.. فابتلعتني الساحة الكبيرة.. وكنت أجر الحبل فيحدث الصندوق صوتاً لا يقطع عليّ تأملاتي.. وذكرياتي التي كتبت على ذاكرتي بالحديد والنار.

عندما بلغت ساحة القسم الأول.. وجدت جمعاً سبقني من الأقسام الأول والثاني والثالث..ومن بينهم الأخ العزيز والصديق الوفي جبار عبود مهودر. وتساءلنا عدة مرات.. تارة هو يبدأ السؤال وتارة أخرى أنا: ـ هل حقاً سيطلق سراحنا؟!

فتحوا لنا الباب المفضي للدهليز الكبير وأمرونا بالجلوس فجلسنا.. ولبثنا طويلاً.. حتى حان وقت صلاة المغرب فأديناها.. وكانت اللحظات ثقيلة مملة.. حتى أتت اللحظة الحاسمة.. بعد أن أقبل مدير الأحكام الخاصة المقدم فوزي وهو يتوعدنا قائلاً: ـ والله.. والله اللي يعود.. هنا أعدمه.

وكانت هذه كلمة الوداع.. فاطمأننا أن الإفراج سيتم.

وبعد صلاة المغرب بساعتين تقريباً.. أمرونا بالإصطفاف صفاً واحداً.. ثم أمرونا بالسير حتى بلغنا باباً كبيراً.. فأمرونا بالجلوس صفوفاً.. في كل صف خمسة أشخاص.. وعدّونا.. ثم أمرونا بالنهوض.. فمشينا بضعة أمتار.. ثم أمرونا بالجلوس فعدّونا ثانية. ثم أمرونا بالسير فاجتزنا الباب الكبير.. فوجدنا أنفسنا في الشارع العام.. وقد لفتنا ظلمة خانقة.. يمزقها بين حين وآخر ضوء ينبعث من مصباح سيارة منطلقة بسرعة جنونية.. وبينما كان الجميع من حولي يتساءلون عن جهة الشارع المؤدية إلى بغداد.. وعن الجهة المؤدية إلى الرمادي.. لنسلك الطريق المؤدي إلى بغداد. التفتُ نحو السجن وألقيتُ نظرة شاملة.. فبدا لي كمقبرة كبيرة نائية يجثو عليها صمت صارخ.. ويلّفها ظلام دامس من كل جانب وتذكرت من قال: هنا مقبرة الأحياء.. واختبار الأصدقاء.. وشماتة الأعداء.. ساءلت نفسي قائلاً:

الفصل السابع:
حكايات من الزنازين.....345

كم كانت ثقيلة وموجعة هي؛ ليالي أبو غريب.

إنتهى.

الفصل السابع:
حكايات من الزنازين.....347

فهرس الموضوعات

مقدمة
هذا الكتاب.....7
الفصل الأول:
فجر الأحد عشر عاماً.....10
الفصل الثاني:
صراخ في ليالي طويلة.....32
الفصل الثالث:
جلادون.. حتى النخاع.....132
الفصل الرابع:
زنزانات.. ووجوه جديدة.....175
الفصل الخامس:
محكمة الثورة الصدامية.....292
الفصل السادس:
سجن أبو غريب.....314
الفصل السابع:
حكايات زنزانة.....367

۞ ۞

الفصل السابع:

الوثائق والصور

رئاسة محكمة الثوره
بغداد
العدد /ق ١/ ٢٨٠٠
التاريخ / ١٩٨١/٨/٣٠

سرى للغايه وشخصي

رئاسة ديوان رئاسة الجمهوريه
م/ جدول اعمال المحكمه ليوم ١٩٨١/٨/٢٦

١٠ اشاره الى امر الاحاله المرقم ٨٨٧/٢٣ في ١٩٨١/٨/٢٤.
حسمت محكمتنا القضيه المرقمه ١٩٨١/١٣ الامن العامه م٣٢ في الدعوى المرقمه ١٣٧/ج/١٩٨١
والخاصه بالمتهمين اسماعيل يوسف شخيط وجماعته وقررت مايلي :-
١٠ بالنظر لوفاة المتهمين كل من حسن عيسى موسى ظريف وجبار علي خضيوى وكاظم عبد الله محمد
جريو حسبما ورد بالتقرير التشريحي الطبي العدلي المرقم ١٢٩٠٦ في ١٩٨١/٨/١٣ و١٢٦٥٦ في
١٩٨١/٨/١٠ و١٣٨٦٩ في ١٩٨١/٨/٢٥ قررت المحكمه اسقاط الجريمه بحقه استنادا لاحكام
الماده ١٥٠ من ق ع.
٢٠ الحكم على المدانين كل من اسماعيل يوسف شخيط واحمد رحيم ناصر وعلي حسين حمد وفلفل هاشم
احمد والملازم الطبيب المجند انور عبد الامير احمد الامين المنسوب الى وحدة الميدان الطبيه /٢١
وحسون جواد كاظم وجاسب صالح حسن وقحطان مهدى حمادى وخالد علك جابر وجاسم محمد سلمان
وخليل علي شهاب وحيدر كاظم كرم وصباح جياد صالح وع.ع مضمد محمد موحان عبد آل المنسوب الى
مستشفى الرشيد العسكرى ورسن جدى ماجد وياسر مطر جعفر وج.م عبد الحسين كاظم كرم —
المنسوب الى معهد الدفاع الجوى وف.ض صالح مهدى غلوان المنسوب الى دائرة الاداره في وزارة
الدفاع والمقدم عبد الحمزه عبد الحسين حمزه المنسوب الى كدس الحميه وحكمت عبد العزيز مهدى
ورعد حكمت عبد العزيز والملازم الطيار قحطان جبار خلف (مفقود) وف.ض ريسان غزوان شفي المنسوب
الى دائرة التنظيم والتشكيل رقم الوحده (٦١٦) وف.ض الي محمود حسن مساعد المنسوب الى الاسكان
العسكرى وف.ض حربي جاسم الفضيل المنسوب الى دائرة الانضباط العسكرى وف.ض آلي علي زوير
المنسوب الى سرية الخدمات الاولى معسكر الرشيد وف.ض الي حسين محسن ثامر المنسوب الى
دائرة الدفاع /الشؤون الاداريه وف.ض محارب جاسم محمد المنسوب الى امرية طبابة فق ١٠ ومجبل
حسين حسن وف.ض طلال علي احمد المنسوب الى مركز التدريب المهني في الحبانيه وف.ض صادق
صالح حسن المنسوب الى مركز التدريب المهني في الحبانيه وكامل خلف علي ومالك عاجل حزام والعريف
حسن علاوى بدر المنسوب الى معمل تصليح الدبابات في معسكر التاجي وعبد الكريم محمد حسن هادى
وعوده ابو السود ولي ومحي علي محمود ابو حاوى وعبد الكريم عدنان يوسف وطالب صاحب جواد
وج.م محسن عبد الكاظم مشير المنسوب الى معسكر الحبانيه رقم الوحده (٨٩٤) وسمير خلخال حسين
وف.ض جاسم محمد هاني المنسوب الى قاعدة علي ابن ابي طالب وف.ض علي عبد عبود المنسوب الى
شعاب القوه الجويه وف.ض كاظم جواد كاظم المنسوب الى مركز التدريب المهني في الحبانيه للطائرات
وف.ض آلي حسن خلف مزعل المنسوب الى سرية الخدمات الاولى /مقر عام / وف.ض جواد كاظم جاسم
المنسوب الى معسكر كركوك رقم الوحده ٦٦٣٦ سرب ٤٧ والرائد محمد علي احمد علي المنسوب الى فوج
والمقدم علي حسين مطلك المنسوب الى الكليه العسكريه والمقدم كاظم عسكر عايد المنسوب الى
خانقين ومعاون مدير الدائره القادونيه لقيادة قوات سعد والملازم الاول الشرطه محمد حسين
المنسوب الى مديرية شرطة ديالى ومهدى احمد علي وكاظم قاسم رحمن وعيسى موسى صالح
عبد الله محمد جريو وعباس شلش خيون وعادل شيال علي وسعدى عبد علي حافظ وعباس اسماعيل
المجند محمد مهدى عبد الله المنسوب الى مركز تدريب التموين والنقل في معسكر ابي غريب
صادق عبد وعبد الامير حسين مجذاب وحميد مطلك حجيم ورحيم محي كرم وحسن علي كماش
يتبع طفا.

١٩٨١/٧/٢٥
٨١/٩/٢٥

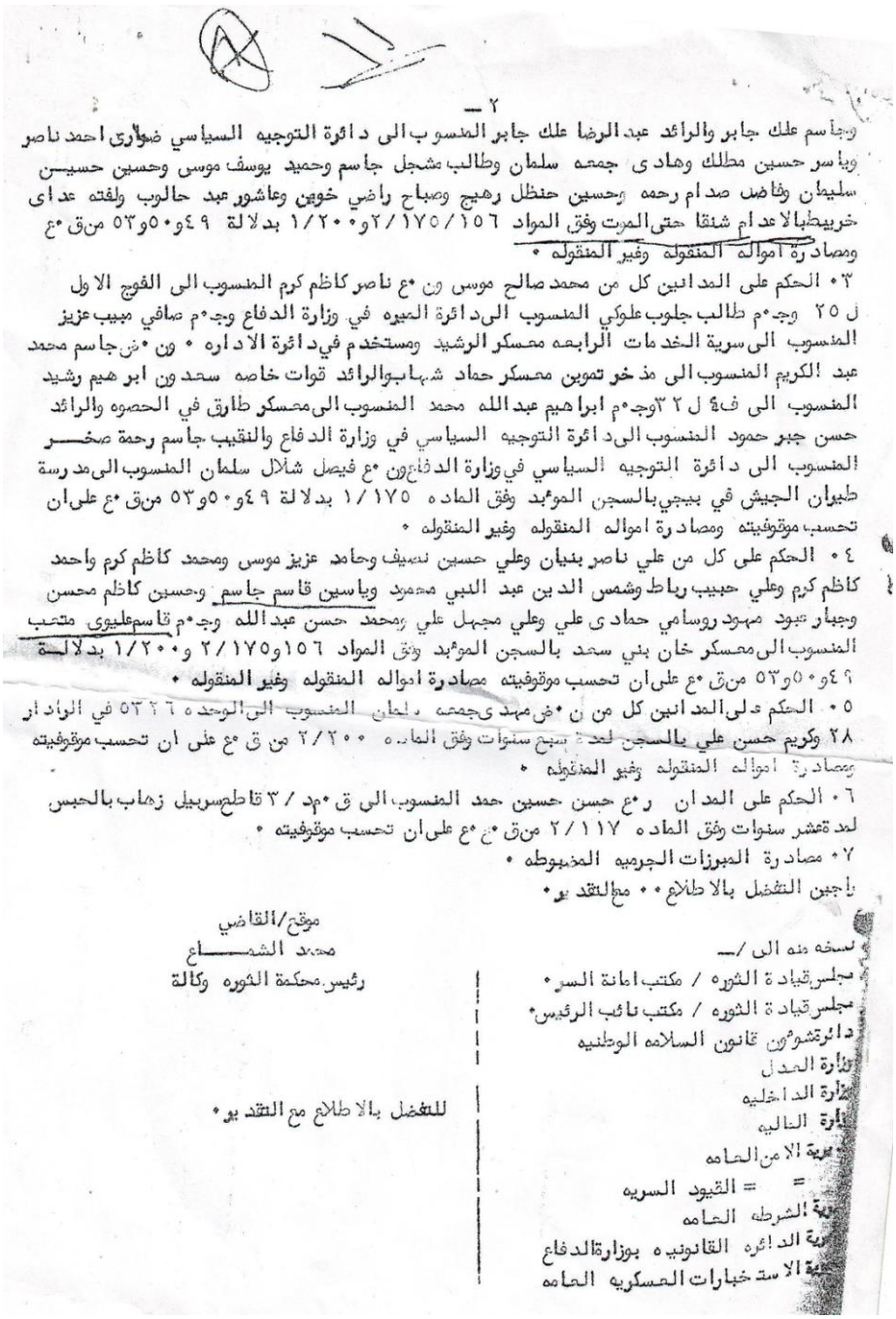

ـ ٢ ـ

وجاسم علك جابر والرائد عبد الرضا علك جابر المنسوب الى دائرة التوجيه السياسي ضواري احمد ناصر وياسر حسين مطلك وهادي جمعه سلمان وطالب مشجل جاسم وحميد يوسف موسى وحسين حسين سليمان وفاضل صدام رحمه وحسين حنظل رهيج وصباح راضي خوين وعاشور عبد حالوب ولفته عداي خريبط بالاعدام شنقا حتى الموت وفق المواد ١٥٦/١٧٥/٢و٢٠٠/١ بدلالة ٤٩و٥٠و٥٣ من ق ع ومصادرة امواله المنقوله وغير المنقوله .

٣. الحكم على المدانين كل من محمد صالح موسى ون ع ناصر كاظم كرم المنسوب الى الفوج الاول ل ٢٥ وجـ م طالب جلوب علوكي المنسوب الى دائرة المياه في وزارة الدفاع وجـ م صافي مبيب عزيز المنسوب الى سرية الخدمات الرابعه معسكر الرشيد ومستخدم في دائرة الادارة . ون . ض جاسم محمد عبد الكريم المنسوب الى مذخر تموين معسكر حماد شهاب والرائد قوات خاصه سعد ون ابرهيم رشيد المنسوب الى ف٤ ل ٢٣ وجـ م ابراهيم عبد الله محمد المنسوب الى معسكر طارق في الحصوه والرائد حسن جبر حمود المنسوب الى دائرة التوجيه السياسي في وزارة الدفاع والنقيب جاسم رحمة صخر المنسوب الى دائرة التوجيه السياسي في وزارة الدفاع ون ع فيصل شلال سلمان المنسوب الى مدرسة طيران الجيش في بيجي بالسجن المؤبد وفق الماده ١/١٧٥ بدلالة ٤٩و٥٠و٥٣ من ق ع على ان تحسب موقوفيته ومصادرة امواله المنقوله وغير المنقوله .

٤. الحكم على كل من علي ناصر بنيان وعلي حسين نصيف وحامد عزيز موسى ومحمد كاظم كرم واحمد كاظم كرم وعلي حبيب رباط وشمس الدين عبد النبي محمود وياسين قاسم جاسم وحسين كاظم محسن وجبار عبود مهود وسامي حمادي علي وعلي مجهل علي ومحمد حسن عبد الله وجـ م قاسم عليوي متعب المنسوب الى معسكر خان بني سعد بالسجن المؤبد وفق المواد ١٥٦و١٧٥/٢ و٢٠٠/١ بدلالة ٤٩و٥٠و٥٣ من ق ع على ان تحسب موقوفيته مصادرة امواله المنقوله وغير المنقوله .

٥. الحكم على المدانين كل من ن . ض مهدي جمعه سلمان المنسوب الى الوحده ٥٣٢٦ في الواد ار ٢٨ وكريم حسن علي بالسجن لمدة سبع سنوات وفق الماده ٢٠٠/٢ من ق ع على ان تحسب موقوفيته ومصادرة امواله المنقوله وغير المنقوله .

٦. الحكم على المدان ر ع حسن حسين حمد المنسوب الى ق م د / ٣ قاطع سربيل زهاب بالحبس لمدة عشر سنوات وفق الماده ٢/١١٧ من ق ع على ان تحسب موقوفيته .

٧. مصادرة المبرزات الجرميه المضبوطه .

يأجبن التفضل بالاطلاع .. مع التقدير .

موقع/القاضي
محمد الشماع
رئيس محكمة الثوره وكالة

نسخه منه الى /ـ
مجلس قيادة الثوره / مكتب امانة السر .
مجلس قيادة الثوره / مكتب نائب الرئيس .
دائرة شؤون قانون السلامه الوطنيه
وزارة العدل
وزارة الداخليه
وزارة المالية
مديرية الامن العامه
= = القيود السريه
مديرية الشرطه العامه
مديرية الدائره القانونيه بوزارة الدفاع
مديرية الاستخبارات العسكريه العامه

للتفضل بالاطلاع مع التقدير .

اخبار المعلومات الاولى

وارد ثنا/ ١٢٦٧ في ٢٣/ ٦

تاريخ وساعة الاخبار / ١٥/ ٧/ ١٩٨١

العدد / ١٣/ ١٩٨١ / م ٣٢

المحافظة : بغداد

مديرية الامن العامه

تاريخ وساعة الاخبار	محل الحادثه	وصف الجريمه	اسم ومحل سكنى المشتكي
١٥/ ٧/ ١٩٨١	بغـــداد	١٥٦ ق٠ع	الحق العام

من خلال متابعتنا لعناصر حزب الدعوه العميل تم كشف خط تنظيمي يقوده اربعه من الهاربين هم اسماعيل يوسف شخيط وحيدر كاظم كرم وعباس شلش خيون وحسن علي كماش، تم القبض على المذكورين ولدى اجراء التحقيق معهم اعترفوا بأنتمائهم للحزب العميل وذهاب حيدر كاظم كرم وعباس شلش خيون الى ايران واتصالهم بقيادة الحزب العميل هناك ومنهم المجرم الهارب مهدي عبد مهدي الملقب (الحاج كاظم) والمجرم الهارب فائز عبد الحسين علي الملقب (أبو حوراء) وقد ادخلوا دورات ... عسكريه في ايران وعادوا في العام الماضي الى العراق بعد ان اتفقوا مع قيادتهم على تشكيل مجاميع عسكريه ومدنيه للتهيئه للقيام بانقلاب ضد قيادة الحزب والثورة في قطرنا المناضل وبعد عودتهم عملوا على تشكيل هذه المجاميع وكانت تشمل الخونين والعسكريين وقسم من الحاقدين على الحزب والثورة وخاصة من العسكريين وكان يتردد اليهم في العراق مهدي عبد مهدي وفائز عبد الحسين وعرفهم على قسم من العسكريين الذين تم كسبهم للمساهمة في الانقلاب في نهاية شهر رمضان

(يتبع)

مصطفى بيت نسوه

حميد عيال

الماضي على ان تقوم مجاميع بالهجوم على القصر الجمهوري والاذاعه ومديرية الامن العامه والمخابرات وبقية المراكز الحساسة وعلى ان تقوم ايران بهجوم على جبهات القتال وارسال طائرات حربيه لضرب المطارات في القطر . وتقوم طائرات نقل عسكريه بأيصال عناصر الدعوه العميله الموجوده في ايران الى بغداد بعد تنفيذ عملية الانقلاب ، كما زودوا النظام الفارسي بمعلومات عسكريه مهمه تتعلق بمواقع قطاعاتنا العسكريه في الجبهه وارسلوا احد عناصر التنظيم الى تركيا واتصل بالسفارة الايرانيه هناك وزودهم بتلك المعلومات كما اتفقوا على ايصال الاسلحه الى بغداد عن طريق الاهوار الجنوبيه في قضاء القرنه التابعه لمحافظة البصرة ومن خلال التعمق بالتحقيق تم كشف معظم خطوط التنظيم المدني والعسكري وقسم من العسكريين الحاقدين على الحزب والثورة والذين اتفقوا مع عناصر التنظيم على المساهمه في الانقلاب وتم اعتقالهم جميعا وهم كل من :-

١ / اسماعيل يوسف شخيط
٢ / احمد رحيم ناصر
٣ / علي حسين احمد التميمي
٤ / فاضل هاشم احمد
٥ / حسن حسين حمد التميمي
٦ / انور عبد الامير احمد
٧ / علي ناصر بنيمان
٨ / حسون جواد كاظم
٩ / جاسب صالح حسن
١٠ / قحطان مهدي حمادي
١١ / خالد علك جابر
١٢ / جاسم محمد سلمان
١٣ / علي حسين نصيف
١٤ / خليل علي شهاب الزبيدي
١٥ / حيدر كاظم كرم
١٦ / صباح جياد صالح
١٧ / محمد موحان
١٨ / رسن جري ساجت
١٩ / حامد عزيز موسى
٢٠ / محمد كاظم كرم

(يتبع لطفا)

ـ ٤ ـ

٣٥) حربي جاسم الفضيل

٣٧) جاسم محمد عبدالكريم

٣٩) حسين محسن ناصر

٤١) مجبل حميد حسن

٤٣) سعدون ابراهيم رشيد

٤٥) جبار علي خضير

٤٧) مالك عادل حزام

٤٩) علي حبيب رباط

٥١) عوده ابو اسود

٥٣) عبدالكريم عدنان يوسف

٥٥) سمير خلخال حسين

٥٧) جاسم محمد هادي

٥٩) كاظم جواد كاظم

٦١) جواد كاظم جاسم

٦٣) علي حسين مالك

٦٥) محمد حسين صالح

٦٧) كاظم قاسم رحمن

٣٦) علي زويد غافل

٣٨) عيسى موسى ظريف

٤٠) محارب جاسم محمد السعدي

٤٢) طلال علي احمد

٤٤) صادق فليح حسن

٤٦) كامل خلف علي

٤٨) محسن علاوي بدر

٥٠) عبدالكريم محمد حسن

٥٢) محسن علي محمود

٥٤) طالب صاحب جواد

٥٦) محسن عبدالكاظم شبر

٥٨) علي عبد عبود

٦٠) حسن خلف مزعل

٦٢) محمد علي احمد

٦٤) كاظم عسكر عائد

٦٦) مهدي احمد علي الشمري

٦٨) عيسى موسى صالح

((يتبع لاحقاً..))

١٨

٧

- ٥ -

٩٩/ صباح راضي خيون
١٠٠/ عاشور عبد حالوب
١٠١/ جبار عوده مهورد
١٠٢/ سامي حمادي علي
١٠٣/ علي مجبل علي
١٠٤/ كريم حسين علي
١٠٥/ محمد حسن عبد الله العزاوي
١٠٦/ لفته عداي خريبط
١٠٧/ قاسم عليوي متعب

وقد اعترفوا جميعا بما اسند اليهم وتم توقيفهم ولا زالت التحقيقات مستمرة رجاء .

موقع رائد الامن
ضابط التحقيق

نسخه منه الى /

مجلس قيادة الثورة ـ مكتب السيد الرئيس
مجلس قيادة الثورة ـ مكتب السيد نائب الرئيس
رئاسة ديوان رئاسة الجمهوريه ـ دائرة شؤون
قانون السلامه الوطنيه
وزارة الداخليه
رئاسة محكمة الثوره
السيد مدير الامن العام

للتفضل بالاطلاع ... مع التقدير .

حاكمية تحقيق امن بغداد
نائب المدعي العام بحاكمية امن بغداد

للعلم رجاء .

مديرية ٤٥
مديرية العلاقات

للعلم والتاشير رجاء .

نسختين في القضيه

رعد : ٢٥/ ٨ .

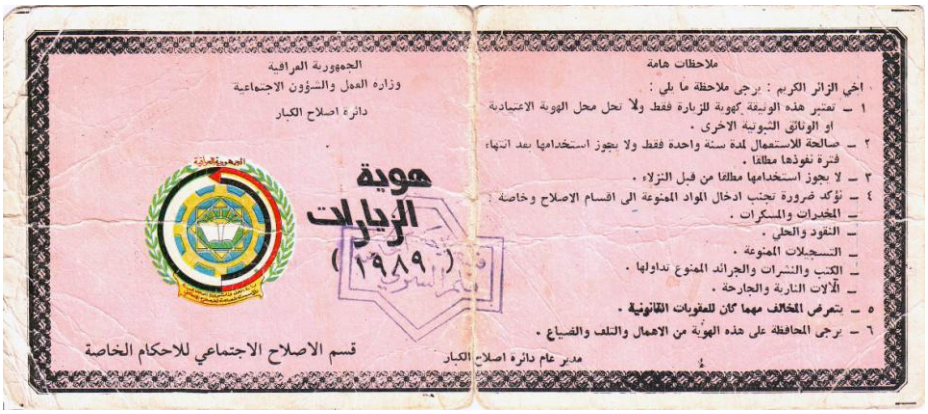

الجمهورية العراقية
وزارة العمل والشؤون الاجتماعية
دائرة اصلاح الكبار

هوية الزيارات (١٩٨٩)

قسم الاصلاح الاجتماعي للاحكام الخاصة

ملاحظات هامة

اخي الزائر الكريم : يرجى ملاحظة ما يلي :

١ ـ تعتبر هذه الوثيقة كهوية للزيارة فقط ولا تحل محل الهوية الاعتيادية او الوثائق الثبوتية الاخرى .
٢ ـ صالحة للاستعمال لمدة سنة واحدة فقط ولا يجوز استخدامها بعد انتهاء فترة نفوذها مطلقا .
٣ ـ لا يجوز استخدامها مطلقا من قبل النزلاء .
٤ ـ نؤكد ضرورة تجنب ادخال المواد الممنوعة الى اقسام الاصلاح وخاصة :
ـ المخدرات والمسكرات .
ـ النقود والحلي .
ـ التسجيلات الممنوعة .
ـ الكتب والنشرات والجرائد الممنوع تداولها .
ـ الآلات النارية والجارحة .
٥ ـ يتعرض المخالف مهما كان للعقوبات القانونية .
٦ ـ يرجى المحافظة على هذه الهوية من الاهمال والتلف والضياع .

مدير عام دائرة اصلاح الكبار

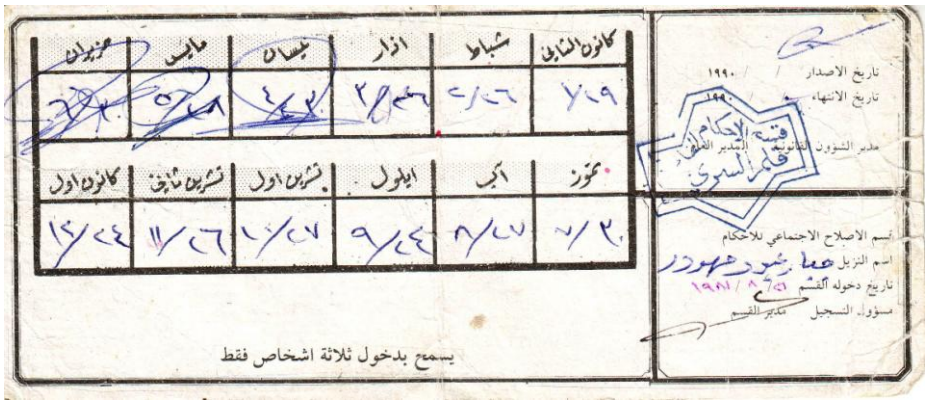

كانون الثاني	شباط	اذار	نيسان	مايس	حزيران
٧/٢٩	٢/٢٦	٣/٣٠	٤/٢٧	٥/٢٥	٦/٢٠

تموز	آب	ايلول	تشرين اول	تشرين ثاني	كانون اول
٧/٢٠	٨/٢٧	٩/٢٤	١٠/٢٧	١١/٢٦	١٢/٢٤

يسمح بدخول ثلاثة اشخاص فقط

تاريخ الاصدار / / ١٩٩٠
تاريخ الانتهاء / / ١٩٩٠
مدير الشؤون القانونية المدير العام

قسم الاصلاح الاجتماعي للاحكام
اسم النزيل عبد عبود مهودر
تاريخ دخوله القسم ١٩٩١/٨/٢٩
مسؤول التسجيل مدير القسم

– نموذج بطاقات الزيارت الشهرية الى سجن ابو غريب –

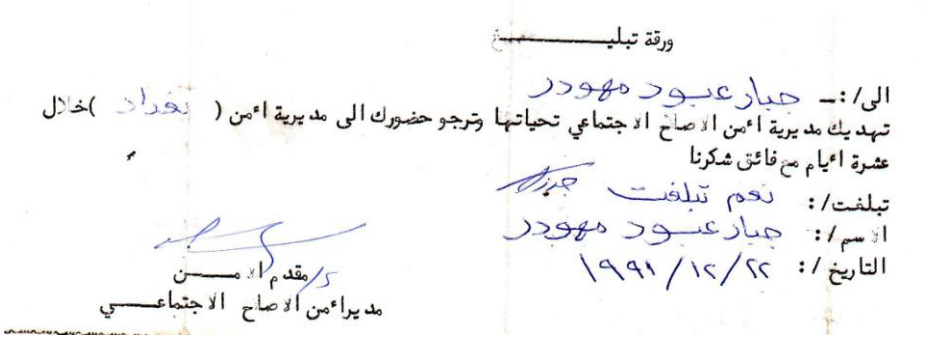

ورقة تبليـــــــــغ

الى/ :ـ جبار عبود مهودر
تهديك مديرية امن الاصلاح الاجتماعي تحياتها وترجو حضورك الى مديرية امن (بغداد)خلال عشرة ايام مع فائق شكرنا
تبلغت/ : نعم تبلغت
الاسم/ : جبار عبود مهودر
التاريخ / : ١٩٩١/١٢/٢٢

مقدم الامـــن
مديراءمن الاصلاح الاجتماعـــي

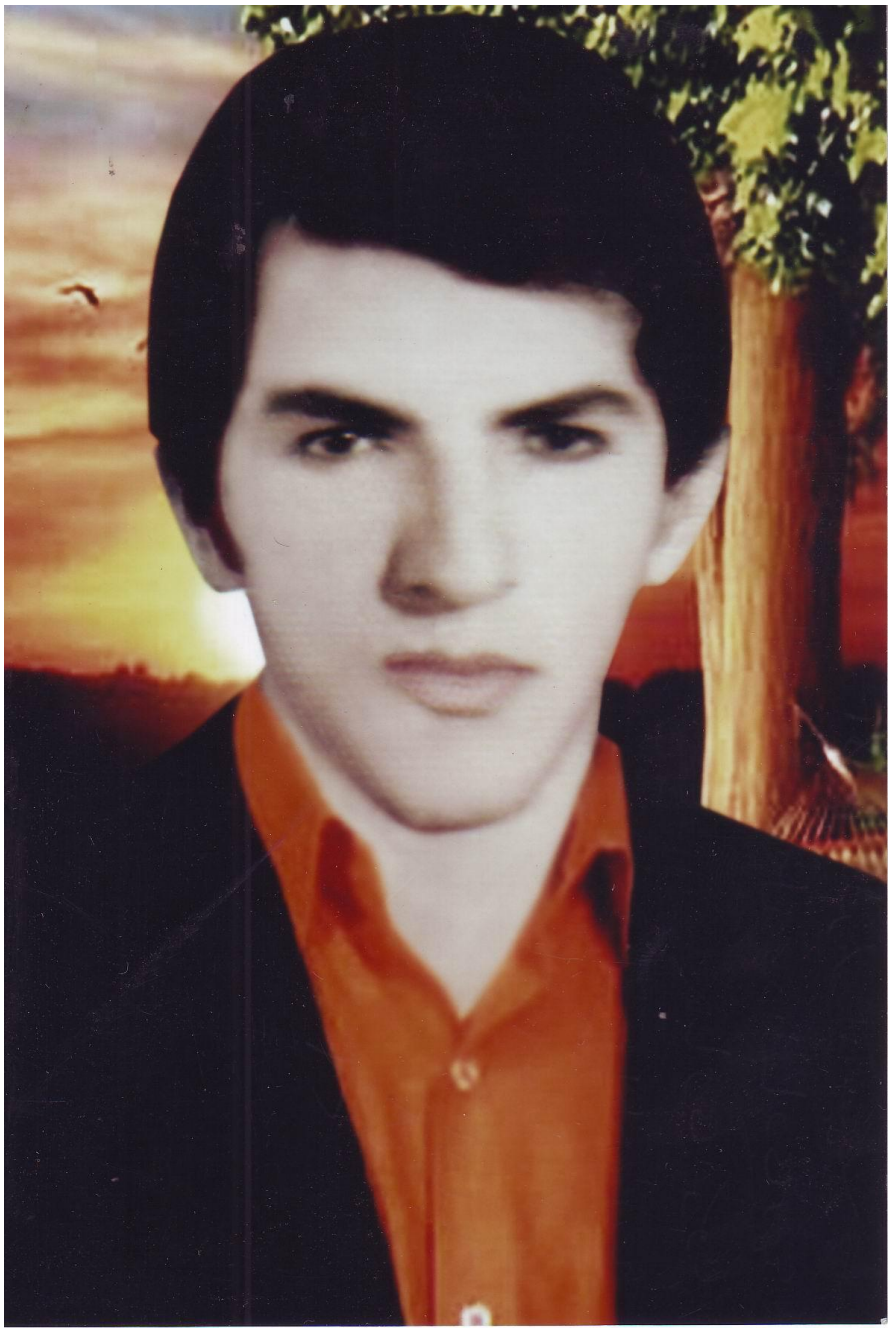

الشهيد فاضل عبدالهادي الدهناوي الموسوي (فاضل صدام سابقاً).

– الشهيد ضياء عبدالأمير –

الفصل السابع:

حكايات من الزنازين.....357

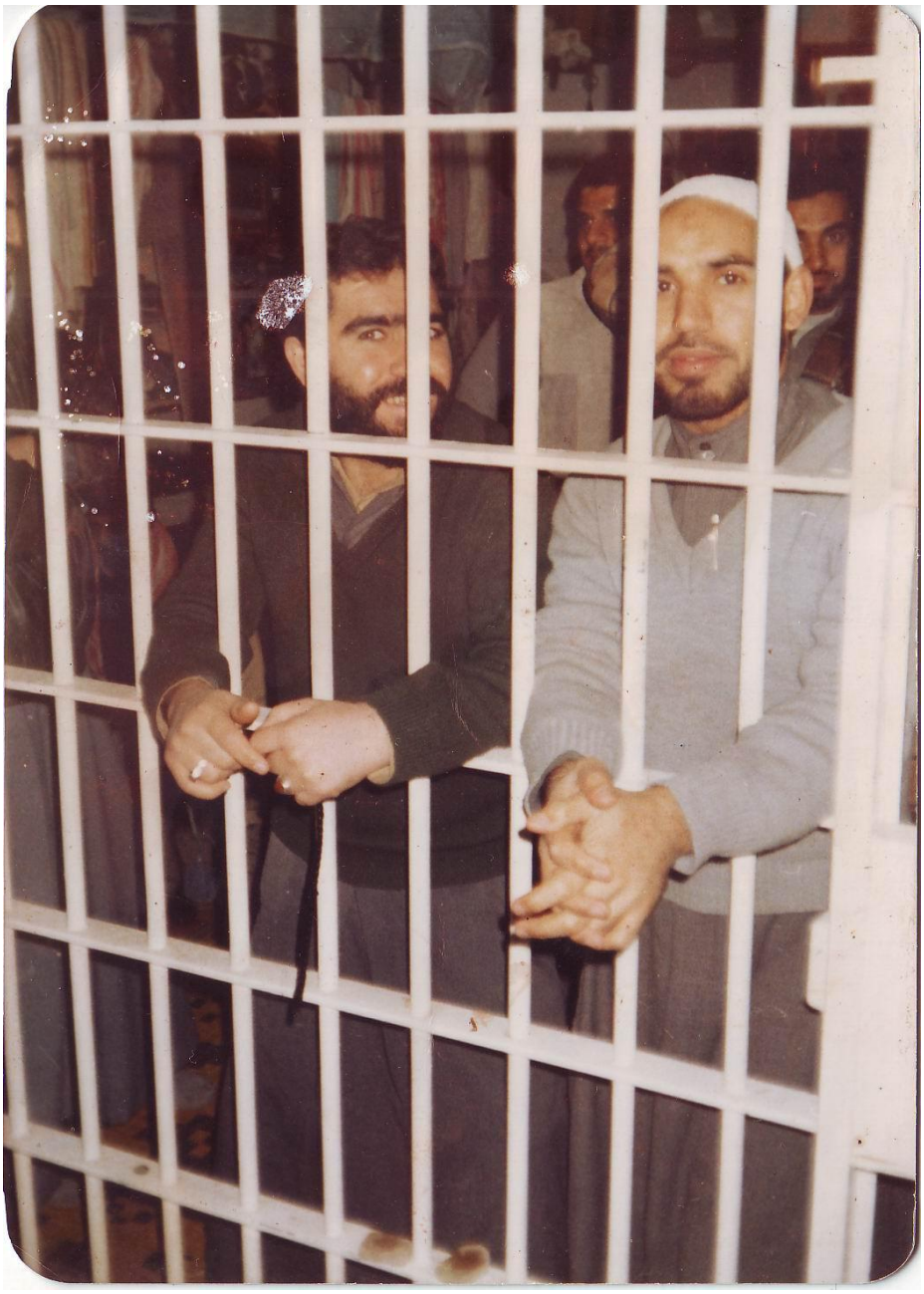

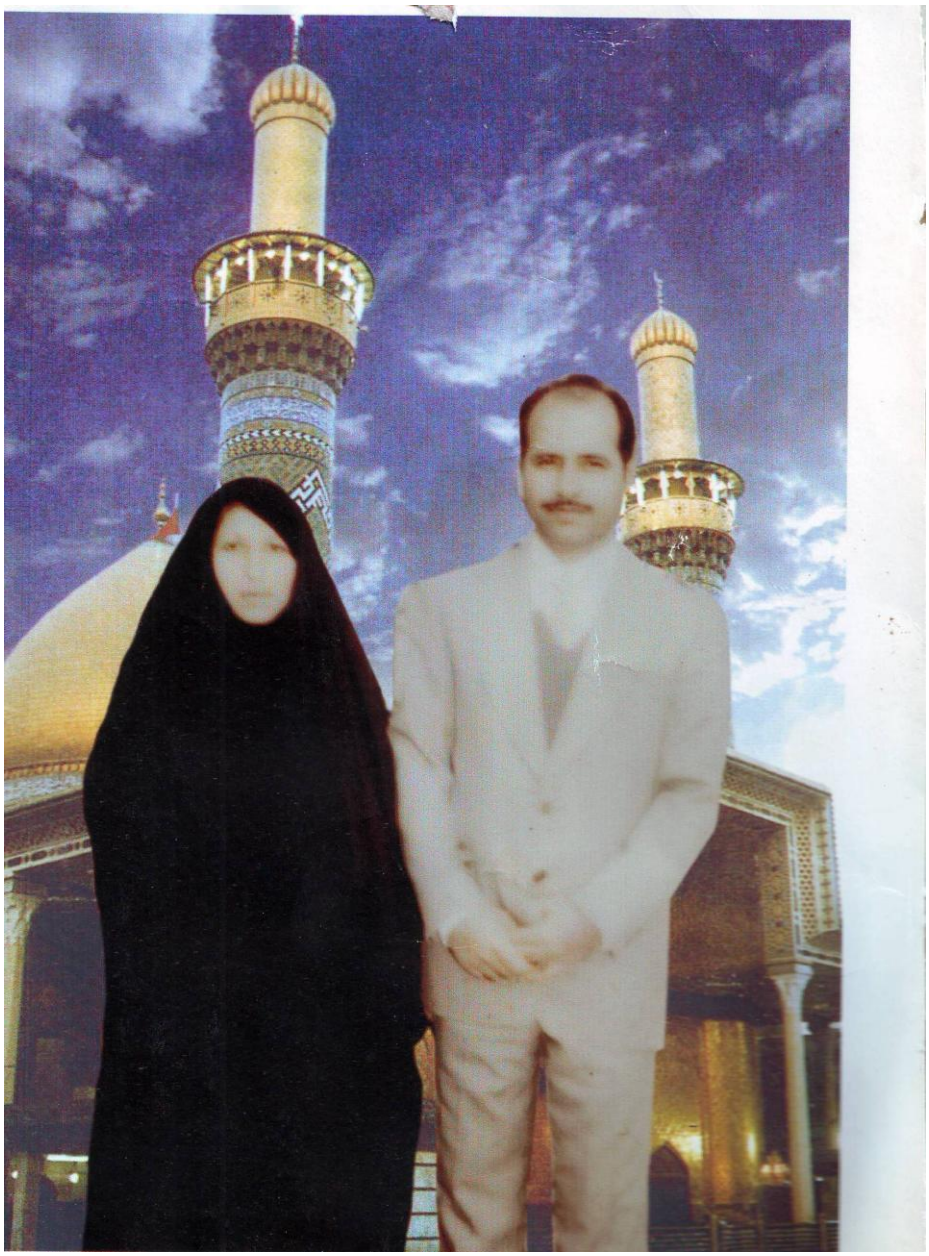

الشهيد حسين وجر راشد الساعدي(خال المؤلف) وزوجته الشهيدة زهور جاسم

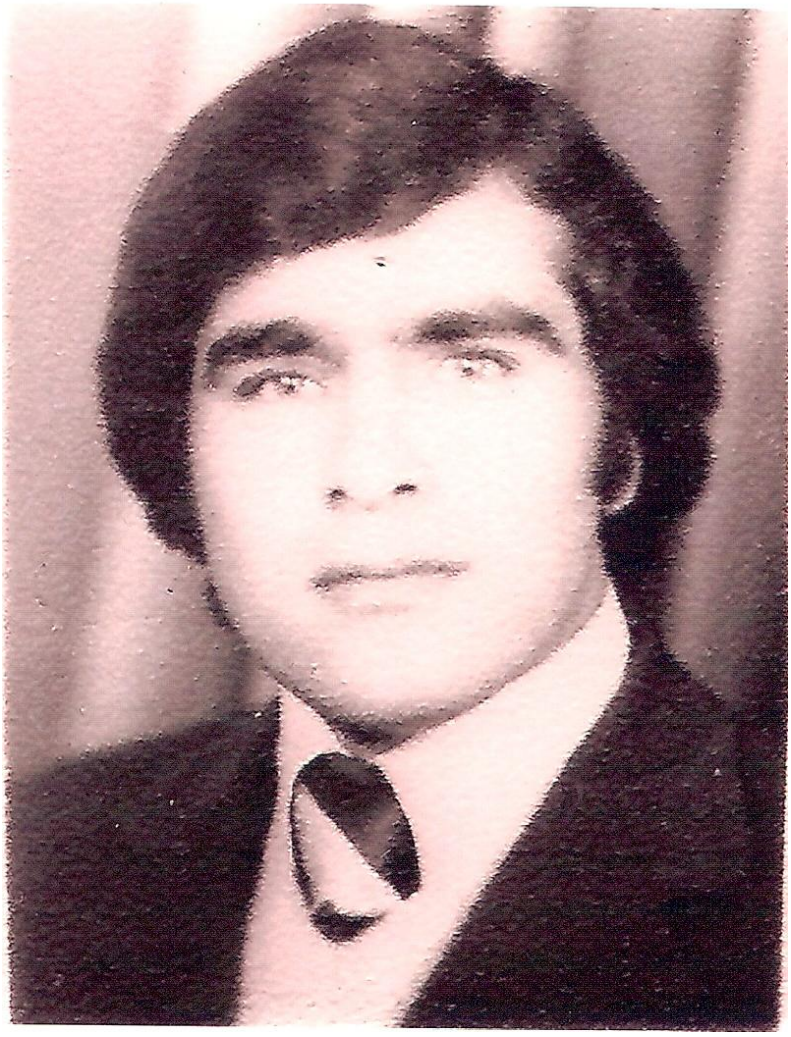

الشهيد خيون حمادي علي

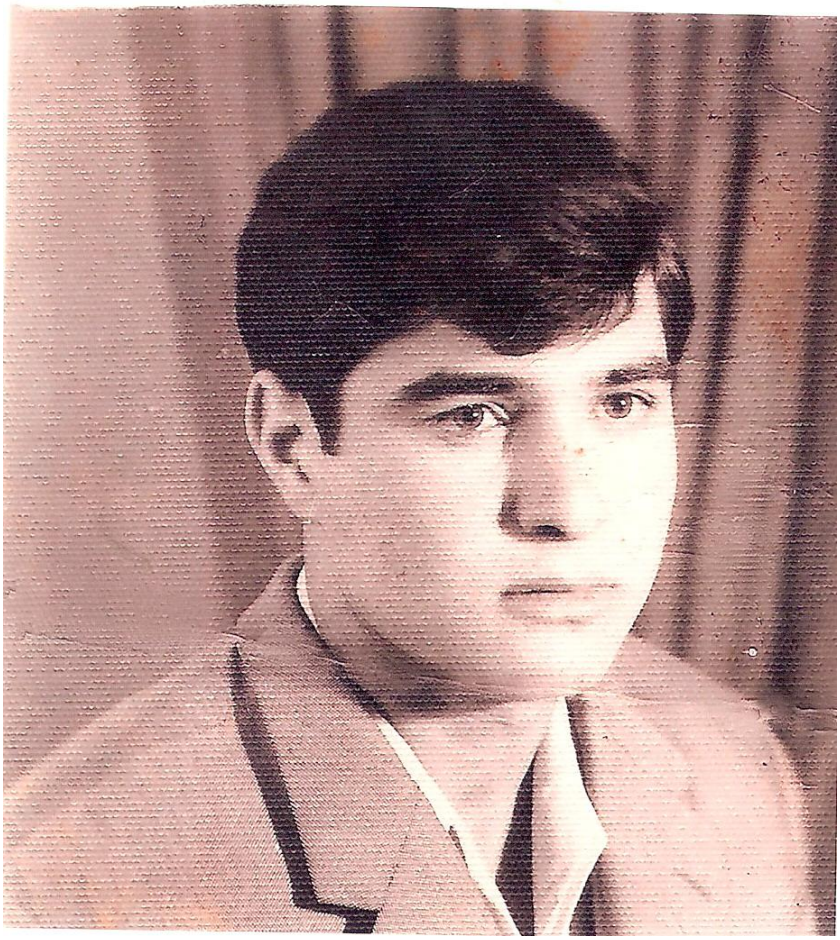

الشهيد سعد حمادي علي

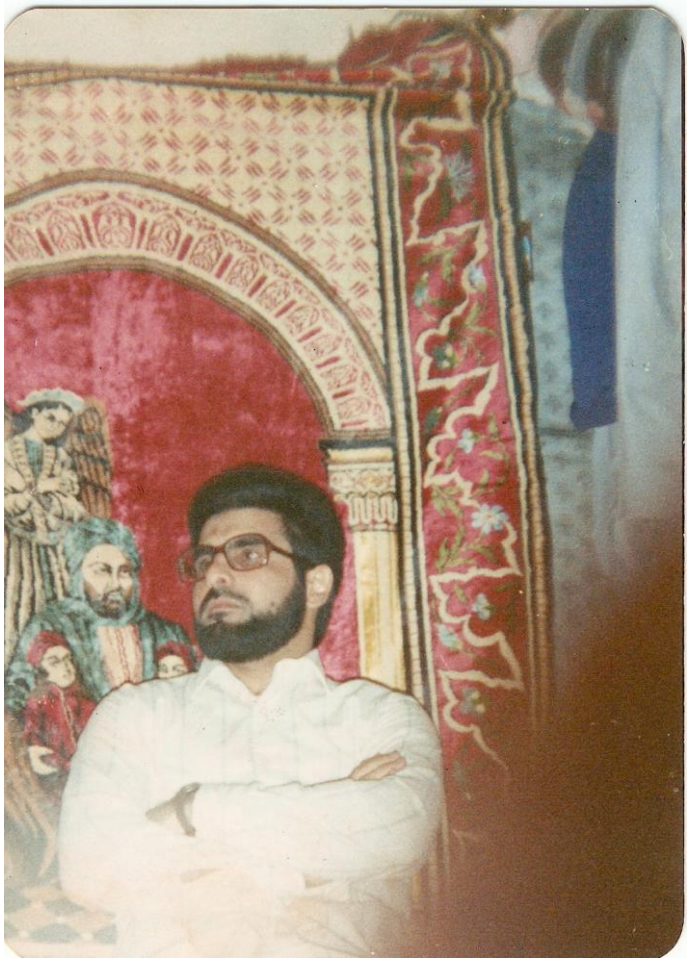

المؤلف في سجن ابو غريب الاحكام الخاصة ق3 في غرفة 2 في 6-9-1990

المؤلف مع عمار وميثم ابناء أخيه الشهيد سعد حمادي في الاحكام الخاصة– ابو غريب– خلال زيارة العوائل لأبنائهم السجناء....في 7–10–1990

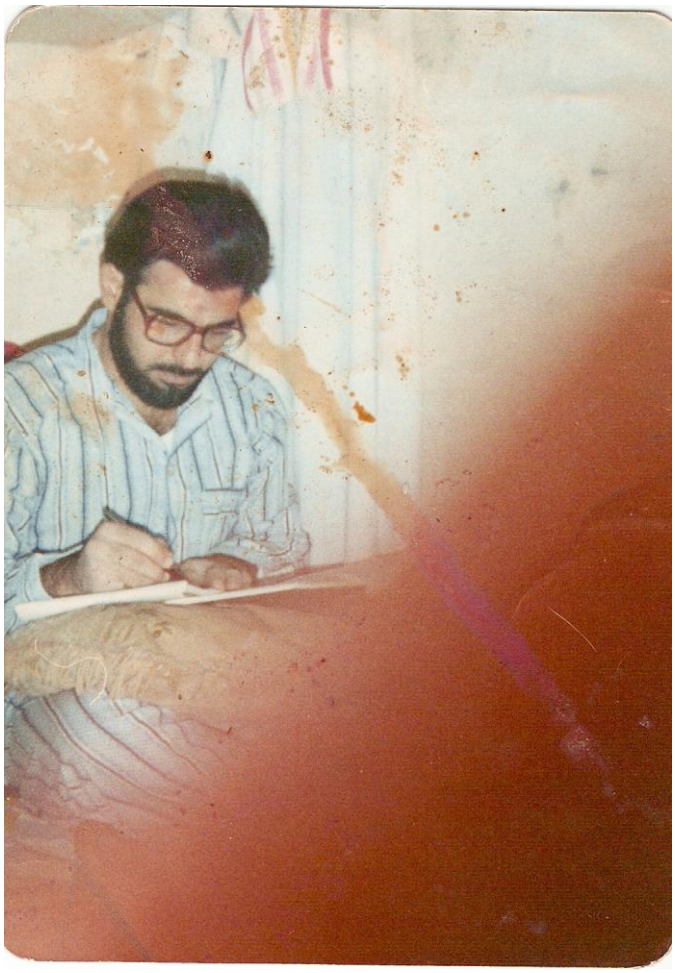

المؤلف يدون خواطره صيف عام 1990 في الاحكام الخاصة سجن ابو غريب

شهداء آل المبرقع...وشهداء آخرون.

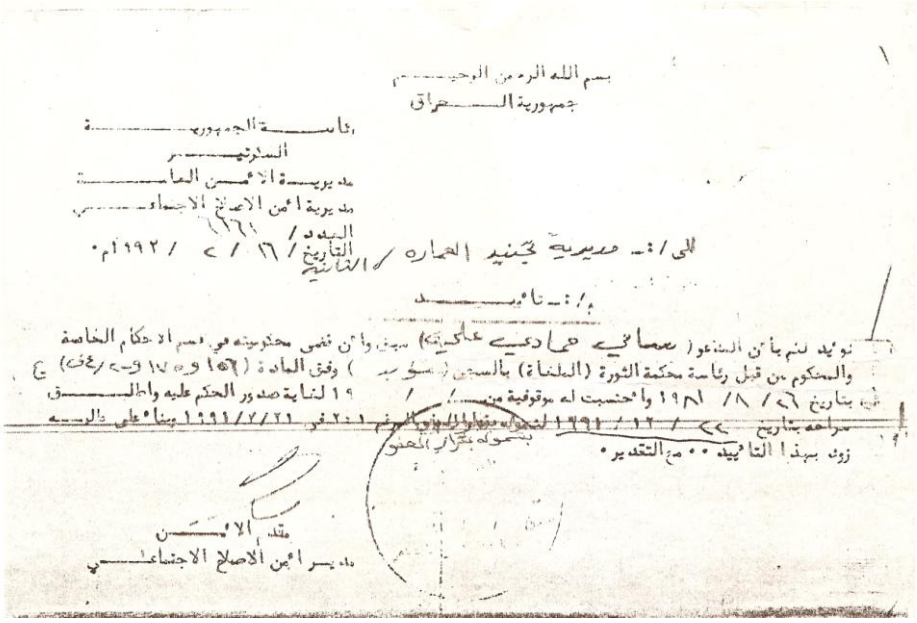

بسم الله الرحمن الرحيم
جمهورية العراق

رئاسة الجمهورية
السكرتير
مديرية الأمن العامة
مديرية أمن الاصلاح الاجتماعي
العدد / ١٦٦١
التاريخ / ١٦ / ٢ / ١٩٩٢م.

الى / :- مديرية تجنيد العمارة / الثانية

م / :- تأييد

نؤيد لكم بأن المدعو (سعدي مهدي علكم) سبق وأن نفض محكوميته في قسم الاحكام الخاصة والمحكوم من قبل رئاسة محكمة الثورة (الملغاة) بالسجن (سؤبد) وفق المادة (١٥٦ و ١٧ و ٤٢ ف ج) في بتاريخ ٢٦ / ٨ / ١٩٨١ واحتسبت له موقوفية منه / / ١٩ لغاية صدور الحكم عليه والمطلق مراجعه بتاريخ << / ١٢ / ١٩٩١ لدوائر [illegible] في ٢١/٧/١٩٩١ بناءً على الرسم بحمولة بكرار المحتوى

زوده بهذا التأييد .. مع التقدير .

مقدم الأمن
مدير أمن الاصلاح الاجتماعي

تأييد الى مديرية تجنيد العمارة – الثانية

الشهيد حسن علي كماش
رقم القرار
١/٧٨٤

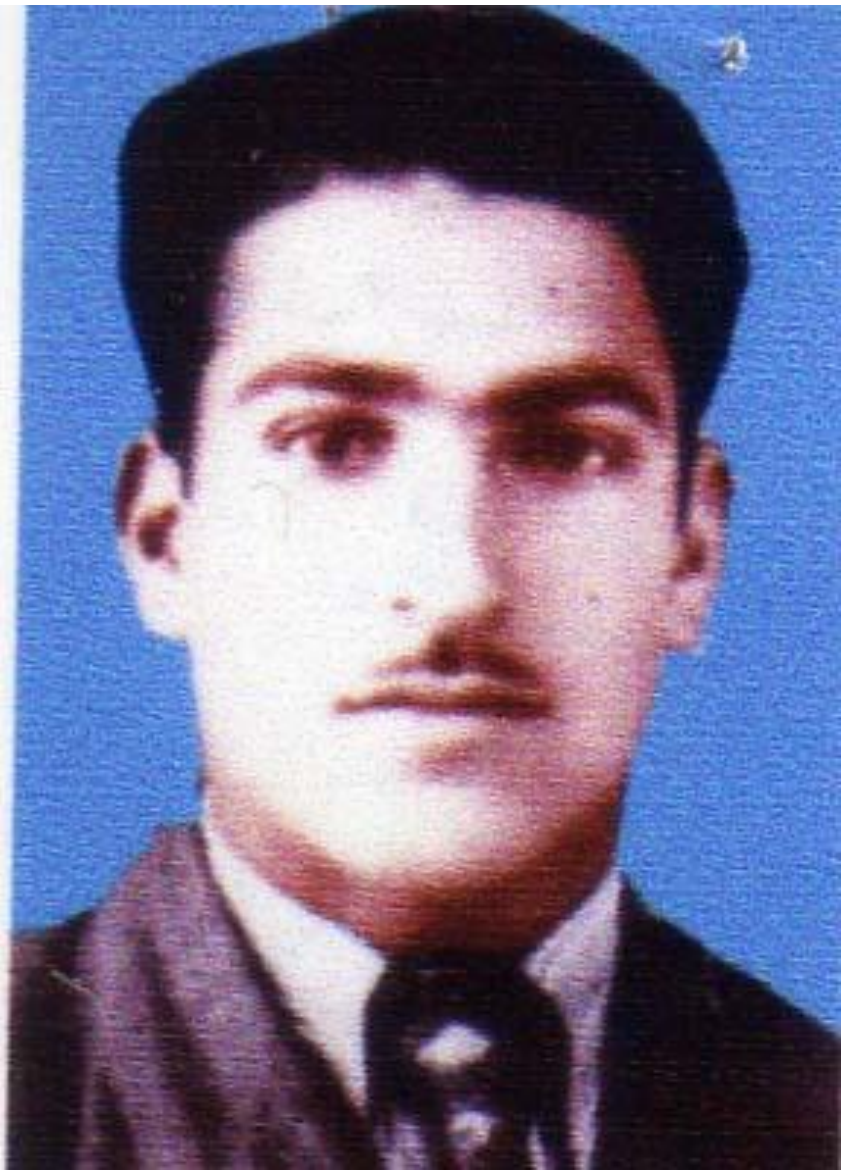

حكمت عبد العزيز

الجمهورية العراقية
وزارة الصحة
مديرية الاحصاء الحياتي والصحي

رقم الشهادة
شهادة وفاة

الجلد ط/٣
رقم ٠٩١٥٠٨

تاريخ التنظيم ٢/٨/ ١٩٨

١ ـ اسم المتوفي ولقبه : سعد حمادي علي
٢ ـ الجنس ذكر
٣ ـ الجنسية : عراقي
٤ ـ الدين أو المعتقد : مسلم
٥ ـ المهنة عسكري
٦ ـ الحالة الزوجية : أعزب ( ) متزوج (X) أرمل ( ) مطلق ( )
٧ ـ تاريخ الولادة : ١٩٥٢
٨ ـ محل الولادة : قضاء ( ) محافظة (ميسان)
٩ ـ اقامته الدائمة : محلة رقم الدار ١٩٢/٢٦٥ قرية الشماعية قضاء محافظة العمارة
١٠ـ تاريخ الوفاة (كتابة) : الساعة اليوم ٢ الشهر ٨ السنة
١١ـ محل الوفاة : المحلة او القرية الناحية القضاء المحافظة
١٢ ـ اسم والد المتوفي : حمادي علي
١٣ ـ اسم والدة المتوفي أرملة
١٤ـ اسم المبلغ عن الوفاة : مستشفى الرشيد العسكري
١٥ـ صلته بالمتوفي :
١٦ـ عنوان المبلغ الكامل :

١٧ ـ شهادة الوفاة الطبية

الفترة التقريبية بين ظهور الاعراض والوفاة

سبب الوفاة

(١) المرض او الحالة التي ادت للوفاة مباشرة
(أ) إعدام شنقاً حتى الموت
تسبب عن (او نتيجة لما يليه)
(ب) .....
تسبب عن (او نتيجة لما يليه)
(جـ) .....

الحالات المرضية (ان وجدت) والتي ادت للسبب اعلاه مع ذكر السبب الاصلي في النهاية

(٢) حالات مهمة أخرى ساهمت في الوفاة ولا صلة لها بالمرض او الحالة التي سببت الوفاة

ـ حدثت الوفاة في البيت : ( ) المستشفى ( ) مكان آخر ( )

١٩ ـ أشهد ان الوفاة قد حدثت من الاسباب المثبتة أعلاه .
اسم الطبيب .....
عنوان اشتغال الطبيب مستشفى الرشيد العسكري توقيعه : .....
ختم المؤسسة الصحية : .....

٢٠ ـ شهادة طبية عدلية (تملأ وتوقع من قبل الطبيب العدلي)

اني الموقع أدناه الدكتور .. .. الطبيب في ..... قمت بتشريح جثة المتوفي .....
والمرسلة من قبل ..... حسب الاضبارة المرقمة ..... والمؤرخة في / / ١٩٨
في الساعة بتاريخ / / ١٩ فوجدت سبب الوفاة .....

توقيع الطبيب العدلي ختم الطبابة العدلية

٢١ ـ معلومات خاصة بمديرية الاحوال المدنية (تؤخذ من هوية الاحوال المدنية او دفتر النفوس)
صحيفة الاسرة في السجل المدني : رقم السجل ..... رقم الصحيفة ..... المحافظة .....
رقم هوية الاحوال المدنية او دفتر النفوس (ترفق بالشهادة)

٢ ـ نسخة ذوي العلاقة

دار الحرية للطباعة ١٩٨٢

شهادة وفاة....أخي الشهيد سعد حمادي علي

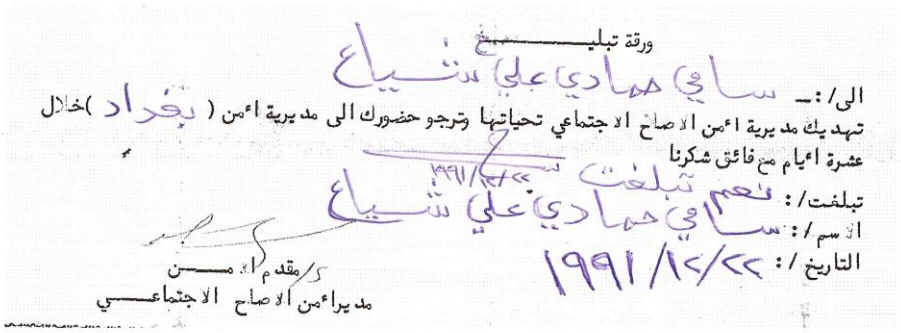

ورقة تبليـــــــــغ

الى/ :ـ سامي حمادي علي شياع

تهديك مديرية امن الاصلاح الاجتماعي تحياتها وترجو حضورك الى مديرية امن (بغداد)خلال عشرة ايام مع فائق شكرنا

تبلغت/ : نعم تبلغت ٢٢/١٢/١٩٩١

الاسم/ : سامي حمادي علي شياع

التاريخ/ : ١٩٩١/١٢/٢٢

مقدم امـــن

مديرامن الاصلاح الاجتماعـــي

ورقة تبليغ في 22-12-1991ليلة إطلاق سراحي

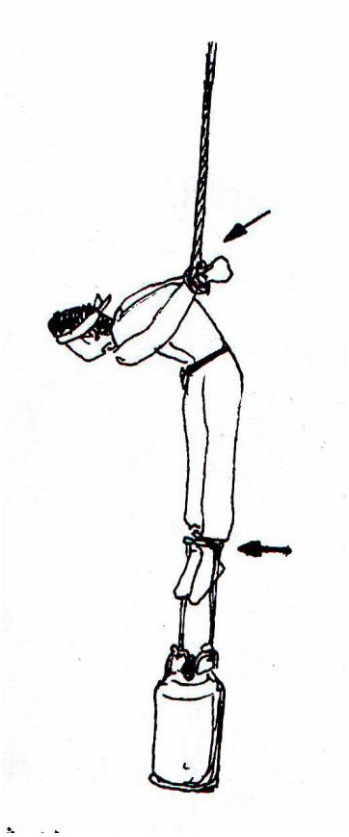

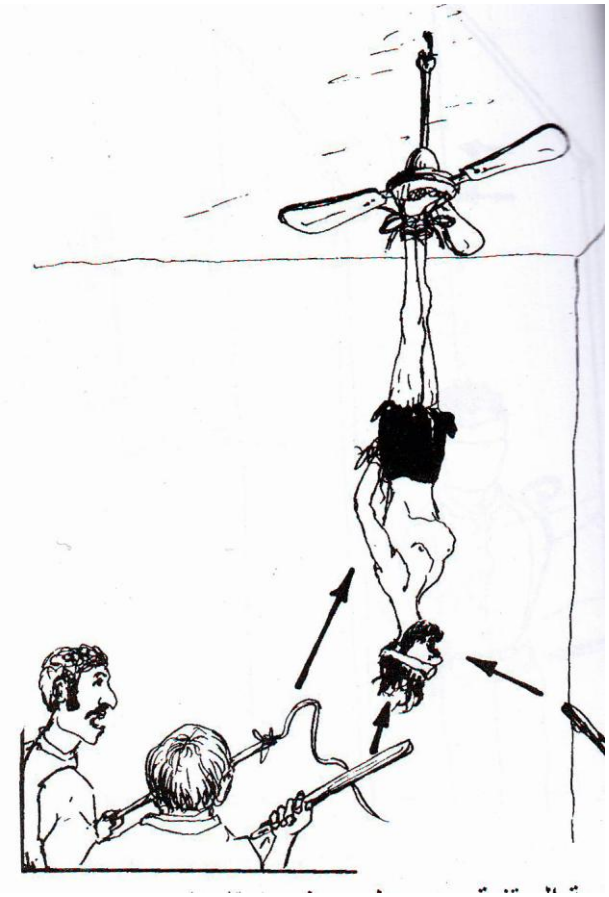

الفصل السابع:
حكايات من الزنازين.....373

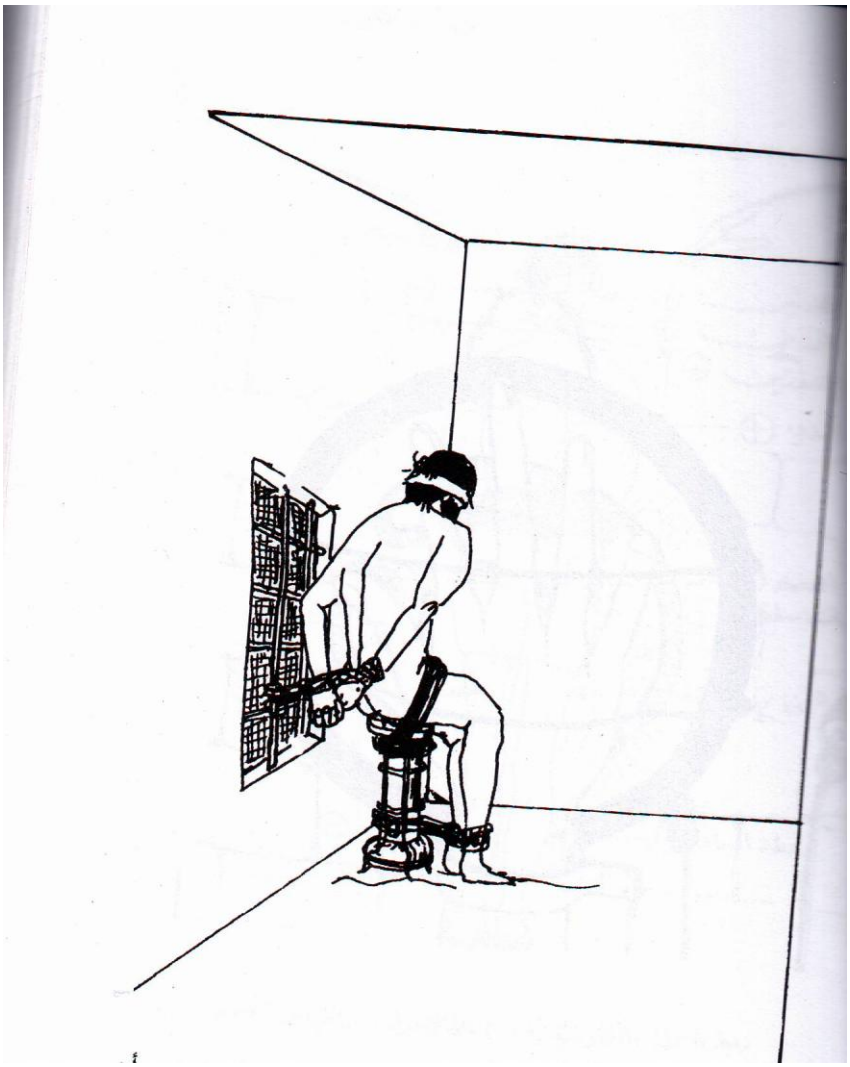

الفصل السابع:
حكايات من الزنازين.....375